

خلاصة
تاريخ الإسلام

- المجلد الثالث -

خلاصة تاريخ الإسلام

ISBN: 978-1-83590-071-0

المؤلف: محمد إلهامي



X.com/melhamy



t.me/melhamy



youtube.com/melhamy



melhamy.blogspot.com



fb.com/profile.php?id=100091925270490



goodreads.com/author/show/4479089

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

All Rights Reserved to Author

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

إسطنبول - تركيا

خلاصة تاريخ الإسلام

المجلد الثالث

- مقدمة في تاريخ الدول الإسلامية
- الدولة الأموية
- الدولة العباسية
- مدخل إلى ظاهرة الدول المستقلة
- الدول المستقلة حتى القرن الرابع
- الدولة العبيدية (الفاطمية)

محمد إلهامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى العاملين لدين الله في كل مكان..

محمد



المحتويات

المحتوى	الصفحة
إهداء.....	٥
المحتويات.....	٦
الفصل الخامس: مقدمة في تاريخ الدول الإسلامية.....	١٢
المُلْك العضوض.....	١٤
معاوية أول الملوك.....	٢٢
معاوية وتوريث الحكم.....	٢٩
التاريخ وحكم الملوك.....	٤٤
هل يتحمل معاوية مسؤولية الطغيان المعاصر؟.....	٦١
التغلب وحكم المتغلب.....	٦٤
من أين نشأ التشويش؟.....	٦٥
نماذج من قسوة العلماء المعاصرين على تاريخنا.....	٧٠
معالم في فهم مسألة التغلب.....	٧٩
صورة حضارة الإسلام في ظل الملوك والمتغلبين.....	١٠٥
القوة السياسية والفتوحات الإسلامية.....	١١١
الهيمنة الأخلاقية.....	١١٤
ازدهار العلوم.....	١٢٤
النهوض الاقتصادي.....	١٣١
أحوال الأقليات.....	١٣٦
الخلاصة.....	١٤٣
الفصل السادس: الدولة الأموية.....	١٤٨

١٥١	موجز تاريخ الدولة الأموية
١٥٦	الفتنة الثانية.....
١٦٥	العهد المرواني
١٧١	ذروة الدولة الأموية: عمر بن عبد العزيز.....
١٧٣	آخر الخلفاء الأقوياء
١٧٥	أفول الدولة الأموية
١٧٨	الإنجاز الأموي
١٨٠	حسنات بني أمية
١٨١	١. انتشار الفتوحات.....
١٨٤	٢. وحدة الدولة.....
١٨٤	٣. التعريب
١٨٦	٤. تدوين الحديث الشريف.....
١٨٧	٥. النهضة والإعمار.....
١٨٩	مظالم بني أمية وأسباب سقوطهم
١٨٩	١. العصية القبلية.....
١٩١	٢. الموالي في الدولة الأموية
١٩٤	٣. عيوب نظام ولاية العهد.....
١٩٦	٤. الثورات ضد الأمويين
١٩٩	٥. أحوال خراسان
٢٠١	الفصل السابع: الدولة العباسية - عصر القوة
٢٠٣	موجز تاريخ الدولة العباسية في عصر القوة
٢٠٣	الثورة العباسية
٢٠٧	تأسيس الدولة.....

ازدهار الدولة	٢١٢
بداية الغروب	٢١٩
حسنة الدولة العباسية	٢٢٤
١. استمرار الجهاد	٢٢٤
٢. النهوض المادي والعمراني	٢٢٦
٣. النهوض العلمي	٢٢٩
٣. استقرار الخلافة	٢٣١
الإخفاقات وأسباب السقوط	٢٣٤
١. انتهاء وحدة الدولة الإسلامية	٢٣٥
٢. بذرة حكم العسكر	٢٣٦
٣. حكم العجم	٢٣٧
الفصل الثامن: الدولة العباسية - عصر النفوذ التركي والبويهي	٢٤٣
عصر النفوذ التركي	٢٤٦
مقاتل الخلفاء	٢٤٧
صحوة الخلافة	٢٥٢
انتكاسة الخلافة من جديد	٢٥٩
غروب النفوذ التركي	٢٦٣
وقفة مع عصر النفوذ التركي	٢٦٦
عصر النفوذ البويهي	٢٧٠
أصل البويهيين ونشأتهم	٢٧٠
البويهيون في بغداد	٢٧١
ذروة البويهيين: عضد الدولة	٢٧٤
غروب البويهيين	٢٧٥

وقفه مع العصر البويهي	٢٧٩
الفصل التاسع: مدخل إلى ظاهرة الدول المستقلة	٢٨٤
معالم أولية في ظاهرة الدول المستقلة	٢٨٧
منهج تناول الدول المستقلة	٢٨٧
معنى الدولة	٢٨٩
الموازنة بين الأمويين والعباسيين	٢٩٥
خطورة التفرق وأضراره	٣٠٠
١. انبثاق الصراعات	٣٠١
٢. انفراط العقد	٣٠٤
٣. ذهاب الريح	٣٠٥
٤. البأس الشديد	٣٠٦
من حسنات الدول المستقلة	٣٠٨
١. مواصلة الجهاد والفتح	٣٠٨
٢. تولي التصدي لحركات التمرد والدول المستقلة	٣١٠
٣. التنافس في وجوه الخير والفضل	٣١٢
٤. ملجأ للمظلومين والمعارضين	٣١٥
ملاحظات عامة في ظاهرة الدول المستقلة	٣١٧
١. القائد المؤسس	٣١٧
٢. الدولة والفكرة	٣١٩
٣. الدولة إذا ذهبت لا تعود	٣٢١
٤. الدول وشرعية الخلافة	٣٢٣
٥. الدول وبركة الجهاد	٣٢٥
٦. العمق الاستراتيجي	٣٢٦

الفصل العاشر: الدول المستقلة في المغرب الإسلامي حتى القرن الرابع ٣٢٨

ملاحم الدول المغربية المستقلة ٣٣٠

١. امتزاج إسلامي فريد! ٣٣٠

٢. الظهور المبكر ٣٣١

٣. النزعة الخارجية^١ ٣٣٢

٤. إرهابات عاصمة بديلة للخلافة ٣٣٦

دولة بني مدرار ٣٤٠

الدولة الرستمية ٣٤٤

دولة الأدارسة ٣٤٩

دولة الأغالبة ٣٥٤

الدولة الطولونية ٣٥٩

الدولة الإخشيدية ٣٦٩

الفصل الحادي عشر: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي حتى القرن الرابع .. ٣٧٣

الدولة الطاهرية ٣٧٧

الدولة الزيدية (في طبرستان) ٣٨٠

الدولة الصفارية ٣٨٦

الدولة السامانية ٣٩٥

الدولة الحمدانية ٤٠٣

الفصل الثاني عشر: الدولة العبيدية (الفاطمية) ٤١٦

موجز تاريخ الدولة العبيدية ٤١٨

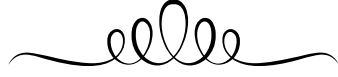
١. التنظيم السري والإعداد ٤٢٠

٢. تأسيس الدولة ٤٢٩

٣. عصر الذروة والازدهار ٤٣٥

٤٥٥	٤ . الأفول والسقوط.....
٤٦٨	حسنة الدولة العبيدية (الفاطمية)
٤٦٩	١ . الاستقرار والازدهار في مصر.....
٤٧٣	٢ . الازدهار العلمي والثقافي.....
٤٧٦	٣ . القضاء على القرامطة
٤٧٧	مساوى الدولة العبيدية (الفاطمية)
٤٧٧	١ . العقيدة الإسماعيلية الباطلة.....
٤٨٠	٢ . ضرب الوحدة الإسلامية.....
٤٨٢	٣ . خفوت شأن الجهاد وضياع البلاد.....
٤٨٩	٤ . حكم الأقلية وتمكين اليهود والنصارى
٤٩٦	وقفات مهمة في تاريخ الدولة العبيدية
٤٩٦	١ . وقفة في أسباب السقوط.....
٥٠٧	٢ . وقفة في أهمية مصر وخصائصها.....
٥١١	٣ . وقفة في استمرار التنظيم الدعوي بعد قيام الدولة
٥١٣	٤ . وقفة مع الحاكم بأمر الله
٥١٦	٥ . وقفة في تجدد شباب الدولة
٥١٧	٦ . وقفة في الشدة المستنصرية.....
٥٢٣	٧ . وقفة في وزارة أسد الدين وصلاح الدين للعبيدين.....
٥٢٥	٨ . وقفة مع النزعة القومية العلمانية في التاريخ.....





الفصل الخامس: **مقدمة في تاريخ الدول الإسلامية**



وصلنا إذن -بعد تناول السيرة والخلافة الراشدة- إلى مرحلة «الدول الإسلامية» التي هي مرحلة «المُلْك العضوض» كما سماه نبينا ﷺ، وهي المرحلة التي تمتد منذ الدولة الأموية وحتى نهاية الدولة العثمانية، وتمثل الجزء الأكبر من تاريخنا الإسلامي، فالآن نتوقف في هذا الفصل عند مقدمات ومداخل تشرح عددا من القضايا المهمة المتعلقة بمرحلة الملك العضوض، أو تاريخ «الدول الإسلامية»، وهي مداخل ومقدمات ضرورية لفهم تواريخ هذه الدول، قبل أن ندخل إلى تناولها في الفصول القادمة.



الملك العضوض

إن مرحلة الملك العضوض هي من دلائل النبوة، فلقد أخبر نبينا ﷺ بأنها المرحلة التي تلي الخلافة الراشدة التي هي على منهاج النبوة، وقد حدد ﷺ مدة الخلافة الراشدة بأنها ثلاثين سنة كما في الحديث الصحيح عن سفينة مولى النبي ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»^(١).

وقد رسم لنا النبي مراحل تاريخ الأمة في خمسة مراحل كبرى، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة»^(٢).

(١) أحمد (٢١٩٦٩)، النسائي (٨١٥٥)، الترمذي (٢٢٢٦) وحسنه، وحسنه شعيب الأرناؤوط وحسنه الألباني.

(٢) أحمد (١٨٤٣٠)، والبزار (٢٧٩٦)، وحسنه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥).

والمُلك العضوض، أي: يصيب الرعية فيه عسفٌ وظلمٌ، كأنَّهم يُعْضُونَ فيه عَضًا^(١).
وأما الملك الجبري، فهو القهر والعتو والجبر، من الجبروتية والعظُموتية والعلو، إذ يغلب
الظلمُ والفساد^(٢).

وهذا الحديث، كغيره من أحاديث الفتن، يختلف الناس في تفسيره وإيقاعه على
الأحداث، حتى إن يزيد بن النعمان بن بشير ظنَّ أن عمر بن عبد العزيز هو بداية الخلافة
التي هي على منهج النبوة^(٣)، ومعنى ذلك أنه جعل فترة خلافة معاوية وابنه يزيد من
الملك العاض، وجعل عهد عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان من الملك
الجبري^(٤)!

(١) أبو عبيد الهروي، الغريبين: غريبي القرآن والحديث، ٤/ ١٢٩١؛ ابن الجوزي، غريب الحديث، ٢/ ١٠٤؛
الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٤٤٣؛ ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ٢٥٣.
(٢) الملا القاري، مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٨/ ٣٣٧٦؛ عبد الحق الدهلوي، لمعات التنقيح شرح مشكاة
المصابيح، ٨/ ٥٧٦.
(٣) أحمد (١٨٤٣٠).

(٤) ويشير صنيع بعض العلماء إلى تأييدهم هذا الفهم، ونستطيع أن نرصد اتجاهين للعلماء في هذا الصنيع؛ الاتجاه
الأول: هم الذين ألفوا في «دلائل النبوة» كالإمام المستغفري (ت ٤٣٢هـ) والبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، وغيرهم، فقد
أوردوا هذا الحديث تحت تصنيف الإشارة إلى عمر بن عبد العزيز، فكأنهم بذلك جعلوا الحديث قاصرا على
وصف المائة الأولى فحسب في عمر الأمة الإسلامية. ويُحتمل أنهم لم يتنبهوا إلى مقتضى هذا الصنيع، إذ كانوا
يحشدون سائر النصوص التي يُرى فيها دلالة على النبوة. والاتجاه الثاني: هم الذين ضمُّوا عمر بن عبد العزيز إلى
الخلفاء الراشدين الأربعة، ومنهم ابن رجب الحنبلي إذ ساق هذا الحديث مؤيدا لرأي الشافعي بأن الخلفاء
الراشدين خمسة وخامسهم عمر بن عبد العزيز.

انظر: المستغفري، دلائل النبوة، تحقيق: أحمد بن فارس السلولي، ط ١ (دمشق: دار النوادر، ٢٠١٠م)، (٤٨)؛
البيهقي، دلائل النبوة، ط ١ (بيروت - القاهرة: دار الكتب العلمية - دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ)، ٦/ ٤٩١؛ ابن
رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، ط ٧ (بيروت: مؤسسة
الرسالة، ٢٠٠١م)، ٢/ ١٢٢.

وقد قرأه آخرون في أزمانهم على نحو آخر، ففي زمن المماليك فشا بين أهل ذلك العصر أنهم في المُلْك الجبري أو الحكم الجبري، وأن الملك العضوض انتهى بسقوط خلافة العباسيين في بغداد^(١)، وذلك أن المماليك كثر بينهم التواثب على السلطان، وكانت عدتهم القوة العسكرية، ولم يترسخ فيهم الملك مع أنهم حاولوا ذلك، ومع أن بعضهم نجح في تثبيت المُلْك في أولاده من بعده، وأشهرهم نجاحاً في ذلك السلطان سيف الدين قلاوون.

ولكن ظهر خطأ هذا الفهم للحديث حين جاءت الدولة العثمانية، وتسَنَّت كرسي الخلافة، واعترف لها المسلمون بذلك، حتى أولئك الذين كانوا خارج سلطانها في الهند أو في المغرب الأقصى، وخطب لسلاطينها وخوطبوا بلقب الخلافة في المنابر والرسائل ومصنفات الفقه كذلك^(٢).

ونحن الآن نقرأ هذا الحديث، فيكاد أن يتفق العلماء المعاصرون على أن المُلْك

(١) قال ابن كثير بعد إيراد الحديث «وهذا كله واقع»، وهو قد كان في عصر المماليك، فأنزل مرحلة الملك الجبري على المماليك. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٦/ ٢٢٠.

(٢) انظر في استعمال سلاطين الدولة العثمانية لقب الخلافة، وإقرار المسلمين لها بذلك، أمثلة في: أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، الطبعة القديمة (بدون بيانات)، ١/ ٤٤؛ أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، (إستانبول: وقف البحوث العثمانية، ٢٠٠٨ م)، ص ٢٢٨؛ محمد إيشيرلي، نظم الدولة العثمانية، ضمن: أكمل الدين إحسان أوغلو (إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة: صالح سعداوي، (إستانبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ١٩٩٩)، ١/ ١٤٩؛ ابن أبي السرور البكري (ت بعد ١٠٧١ هـ)، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية، تحقيق: د. ليلي الصباغ، ط ١ (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٥ م)، ص ١٣٤، ١٩٥، ٣٤٣ وغيرها؛ المحبي (ت ١١١١ هـ)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١/ ١٢، ٣/ ٢٣، ٤٤، ١٠٨/ ٣ وغيرها؛ المرادي (ت ١٢٠٥ هـ)، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط ٣ (دمشق: دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، ١٩٨٨ م)، ١/ ٣٢، ٥٠، ٥١، ١٣٥ وغيرها.

العضوض هو الذي يمتد من بداية الدولة الأموية مع عهد معاوية رضي الله عنه، وحتى نهاية الدولة العثمانية وسقوط الخلافة، وأن الحُكم -أو المُلك- الجبري هو الذي تعانیه الأمة بعد سقوط الخلافة، ولهذا يستبشر المعاصرون بأن المرحلة القادمة هي مرحلة الخلافة على منهاج النبوة. ولا أعرف في المعاصرين من يتمسك بأن الحديث مقصورٌ على المائة الأولى وأن الخلافة الراشدة فيه إنما هي عن عمر بن عبد العزيز، بل منهم من ردَّ هذا الفهم صراحة^(١).

ويُساعد على صحة هذا الفهم، ما جاء في كثير من الروايات الأخرى، من أوصاف إضافية لفترة الملك العضوض والحُكم الجبري، والروايات وإن كانت لا تخلو من ضعف على جهة الرواية، إلا أن انطباق وصفها على أوضاع هذه الأحقاب يحمل على تصديقها، فمن ذلك مثلاً:

١. حديث أبي عبيدة بن الجراح أنه رضي الله عنه قال: «إن الله عز وجل بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائنا خلافة ورحمة، وكائنا ملكاً عضوضاً، وكائنا عنوة وجبرية وفساداً في الأرض، يستحلون الفروج والخمور والحرير»^(٢).

ففي هذا الحديث المراحل الأربعة متطابقة مع حديث حذيفة، وزاد في التفصيل على ذلك أن مرحلة المُلك العضوض خير من مرحلة الحكم الجبري الذي وصفه النبي بـ

(١) يقول الألباني في السلسلة الصحيحة (تحت الحديث رقم: ٥)، «من البعيد عندي حمل الحديث على عمر بن عبد العزيز، لأن خلافته كانت قريبة العهد بالخلافة الراشدة ولم تكن بعد ملكين: ملك عاض وملك جبرية».

(٢) الطيالسي، (٢٢٥)؛ البيهقي، السنن، (١٧٠٧٣)؛ أبو يعلى، المسند، (٨٧٣)؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، (٨٩٦١)؛ وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٠٥٥) وعلته عند الألباني اختلاط أحد روايته، وبقيّة رجاله ثقات، وأقرّ أن متن الحديث -دون زيادة منكّرة لم نوردّها في المتن- صحيح، لشواهد صحيحة، وهذه الشواهد الصحيحة هي حديث الباب، وحديث البخاري «يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»، وكذلك ضعف الشيخ حسين سليم أسد الحديث في تحقيقه لمسند أبي يعلى.

«العنوة والجبرية والفساد في الأرض»، كما يزداد فيه الابتعاد عن الشريعة أو تركها، حتى يصير الزنا والخمر والحرير حلالاً، إما بالاستحلال: أي أن تكون مباحة ومُقَنَّنة (وهذا هو نبذ الشريعة والانخلاع منها)، أو أن يكون الاستحلال كناية عن كثرة الممارسة (وهذا هو الاستخفاف بالشريعة والاستهانة بأحكامها)، وهذا الوصف يدل في نفسه على أن مرحلة الملك العضوض لم تكن على هذه الصفة، كما يدل على أن أسوأ المراحل التي يمر بها تاريخ الأمة هو مرحلة الجبرية.

وهذا الأمر سيزيد تفصيلاً في الحديث التالي، وهو:

٢. حديث ابن عباس أنه رضي الله عنه قال: «أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يكون إمارة ورحمة، ثم يتكادمون^(١) عليه تكادم الحُمُر، فعليكم بالجهاد». وفي رواية: «ثم جبروتا صلعاء^(٢) يتكادمون عليها تكادم الحمير». وفي رواية: «ثم جبروت صلعاء، ليس لأحد فيها متعلق، تضرب فيها الرقاب، وتقطع فيها الأيدي والأرجل، وتؤخذ فيها الأموال»^(٣).

ويُروى هذا الحديث موقوفاً على عمر كما عند أبي نعيم والحاكم، ولكن وقفه أو رفعه لا يؤثر هنا، فإن الحديث من علم الغيب الذي لا يرويه الصحابي إلا على جهة سماعه من النبي ﷺ، فليس هو من باب الرأي.

(١) يتكادمون تكادم الحمير: كدم الحمار كلما أي عَضَّ بأدنى فمه، والحديث يُصَوِّرُ حال جذب ومجاعة حتى تبحث الحمير في الأرض عن أصل النبات فتعضُّ عليه بأدنى أفواهها، فكأن قبض أولئك الحكام على الحكم كقبض الحمير بملاء أفواهها على أصل النبات بأشد ما تملك، في حال الجذب والفقر والشدة.

(٢) صلعاء: أي ظاهرة بارزة.

(٣) الطبراني، المعجم الكبير، (١١٣٨) وهذا لفظه؛ نعيم بن حماد، الفتن، (٢٣٦)؛ الحاكم (٨٤٥٩)، وسكت عنه الذهبي؛ والهيثمي، مجمع الزوائد، (٨٩٦٥)، وقال: رجاله ثقات؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٧١).

وفي هذا الحديث نرى أن مرحلة الملك العضوض وُصِفَت بالرحمة، بينما وُصِفَت مرحلة الملك الجبري -أو: الحكم الجبري- بتشبيه فظيع، وهو الجبروت الواضح الظاهر الذي تُضرب فيه الرقاب وتُقَطَّع فيه الأيدي والأرجل، وتؤخذ فيه الأموال؛ أي أنه عصر قتل وترويع وإذلال.

٣. حديث جابر الصديقي عن أبيه عن جده أنه عليه السلام قال: «سيكون بعدي خلفاء، ومن بعد الخلفاء أمراء، ومن بعد الأمراء ملوك، ومن بعد الملوك جبابرة، ثم يخرج رجل من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً»^(١).

وهذا الحديث يسرد ذات الترتيب، مع تفصيل زائد في مرحلة الأمراء والملوك، فكأنه عليه السلام يشير بها إلى عصر الفتنة، حيث استقل بعض الأمراء بما تحت أيديهم، كما فعل معاوية بالشام ثم بمصر، وكما فعل مروان بن الحكم بالشام أيام عبد الله بن الزبير، ثم اجتمع الأمر مرة أخرى للملوك. ومن بعد الملوك الجبابرة، الذين هم أصحاب الملوك الجبري، ثم يأتي بعدهم المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً، فتكون خلافته هي الخلافة الأخرى التي هي على منهاج النبوة.

وهذه الأحاديث الأربعة هي وصفٌ عجيب ودقيق لأحوال عصرنا، عصر الجبرية، والفارق بينه وبين عصر الملك العضوض، الذي كان عصر رحمة وإن شابه فساد وانحراف عن الخلافة الراشدة!

وتتشابه هذه الأحاديث مع أحاديث أخرى صحيحة، لكن لم يرد فيها وصف الملوك العضوض أو الحكم الجبري، من أهمها: حديث حذيفة بن اليمان، يقول:

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد، (٨٩٦٥)، وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم؛ وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٧٢٢). وهذا الحديث ضعفه شديد، إذ فيه عدد من المجاهيل.

«كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

فهنا يظهر التناظر واضحاً بين هذا الحديث، وبين حديث الخلافة والملك العضوض والجبرية:

- فالخير الأول هو النبوة والخلافة الراشدة
- والشر الأول هو عصر الفتنة بين الصحابة
- ثم يأتي الملك العضوض وهو الخير الذي فيه دَخْن، حيث لم يلزم الملوك سنة النبي ﷺ بحذافيرها، لكنهم ظلوا قائمين بالحق في أبواب أخرى، ولذا وُصفوا بهذا الوصف «يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر»

- ثم يأتي بعدهم الشر الكبير، وهو المُلْك الجبري أو الحُكْم الجبري حيث وُصفوا في هذا الحديث بأنهم «دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»، وهم أيضاً: «من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا». وهذا الوصف الأخير لا يُعرف أنه تحقق في تاريخ المسلمين

(١) البخاري (٣٤١١)؛ مسلم (١٨٤٧).

إلا في هذا العصر منذ ضعف الخلافة العثمانية وسقوطها.

والخلاصة التي نستفيدها من هذه الأحاديث:

١. أنها دليلٌ جديد من دلائل النبوة، فقائلها لا يمكن إلا أن يكون رسولا يوحى إليه، فمثل هذا لا يتأتى بالعبقريّة ولا بالذكاء، بل لا بد له من علم الغيب.

٢. أن الخلافة الراشدة هي المرحلة المثلى في تطبيق الإسلام، وأنها على منهاج النبوة

٣. أن الملك العضوض وقع فيه نقص وترك لبعض الدين، وشابته مظالم وانحرافات، ولكنه لا يزال في الجملة مُلْكًا فيه دين ورحمة.

٤. أن مرحلة المُلْك الجبري أو الحكم الجبري هي التي يحصل فيها الخروج عن الدين والانخلاع منه، فيكون عصر ترويع وإذلال واستحلال للمحرمات وفرقة شديدة، حتى إن زعماءهم دعاة على أبواب جهنم.

٥. أنه يتلو هذه المرحلة عودة أخرى للخلافة على منهاج النبوة.

والخلاصة التي تُستفاد من الشرع ومن التاريخ في الفارق بين هذه المراحل هي كالآتي:

▪ الخلافة الراشدة هي التي تحقق فيها الرُّكنان الكبيران: تحكيم الشريعة، واختيار الأمة للأمير.

▪ والملك العضوض هو الذي تحقق فيه ركنٌ وتخلّف ركنٌ؛ فقد بقي حكم الشريعة، ولم تعد الأمر تختار أميرها.

▪ وأما المُلْك الجبري فهو الذي انهدّ فيه الركنان؛ فلا بقي حكم الشريعة، ولا اختارت الأمة أميرها.

وسياتي معنا أن معظم التاريخ الإسلامي، الذي هو زمن الملك العضوض، شهد مراحل قوة هذه الأمة وتفوقها السياسي والحضاري، وازدهارها العلمي والأدبي. بينما

جاءت مرحلة الحكم الجبري بالذل والاستضعاف والتأخر في سائر وجوه الحياة.

وقد يُطرح سؤال يقول: هل يجوز تسمية أولئك الملوك بالخلفاء؟ أم أن في ذلك رفعا لشأنهم وإدراجا لهم في مرتبة الخلفاء الراشدين الذين كان عصرهم خلافة على منهاج النبوة؟

والجواب أن تسميتهم خلفاء هو الأمر الذي جرى عليه العلماء طوال هذه العصور، فقد كانوا ينادونهم ويكاتبونهم بالخلافة، سواءً في ذلك ملوك بني أمية وبني العباس وبني عثمان الأتراك، ولا بن تيمية استدلال لطيف بحديث النبي ﷺ «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون»^(١)، وذلك أن قول النبي «فيكثرون» هو «دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيرا»^(٢).

وحمله بعض العلماء على أن هذه التسمية بالخلفاء تقتصر على الصالحين منهم، كما قال المناوي: «اسم الخلافة إنما هو لمن صدق عليه هذا الاسم بعمله للسنة، والمخالفون ملوك لا خلفاء، وإنما تسموا بالخلفاء لخلفهم الماضي»^(٣)، فهو هنا يحمل جواز تسميتهم بالخلفاء على المعنى اللغوي.

معاوية أول الملوك

بدأت مرحلة الملك العضوض من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وبغض النظر

(١) البخاري (٣٢٦٨)، مسلم (١٨٤٢).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٠/٣٥.

(٣) العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ١٢/٢٦٠؛ المباركفوري، تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي،

٣٩٦/٦.

الآن عما إن كان الحسن خامس الخلفاء الراشدين أم لا، فإن الاتفاق واقعٌ على أن معاوية هو أول الملوك. ولم يقع لي أن أحداً من العلماء الذين قرروا أن الراشدين هم أربعة قد عدَّ الحسن بن علي أول الملوك، فإن الذين عدُّوهم أربعة لم يحسبوا خلافة الحسن أصلاً لقصرها وقلة أحداثها وقلة ما أثر عنه من سياسة أو فتوى، والذين عدُّوهم خمسة، جعلوا الحسن في الراشدين^(١). وبهذا يتحقق اتفاق العلماء على أن معاوية كان أول ملوك الإسلام، وفاتحة مرحلة المُلْك العضوض^(٢).

ومعاوية من فضلاء الصحابة، رُوي أنه أسلم في عمرة القضاء سرّاً، ثم جهر بإسلامه مع أبيه وأخيه في زمن الفتح، فتح مكة، وقاتل مع النبي ﷺ في غزوة حنين، وأعطاه النبي من غنائمها^(٣)، فهو من المشمولين بقول الله تعالى (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) [التوبة: ٢٦]، وروى عن النبي ﷺ أكثر من ستين حديثاً بعضها في الصحيحين، وكان كاتباً له، فقال بعضهم إنه كان يكتب الوحي وبعضهم قال كان يكتب لرسول الله ﷺ إلى القبائل ونحوها، وسواءً كان هذا أو ذاك فالمعنى أن النبي ﷺ كان يأتئمه، فهو عنده

(١) ممن نصَّ على أن الراشدين خمسة وأدخل فيهم الحسن بن علي: ابن العربي في أحكام القرآن، والقاضي عياض كما نقله عنه النووي في شرح مسلم، وابن كثير في البداية والنهاية، وابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية، والمقرئ في السلوك، والبدر العيني في نخب الأفكار، وابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة. وممن نصَّ على أنهم أربعة: الإمام أحمد كما نُقل عنه في مسائله رواية أبي داود، وابن عبد البر في التمهيد، والبغوي في شرح السنة، والعمراني في الانتصار، وابن قدامة في لمعة الاعتقاد، والآمدي في أصول الأحكام، وابن دقيق العيد في شرح الأربعين.

(٢) لم يشذ عن هذا الرأي، فيما أعلم، إلا ابن خلدون، فإنه يُصعِّف حديث «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»، وقال: «كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحب»، ومع ذلك فقد أقرَّ بأن التمييز بين الخلفاء الراشدين وبين معاوية كان على قاعدة الاختيار في الخلفاء الراشدين، ووجود الغلبة في خلافة معاوية. انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٦٥٠/٢.

(٣) إبراهيم قريبي، مرويَّات غزوة حنين وحصار الطائف، ط ١ (المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ١٤١٢هـ)، ٤٠٦/١، ٤١٠.

أمين.

وقد دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم اجعله هاديا مهديا واهدا به»^(١)، وقال: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب»^(٢).

وروى ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ فتواريت خلف باب، قال: فجاء فخطأني خطأ وقال: اذهب فادع لي معاوية. قال: فجئت فقلت: هو يأكل. ثم قال: اذهب فادع لي معاوية. قال: فجئت فقلت: هو يأكل. فقال: «لا أشبع الله بطنه»^(٣). وقد فهم العلماء من هذا الحديث أنه دعاء لمعاوية، لا عليه، وقرنوا بينه وبين قوله ﷺ: «إني اشتريت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أَرْضَى كما يَرْضَى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأیما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة أن يجعلها له طهورا وزكاة وقربة يقربه بها يوم القيامة»^(٤).

ولذلك أورد مسلمٌ حديث «لا أشبع الله بطنه» في باب «من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة»، وأورد فيه أحاديث كثيرة بهذا المعنى. وعلق الإمام النووي على هذا بقوله «فهم مسلمٌ رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقاً للدعاء عليه، فلهذا أدخله في هذا الباب، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة دعاء له»^(٥).

(١) أحمد (١٧٩٢٦)؛ الترمذي (٣٨٤٢) وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٦٩).

(٢) أحمد (١٧١٩٢)؛ أحمد، فضائل الصحابة، (١٧٤٨، ١٧٤٩)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢٧)، وقال الشيخ وصي الله عباس -محقق فضائل الصحابة- أن إسنادي الحديثين يقويان بعضهما.

(٣) مسلم (٢٦٠٤).

(٤) مسلم (٢٦٠٣).

(٥) النووي، شرح صحيح مسلم، ١٥٦/١٦، وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤/١٣٠.

وذكر الألباني أن في بعض روايات الحديث «وكان كاتبه»، أي أن النبي أراد من ابن عباس أن يدعو له معاوية لكي يكتب له، ولهذا قال: «قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعناً في معاوية رضي الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبي ﷺ؟!»^(١).

وذهب بعض العلماء إلى أن كلمة النبي «لا أشبع الله بطنه» ليست دعاءً أصلاً، وإنما هي «كلمة جرت على عادة العرب، نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه»^(٢).

وقد استعمله الخلفاء الراشدون في الولايات المهمة، فقد ولّاه عمر بن الخطاب ولاية الشام، وهي ولاية حرب، إذ الشام ثغر المسلمين في مواجهة الروم، فأظهر معاوية من كفاءة الحرب والسلم ما نال به رضا الخليفة عمر، وهو من هو في الشدة على ولاته والرقابة عليهم، ورضا أهل الشام الذين أحبوه وانصاعوا له حتى صاروا عصيته القوية المخلصة، وحفظ به ثغر الشام من الجواسيس ونحوهم، وقاد به الفتوح في جهة الروم. وقد أقرّه عثمان على ولاية الشام طوال خلافته، فواصل تدبير أمرها في السلم، وواصل الجهاد والفتح وغزا البحر وفتح قبرص، فكان صاحب أول جيش يغزون البحر، وفيهم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»^(٣)، أي أوجبوا الجنة لأنفسهم بجهادهم^(٤).

ولو لم يكن معاوية أهلاً للخلافة ومأموناً عليها، ما تنازل له الحسن بن علي بن أبي

(١) الألباني، السلسلة الصحيحة، (٨٢).

(٢) عبد العزيز الملتاني، الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، تحقيق: أحمد التويجري، ط ١ (الكويت: غراس للنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ)، ص ٦٩.

(٣) البخاري (٢٧٦٦).

(٤) ابن الملقن، التوضيح، ١٧/ ٦٦١؛ ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ١٠٣.

طالب عن الخلافة في عام الجماعة (٤١ هـ)، ولقد كان هذا التنازل من الحسن أمراً مدحه النبي ﷺ في حديثه المشهور «إن ابني هذا سيد، وإن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١).

وقد أثنى أعلام الصحابة على معاوية، فذكروا فضله وفقهه وحلمه وسياسته وذكاءه وحسن تدبيره لشأن المسلمين؛ فقد قال عنه حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس «إنه فقيه»^(٢)، وقال عنه أيضاً: «ما رأيت رجلاً كان أخْلَقَ للمُلك من معاوية»^(٣).

وقال فيه عبد الله بن عمر: «ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله كان أسودَ من معاوية. فقليل له: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي؟ فقال: كانوا والله خيراً من معاوية وأفضل، ومعاوية أسود»^(٤).

وقال فيه أبو الدرداء: «ما رأيت أشبه صلاة برسول الله من معاوية»^(٥)، وقال سعد بن أبي وقاص: «ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من معاوية»^(٦)، وقال قبيصة بن جابر: «ما رأيت أحداً أعظم حلماً ولا أكثر سؤدداً ولا أبعد أناة ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية»^(٧).

لكل ما سبق وغيره، مما يثبت فضل معاوية، كان العلماء أهل حساسية لمن يتناول معاوية بالسوء، ذلك أن تناوله بالسوء هو اقتحام لباب الصحابة وتنقيصُ منهم، فإنه لا

(١) البخاري (٣٥٣٦).

(٢) البخاري (٣٥٥٤).

(٣) الخلال، السنة، تحقيق: عطية الزهراني، ط ١ (الرياض: دار الراية، ١٩٨٩ م)، (٦٧٧).

(٤) الخلال، السنة، (٦٧٨)، (٦٧٩)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٥٢، ١٥٣.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٣٥، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٨/ ١٤٢.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ٨/ ١٤٤.

يخلو أحد من المسلمين من الوقوع في الخطأ، فإذا وُضِعَ خطؤه تحت المجهر، ونُسي في مقابل ذلك فضله الثابت بالقرآن والسنة، فلن تبقى لصحابي حرمة. ومن هنا كثرت أقوال السلف الصالح في التحذير ممن يطعنون في معاوية؛ يقول عبد الله بن المبارك: «معاوية عندنا مِحنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً اتهمناه على الصحابة!»^(١).

ولا نقصد من إيرادنا الآن لفضائل معاوية رضي الله عنه أن ندافع عنه، فهذه «الخلاصة» لا نكتبها لمن يتشكك في عدالة الصحابة وفضائلهم، وإنما نكتب الآن لمحاولة فهم تاريخنا وكيف تطورت مراحلها، ونحن الآن نقف عند عتبة التحول من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض، ومن الضروري فهم هذه البداية وعلى يد من كانت، لكي يحسن تصورنا لطبائع التاريخ وسننه وأحداثه.

ولهذا يجب أن نستحضر دائماً أن هذا التحول جرى على يد صحابي جليل، غير مُتَّهَمٍ في إيمانه، وأنه كان أعَدَلُ ملوك الإسلام، وكان يُضرب به المثل في الحِلْم والصفح والعفو، وفي الذكاء وحسن السياسة والتدبير، وله يدٌ بيضاء عظيمة في الجهاد والفتوح، والمظنون بمثله - رضي الله عنه - أنه أراد الخير. ويبقى الاتفاق قائماً على أن ملكه دون الخلافة الراشدة، وأنه أول المُلْك العضوض الذي فيه «ترك بعض الدين الواجب»^(٢)، ثم ينشأ الاختلاف في: هل كان عمله هذا اضطراراً يُعذَّر فيه وضرورة قاهرة ألجأته إلى تحويل سنة الخلافة إلى المُلْك؟ أم عمله هذا من الذنوب والأخطاء التي يقع فيها الصحابي؟ إذ الصحابي غير معصوم، وقد وقع من بعضهم القتل والزنا والسرقعة وغير ذلك، ثم يكون هذا الذنب مغفوراً بالحسنات العظيمة الأخرى التي عملها؟

سنأتي لمناقشة الأمر بعد قليل..

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٨/ ١٤٨.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٣٥/ ٢٤.

ولكن، يجب أن نستحضر هنا أن التحول إلى المُلْك العضوض جرى على يد صحابي مشهود له بالدين وبالكفاءة.

ثم يجب أن نستحضر كذلك أن هذا التحول إلى المُلْك العضوض كان ثمرة حَدَثٍ مدَّحه النبي ﷺ، لما قال عن الحسن «إن ابني هذا سيد، وإن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(١)، وفرح به المسلمون، وفيهم وقتها بقية الصحابة وكبار التابعين، وهم خير الناس، فقد اجتمع شملهم بعد فرقة، وسكن ما كان قد نشب بينهم من الحروب! وإن من أهم ما يجب الانتباه إليه في هذا الموضع أن المُلْك العضوض بدأ منذ تولي معاوية الخلافة، أي قبل أن يُفكَّر معاوية نفسه في الولاية بالعهد لابنه يزيد، فهاهنا حادثان منفصلتان، بينهما نحو عشرين سنة، فخلافته هي بداية المُلْك العضوض، أي أن سائر هذه العشرين سنة، وقبل أن يظهر يزيد في المشهد، هي في زمن المُلْك العضوض، وهي قطعاً ليست من سنة الخلفاء الراشدين التي أُمِرنا بالاعتداء بها.

إن هذين الأمرين: فضل الرجل في نفسه، وأنه تولى الخلافة نتيجة صُلْحٍ مدَّحه النبي ﷺ وأثنى على فاعله، يشيران إلى أن التحول إلى الملك العضوض كان اضطراراً لا اختياراً، فإن النبي ﷺ لن يثني على شيء كان غيرُه أحسن منه، وكان بالإمكان فعل هذا الأحسن! ولا يُتَصَوَّر أن يثني النبي ﷺ على ما هو باطل!

وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى من حديث النبي أنه قال لمعاوية يوماً: «إذا ملكْتَ فأَحْسِن»^(٢)، فقالوا: «تأمل أنه ﷺ أخبر معاوية بأنه يملك وأمره بالإحسان، تجد في

(١) البخاري (٣٥٣٦).

(٢) أحمد (١٦٩٧٥) وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات؛ ابن أبي شيبة، المصنف، (٣٠٧١٥)؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٤٤٦/٦؛ الطبراني، المعجم الكبير، (٨٥٠). وقال محمد بن زياد التكلة: فالخبر بطرقه وشواهده قابل للتحسين. انظر: محمد بن زياد التكلة، من فضائل وأخبار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: دراسة حداثية، (نسخة إلكترونية)، ص ٨٦.

الحديث إشارة إلى صحة خلافته، وأنها حق، بعد تمامها له بنزول الحسن له عنها، فإن أمره بالإحسان المترتب على الملك يدل على حقيقة ملكه وخلافته، وصحة تصرفه ونفوذ أفعاله، من حيث صحة الخلافة له، [لا] من حيث التغلب، لأن المتغلب فاسق مُعاقَب لا يستحق أن يبشر ولا يؤمر بالإحسان فيما تغلب عليه، بل إنما يستحق الزجر والمقت والإعلام بقبائح أفعاله وفساد أحواله. فلو كان معاوية متغلباً لأشار له النبي ﷺ إلى ذلك، أو صرَّح له به، فلما لم يشر له فضلاً عن أن يصرح إلا بما يدل على حقيقة ما هو عليه، علمنا أنه بعد نزول الحسن له خليفة حق وإمام صدق^(١).

والحديث عن أن هذا التحول إلى المُلْك العضوض كان اضطراراً، يدفع إلى تأمل الظروف والأوضاع التي أحاطت بهذه الفترة، والتي مَنَعَت القيام بالواجب الشرعي التام، وألجأت معاوية إلى سياسة انحرف بها عن سنة الراشدين في الحكم، وهو الانحراف الذي كانت ذروته في توليته العهد لابنه من بعده.

معاوية وتوريث الحكم

لما مات أبو بكر رضي الله عنه لم يفكر أحدٌ قط في أن يكون ابنه هو الخليفة من بعده، بل لم يكادوا يختلفون على اختيار عمر. ولكن حين مات عمر برزت للمرة الأولى هذه الفكرة، فقد ورد أن المغيرة بن شعبة اقترح على عمر أن يجعل الأمر من بعده لابنه عبد الله بن عمر، إلا أن عمر انتهره بشدة، وجعلها في الستة بقية العشرة المبشرين بالجنة إلا سعيد بن زيد لأنه من قرابته^(٢). وأما عثمان فقد كانت ظروف الفتنة حائلة دون طرح هذا الأمر.

(١) ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة، ٦٢٨/٢.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢٦١/٣؛ الطبري، تاريخ الطبري، ٥٨٠/٢. وإسناد ابن سعد صحيحه الحافظ ابن حجر. (فتح الباري، ٦٧/٧)؛ وأما رواية الطبري فسندھا ساقط فهي من رواية أبي مخنف، وأبو مخنف زاد في رواية الشورى زيادات شنيعة، وكذب فيها كعادته، ولكن الذي أستدل به هنا أمران؛ الأول: استبعاده سعيد بن زيد من

وأما عليٌّ فقد عرضوا عليه أن يكون الخليفة من بعده ابنه الحسن، فقال: «لا أمركم ولا أنهاركم. أنتم أبصر»^(١)، وهذا مع أنه قد بقي من الستة من هو خير من الحسن، وهو سعد بن أبي وقاص.

إن هذا التدرج الذي نشهده لحضور فكرة الولاية بالعهد لولد الخليفة يجب أن يلفت نظرنا إلى طبيعة الظروف وتطورها، فإن الفكرة التي لم تُطرح أصلاً عند وفاة أبي بكر، طُرحت لدى وفاة عمر وقوبلت برفض شديد، وهي ذاتها التي طُرحت عند وفاة علي فصارت مقبولة! وبعد عشرين سنة أخرى كانت فكرة التوريث هي التي رأى معاوية أنها صارت ضرورة، فعمل على التمهيد لولده حتى أنفذها بالفعل، ولم يخالف عليه من الصحابة سوى أربعة، لم يخرج منهم على ولده سوى واحد فقط، وهو الحسين رضي الله عنه!!

وإن أحسن مَنْ تَوَقَّفَ أمام هذا التحليل وأطال النظر فيه حكيم التاريخ ابن خلدون، وقد شرح ابن خلدون طبيعة الأوضاع والظروف التي أدَّت إلى هذا الاجتهاد، فذكر أن

الستة، والثاني: استبعاد ابنه عبد الله بن عمر أن يكون له شيء، وكلاهما ثابت في رواية البخاري (٣٤٩٧)، وانظر المقارنة بين رواية أبي مخنف وروايات المحدثين عند: د. يحيى اليحيى، مرويّات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص ١٧٠ وما بعدها.

وإنما أوردتُ في المتن هذا التَّهَرُّ من عمر للمغيرة، لأن في رواية البخاري ما يشهد لها، شهادة غير صريحة، وذلك قوله: «وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له»، وهذه العبارة «كهيئة التعزية له» تفيد أن بعضهم طرح اسمه ضمن المرشحين للاستخلاف، وإلا لم يكن للعبارة معنى. وقد وجدتُ هذا المعنى قد مرَّه بعض العلماء في شرحهم للحديث، كابن الملقن إذ قال: «هذا مع أهليته (أي ابن عمر)، لكنه (أي عمر) رأى غيره أولى منه أو خشي أن يقال: هرقلية أو كسروية أن يجعل في الأولاد الخلافة». انظر: ابن الملقن، التوضيح، ٢٠/٢٩٩؛ الشوكاني، نيل الأوطار، ٦/٦١.

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/١٥٧.

الفترة النبوية وصدر الفترة الراشدة هي فترة استثنائية انتصر فيها الوازع الديني على الوازع العصبي القبلي العشائري، وهو الوازع الذي يقوم عليه المُلْك، فلما بدأ وازع الدين يقل عند الناس كان لابد من عودة قانون العصبية إلى مسار التاريخ، يقول: «فإنهم (الخلفاء الراشدين) كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينيا، فعند كل أحدٍ وازعٌ من نفسه، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره، ووكّلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه. وأما مَنْ بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصبات. فلو عَهَدَ (معاوية) إلى غير من ترتضيه العصبية لَرَدَّتْ ذلك العهد وانتقض أمره سريعا وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف»^(١).

ويقرر الأستاذ محمد قطب أن الخلافة الراشدة كانت ذروة، وأن «تلك الذروة - بكل روعتها - لم يكن يفترض أن تدوم في الأرض كثيرا بعد رسول الله ﷺ، لأن وجوده بشخصه عليه الصلاة والسلام كان عاملا مهما فيها، كما أن أثر النشأة الجديدة كان عاملا مهما فيها كذلك، وهما عاملان بطبيعتهما لا يتكرران ولا يدومان»^(٢).

ومن هنا، فإن «الذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم فأثره بذلك دون غيره ممّن يظنّ أنّه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمّ عند الشارع»^(٣).

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص ١٣٤.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/٢٦٣.

يوافق ابن خلدون الأستاذ الكبير محمد جلال كشك، ويوسع مشهد التاريخ، فيقول: «إن نظام الخلافة الذي قام حتى عثمان كان نظاما فريدا لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم، ولا تكرر بعد ذلك، وإن تشابهه معه الآن النظام الديمقراطي الجمهوري، ولكن نظام الخلافة الراشدة كان بقية من نفح النبوة ومتفقا أو منبثقا من جيل اعتاد أن يحكمه نبي... وما إن انتهى هذا الجيل حتى عادت قوانين الحياة والتاريخ تتحكم في المجتمع الإسلامي، حتى وإن تفوق المجتمع الإسلامي على غيره بتعاليم وروح الإسلام»^(١).

ويتردد هذا النظر عند بعض المستشرقين الخبراء، منهم مارشال هودجسون الذي يقول: «يمكن القول بأن يزيدا كان المسلم الوحيد الذي سيقبل به السوريون؛ فأى رجل من عائلة أخرى كان سيجلب معه روابطه العائلية والعشائرية إلى الحكم، وهو ما من شأنه أن يخل بتوازن القوى الدقيق الذي أرساه معاوية»^(٢).

إن تأمل حركة التاريخ، قبل قرار معاوية وبعده، تشهد لهذا الفهم، لقد تغيرت الأوضاع بحيث لم يعد ممكنا إبقاء الأمر على ما كان في فترة الخلافة الراشدة، من الاختيار الحر المباشر من أهل الحل والعقد في عاصمة الدولة، ذلك أن بروز العصبية وتنامي قوتها، وما أسفرت عنه من أحداث وصلت إلى قتل الخليفة الثالث، ثم انقسام الأمة، يجعل تجاهل حضورها وآثارها أمرا غير ممكن. وقد رأينا أن فكرة التوريث كيف لم تكن مطروحة أصلا أول الأمر، ثم صارت مقبولة عند نهاية عصر علي رضي الله عنه!

ويزيد في الدلالة على هذا أن الغالبية العظمى من الصحابة وكبار التابعين لم يعترضوا على توريث الحكم ليزيد، وهؤلاء خير القرون، يقول ابن خلدون: «لا يُظَنُّ بمعاوية غير هذا؛ فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٢) مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٨٨.

دليل على انتفاء الرّيب فيه فليسوا ممّن يأخذهم في الحقّ هوادة وليس معاوية ممّن تأخذه العزّة في قبول الحقّ فإنّهم كلّهم أجلّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه»^(١).

إن هذا أمرٌ يجب أن نتوقف أمامه طويلاً ومليّاً، فهو دليل قاطع على أن الأمر كان مصلحة للأمة ولم يكن مجرد شهوة في الملك لدى معاوية، ولا تسجل كتب التاريخ غير أربعة اعترضوا: عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، فأما ابن عمر فكان اعتراضه إجرائياً إذ كان يرى أنه لا يجوز البيعة لخليفة قادم في ظل خليفة قائم، فلما بويع يزيد بايعه، وأما ابن أبي بكر فقد مات قبل معاوية، وأما ابن الزبير فلم يبايع ولم يخرج، وأما الحسين فهو الوحيد الذي خرج على يزيد! لذلك قال ابن خلدون: «ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتّفق عليه الجمهور إلّا ابن الزبير وندور المخالف معروف»^(٢).

وليس من الإنصاف التمسك بموقف الواحد والاثنين وترك مواقف جمهور الصحابة والتابعين الذين رضوا وبايعوا. والأولى أن يقال بتخطئة الواحد والاثنين إذا خالفوا الجمع، لا بتخطئة الجمع لنصرة موقف الواحد والاثنين. وقد نصّح الحسين رضي الله عنه ألا يقدم على أهل العراق، ولكنه لم يمثل لمن نصّحوه وخافوا عليه، ومنهم أخوه محمد بن الحنفية وابن عمه عبد الله بن عباس وابن الزبير وأبو سعيد الخدري وجابر وغيرهم!

ويجب أن يقال هنا أن أولئك الذين اعترضوا على تولية يزيد إنما اعترضوا على المبدأ، ولم يذكر أحدٌ منهم في ثانيا اعتراضه شيئاً عن فسق يزيد أو عدم أهليته للأمر، وسائر ما ورد في ذلك إنما هو من الروايات الضعيفة والموضوعة، وقد كان يزيد تحت

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/٢٦٣.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/٢٦٣.

عين أبيه، وتدرَّب على الحكم، وقاد أول جيش غزا القسطنطينية، فكان تحت قيادته أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وثلة من بقية الصحابة وكبار التابعين. وها هنا أمرٌ مهم، فإن معاوية كان له ابن آخر اسمه عبد الله وهو أنسب من يزيد، إذ عبد الله هو ابن فاختة بنت قرظة من بني عبد مناف^(١)، بينما يزيد هو ابن ميسون بنت بحدل من بني كلب، إلا أنه لم يكن أهلاً للخلافة^(٢).

وقد ورد عن معاوية أنه خطب فقال: «اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله، فَبَلَّغْهُ ما أَمَلْتُ وَأَعِنِّهُ، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده، وإنه ليس بأهل فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك»^(٣). وليس يُظنُّ بصحابي كمعاوية أن يدعو بمثل هذا وهو يبطن كذبا، حاشا لله!

وهكذا، بالتأمل في الموقف نرى أن التحول إلى الملك العضوض، نفذه صحابي كبير، لم يتهم في دينه، ومن أذكىء الدنيا حلما وسياسة، ورضي به جمهرة الصحابة والتابعين وهم خير القرون، والمعهود إليه كان أهلاً لها ولم يُطعن عليه في دينه. ولهذا يجب أن نتوقف لنسأل:

ما هي الظروف والأوضاع التي استجدت على المجتمع المسلم، والتي أحاطت

(١) عبد مناف هو الجد الأعلى الذي يلتقي فيه النبي ومعاوية، فهما من بني عبد مناف بن قصي، وهذا نسبٌ في صدر قريش.

(٢) انظر في ترجمة عبد الله بن معاوية: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٣/٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤/١٦٩. بإسناد فيه ابن أبي مريم، وقد ضعّفه أهل الحديث مع كونه عالما عابدا من خيار أهل الشام، لأن بعض اللصوص دخلوا عليه بيته، فاختلط وضعف حفظه. ويترجح في مثل هذه المقالة التي نوردها الصحة، ذلك أنها ليست حديثا نبويا، وأنها معنًى واحد واضح فيبعد أن يقع فيه الوهم، وابن أبي مريم يروي عن شيخه الثقة عطية بن قيس، وشيخه شاهد عيان معاصر، وكلاهما من أهل الشام. فمع هذه القرائن يترجح صحة الخبر.

بظرف توريث يزيد، والتي حملت معاوية على ذلك، ورأى الصحابة أن المصلحة في قبول هذا التحول عن سنة الخلافة الراشدة؟

برأينا فإن أهم هذه الظروف أمران؛ الأول: بروز العصبية واتساع الدولة.

(١) بروز العصبية

يروى أن رجلاً سأل علياً رضي الله عنه: ما بال المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال: «لأن أبا بكر وعمر كانا واليَّين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك»، ويعقب ابن خلدون على هذا بقوله: يشير إلى وازع الدين^(١).

لقد ذكرنا في الفصول السابقة أن الإسلام لم يأتٍ لكسر الروابط القبلية وصلات الرحم والعشيرة، وإنما جاء بتنميتها وتقويتها واستثمارها، إلا أنه جعل رابطة الدين فوقها، وأمر بأن تكون العصبية خاضعة للحق^(٢)، كما عبّر عن ذلك حديث النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» وأوضح أن نصرته ظالماً هي كُفُّه عن الظلم^(٣). ولذلك بقيت قوة القبيلة العربية في عصر الإسلام، بل وكانت الشعائر الإسلامية والتعاليم والنظام الإسلامي من أهم عوامل تمتين المجتمع المسلم، وتقويته ضد استبداد الحكّام على مرّ التاريخ.

والذي يهمنّا الآن أن العصبية القبلية كانت حاضرة دائماً، لكن عصر الخلافة الراشدة كان هو عصر سُمُو الحق فوق كل اعتبار، فمنذ اللحظة الأولى بعد وفاة النبي ﷺ وقع الاختلاف بين الصحابة في سقيفة بني ساعدة فيمن يكون الخليفة، وحُسم أمر الخليفة

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٦٤.

(٢) راجع ما كتبه عن: المرحلة المدنية من السيرة النبوية، ومرحلة: الخلافة الراشدة.

(٣) البخاري (٦٥٥٢).

لمعايير كان من أهمها الاعتبار القبلي، فإن العرب لا يخضعون إلا لقريش، فلم يكن مناسباً أن يتولى الخلافة أحدٌ من الأنصار مع أنهم شوكة أهل المدينة، وهي عاصمة دولة الإسلام!

وقد جاء في كلام الأنصار هذا المعنى القبلي، إذ قالوا للمهاجرين: «إنا والله ماننفس عليكم هذا الأمر، ولكننا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوانهم»^(١).

وأثار اختيار أبي بكر خليفة استغراب أبيه أبي قحافة، فتعجب من أن يتولى ابنه، وهو من تيم، ويرضى عن ذلك بنو عبد شمس وبنو مخزوم!! فلقد كانت تيم من عائلات قريش الضعيفة التي هجاها الشاعر بقوله:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأْمرون وهم شهود
وكذلك عمر بن الخطاب، فلقد كان من عدي، وهي من عائلات قريش الضعيفة أيضاً، وخضع له زعماء الأسر الكبيرة بني مخزوم وبني عبد شمس وبني هاشم!

وعندما طعن عمر، أوصى بالخلافة لل ستة بقية العشرة المبشرين بالجنة، واستبعد منهم سابعهم سعيد بن زيد لأنه من قرابته، وانتهر من اقترح عليه أن يستخلف عبد الله بن عمر^(٢).

وهكذا، كان شأن العصبية والقبلية حاضراً، ولكنه كان محكوماً بالحق ورابطة الإسلام، أو ما يسميه ابن خلدون «وازع الدين»، فلما مضى الزمن وكثرت الفتوحات ونشأت أجيال جديدة، ظهرت العصبية القبلية التي تملكت من سيادة قريش، فتمردت عليها، لا سيما في مناطق العرب المقاتلة، في البصرة والكوفة ومصر. وكان ذلك هو بذرة

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ١٣٥، ١٣٦؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٥٨٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٦١ بسند صحيحه الحافظ ابن حجر. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ٦٧.

الفتنة التي انتهت إلى قتل الخليفة الثالث الراشد عثمان بن عفان^(١).

وسيطهر شأن العصبية ظهوراً خطيراً في عصر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسيبدو فيه واضحاً أنه غلب وازع الدين عند فئات كثيرة، وأدُلُّ دليل على ذلك أن جيش عائشة وطلحة والزبير، حين خرجوا إلى البصرة، وقاتلوا جيش حكيم بن جبله -زعيم المتمردين البصريين على عثمان- فانحاز إلى حكيم قومه، ولم يجدوا في أنفسهم خشية من أنهم يواجهون جيشاً فيه أم المؤمنين واثنين من العشرة المبشرين بالجنة. وحين انتصر جيش الزبير وطلحة وعائشة، فرَّ من المهزومين حرقوص بن زهير السعدي، ولجأ إلى قومه فتعصب له منهم ستة آلاف، كانوا على استعداد للحرب دونه!! ولذلك قال القعقاع بن عمرو: «لقد كان في البصرة ستمائة من قتلة عثمان، وأنتم قتلتموهم إلا رجلاً واحداً، وهو حرقوص بن زهير السعدي، فلما هرب منكم احتمى بقومه من بنى سعد، ولما أردتم أخذه منهم وقتلته منعكم قومه من ذلك، وغضب له ستة آلاف رجل اعتزلوكم، ووقفوا أمامكم وقفة رجل واحد... وأنتم بمطالبتكم بحرقوص أغضبتم ربيعة ومضر، من هذه البلاد، حيث اجتمعوا على حربكم وخذلانكم، نصره لبنى سعد»^(٢).

وظهر في عصر عليّ قوة عصبية أهل الشام والتفافهم حول معاوية وبنى أمية، وبذلهم أنفسهم في طلب دم عثمان، فلم يخالف أحدٌ منهم على معاوية.

ثم ختم عصر علي رضي الله عنه بأنه لم يمانع في تولية ابنه الحسن من بعده، فحين سُئل في ذلك قال: «لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر»^(٣)، وهذا مع أن الحسن لم يكن أفضل الموجودين، بل كان سعد بن أبي وقاص لا يزال حياً، وهو من العشرة المبشرين بالجنة،

(١) راجع الفصل الرابع: الفتنة بين الصحابة، ففيها تفصيل هذا الأمر.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٢٩؛ البرزنجي، صحيح تاريخ الطبري، ٣/ ٣٧٨.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ١٥٧.

وهو بقية الستة أهل الشورى. وهذا الفارق بين موقف عمر في الرفض الشديد لتولية ابنه أو أحد أقاربه وبين موقف عليّ يخبرنا عن تغير الأوضاع والظروف في سبعة عشر عاما (بين ٢٣هـ - ٤٠هـ). وهي الأوضاع والظروف التي يجب أن نفهم كيف تطورت بعد عشرين عاما أخرى حين تولى يزيد بن معاوية (٦٠هـ).

يتوقف جلال كشك عند هذه اللحظة فيقول: «لم يكن من الممكن أن تستمر شورى، وهذا كما ينسى هواة نقد معاوية والأمويين لم يكن القرار الذي وصل إليه معاوية ولا ظهر في معسكر معاوية، ولا مؤامرة أموية. بل العكس تماما، فقد ظهر مبدأ الوراثة في معسكر خصمه علي بن أبي طالب، أول من ورث الخلافة عن أبيه هو الحسن بن علي وليس يزيد بن معاوية، أورثها معسكر عليّ لابنه قبل أن يفعلها معاوية بعشرين عاما. في معسكر علي بن أبي طالب أحسوا باستحالة أن تُترك شورى للمسلمين، وأورثوها لابنه، ولم يجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في ذلك ما ينهاهم عنه»^(١).

سيظهر فيما بعد، عبر وقائع التاريخ، صحة موقف معاوية وأنه كان ضرورة، فلم يكن في مجتمع المسلمين آنذاك عصبية أقوى من بني أمية ولا أجدر بالحكم منهم، يقول جلال كشك في عبارة نوافق تماما على معناها ونتحفظ على بعض صياغاتها: «من هو المرشح الذي كان يمكن الإجماع عليه عندما توفي معاوية؟ لقد علمنا ما جرى للحسين، فهو لم يستطع أن يجمع جيشا ولو من ألف مقاتل. ثم لقد حكم ابن الزبير قلب الدولة ولم يكن في يد بني أمية إلا قطعة من الشام، ورغم ذلك قهروه وصلبوه! بل عندما سقطت الدولة الأموية، فرّ غلام من بني أمية وعبر البحر إلى الأندلس واستطاع أن يقيم واحدة من أزهى دول الإسلام. ذلك كان بيت المُلْك، والعصبية القادرة على فرض النظام وحماية الدولة، وإذا كان مؤسفا فشل علي بن أبي طالب في قيادة المسلمين، فقد كان من حسن حظ

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٧.

المسلمين وجود معاوية في موقع مَكَّنَه من إنقاذ الموقف، وليمت الحاقدون بغیظهم.. تلك أولى دول الإسلام التي أرست حضارتنا»^(١).

لقد أثبت الأمويون قدرتهم على حكم دولة الإسلام، وأقاموا أعظم دولة في تاريخ المسلمين اتساعاً، وآخر دولة حَكَمَت جميع المسلمين، فكان لخليفتهم الأمر والنهي فيما بين الصين وجنوب فرنسا، وقاموا بما عجزت كل الدول بعدهم أن تقوم ببعضه! طرح البعض سؤالاً: لماذا لم يجند معاوية عصابة بني أمية لتكون شوكتهم في خدمة من تختاره الأمة؟!!

والجواب: إن هذا -بكل صراحة- من مصادمة الواقع والطبيعة البشرية، ولا يحلم به إلا من كان مثاليا لا يعرف حقائق الواقع وسنن التاريخ. وهذا الذي يُطلب من بني أمية لا يُعرف أن قوماً في التاريخ كله فعلوه سوى الأنصار، وضعوا عصبتهم في يد النبي ثم خلفائه من بعده، ومن في الناس مثل الأنصار؟! إنه ليس ثمة قوم يستطيعون أن يحكموا بأنفسهم ثم يتركوا الحكم لواحد من خارجهم!

وسنأتي بعد قليل إلى مزيد من دلائل التاريخ التي تثبت أن صحة ما نقول. لكن ننتقل الآن إلى العامل الثاني الذي جعل الذهاب إلى الملكية ضرورة، وهو:

(٢) اتساع الدولة

لقد كان عصر النبوة والخلافة الراشدة فريداً، «جرى فيه تأسيس الدولة داخل حدود سريعة الحركة والامتداد، مما أفضى إلى دخول العديد من الشعوب بسرعة أكبر من قدرة البشر على التمثيل، والتحرر من تأثيرات الأحداث. وفي ظل الفلسفة الإسلامية كان معنى

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٧.

ذلك أن عدو الأُمس المقاتل يصبح في اليوم التالي مواطنًا متمتعًا بكامل الحقوق»^(١).

وفي ظل هذه الحقيقة، فإنه ما كان ممكنًا أن تجتمع الأمة الواسعة للاختيار، ولذلك كان يُعقد أمر الخلافة ويُصَّب الخليفة على يد أهل الحل والعقد، الذين هم شوكة العاصمة، فأولئك هم المهاجرون والأنصار الذين نصبوا أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا في موقع الخليفة. مع تفصيلٍ تعرضنا له سابقًا^(٢) فيما حصل في بيعة علي رضي الله عنه.

والآن، وبعد أن اتخذ عليُّ الكوفةَ عاصمةً له وكانت فيها عصبته لخمس سنين، ثم تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة واتخذ معاوية دمشق عاصمةً له وكانت فيها عصبته لعشرين سنة، وبعد أن مرَّت ستون عامًا منذ وفاة النبي ﷺ مات فيها أكثر الصحابة، ومات فيها كل الصحابة الكبار، فإن هذا الوضع لم يكن ممكنًا فيه لا أن تجتمع الأمة على شورى، وقد اتسعت وتكاثرت وتمددت مساحتها، كما أن أهل الشوكة، الذين هم أهل الحل والعقد، فيها إنما كانوا هم أهل الشام. وما كان ممكنًا أن يخرج اختيار الخليفة القادم عنهم، فمن ذا الذي يرضى بهذا؟! وقبل ذلك: من ذا الذي يخاطر بإدخال الأمة في موجة جديدة من النزاع على اختيار الخليفة بين العُصَب القائمة في الأنحاء المختلفة، من بعد عشرين سنة من الهدوء والاستقرار أعيدت فيه هيبة الأمة وتجددت فيها الفتوحات؟!!

لقد أشار جمعٌ من العلماء إلى ذلك المعنى، منهم قديما ابن حزم الذي قال: «عقد الإمامة يصحُّ بوجوه؛ أولها وأفضلها وأصحها: أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره بعد موته... وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره، لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة، وانتظام أمر الإسلام وأهله، ورفع ما يُتخَوَّف من الاختلاف والشَّغْب مما يُتَوَقَّع في

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٤.

(٢) انظر ما كتبناه في فصل: الفتنة بين الصحابة.

غيره من بقاء الأمة فوضى، ومن انتشار الأمر، وارتفاع النفوس^(١)، وحدوث الأطماع^(٢).

ومنهم حديثا محمد كرد علي الذي قال: «[في] وضع قانون ولاية العهد في الإسلام بعض الحيلة التي تنجي من انقسام الكلمة... والعهد للأبناء أو الإخوة أو أبناء العم على شرط الكفاية في الجملة، أقرب إلى سلامة الدولة من فتنة تنشب بين الأحزاب أو أصحاب العصبيات»^(٣)

بل ولقد أنصف بعض المستشرقين والأجانب حين تناولوا هذا الأمر، حتى إن ألبرت حوراني يرى أن إدانة حكم الأمويين لم يظهر إلا في عصر العباسيين، يقول: «تطلبت إمبراطورية كهذه أسلوبا جديدا في الحكم. وقد انتشر رأي في الأجيال اللاحقة عندما حلّت محل الأمويين سلالة حاكمة معادية لهم. ويقول هذا الرأي أنهم أدخلوا نمطا مباشرا من الحكم متعلقا بأغراض دنيوية وتُسَيِّرُه المصالح الذاتية بدلا من حكم الخلفاء الأولين الذي كان مُكْرَسًا لخدمة الدين، ولعل الأكثر إنصافا أن نقول إن الأمويين وجدوا أنفسهم في مواجهة مشاكل حكم إمبراطورية ضخمة، ولا بد لهم بالتالي من الانخراط في تسويات السلطة، واصطنعوا لأنفسهم بالتدريج نمطا من الحياة قلّدوا فيه حكام الشرق الأدنى»^(٤).

ويقول ول ديورانت: «كان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد في أثنائه من الرخاء، وانقطاع النزاع بين القبائل، وما بلغت الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك. وكان يرى ألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذي لا بد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب، وما يؤدي إليه هذا النزاع من

(١) ارتفاع النفوس: أي التطلع إلى منصب الخلافة.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٢٠، ١٢١.

(٣) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ٢/ ٣٩٥، ٣٩٦.

(٤) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ٥٩.

اضطراب وفوضى، إلا إذا استبدل به النظام الوراثي»^(١).

بل نجد هذا الفهم -أحيانا- في كتابات بعض الحداثيين، فيقال بأن ما حصل كان «مخاضا عسيرا لميلاد شرعية سياسية أخرى، أنقذت الدولة الإسلامية من الانهيار التام، أو على الأقل أنقذها من الانقسام المبكر إلى دول متعددة... التعصب السياسي الذي أعاد الدولة الإسلامية إلى مسرح التاريخ بعد انهيارها في الفتنة، لم يكن مشكلة -كما يتصور البعض- بل كان حلاً تاريخيا اضطرابيا، لأزمة عويصة... وقد تمخض عن هذه العملية التاريخية إعادة بناء الدولة الإسلامية وتوحيدها، وإطلاق حركية الفتوحات من جديد»^(٢).

إن الذين يتحدثون عن الديمقراطية، ويقصّون علينا سبق الغرب إليها ونشأتها في المدن اليونانية، يخطئون إذ يقارنون «دولة في اتساع دولة الأمويين مع المدن اليونانية التي نشأت فيها فكرة الديمقراطية والتمثيل النيابي، وكانت ظاهرة خاصة بها، لأننا نلاحظ أن هذه الديمقراطية اختفت عندما حلت الإمبراطوريات الواسعة والمتعددة الأجناس محل المدن»^(٣). وهم ينسون أن «الدنيا كلها منذ فجر الحضارة إلى القرن الثامن عشر أو حتى التاسع عشر لم تعرف نظاما أفضل أو أكثر مطابقة لحاجيات المجتمعات من النظام الملكي الوراثي. إلى أن ظهر واستقر النظام الجمهوري. فالنظام الوحيد الذي كان ممكنا هو النظام الذي قام، والدول التي أوقعتنا فيما وقعنا فيه هي دول ملكية يتوارث ملوكها

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ٨١، ٨٢.

(٢) انظر: امحمد جبرون، مفهوم الدولة الإسلامية: أزمة الأسس وحتمية الحداثة، ص ١٩٥ وما بعدها، ص ٢٠٧. ومع أن المؤلف كان عضوا بحزب العدالة والتنمية المغربي، وهو نسخة من محاولات الإسلاميين التوفيق بين الإسلام والحداثة، إلا أنه استقال منه (٢٠١٧م)، ويظهر في كلامه ومواقفه إيمانه بالحداثة، وخلاصة فكره هو محاولة إنتاج نسخة جديدة توفق بين الإسلام والحداثة، وهي بالنظر في تفاصيل ما يقول: تقريب الإسلام من الحداثة، لا العكس، فخلاصة مواقفه أقرب إلى التصور العلماني منه إلى الإسلامي.

(٣) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٣.

العرش من روسيا القيصرية المستبدة إلى بريطانيا الديمقراطية»^(١).

ما من إمبراطورية واسعة، بل ولا دولة متوسطة الحجم، استطاعت أن تُحكَم بالشورى والاختيار قبل اكتشاف وسائل الاتصال الحديثة، وهذا إن وافقنا جدلاً على أن الديمقراطية المعاصرة هي تعبير حقيقي عن اختيار الشعب^(٢)، ولم يخطر حتى بالبال أن تشارك شعوب إفريقيا وآسيا في اختيار ملك بريطانيا أو حتى رئيس حكومتها حين كانت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، أو أن تشارك تلك الشعوب في اختيار رئيس أو إمبراطور فرنسا يوم كانت تحتل نصف العالم!! إنما يخطر هذا ببال المسلمين لأنهم منذ فتحوا البلاد لم يجادلوا في أن من يُسلم يصير من هذه الأمة وله كافة الحقوق التي للمسلم، ومنها حق اختيار الخليفة!!

إنها من دون شك منقبة للمسلمين لم يصل إليها أي فاتح أو غازٍ عبر التاريخ كله! ومن المؤسف أن تلك المنقبة تتحول إلى مثلبة ومنقصة على يد من يغفلون عن طبائع الأمور أو يحبون جلد الذات، فيدينون معاوية لأنه أورث الحكم ولده يزيدًا في ظل ظرفٍ لا يسمح إلا بهذا.

ويغفل هؤلاء، وهذا أهم ما في الموضوع، أن الصحابة في ذلك الوقت قبلوا بهذا -إلا أربعة، لم يخرج منهم إلا واحد- وفي قبولهم له دليلٌ على أنهم وجدوا فيه مصلحة الأمة، والحل الوحيد الممكن في ذلك الوقت، ولولا ذلك لخرجوا مع الحسين، وما تعددت نصائحه لهم ألا يخرج!

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٦.

(٢) يكاد يكون من المُسلَّم به في الوقت الحالي أن الديمقراطية مجرد مسرح يتحكم أصحاب المال والنفوذ في تركيبته ونتائجه، انظر على سبيل المثال كتابات ناعوم تشومسكي، وكتاب «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها» للصحافي الأمريكي ديفيد بالاست، وكتاب «السيطرة الصامتة» للباحثة الألمانية نورينا هيرتس.

لم يكن الصحابة جناء ولا كانوا أغبياء، وإذن، فلا تفسير لقبولهم وبيعتهم ليزيد إلا أنهم رأوا فيها مصلحة الأمة. وإن الذي يتصور بعد مئات السنين أنه كان أحدًا من الصحابة عقلاً أو أشجع منهم نفساً أو أزكى منهم قلباً، فهذا امرؤ بائس، وهو عن حل مشكلات واقعه وعصره أبأس وأعجز!!

وإذا ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الأمم، بما فيها أمتنا الإسلامية، فسنرى بوضوح أن قرار التحول إلى الملكية كان اضطراراً وضرورة في ذلك الوقت، تمليه طبيعة العصر وظروف الزمان والمكان.. وإليك بعض ما يؤكد ذلك:

التاريخ وحكم الملوك

أنتج هذان العاملان: بروز العصبية واتساع الدولة، ضرورة الانتقال إلى النظام الملكي. و«ما دام قد استقر أن الملك هو الحل، فقد كان هناك بيت مُلْكٍ واحد يستطيع أن يحمل الأمانة، هو البيت الأموي. فالحسن لم يستطع أن يحكم ستة شهور، واعترف أن مصلحة المسلمين والإسلام في تسليمها لمعاوية، ومن هم كبار الصحابة وقتها»^(١).

ومن عجائب التاريخ وتصاريف القدر أن أثبتت الأيام صحة رأي معاوية في أن عصبية الشام وبني أمية هي العصبية الوحيدة القادرة على قيادة الأمة في ذلك الوقت، وقد ظهر هذا في سلسلة الأحداث السابقة والتالية:

١. ظهر هذا منذ عصر الفتنة، فإن علياً وهو خير من معاوية باتفاق الجميع لم تكن لديه العصبية المتماسكة التي كانت لدى معاوية، وخالف عليه أناسٌ في جيشه، فمنهم من غلا فيه حتى عبده وقَدَّسه، ومنهم من خرج عليه حتى كَفَّرَه وقاتَلَه، ثم كان الذين معه قد

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٧.

تناقلوا وغلب عليهم كراهية القتال حين حاول عليّ رضي الله عنه أن يستنفرهم لقتال معاوية وأهل الشام بعد أن أخفق التحكيم في حل القضية! بينما لم يظهر شيء من هذا في جيش معاوية.

٢. ولما مات معاوية، اضطرب الأمر على ابنه يزيد بن معاوية، فخرج عليه الحسين بن علي رضي الله عنه (٦١هـ)، ثم خرج عليه أهل مكة بقيادة عبد الله بن الزبير (٦٢هـ)، ثم خرج عليه أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه (٦٣هـ)، ثم مات يزيد فجأة بعد ثلاث سنوات في الخلافة، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، وتنازل ابنه معاوية بن يزيد عن الخلافة بعد ثلاثة أشهر أو بعد أربعين ليلة، وانحسر نفوذ بني أمية، ونادى عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بالخلافة لنفسه، وبايعته الأمصار، واستولى على العراق، ووقع الانقسام في الشام هل يبايعون ابن الزبير أم يظلون على مناصرتهم للأُمويين، ونشبت في ذلك معركة كبيرة هي مرج راهط (٦٤هـ) انتصر فيها الأمويون، ثم انقسم الأمويون من منهم أحق بالخلافة، ثم حسمها مروان بن الحكم لنفسه، ثم ما لبث مروان بن الحكم أن توفي مبكرا بعد سنة واحدة (٦٥هـ)، وتولى الأمر بعده ابنه عبد الملك.

مع كل هذه الزلزلة في بني أمية وأهل الشام، ومع كل الاستقرار الذي أتيح لعبد الله بن الزبير رضي الله عنه، إلا أن عصبه أهل الشام استطاعت أن تستعيد الشام، ثم تنتصر على ابن الزبير حتى قضت عليه، وتفرقت عصبه ابن الزبير من حوله، بمن فيهم بعضُ أبنائه!

ونحن، وإن كان يؤسفنا هزيمة ابن الزبير رضي الله عنه، ولا نرضى إطلاقاً عما اقترفه الحجاج، ولا ندافع أبداً عن أي باطل ارتكبه الأمويون، إلا أننا في سياق الحديث عن الكفاءة والقدرة والجدارة بالخلافة، لا نجد أجدر من بني أمية، فبغير تدبير معاوية لابنه، استطاع بنو أمية أن يأخذوها بالغلب، وما كان يمكن في هذا الوقت إلا أن يؤخذ الحكم كذلك، وصار عبد الملك بن مروان هو أول خليفة متغلب في التاريخ الإسلامي.

سنأتي للحديث عن التغلب، وحُكم المتغلب فيما بعد، ولكن يجب التوقف هنا، فإذا

«كان معاوية أول الخلفاء الأمويين قد حوّل الخلافة من الشورى إلى المُلك، فإن حفيده معاوية الثاني، ثالث الخلفاء الأمويين أيضاً، قد أعاد الخلافة من المُلك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنه لمما يستوجه الإنصاف أن تُصاغ القضية على هذا النحو بدلا من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط»^(١).

لنكمل رصد الأحداث التاريخية...

٣. واجهت الدولة الأموية العديد من الثورات: العلوية والخارجية، ومنها ثورة خطيرة قام بها العلماء، وعُرفت بثورة القراء بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث وسعيد بن جبير، وكانت ضد الحجاج بن يوسف الثقفي، وبلغت ذروتها في معركة طاحنة تعرف باسم دير الجماجم (٨٢هـ)، واستطاعت الدولة الأموية أن تقضي على هذه الثورات جميعا!

وهكذا نرى خلال عشرين سنة، منذ وفاة معاوية، واجه البيت الأموي كل هذه الثورات التي كانت قياداتها من كبار الزعماء، ثم أخذتها جميعا، وأعادت الوحدة والاستقرار في أرجاء العالم الإسلامي، ثم جدد الأمويون للمرة الثالثة موجة جديدة من الفتوحات هي أوسع الموجات الإسلامية والتي وصلت إلى الصين وإلى جنوب فرنسا، وهذا إضافة إلى ما أسست له هذه الدولة من تنظيمات حضارية عظيمة كتعريب الدواوين وإصدار العملة الإسلامية والشروع في الترجمة وهضم علوم الحضارات القديمة، وبناء المفاخر العمرانية كقبة الصخرة والجامع الأموي وغيرها^(٢)!

في الواقع، لقد «انتقل الحكم للأسرة الوحيدة التي كان بوسعها فرض الاستقرار وممارسة الحكم باحتياجات العصر، قامت دولة يسميها المسلمون الأتقياء وأولو الإربة

(١) حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها: دراسة الشبهات وردّ المفتريات، (القاهرة: دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م)، ص ٢٩٣.

(٢) سيأتي بعض التفصيل في هذا حين حديثنا عن الدولة الأموية إن شاء الله.

من أصحاب المذاهب، بالملك العضوض. أما نحن فنرى أنه كان نظاما متسقا مع عصره، ومع ما توارثته البشرية من تجارب، وما وصلت إليه من فكر وممارسة، ولكنه بعطر الإسلام، أو بما ظل يتناقص من هذا العطر ظل لأكثر من ألف سنة أفضل نظام حكم في العالم من حوله»^(١).

يتجاهل الذين يدينون معاوية أن حفيده معاوية الثاني تنازل عن الخلافة، وتركها للشورى، بعد ثلاث سنوات فحسب من توريث معاوية إياها لولده يزيد، أي قبل أن يتمكن نظام التوريث الذي يقولون إن معاوية هو من رَسَّخه، ولقد كانت هذه فرصة ممتازة إذا اعتمدنا نظرتهم، «فهل استطاعت الأمة التي أُعْطِيَتْ حقها في اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق في عصر الراشدين؟ لقد دخلت كل الفعاليات المؤثرة في المجتمع الإسلامي في اختبار للقوة بهدف فرض سيطرتها كاملة، وحقها في اختيار الخليفة»^(٢)، و«من بين جميع القوى المتنازعة أثبت البيت الأموي في سوريا أنه الأقوى... والأقدر على الحفاظ على الوحدة»^(٣).

إنه لمن العبث أن يُحاكم التاريخ بأعراف الحاضر، وأسوأ منه أن يُحاكم المنهزمون الضعفاء أسلافهم المنتصرين الأقوياء، لقد تمكن الأقوياء من تطويع ظروف عصرهم وأوجدوا الحلول المناسبة التي جعلتهم ذروة الإنسانية في زمانهم، فكيف للضعفاء المستذلين أن يعودوا بالطعن على أولئك الأسلاف؟!

لقد كانت تلك طبيعة زمانهم وضرورات وقتهم، ومن أهم الدلائل على ذلك أن بعض الذين حاولوا إعادة الأمر إلى الشورى، والاختيار من خارج الأسرة الحاكمة، لم يستطع

(١) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٤.

(٢) حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها، ص ٢٩٤.

(٣) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٩٢.

أن يفعل ذلك:

٤. فهذا سليمان بن عبد الملك يحتال لكي ينقل الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، وهو ابن عمه وليس من خارج الأسرة الأموية بل هو من ذات الفرع المرواني، فيجعل ولاية العهد إلى عمر ثم إلى يزيد بن عبد الملك، لكي يُهدى بهذا إخوته ويرضيهم. ومع أن الأمة استفادت من هذا التحايل سنتين عظيمتين من عهد عمر بن عبد العزيز، إلا أن نفس هذه الحيلة هي التي استعملها يزيد بن عبد الملك في تولية ولده الوليد بن يزيد بعد أخيه هشام بن عبد الملك، فكانت بداية انهيار بني أمية. الشاهد هنا أن سليمان وهو الخليفة القوي لم يستطع أن يغير قانون التوارث، ولو إلى نفس فرع الأسرة، إلا بحيلة محفوفة بالمخاطر، فأخذنا مزيتها، ثم أصابنا شرّها.

٥. وهذا عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن يعيدها شورى، مع أنه استطاع فعل ما يشبه المعجزة في العودة إلى سنة الراشدين! وهو الذي لا مطعن في قوته وتقواه وورعه وزهده.

٦. ومن أبلغ ما يدل على مسألة العصبية وقوتها، ما جرى بعد انتهاء الدولة الأموية، وذلك أنه لما ثار العباسيون بالأمويين وهزموهم، هرب منهم فتى في السابعة عشرة من عمره، فانتقل بين البلدان حتى وصل إلى الأندلس، واستطاع بنسبه الأموي أن يجند موالي بني أمية في الأندلس، وأن يعلو بنسبه على زعماء القيسية واليمانية، فhezهم وأنشأ لنفسه دولة في أقصى غرب العالم الإسلامي! فحكمها أكثر من ثلاثين عاما، وكان هذا من فضل الله على الأمة كلها، إذ توحدت البلاد تحته بعد فرقة وتنازع، بفضل مواهبه، وقبل ذلك بفضل نسبه الذي سما به عن المتنازعين الذين فرّقوا أمر المسلمين وكادت تضيع الأندلس منهم!

لقد كانت مسألة العصبية قانونا تاريخيا بالفعل كما قال ابن خلدون، ولم يكن ممكنا الاستمرار في أن تكون شورى، لأن النفوس تغيرت، والدولة اتسعت، وكثر الداخلون في الإسلام عربا وفرنسا ورومان وبربر وهنود وقبطا وغيرهم، وما كان ممكنا في هذا العصر أن

تكون شوري كما كانت على عهد النبي في المدينة المنورة.

يغفل الطاعنون على معاوية وعلى بني أمية عن أمر في غاية الأهمية، ذلك هو أن سائر الملوك والأمراء عبر التاريخ الإسلامي فيما بعد، لم يستطع أحدهم أن يعيد الأمر شوري، يشمل ذلك جميعهم، بمن فيهم من شهدت له الأمة بالصلاح والتقوى والقوة، يقول ابن خلدون: «ثم إنه وقع مثل ذلك (أي التوريث) من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرّون الحقّ ويعملون به، مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسّفاح والمنصور والمهديّ والرّشيد من بني العبّاس وأمثالهم، ممّن عُرِفَتْ عدالتهم وحُسن رأيهم للمسلمين والنّظر لهم، ولا يعاب عليهم إشار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء (الراشدين)»^(١).

ونضيف على ابن خلدون من أمراء المسلمين وسلاطينهم المشهورين بالقوة والتقوى: عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ويوسف بن تاشفين ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ومراد الأول ومراد الثاني ومحمد الفاتح وسليمان القانوني وغيرهم. وهؤلاء جميعا حكموا دولةً أقل حجما من دولة بني أمية، وفي ظروف استقرارٍ أفضل بكثير من زمن بني أمية.

لماذا تمكن الملوك والأمراء والسلاطين من تجاوز كل شيء فعله الأمويون، ولم يتمكنوا من تجاوز مسألة التوريث وإعادة الأمر شوري مرة أخرى؟! أيهما أقرب في العقل والفهم: أن يقال اتفقوا جميعا على هذا الذنب والتقصير، أم يقال: كانت طبيعة زمانهم وضرورات وقتهم التي لم يستطيعوا الانخلاع عنها؟!

إن العباسيين الذين قلبوا دولة الأمويين كلها، وعادوا على ميراثها بالمحو، اعتمدوا

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٦٣.

نظام التوريث وولاية العهد، ولم يفكروا في إعادة الأمر شورى. ولما فكّر المأمون في أن يعهد بولاية العهد إلى علويّ خارج بني العباس، وهو موسى الرضا «أنكرت العباسيّة ذلك، ونقضوا بيعته، وبايعوا لعمّه إبراهيم بن المهديّ وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدّد الثوّار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر»^(١)، وهذا مع أن تولية العهد للرضا كانت تحيط بها الظروف التي تجعلها أقرب إلى الأمر الشكلي غير الحقيقي، فلقد كان المأمون وقتها في الثانية والثلاثين من عمره بينما كان علي بن موسى في الثامنة والخمسين، فكان احتمالاً ضعيفاً أن تذهب الخلافة إلى علي بن موسى بعد المأمون^(٢).

وهؤلاء الخوارج، الذين خرجوا على الأمويين والعباسيين، والذين كان من أصولهم أن يكون الأمر شورى^(٣)، لما قامت لهم دُولٌ في المغرب أو في المشرق، ما استقرت لهم دولة أو توسعت رقعتها قليلاً، إلا وتوارثها الولد عن أبيه أو الأخ عن أخيه، ويظهر هذا عبر مراجعة قوائم حكامها الذين تتابعوا على الإمارة فيها.

لقد تكررت ظاهرة انتقال الحكم من الأب لولده أو لأخيه في سائر الدول: السنية والشيعية والخارجية، الكبيرة والصغيرة، ما كان منها على ثغر وفي أجواء حرب وما كان منها في أجواء استقرار وسلم. ويجب أن تنبهنا هذه التكرارية المستمرة إلى أنها كانت ضرورة الوقت وطبيعة العصر، وليست انحرافاً متفقاً عليه، كان يمكن لمن أصاب حظاً من التقوى أو من القوة أن يعيدها مرة أخرى إلى الشورى. ولهذا يقول ابن خلدون مفسراً الانتقال إلى الملك العضوض: «لا بدّ من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف باختلاف

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٦٤.

(٢) انظر في أسباب اختيار علي بن موسى والأجواء التي أحاطت به: محمد إلهامي، رحلة الخلافة العباسية، ١/ ٥١٠.

(٣) أوغل الخوارج في رفض فكرة العصبة، وفي رفض توارث الحكم، حتى انفردوا بالقول بأنه لو وُجد قرشي وغير قرشي، كلاهما جديرٌ بالخلافة، فإنه يُقدّم غير القرشي ليكون ذلك أسهل في خلعه لضعف عصبته. انظر: ابن حزم،

الفصل في الملل والأهواء والنحل، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت)، ٤/ ٧٤.

ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيّات وتختلف باختلاف المصالح ولكل واحد منها حكم يخصّه لطفًا من الله بعباده»^(١).

وعلى ذات هذا الحال سار العثمانيون أيضا، فانتقل الحكم من الأب لابنه ثم لابنه وهكذا، بل وصل الأمر في بعض سلاطينهم أنه أجاز لنفسه قتل إخوته كي لا تندلع الفتن والحروب على الخلافة والسلطنة بينهم وبين ولده إذا مات، وإنما فعل بعضهم ذلك لأن لهم ميراثًا من تنازع الإخوة على الحكم، وكان لهذا التنازع خسائر فادحة، ودخل على خطّه الروم البيزنطيين، وأدى لسفك دم كثير وضياع بلاد، وكادت تذهب في بعض هذه النزاعات الدولة كلّها^(٢). ولست هنا أقول بجواز قتل الإخوة -معاذ الله- وإنما قصدتُ هنا إلى بيان أن العصبية وصلت في آخر صورها لأن تكون متركزة على شخص السلطان القائم دون إخوته، تجنبًا للنزاع والفرقة. بينما قتل الإخوة كان من أسباب انهيار الدولة لأنه -مع كونه لم يتكرر كثيرا، كما يشيع أعداء الدولة العثمانية- أدى إلى ذهاب الدولة لابن لم يكن كفتًا، وتحكمت فيه نساء القصر^(٣).

من يُقَلَّب في صفحات التاريخ يرى المشاهد العديدة التي تثبت بجلاء أن الحاكم في ذلك الزمن مضطّرٌّ إلى توريث الحكم في أبنائه، واستئثار عصبته بالأمر، لا سيما إذا توسعت الدولة، وسنضرب بعض الأمثلة ذات الدلالة:

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٦٤.

(٢) بل لقد رأيتُ في تركيا حتى الآن من المؤرخين بل ومن الإسلاميين من يرى أن سبب ضعف السلطنة العثمانية أن قتل الإخوة لم يستمر فيها. وهذا باطل بلا شك! ولا يجيزه الشرع! وإنما ذكرته لأبين ما وصل إليه التفكير الذي يبحث عن استقرار الدولة وقوتها وتجنّبها النزاع والفرقة التي تضعفها.

(٣) وهذا حديث آخر، لعننا نتعرض له إذا شاء الله في فصل الدولة العثمانية.

(١) الحاجب المنصور ذروة تاريخ الأندلس

بلغت الأندلس ذروة قوتها في القرن الرابع الهجري، حيث أُنعت ثمار الحكم الذي أسسه الأموي الهارب من بطش العباسيين: عبد الرحمن الداخل، الذي دخل الأندلس بنسبه الأموي، واستطاع به تجنيد موالى بني أمية وارتفع به عن الزعامات المتقاتلة. حتى إذا دخل النصف الثاني من هذا القرن كان الخليفة في الأندلس الحكم المستنصر قد مات وابنه لا يزال صغيراً، فكان الوصي عليه والمدبر لأمره: الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وهو من أعظم شخصيات تاريخ الأندلس، بل من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي، وقد بلغت الدولة على يده ذروتها، وفتح من مناطق الشمال الأندلسي ما لم يصل إليه فاتح قبله، ولا وصل إليه أحد بعده.

ورغم المواهب العظيمة للحاجب المنصور، وجهاده المستمر الذي بلغ ستين غزوة لم يُهزم في واحدة منها، وعمله الهائل في السياسة والإدارة والحضارة والعلوم، إلا أنه لم يجرؤ على أن يخلع الخليفة الأموي الصغير من الخلافة، ويأخذها لنفسه. بل لقد نقم الناس عليه أنه يحجب الخليفة الأموي سليل الخلفاء والأمراء، واتهموه بقتله وإخفائه، حتى اضطر المنصور إلى إظهاره في موكب حافل!

إن المنصور لم يستطع مع كل هذه المواهب والجهود أن يبلغ في قلوب الناس مثل ما بلغه غلام أموي لا يعرف له الناس من المواهب والمآثر إلا هذا النسب الأموي! وكان المنصور يخشى من هذا الفتى فيُضطرّ لحجبه عن الناس، إذ هو يملك بمجرد هذا النسب أن يحرض الناس على المنصور ويستثيرهم ضده!

لقد كان المنصور، مع كل مواهبه وأعماله العظيمة، يواجه التاريخ والتراكم والتقليد وطبيعة العصر، فلم يستطع أن يأخذ الخلافة لنفسه، ورضي بلقب الحاجب التابع لفتى صغير، كان يقف إلى جواره التاريخ والتقليد والنسب الرفيع!

لقد أنقذ المنصورُ الأندلسَ من عيوب نظام التوريث، الذي يُفضي إلى أن يتولى الأمر من ليس أهلاً له، فكان من حسن حظ المسلمين أن كان المنصور في هذه اللحظة التاريخية، فأَجَّل دخول الأندلس إلى عصر ملوك الطوائف نصف قرن على الأقل.

ومع ذلك يُحَمِّل بعض المؤرخين - لا سيما المعاصرين - المنصورَ مسؤولية دخول الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وذلك أنه أول من عَطَّل نظام الحكم في البيت الأموي، ويدور الجدل بين المؤرخين حول هذا: هل ضعف البيت الأموي عن القيام بالحكم فأَجَّل المنصور انهياره؟ أم أنه كان أول من أضعفه وتسبب في انهياره؟ ذلك جدلٌ لا يهمنا الخوض فيه الآن، ولكن الشاهد منه أن الرجل العظيم الكبير ضعيفا حين واجه قانون العصر، فذلك الذي دَوَّخ الممالك لم يجرؤ على خليفة شاب بلا موهبة ولا إنجاز!

لما مات المنصور، جعل منصب الحجابة في ولده عبد الملك، فأكمل هذا مسيرة أبيه، وكان عصره هو ذروة الذروة، وهو آخر مراحل التفوق الأندلسي، فمن المؤسف أنه مات مبكراً، بعد ست سنوات فحسب، فآل المنصب إلى أخيه عبد الرحمن، وكان هذا الأخير متهوراً، فأقدم على الأمر العظيم الذي لم يجرؤ عليه أبوه المنصور، فأجبر الخليفة هشاماً على أن يعهد إليه بالخلافة، فاضطربت عليه الأندلس وثارَت فيها الفتن، وانبعثت فيها الانقسامات، وهذا هو الذي أفضى بالأندلس إلى عصر ملوك الطوائف.

وهذا المشهد هو الذي يجعل المؤرخ يُحَمِّل المنصور بن أبي عامر مسؤولية هذا التفكك، إذ هو أول من قلب نظام المُلك، والمؤرخ إذ يفعل ذلك فهو يعترف ضمناً أن نظام التوريث كان هو النظام الأقوم والأسلم في ذلك الوقت.

(٢) شبيه الخليفة الأموي في عصر ملوك الطوائف

لما دخلت الأندلس في عصر ملوك الطوائف، كانت أقوى الممالك الأندلسية حينئذ

مملكة إشبيلية التي حكمها بنو عباد، إذ سيطر على المدينة أبو القاسم بن عباد وكان قاضي المدينة الذي سيطر عليها ثم أورثها إلى ابنه المعتضد عباد بن أبي القاسم، ثم أورثها هذا إلى ابنه المعتمد بن عباد.

ولأن كل أسرة سيطرت على ناحية كانت تحتاج إلى الشرعية التي تجعلها أحق بالحكم من غيرها، لا سيما أولئك الذين يطمحون للسيطرة على الأندلس، فقد رفع بعضهم شعار النسب النبوي كما فعل الحموديون، ليكونوا هم الأولى بالخلافة وبحكم الأندلس.

وأما بنو عباد فقد عمدوا إلى وسيلة أخرى، لقد وجدوا رجلا من عامة الناس فيه شَبَهٌ كبيرٌ من الخليفة هشام بن الحكم المستنصر، وساعدهم في ذلك غموض مصيره إذ لم يُعرف ماذا حصل له مع الفتنة التي نشبت بالأندلس!! وهو الغموض الذي أحاطه الناس بالحكايات المنسوجة.

وما كان ممكنا أن يكون هذا الشبيه هو هشامٌ حقا، إذ سيكون قد جاوز المائة عام في ذلك الوقت، ولكن هذا الشبيه وفّر لهم الشرعية المطلوبة للحكم، فهذا الخليفة الأموي الذي حجه المنصور بن أبي عامر، قد ظهر من جديد، وهو أجدر بحكم الأندلس، وحاجبه هو أبو القاسم بن إسماعيل العبادي الذي يملك إشبيلية! وكاد أبو القاسم أن ينجح في خطته بهذا الشبيه، إذ ثار الناس في عدد من الأنحاء يطالبون بعودة الوحدة إلى الأندلس تحت خلافة هشام، لا سيما في قرطبة التي كانت عاصمة حكمه.

والخلاصة المقصودة أن أقوى مملكة في الأندلس كانت بحاجة إلى رجل ينتمي للبيت الأموي لكي يستقر لها حكم المملكة، وليكون تمددها محفوفًا بالشرعية!

(٣) يوسف بن تاشفين وتطور دولة المرابطين

كادت الأندلس أن تسقط بعد عصر ملوك الطوائف، لولا أن أنقذها الله على يد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين، الدولة المغربية القوية التي تدخلت لصدّ النصارى، وسحقتهم في معركة فارقة، هي معركة الزلاقة، فأمدّت في عمر الأندلس مائة عام على الأقل. وأميرها يوسف بن تاشفين واحدٌ من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامي.

وقصة دولة المرابطين وأميرها ابن تاشفين تشهد للمعنى الذي نقوله هنا، فلقد كانت بداية هذه الدولة على يد الفقيه عبد الله بن ياسين الذي حاول أن يُفكَّ قبائل جدالة المغربية فطرده زعماءها، وطردها معه زعيمهم يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي جاء به إليهم، فاتخذ الشيخ والزعيم خيمةً عند مصب نهر السنغال، انحاز إليه هناك من اتبعوهما، فكان الشيخ أميرهم في شؤون الدين، وكان الزعيم أميرهم في شؤون الدنيا من إدارة وإعداد وتدريب على الجهاد. ومن هذه الخيمة توسعت دولة المرابطين.

ما يهْمُنَا في هذا المقام أن دولة المرابطين في بدايتها البسيطة ومساحتها المحدودة والهيمنة الإيمانية الفائقة التي كانت تشملها، بدت شبيهة بالمدينة المنورة، فلما مات يحيى بن إبراهيم الجدالي انتقلت الإمارة إلى يحيى بن عمر اللمتوني، فانتقل الأمر بسيطاً وسلساً إلى رجلٍ من قبيلة أخرى كانت مُنافسةً منازعةً للقبيلة الأولى، إلا أن وازع الدين وهيمنة الإيمان لدى المرابطين كان قد أزال هذه الاعتبار العصبية الجاهلية. ولما مات بعد قليل يحيى بن عمر اللمتوني انتقلت الإمارة من بعده لأخيه أبي بكر، فقد كان أجدرهم، وتبدأ من هنا بذرة انتقال الإمارة في البيت الواحد. ثم توسعت الدولة فرأى أبو بكر أن يقسم المرابطين فيتوغل هو بقسم منهم إلى الجنوب، جنوب الصحراء الكبرى الإفريقية، ويبقى القسم الآخر مع ابن عمه يوسف بن تاشفين ليستكمل توسيع الدعوة والدولة في الشمال.

تحت قيادة يوسف بن تاشفين، حققت الدولة توسعاً قوياً حتى شملت كل بلاد المغرب الأقصى، ولما عاد أبو بكر بن عمر من جولاته الصحراوية، رأى ابن تاشفين ألا ينزل عن إمارته لابن عمه، ومهما حاول البعض الحديث عن شهوة السلطة وحب

الإمارة، فإن ما اشتهر عن ابن تاشفين من التقوى والورع والجهاد وكثرة الفقهاء^(١) في حاشيته يحمل على إحسان الظن به، وأنه قدّر أن مصلحة الدولة في بقاءه هو على رأسها، وهو الأمر الذي فهمه أبوبكر فلم ينازعه، بل سلّم له بأنه الأمير، وعاد ليواصل قيادته للقسم الجنوبي من الدولة المرابطية!

عاش ابن تاشفين مائة عام، مكلفة بالجهد والجهاد، وصار أمير دولة تحكم الأندلس والمغرب، بعد أن أزال ملوك الطوائف نزولا على فتاوى علماء الأندلس وعلماء المرابطين وعلماء المشرق الإسلامي، ولما قاربت الوفاة استشار ابن تاشفين قاداته وأهل مشورته، فاستقر أمرهم أن يتولى الأمر من بعده ابنه الأمير علي، فكتب الأمر بولاية العهد، وبايعت له الأمصار، ولم يكن عليّ هذا أكبر إخوته.

لقد كان اتساع الدولة وقوتها وبناء حضارتها عاملا جديدا لم يواجه الزعماء من قبل، وإذا كان انتقال السلطة قد جرى سلسا حينما كانت الدولة محدودة الرقعة، وحينما كانت الدولة في مرحلة «الوازع الديني»، بتعبير ابن خلدون، أما وأن الدولة قد تمددت من الأندلس شمالا حتى مناطق جنوب المغرب، فما كان من حل إلا بتولية العهد أو بالتوريث، بل لقد علّق المؤرخ الأديب الشاعر محمد بن خلف على هذا التوريث بقوله: «مما سلّى النفوس كل التسلية، وأطفأ نار الرزية، ما كان من نظره الجميل، ورأيه الأصيل، من تولية الأمر في حياته لابنه الأمير أبي الحسن»^(٢).

(٤) نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي

(١) انظر في أخلاق ابن تاشفين: مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ٨١، ٨٢.

(٢) انظر: مجهول، الحلل الموشية، ص ٨٣. ومحمد بن خلف الصديقي لم يصلنا تاريخه «البيان الواضح» الذي يؤرخ فيه لمأساة بلنسية في عهد ملوك الطوائف.

يتحدث ابن الأثير أنه لم ير في التاريخ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز مثل الملك العادل نور الدين زنكي، فهو من أعلام المسلمين، الملقب بالملك العادل المجاهد، ومن المعروف أنه ورث الحكم عن أبيه المجاهد عماد الدين زنكي، ولكن الذي يهْمُنَا هنا أن هذا الملك العادل الذي يخوض الجهاد ضد الصليبيين تأخر إنجابه للولد، فلما مات وهو في الثامنة والخمسين كان ابنه الصغير قد جاوز العاشرة بقليل، وكان هو وليَّ عهده.

لم يفكر أحد في ذلك الوقت، لا نور الدين ولا غيره، أن يكون وليَّ العهد بعد نور الدين واحداً غير ولده الصغير هذا، مع أن الأمراء فيهم رجل قويُّ قدير هو صلاح الدين الأيوبي الذي يحكم مصر والمغرب الأدنى واليمن، وله من المآثر في الجهاد والإدارة ما لا يُقَارَنُ بأيِّ أمير في حاشية نور الدين، فضلاً عن أن يُقَارَنَ بفتى قد جاوز العاشرة، بلا مآثرة ولا موهبة!

اضطربت أمور الشام بعد وفاة نور الدين، وتنازع الأمراء حكم مناطق الشام، وصار هذا الفتى الصغير هو عنوان شرعية الحُكْم، فكلُّ منهم يدَّعي أنه الأولى والأحق بحفظ الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين، وبالفعل، استطاع أحدهم أن يتحيَّل على البقية وأن يأخذ الفتى معه إلى حلب، فصار بهذا أقوى الأمراء.

كان من حسن حظ المسلمين ساعتها أن كان صلاح الدين موجوداً، وقد نهض صلاح الدين ليتدارك الأمر في الشام بعدما كاد ينهار الإنجاز الجهادي لنور الدين، وكان أشدَّ ما لقي صلاح الدين من المشقة أن يُتَّهَمَ بالغدر بابن الملك الشهيد الذي كان صاحب الفضل على صلاح الدين وأسرته، وكانت دعوى صلاح الدين التي رفعها لمنع انهيار وحدة الشام هي أنه الأولى والأحق برعاية إسماعيل بن الملك العادل الشهيد نور الدين!! وهكذا نرى أن صلاح الدين رغم كل هذه المواهب والمآثر العظيمة، وأهمها إسقاطه الدولة العبيدية وتوحيد الشام ومصر، كان متحرجاً أن يبدو مغتصباً لحكم الصالح

إسماعيل. كان صلاح الدين مع كل هذا التاريخ يقف أمام قوة التاريخ وطبيعة العصر التي تجعل الفتى المغمور مرتفعاً بنسبه على الرجل الكبير الذي رفعه عمله.

وقد استصدر صلاح الدين من الخليفة العباسي تقليداً بتوليته على مصر والشام، خلفاً لنور الدين، وصدر المرسوم يعطيه تلك الولاية ما عدا حلب، التي صارت مركز حكم الصالح إسماعيل. بل استطاع هذا الفتى الصغير أن يعرقل جهود صلاح الدين شهوراً، إذ تعصب له أهل حلب، وهم أنصار البيت الزنكي، وبذلوا جهدهم معه في صدّ صلاح الدين. وكانت وفاة هذا الفتى مبكراً، قبل أن يبلغ العشرين من النعم التي أنعم الله بها على صلاح الدين، فقد عجز عن أخذ حلب حتى توفي هذا الفتى.

وذاً الأمر وقع لصلاح الدين أيضاً، فإنه مع قوته وورعه وتقواه وزهده وجهاده، إنما أورث الملك من بعده لأبنائه، وقسّم مملكته بينهم، ولم يخطر بباله غير هذا. فكان منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك!

(٥) المماليك وسر الاضطراب

ونختم بمثال المماليك، ومثالهم مهمٌّ لنا من جهة أنهم القوة التي حكمت بلداً واسعاً، ولم يكونوا أسيرة ملكية، بل كانوا قوة عسكرية نشأت في ظل الدولة الأيوبية.. فكيف جرى الأمر؟

لقد جرى الأمر بقانون السيف، فحيث لم تعد ثمة شرعية لأسرة حاكمة قوية، فقد صار كل من يرى في نفسه القوة يتطلع إلى الحكم، فإذا تمكّن المملوك القوي أن يبقى في الحكم بقوته وقدرته، فإنه من النادر جداً أن يتمكن ابنه الذي أورثه الحكم من ذلك، فالمملوك إما مقتول على يد من ينافس، وإما سيكون ابنه هو المقتول على يد المملوك القوي!

وهكذا كان عصر المماليك مضطرباً، ما يلبث المملوك أن يُخلع أو يُقتل، وقد يعود المخلوع مرة ثانية وثالثة ورابعة أحياناً^(١)، وقد أحصيتُ انتقال الحكم بينهم فإذا هو ٥٦ مرة، أي أن متوسط فترة السلطان في الحكم الواحد أقل من خمس سنوات، وذلك عبر ثلاثمائة سنة تقريباً، ومنهم من لم يبق في الحكم إلا أياماً أو شهوراً.

ولا شك أن هذا الاضطراب قد عاد بالضرر على الأمة وحضارتها، وليس هنا موضع التفصيل في ذلك الأمر.

والخلاصة من هذا كله أن نقول: إن طبيعة ذلك العصر، وضرورة حكم الإمبراطورية الواسعة، لا سيما في ذلك الزمن، ما كان من الممكن معها أن يكون الأمر بالشورى على نحو ما يتخيله المعاصرون من انتخابات النظام الجمهوري، فهذا النظام الجمهوري إنما تأسس على إمكانيات حديثة، وفرها التقدم المعاصر في أساليب الاتصال والانتقال، ما كان ممكناً أن تتوفر في حكم الدول القديمة، ومع هذا فلا بد من التنبيه على أمرين في غاية الأهمية:

الأول: أن دولة الخلافة الراشدة كانت أيضاً قائمة على عصبة، وهي عصبة قريش المَعَصَّة بعصبة الأنصار، إلا أن الهيمنة الإيمانية العظيمة في هذا العصر كانت قد جعلت هذه العصبة في خدمة الدين، فكان يُختار الأكفأ من بين قريش ولو كانوا أقل في مرتبة القبيلة كما هو الحال في أبي بكر وعمر. ثم إن تباعد المسافة بين الأقطار الإسلامية جعل مهمة اختيار الخليفة محصوراً في أهل الحل والعقد المقيمين في العاصمة، وفي أهل

(١) انظر قائمة السلاطين المماليك وأزمته حكمهم في: زمباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، أخرجه: د. زكي محمد حسن وآخرون، (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٠ م)، ص ١٦٢ وما بعدها؛ كليفورد بوزورث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ترجمة: عمرو الملاح، ط ١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٣ م)، ص ١١١ وما بعدها.

العاصمة، التي هي المدينة المنورة.

الثاني: أن هذه الإمكانيات الحديثة التي وفرتها وسائل التواصل، ومكَّنت الشعوب في البلد الواسع من اختيار الرئيس في يوم واحد، كانت هي نفسها الإمكانيات التي مكَّنت السلطة من تحقيق هيمنة سلطوية مركزية لم يتخيلها سلطان ولا خليفة في زمنه! فالمستبد في ذلك الزمن القديم أعجز عن السلطة التي يملكها أكثر الحكام الديمقراطيون في عصرنا هذا. ويظهر هذا واضحاً في بلادنا التي ترزح تحت سلطة استبدادية طغيانة متسلحة بإمكانات مراقبة وتحكم جبَّارة، ولا يزال الجدل قائماً فيما إن كان هذا النظام الجمهوري جمهورياً حقاً أم أنه ملكيَّة مُقَنَّعة؟ ذلك أن أرباب المال والعلاقات وأصحاب النفوذ يُمثِّلون عملياً عصابة حاكمة، ويتصاهرون فيما بينهم حتى يتحولون عملياً إلى أسرة حاكمة، وهم إما يحكمون بأنفسهم في ظل ديمقراطية زائفة فتكون عائلات الحكم هي ذاتها عائلات الثروة، أو أنهم يحكمون من وراء ستار الديمقراطية فيكونون على الحقيقة أصحاب الدولة العميقة التي يضعف أمامها المُتتخَبون، ويضطرون لإرضائهم إن لم يخدموهم!

إن إدانة تاريخنا الإسلامي، لا سيما مرحلة الملك العضوض، هو في جانب كبير منه نتيجة انخداع بالصورة البراقة الزائفة للديمقراطية المعاصرة. وحين ينقشع هذا الوهم، سيعود بعض التقدير لتاريخنا الإسلامي، لا سيما إن نضج العاطفيون والمثاليون، وصاروا أحسن بصراً بالواقع أولاً ثم بالتاريخ.

ومن الجدير بالذكر أن النظام الملكي ليس شراً مُطلقاً، بل إن الله تعالى أنعم على نبيِّه داود وسليمان أن آتاهما الله المُلك، وقد خُيِّرَ نبيُّنا بين أن يكون نبياً ملكاً أو أن يكون عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً. وقد قدَّم المسلمون إلى العالم كله رحمة وهداية وعلوماً وحضارة عظيمة، وهم تحت حكم الملوك، وسيأتي معنا فيما بعد بعض مظاهر هذا كله. وحتى في زماننا هذا، زمان الحكم الجبري، الذي انقسم فيه عالمنا الإسلامي إلى

ملكيات وجمهوريات، يمكن القول بغير تردد: إن أحوال الناس تحت حكم الملكيات كانت أقل سوءاً من أحوالهم في الجمهوريات، مع أن كليهما كان شراً، وكان نتيجة الاحتلال الأجنبي والهيمنة الغربية.

هل يتحمل معاوية مسؤولية الطغيان المعاصر؟

لا يمكن بأي ميزان علمي أن يُقال بأن السبب وقع، ثم حصلت النتيجة بعد ألف سنة!! كأن طغائنا الآن الذين أقاموا على التوريث ونظام ولاية العهد، بمن فيهم طغاة هذا العصر، قد اتخذوا معاوية نبياً يقتدون به ويتمسكون بسنته تمسكاً لم يبذلوه لنبئهم صاحب الرسالة ﷺ؟! إنك ترى الطاغية المعاصر قد جاء به الغرب، وربما أشرف الغرب منذ البداية على تعليمه وتصعيده وتنصيبه، ثم هو يعمل كل جهده في التمكين للغرب ونشر التغريب في بلادنا، ثم يخرج علينا من يقول: معاوية هو المسؤول!!

يقفز بهذا القول على خمس عشرة قرناً انقلبت فيها الدنيا وموازينها في كل شيء، كأنه لم يبق ثمة سبب لما نحن فيه من الضعف والعجز إلا ما فعله معاوية!! وكأن سائر أخطاء المسلمين التي أدخلتهم في عصور الضعف والتي مكَّنت للاحتلال الأجنبي، ثم أخطائهم في عصور الاحتلال وحتى الآن، ليست شيئاً أمام ما فعله معاوية!!

إنه من المسيئ لأي كاتب أو مفكر أو مؤرخ أن يقفز فيتجاوز الأسباب الواضحة والجلية والمباشرة التي شكَّلت عالماً المعاصر وصنعت أحوالنا المؤسفة المزرية، وفي مطلعها الاحتلال، والضعف الإسلامي الذي أغرى الاحتلال بنا، وما أنتجه الاحتلال من أنظمة سياسية واقتصادية وأوضاع اجتماعية وثقافية، لبحث قبل خمسة عشر قرناً عن السبب البعيد العميق، ليعقد الأمر في رقبة معاوية ويحملة المسؤولية!!

ونحسب بعد هذا العرض الذي قدمناه للظروف ولوقائع التاريخ أن الإجابة باتت واضحة: إن التوريث الذي بدأه معاوية انتهى بوفاة ابنه يزيد بعد ثلاث سنوات، وانقسمت

الأمة انقساماً جديداً استهلك منها عشر سنوات حتى حسمه عبد الملك بن مروان بالسيف والحرب، وقبض على زمام الخلافة.

واستعادة الأمويين للخلافة بقوة عصبتهم وشوكتهم كانت دليلاً على صحة نظر معاوية حين عهد بالخلافة إلى ولده، فقد قدّر مبكراً أنه ليس ثمة شوكة ولا عصبة قادرة على القيام بالأمر إلا عصبته.

ويتضح من العرض السابق أيضاً أن المسؤولية لا تختص بمعاوية وحده، فإن قبول جمهور الصحابة والتابعين بما فعل، لهو دليل على أن تقدير معاوية كان موافقاً لتقديرهم، وأما المخالفون فهم القلة النادرة، وقد انتهوا إلى اثنين فحسب: ابن الزبير والحسين.

يحاول البعض أن يخفف من مسؤولية معاوية عما صار إليه حال العالم الإسلامي، فيقول: إن الصحابي ليس معصوماً من الخطأ. وهذه كلمة حق، ولكنها في هذا السياق يُراد بها باطل، فإن تخطئة معاوية هنا تجرُّ إلى تخطئة الجيل، إذ لم يكن وحده أمام جمهور من المعارضين، بل كان المعارضون قلة أمام معاوية وجمهور من الموافقين لعمله.

ولئن كان الصحابي يقع في الخطأ فليس معنى هذا أنه مخطئ دائماً، وأن حياته عبارة عن مجموعة من الأخطاء. والذي نقره أنه في هذا القرار كان مجتهداً ومصيباً، وأن الانتقال إلى الملك العضوض كان ضرورة في ذلك الوقت، بالنظر إلى سائر الظروف.

ولو أن معاوية يتحمل مسؤولية الطغيان المعاصر لكونه أول من عمل على ذلك، فلا بد أن نرجع إليه فضل استقرار الحضارة الإسلامية لألف سنة، فإنه ما كان للأمة أن تنشئ حضارة في دولة غير مستقرة، ولقد كان هذا التوريث من أهم عوامل استقرارها ونزع فتيل اضطرابها عند وفاة كل خليفة! على ما نحو ما يقول جلال كشك: «إن تعيين يزيد هو الذي مكّن الدولة الإسلامية من الاستمرار، وما ترتب على ذلك من نتائج نحن سعداء بها كل السعادة، أما الآسفون فبعضهم حاقّدٌ على ما جرى، وبعضهم عاجز عن اكتشاف الحل

لعصره، ومن ثم يهرب ليحل مشاكل العصور الماضية»^(١)!! وهو يقصد بالحاquدين أولئك الذين يغضون الإسلام من غربيين ومستشرقين وأتباعهم، وبالأخرين: أولئك العلماء والدعاة الذين طعنوا في معاوية وبني أمية.

«ما من باحث أو مؤرخ يدّعي لنا أنهم قد تسببوا في كارثة أو ارتكبوا خطأ فادحاً، فقد تركوا خلفهم مؤسسة استطاعت أن تسود العالم وتبني حضارات متتابعة على طول ألف سنة، وإنما هي مأساتنا نحن الذين نتمنى لو لوضع لنا أبو بكر مؤسسة نحل بها مشاكلنا في نهاية القرن العشرين! ولأننا لا نستطيع استنباط حل إسلامي لهذه المشاكل نعيب الصحابة لأنهم لم يشحنوا لنا هذا الحل عبر التاريخ»^(٢).

والقصد هنا أنه إذا حمّلنا معاوية مسؤولية الطغيان المعاصر في بلادنا، فلا بد أن نُحمّله فضل الانتقال إلى الملك العضوض التي حفظت دولة الإسلام، فأتاح بذلك الفرصة لنشأة هذه الحضارة العظيمة التي تمددت وتوسعت وأشرقت لألف سنة. ولكني لا أذهب حتى هذا الحدّ، بل العدل والإنصاف أن يُقال: إن هذا الانتقال كان اضطراراً حقق نتائجه المرجوة في ذلك الوقت، لا بفضل معاوية وحده، بل بفضل سائر من وافقوا على هذا من الصحابة والتابعين في وقتها، ثم بفضل الموقف الفقهي العظيم الذي سنحاول الآن رفع الإِصر عنه، وهو قضية: التغلب وحكم المتغلب.



(١) جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) محمد جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٥.

التغلب وحكم المتغلب

ذكرنا في ثنايا العرض السابق أن عبد الملك بن مروان هو أول حاكم متغلب في تاريخ الإسلام، وذلك أنه انتزع الحُكم من عبد الله بن الزبير الذي كانت الأمصار قد بايعته، إلا قطعة من أهل الشام. فلئن كان معاوية قد أخذها صلحاً من الحسن بن علي رضي الله عنهما، فإن عبد الملك بن مروان قد أخذها بالغلبة.

وقد أورثها عبد الملك لأولاده حتى تغلب عليها يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فانتزعها من ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ثم مات مبكراً فأخذها مروان بن محمد من إبراهيم بن الوليد، ثم انتزعها العباسيون، فتولاها أبو العباس ثم أبو جعفر المنصور، ثم تسلسلت في أولاده حتى تقاتل الأمين والمأمون ابنا هارون، فغلب المأمون وانتزعها المأمون من أخيه، ثم استمر الأمر بعد ذلك في سائر الدول الإسلامية بين توريث أو غلبة حتى نهاية الدولة العثمانية. ومن بعد ذلك تفرقت الأمة وتقسّمت، فغلب على كل دولة منها من وضعه الاحتلال الأجنبي أو رضيه، فكان ذلك مبتدأ الحُكم الجبري.

وفي حقبة الحُكم الجبري عانت الأمة أسوأ أوضاعها، في الدين والدنيا معاً، وما يهْمُنَا

منه الآن هو ما أصاب العديد من طوائف الأمة من ضعف الثقة في دينها وتراثها وتاريخها، بما في ذلك الفقه العظيم الذي عاش ناضراً زاهراً، وقاعدةً بُنيت عليها حضارة عظيمة تفوقت لألف سنة على الأقل! وما يُهَمُّنا من ذلك الآن هو ما أحاط بحكم التغلب من تشويش وتشويه!

من أين نشأ التشويش؟

نشأ هذا التشويه والتشويش لعدد من الأسباب، من أهمها:

١. علماء السوء الذين نبتوا حول السلطات التي صنعها الاحتلال الأجنبي وظهر منها الكفر البواح، فجعلوا يستدلون لشرعية حكمهم، ويدعون الناس إلى طاعتهم، على اعتبار أنهم حكام متغلبون، وأعادوا إنتاج أقوال الفقهاء في القبول بحكم المتغلب للضرورة، ولمنع المفساد، وتحريم الخروج عليهم حقناً للدماء وتجنباً للفتن، وبدا بهذا أن الإسلام وفقهه وعلماءه يقفون إلى جوار حكام الجور والمظالم ويمنعون الناس من مقاومة هذا الظلم.

٢. أولئك الذين عملوا على مقاومة هؤلاء الظالمين، ومنهم من سعى في الخروج عليهم لما رأوا منهم من الكفر البواح كتبديل أحكام الشريعة وموالات الكافرين وتمكينهم من بلاد المسلمين ورقابهم، فكان من الصعب على هؤلاء أن يقبلوا فقها يقبل حكم المتغلب وبذل الطاعة له، فسعى هؤلاء في استخراج مواقف العلماء الذين ثاروا على الظالمين الجائرين، وسعى بعضهم كذلك إلى إدانة الموقف الفقهي الذي يتقبل التغلب ويجعله من طرق عقد الخلافة، ومنهم من غلا حتى أدان الفقه والفقهاء والتراث على الجملة.

وقد رفع الأولون عبارات موجزة مجملة للفقهاء، هي على الحقيقة مُتَرَعَّةٌ من سياقها الفقهي العام، ليؤيدوا بها أنظمة السوء التي يُمَكِّنُون لها، وهي العبارات التي أدانها

الآخرون في غمرة رفضهم للظلم والقهر، مثل عبارة الإمام ابن جماعة: «إذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده، انعزل الأول وصار الثاني إماماً»^(١)، وأمثالها من العبارات التي ظنوا أنها تجعل الأمة قطيعاً من النعاج تتبع من غلب، وسيأتي معنا بيان معاني هذه العبارة وأمثالها.

٣. ومما زاد في شراسة هذه المعركة وشدتها أنها كانت تجري في زمن التفوق الغربي، حيث كان الغربيون قد توصلوا إلى أنظمة ديمقراطية تتيح لهم انتخاب الرئيس أو الحكومة، وفي أجواء من تبادل السلطة سلمياً بين الذي انتهت ولايته، والذي اختاره الناس. فمثلاً هذا النموذج المتفوق البراق محنة لأولئك الذين يدافعون الظلم، وكثيرٌ منهم افتتن بهذا النظام الغربي، وأخذ يبحث متحسراً كيف لم يتوصل المسلمون إلى مثل هذا النظام؟ ثم طفق يبحث عن عوامل الاستبداد والانفراد بالسلطة في تراثنا فصبَّ جام غضبه على معاوية ومن بعده، وعلى الفقهاء الذين لم قبلوا حكم المتغلب، بل على جملة الفقهاء الذين لم يستطيعوا تأسيس نظام يسمح بتبادل السلطة سلمياً في حضارتنا الإسلامية.

٤. ثم زاد في المحنة أن كثيراً من أبناء العرب والمسلمين افتتنوا بالحضارة الغربية ونظامها إلى حد الكفر بالإسلام وحضارته وميراثه، فانحازوا إليها، واعتنقوا العلمانية، وصاروا سهماً في كنانة العدو، يُوجَّه إلى صدر الأمة ذاتها، فكانوا من جنود الغرب ضد الإسلام. وتشربوا من أساتذتهم من المستشرقين والمُنظِّرين الغربيين ما يرسخ في نفوسهم تفوق الغرب ونظامه وحضارته، على الإسلام ونظامه وحضارته، فالغرب عندهم هو قرين الحرية والتقدم والانفتاح، والإسلام هو قرين الاستبداد والانغلاق والقهر!

٥. وقد أدَّى اختلاف العصر والثقافة السائدة الغالبة إلى فجوة في الفهم والتصور، فقد

(١) ابن جماعة، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص ٥٦؛ وانظر مثلها عند: التفنازاني، شرح المقاصد، ٢٣٣/٥.

قُرئ تراثنا بعيونٍ وقلوبٍ صبغتها الثقافة المعاصرة، فما هو إنسانيٌّ مقبول في عصرنا صار يحكم على تراثنا، وما هو مرفوضٌ منبوذٌ في عصرنا صار يحكم على تراثنا، فربما تعجَّب الكاتب أو الداعية المعاصر: لماذا لم ينهض أحدٌ للمطالبة بهذا الأمر الإنساني العظيم بكل قوة في تاريخنا؟ أو كيف لم ينهض أحدٌ لمقاومة هذا الأمر المرفوض بكل قوة في تاريخنا؟ ثم ساقته هذه الأسئلة إلى رأي قاسٍ ونظرة سوداء في تاريخنا الإسلامي.

٦. كذلك فإن الحساسية الأخلاقية العالية في ديننا، وعظمة النماذج التي قدَّمها الراشدون، جعلت معيار النظر في تاريخنا معياراً شديداً وحساساً، لقد ظل نموذج الراشدين مهيمناً على العقول والقلوب حتى حوِّك عليه سائر الملوك في تاريخنا، فمهما كان إنجازهم ومهما كانت تقواهم فإنها إذا قيسَتْ إلى الراشدين بدت ضعيفة هزيلة.

ولكُم ثار في تاريخنا علماء وفضلاء على أولئك الملوك لما رأوه من انحراف أولئك الملوك عن سنة الخلفاء الراشدين. لقد كانت ثورات هؤلاء وأقوالهم في إدانة أولئك الملوك وظلمهم مما شكَّل الضمير الإسلامي في وقتها وحتى الآن! فإذا بالملوك الكبار العظماء في تاريخنا الإسلامي يُحسَبون في عداد الظالمين والطغاة والمفسدين، وهو الأمر الذي إذا قرأه المعاصرون ظنُّوا أنه من نوع الظلم والطغيان الذي يفعله حُكَّام الجبر، الدعاة على أبواب جهنم، ولم يفطنوا أنه إنما كان بالقياس إلى أحوال الراشدين!

إن هذه الحساسية الأخلاقية العالية إذا قيسَ إليها سائر الملوك في تاريخ البشر فلن يبق في التاريخ ملك يستحق الثناء، كذلك فإن ملوك تاريخنا إذا كانوا قد ظهرُوا في أمة أخرى لعدُّوا من عظمائها، ولما كان الذي ندينه بهم ونستنكره عليهم إلا بمثابة الضرورات والأمور الهامشية التي لا يُلْتَفَت إليها ولا تعد مطعناً في تاريخهم بمقياس تلك الأمم.

وهذه بعض الأمثلة عن الحساسية الإسلامية التي صدر عنها علماؤنا:

▪ قال السرخسي: «الأئمة بعد الخلفاء الراشدين -رضي الله تعالى عنهم- قلَّما يخلو

واحدٌ منهم عن فسق»^(١).

▪ وصف ابن حزم ملوك القرن الأول والثاني الهجري بهذا الوصف: «الطغاة العتاة من ملوك بني العباس وبني مروان (الذين تَوَلَّوْا) عند دروس الخير وانتشار البلاء، وعودة الخلافة ملكا عضوضا، وانبراءً على أهل الإسلام، وابتزازًا للأمة أمرها بالغلبة والعسف، من المبطلين سنن الإسلام، المحيين لسنن الجور والمكر والقبالات وأنواع الظلم وحل عُرى الإسلام»^(٢).

▪ تحدث القرطبي المفسر عن زمنه فقال: «هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسًا والحق عكسًا، لا يوصل إليه ولا يُقدر عليه. بدَّلوا دين الله وغيروا حكم الله، سماعون للكذب أكَّالون للسحت»^(٣). هذا وهو قد عاش في مصر في آخر زمن الأيوبيين، وفي أول زمن المماليك، وهو عهدٌ حافل بالجهاد لصدِّ الصليبيين والمغول، وتوفي القرطبي (٦٧١هـ) في زمن السلطان الظاهر بيبرس، وهو من أزمنة القوة الإسلامية، ومن أزهَر العصور التي مضت على مصر.

وإن إدانة الزمان والتحسر على ما وقع فيه من الانحراف خطُّ ظاهرٌ في تراثنا، متكرر في كتب علمائنا وأئمتنا، حتى ليحسب القارئ المعاصر غير الخبير أن زماننا كزمانهم، وما يعرف أن زمانهم بالنسبة إلى ما نحن فيه كالجنة بالنسبة إلى الجحيم!

وفي مقابل هذا نرى صورة أخرى لهؤلاء الملوك والمتغلبين في كتابات الباحثين

(١) السرخسي، المبسوط، ٣٢/٥.

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ٢٢٩/٤، ٢٣٠. بتصرف يسير.

(٣) القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: الصادق بن إبراهيم، ط ١ (الرياض: دار المنهاج،

١٤٢٥هـ، ٣/١٢٢٨).

الغربيين المنصفين، فلا يُستغرب أن ترى بعضهم يصفون عبد الملك بن مروان بأنه «ال خليفة العظيم الثالث في الإسلام بعد عمر ومعاوية» وأن دولته كانت «إسلامية تماما»^(١)!

وهنا لا أطلب بأن نتخلى عن معيارنا الإسلامي الأخلاقي الحساس والعالي، معاذ الله، بل أحاول لفت النظر إلى أن معايير التقييم عندنا كانت من أسباب القسوة والنظرة السيئة التي استقرت لدى كثير من العلماء والدعاة تجاه تاريخنا الإسلامي. وكانت كذلك من أسباب سوء الفهم لكثير من أبواب الفقه السياسي. وكانت من أسباب تصور الكثيرين أن أبطال تاريخنا قليلون، لأنهم يطلبون بطولة على معيار الراشدين أو قريبا منهم. إن أكثر الناس لا يتصور ولا يقع في ذهنه أن نابليون وجورج واشنطن وبسمارك وبطرس الأكبر والإسكندر الأكبر إنما هم نماذج هزيلة إذا قورنوا بملوك بني أمية وبني العباس وبني عثمان! في الإنجاز والفتح والقوة وفي العدل والرحمة والأخلاق كذلك!

لهذا كله، تعرض موقف الفقهاء في حكم التغلب إلى تشويش وتشويه فظيع، ووقع في ذلك علماء كثيرون لا نشك في إخلاصهم ودينهم، لكنهم لم يستطيعوا الانفلات من سطوة الغالب^(٢)، وبعضهم كان علمه بالتاريخ محدودا، لا يساعده في فهم الوضع الاجتماعي والسياسي الذي نتجت فيه أقوال الفقهاء، وبعضهم كان علمه بالواقع الغربي محدودا كذلك، فلم يكن بإمكانه أن يتبصر حقيقة الديمقراطية والحرية هناك، فصدرت منهم عبارات بعضها هادئ وبعضها شديد القسوة ضد تاريخنا وفقهنا، ولأنهم كانوا قوما لا يُشكُّ في إخلاصهم للدين وجهادهم في سبيله، فقد كانت تلك المواقف منهم تُشوّش

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٣٩٣، ٣٩٦.

(٢) راجع في سطوة الغالب: الفصل الذي سطره ابن خلدون في مقدمته «في أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب»، وراجع كتاب الشيخ إبراهيم السكران «سلطة الثقافة الغالبة».

حتى على الشباب الإسلامي وعلى طلبة العلم. وإنه لمن المؤسف أن «عددا من الدعاة الإسلاميين الكبار، ساعدوا العلمانيين -عن غير قصد- بقسوتهم على التاريخ الإسلامي، وتضخيم مثالبه وعيوبه، والتقليل من محاسنه ومزاياه، غفر الله لهم»^(١).

نماذج من قسوة العلماء المعاصرين على تاريخنا

وهنا سنتخير أقوال من كانوا في الذروة والصدر من العمل الإسلامي في قرون الهزيمة، ونكرر التأكيد على أننا نعذرهم، وأن خطأهم في هذه المسائل مغمور في بحر حسناتهم وفضائلهم، وأنه مغفور لهم إن شاء الله، فما نحسب إلا أنهم أرادوا الحق فأخطؤوه. وكثيرٌ منهم وقع منه في غمرة حماسه أخطاء فادحة في التصوير أو التوصيف أو الحكم على الأشخاص والوقائع، وبعضهم وقع في كلامه تناقض لم ينتبه إليه، وهذه التناقضات تدلُّ على أن المسائل عندهم لم تكن محررة بما يكفي، وأنهم كانوا كالفارس المقاتل في موطن المعركة المحتدمة، لا كالفاحص المدقق في موطن الحكم القضاء. وأغرب ما في الأمر أنهم هاجموا التغلب قديما، بينما كانوا يعتقدونه في واقعهم، وهذا ما سيظهر لنا بعد استعراض أقوالهم ثم توضيح موضوع التغلب.

ينزع الشيخ رشيد رضا عن الأمويين كل فضيلة، حتى فتوحاتهم العظيمة جعلها من طبيعة الإسلام نفسه، كأن الإسلام ينتشر بنفسه دون قيادة ولا أمراء ولا تدبير جيوش!! يقول: «التحقيق أن فتح الإسلام لكثير من البلاد في أيامهم الذي هو حسنتهم العظيمة كان أمرا اقتضته طبيعة الإسلام والإصلاح الذي جاء به لإنقاذ البشر، ولم يكن لغير عمر بن عبد العزيز منهم عمل انفرد به في إقامة الدين نفسه، ولم يكن لهم عمل في ذلك مختص بدولتهم بحيث يقال إنه لولاهم لرجع الإسلام القهقري في العلم والعمل أو الفتح، وما

(١) القرضاوي، تاريخنا المفترى عليه، ص ٩.

كان لهم من عملٍ حسنٍ في هذه الأمور فقد كان لمن بعدهم من العباسيين مثله، وكلاهما تابع في الدين للخلفاء الراشدين لا متبوع، وأما الأمور المدنية التي استتبع الفتح الإسلامي فلكل من الفريقين فيها عمل، وإنما سيئة الأمويين التي لا تغفر: ما سنَّوه في قاعدة حكومة الإسلام^(١). وانظر كيف نزع منهم فضل اتباع الخلفاء الراشدين فيما كان لهم من الحسنات!

ومع أنه يكاد يقترب من إِبصار الوضع، إلا أن اندفاعته وحماسه تعميه وتقلب له الوقائع، فهو يقرُّ بأنه «لم يكن من السهل إيجاد نظام لقوة الخلافة تخضع له كل هذه الأمم والشعوب في الخافقين مع بعد الشقة وصعوبة المواصلات، فلهذا سهل على السبئيين والمجوس بث الفتن للإسلام وللعرب»^(٢)، وبدلاً من أن يرى في معاوية وما فعله إنقاذاً لمسيرة الأمة إذا به يجعل ما فعله معاوية شرّاً مستطيراً، يقول: «فتح معاوية للأقوياء باب التغلب فأقبلوا إليه يهرعون»^(٣).

ثم ينعي الشيخ رشيد على أكثر العلماء مواقفهم، فيقول: «وقد مهد أكثر العلماء السبيل للاستبداد والظلم بمثل هذا الإطلاق في الخضوع لأهلهم»^(٤)، وينعي على الأمة في عصورها المتأخرة أنها «فلم تهتد إلى مثل ما اهتدى إليه الإفرنج من القضاء على استبداد ملوكهم شعباً بعد شعب، فمنهم من قضى على الحكومة الملكية قضاء مبرماً، ومنهم من قيد سلطة الملوك فلم يدع لهم من الملك إلا بعض المظاهر الفخمة التي يستفاد منها في بعض الأحوال»^(٥). وخطأ رشيد رضا ابن خلدون في نظراته للتاريخ وشأن العصبية^(٦)، ولا

(١) محمد رشيد رضا، الخلافة، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي)، ص ٥٣.

(٢) محمد رشيد رضا، الخلافة، ص ١٤٥.

(٣) محمد رشيد رضا، الخلافة، ص ١٤٥.

(٤) محمد رشيد رضا، الخلافة، ص ٥٥.

(٥) محمد رشيد رضا، الخلافة، ص ١٤٧.

يشك القارئ لكليهما أن ابن خلدون أصبح نظراً وأبعد حكمة، بل لا مقارنة بينهما في هذا الشأن!

فإذا تركنا العلامة الكبير الشيخ رشيد رضا، وذهبنا إلى علامة آخر هو الأستاذ الإمام أبي الأعلى المودودي، فسنجد غلواً أكبر واندفاعاً أشدّ، فهو يسمّي عصر الملك العضوض باسم «وثبة الجاهلية»، ويقول: «انتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوة، وحل محلها الملك العضوض، وبدأ الحكم والسلطة يقوم على قواعد الجاهلية بدلاً من قواعد الإسلام»^(٢). ثم إنه يشحذ قلمه فينطلق متجاوزاً كل حدٍّ وهادماً كل إنصاف ليقول: «لما أصبح الحكم إلى الجاهلية جعلت عدواها تسري إلى الحياة الاجتماعية وتدب فيها ديب السرطان في جسم الحي، ولا غرو فقد كانت مقاليد السلطة بيدها لا بيد الإسلام، وكان الإسلام بعد أن فقد قوة الحكم لا يمكنه أن يمنع أثرها من النفوذ وسلطانها من الامتداد. وآفة الآفات أن الجاهلية لم تمثل بين يدي القوم في حقيقتها العارية المكشوفة، بل واجهت الناس لابسة قناع الإسلام ملونة بلونه... كانوا قوماً كانت علانيتهم الإقرار بالتوحيد والإيمان بالرسالة والمحافظة على الفرائض والاستشهاد بكتاب الله وسنة الرسول، وفي باطن أمرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب»^(٣). ثم يواصل قائلاً: «انقلبت الخلافة قيصرية جاء الإسلام يقطع دابرها، ولم يبق فيها من الخلافة إلا اسمها»^(٤). ويعود فيقرر قائلاً: «استرسل الأمراء والحكام والولاة ورجال الجيش

(١) محمد رشيد رضا، الخلافة، ص ١٤٩ وما بعدها.

(٢) المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ط ٤ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م)، ص ٣٦، ٣٧.

(٣) المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ص ٣٧.

(٤) المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ص ٣٨.

والمترفون إلى الجاهلية المحضة في ظل هذه الملكية»^(١).

لم يتنبه المودودي في اندفاعته المتهورة الخالية من كل حكمة أن كلامه هذا يفضي في نهاية الأمر إلى الطعن في النبي ورسالته، فأى عظمة لنبي ينتهي كل إرثه بعده بثلاثين سنة، ثم تعود الجاهلية فتشب على الأمة من جديد، وتشتملها حتى تمحو سائر المعاني ولا يبقى من الأمر إلا اسمه؟!!

وممن طغا قلمهم على التاريخ الإسلامي الشيخ محمد الغزالي أيضا، وليس من أحد يقرأ للشيخ إلا ويرى امتلاءه بالعاطفة والحماسة التي تخرجه عن طور العدل والإنصاف، فمن ذلك قوله: «أفلت الزمام من أيدي المؤمنين الصالحين، وطاحت الخلافة الراشدة بعد ثلاثين عاما من قيامها، وبعد أن كان حُكَّام الإسلام أعرف الناس به وأفقههم فيه وأحناهم على أهله، أصبح أكثرهم حثالة تافهة تضر ولا تنفع، وتفسد ولا تصلح»^(٢)، ثم يضيف: «ويزيد هذا شابٌ خليع لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية»^(٣)، ووصف خلفاء الأمويين بأنهم «رجال ميتو الضمائر وشباب سفهاء، جريئون على معصية الله واقتراف الإثم، وليس لثقافتهم الإسلامية قيمة»^(٤).

ثم ينعي على الصحابة والتابعين غفلتهم وسوء تقديرهم فيقول: «حدثت مأس مؤلمة في جيل الصحابة، ترجع إلى بساطة العرب في فن السياسة، وعدم تقديرهم لمؤامرات عدوهم، وثأر المهزومين لأنفسهم»^(٥)، ويبدو واضحا كيف يرى نفسه أخبر منهم وأذكى وأعرف بالطبائع، هذا وهو يعيش بعد أربعة عشر قرنا!! ولهذا يتألم قائلا: «لو أن

(١) المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ص ٣٩.

(٢) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ط ٦ (القاهرة: دار نهضة مصر، أكتوبر ٢٠٠٥م)، ص ١٧١.

(٣) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ص ١٧٢.

(٤) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ص ١٧٥.

(٥) محمد الغزالي، علل وأدوية، ط ٣ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م)، ص ٢٢٣.

المسلمين الفضلاء الذين عاصروا هذه الأحداث الهائلة قدّروا فداحة النتائج التي تمخضت عنها، ولحقت بصميم الإسلام من جرائمها، لسفكوا دماءهم في الحيلولة دون وقوعها، ولكنهم ظلّوها فلتة متداركة، فتراخوا في حلّها»^(١).

ونحن في نهاية هذه النقولات نؤكد أن هؤلاء الأعلام لهم كلام آخر مناقض لما قالوه هنا، ولسنا الآن في مقام محاكمتهم لكي نأتي بهذه النصوص الأخرى المناقضة ثم نشرع في تفسير موقفهم، إنما نحن هنا في مقام إيضاح أثر الهزيمة وعصر الاستضعاف وتفوق الغرب، على تفكير بعض العلماء الأعلام المجاهدين في سبيل الله، لقد أخرجتهم اندفاعتهم العاطفية الحادة عن جادة الصواب، ونزعت عنهم الحكمة والإنصاف، وأوقعتهم في الخطأ الفاحش، كانوا كالفارس الذي حملته الحماسة على التهور، فكبا، وكبا معه خلق كثير!

لم يكن أحد هؤلاء الأعلام الذين نقلنا عنهم مؤرخا، ولا عُرف له تحقيق مسألة تاريخية، وإن كان رشيد رضا أعلمهم بالتاريخ بل هو أوسعهم علما.

ومما يثير العجب أنهم جميعا التمسوا العذر لعمر بن عبد العزيز أنه عجز عن إعادة الأمر شورى، لأن سنة التوريث كانت قد تمكنت واستفحلت! مع أن معاوية خير من عمر بن عبد العزيز، فإنه صحابيٌّ وذاك تابعيٌّ، وهو أولى أن يُلتَمَس له العذر، إذ الخيرية في حقه ثابتة أكثر من ثبوتها في عمر بن عبد العزيز^(٢).

(١) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ص ١٧٣.

(٢) سُئِلَ عبد الله بن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: سمع الله لمن حمده، فقال خلفه: ربنا ولك الحمد. فقيل له: أيهما أفضل؟ هو أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز. وسُئِلَ المعافى بن عمران: أيهما أفضل؟ معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلا من الصحابة مثل رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه وصهره وكتابه وأمينه على وحي الله. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤٨/٨.

تُرى لماذا غلب هؤلاء الظن الحسن في عمر بن عبد العزيز، ومنعوه في حق معاوية؟
لماذا قَدَّروا أن الظروف التي أحاطت بعمر بن عبد العزيز كانت أقوى منه، بينما لم يُقدِّروا
ذلك في زمن معاوية؟!

ما ذلك إلا أن عمر بن عبد العزيز ليس عليه مطعن، بينما كانت حرب معاوية لعلّي
تحملهم على الطعن في معاوية، فمن حُسن حظ عمر أنه لم يكن وليا لدم الخليفة الشهيد
المظلوم، ولم يكن مهددا بالقتل من الخوارج على عثمان وعلى عليّ، ولم يكن في فتنة
تجعل الحليم حيرانا، لقد جاءت الخلافة ممهدة موطَّاة الأركان عظيمة البنيان، لم يحتاج
أن يؤسس دولة فقد كانت مُؤَسَّسَةً مُمَكَّنَةً، وإن الذين يؤسسون الدول هم الذين يخوضون
الحروب والصراعات ويقعون فيما يُطعن به عليهم، بينما الذين تأتيهم على طبق من ذهب
يأخذون مغانمها ولا يُسألون عن مغارمها.

هل يحسب هؤلاء أن عمر بن عبد العزيز لو كان في مكان معاوية كان سيكون أتقى لله
منه وأكثر حكمة؟! أو هل يحسبون أنه لو كان في زمن معاوية كان سيتخلف عن أن يكون
في جيش الشام؟! ألا يذكرون أن عمر كان واليا في خلافة أولئك المتغلبين الذين يطعنون
فيهم: الوليد وسليمان ابنا عبد الملك؟! ألا يذكرون أن عمر رَضِيَ أن يكون واليا على
المدينة في حكومة كان فيها الحجاج السفاح هو الوالي على العراق؟! فلو أنه كان يرى أن
هذا حكمٌ غير شرعي لما قبل العمل فيه^(١). ألا يذكرون أنه تولى الخلافة بالعهد الذي سيق
له، وهو العهد المستند إلى قوة عصابة بني أمية؟! ألا يذكرون أن توليه الخلافة لم يكن

(١) بل ورد أن عمر بن عبد العزيز، وكان والي المدينة، لما أبى خبيب بن عبد الله بن الزبير البيعة للوليد بن عبد الملك،
أرسل الوليد إلى عمر أن يضربه مائة سوط، فضربه عمر، فمات في الضرب. فكان هذا مما يخشى عمر أثر عاقبته في
الآخرة. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: متمم التابعين، تحقيق: زياد محمد منصور، ط ٢ (المدينة المنورة: مكتبة
العلوم والحكم، ١٤٠٨هـ)، ص ١٠٧؛ مصعب الزبيري، نسب قريش، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، د. ت)،
ص ٢٠٤؛ البخاري، التاريخ الأوسط، ١/ ٢١٧.

اختيارا عاما، ولا انتظر هو بيعة الأمصار قبل أن يقبلها!!

ألا يذكرون أخيراً أن عمر بن عبد العزيز، مع كثرة عفوه وقلة عقوبته، ضرب من وقع في معاوية؟ يقول إبراهيم بن ميسرة: «ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنسانا قط إلا إنسانا شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطاً»^(١)، فلو أن عمر بن عبد العزيز نفسه سمعهم لعاقبهم بما يقولون!!

مثل هذه الأسئلة لا ترد إلا على بال من تعمق في أخبار هذه الفترة وأحوالها، وأطال النظر فيها، ولم يكن أولئك العلماء والأئمة منهم. إن كل عذر يُعْتذر به لعمر فإن معاوية أولى به منه، فهو المقدم عليه في الدين وفي الكفاءة، ولقد شهد لمعاوية كبار الصحابة بأنه جدير بالملك خليف به.

هذا الموقف الحاد الذي تبناه عدد من أئمة المسلمين وعلمائهم في عصر الاستضعاف، طغى حتى على بعض المؤرخين الذين غاصوا في دهايز التاريخ، ولهذا وقع أولئك المؤرخون في التناقض المحتوم، ووقعوا فوق ذلك في الغرور الذي يُخَيَّل معه للمرء أنه كان أحسن بصرا وحكمة من العمالقة الأفذاذ الذين عاشوا في تلك العصور منذ عهد الصحابة مرورا بأعلام الفقهاء أجمعين. ومع ذلك يظل المؤرخون الذين عالجوا تلك الفترة أكثر إنصافا وأهدأ انتقاداً من غيرهم.

ولنضرب مثالا واحداً على ذلك، وهو د. علي الصلابي^(٢)، المؤرخ الإسلامي المعاصر المعروف، فإذا نحن قلبنا في مؤلفاته خرجنا منها في الموقف الواحد، موقف ولاية العهد للأبناء وتوريثهم الحكم، بالمواقف الثلاثة: الإنكار، التأييد والتماس الأعذار، والسكوت.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ٨ / ١٤٨.

(٢) وقد اخترته من بين المعاصرين لأن كتبه هي الأكثر شهرة وانتشاراً بين الناس اليوم.

فنرى أنه استنكر صراحة ما فعله معاوية بتوليته العهد ليزيد، يقول: «كان الأولى بمعاوية أن يعيّن من أفاضل المجتمع الإسلامي رجالاً يجعلهم موضع شورى يختاروا من كان أهلاً للخلافة، ويتعد عن ترشيح ابنه يزيد... وعلى كل حال فمعاوية رضي الله عنه اجتهد ولم يكن مصيباً في تولية يزيد لولاية العهد»^(١). ثم هو في نفس الصفحة يسرد مدى قوة عصبية أهل الشام وكيف أنهم استطاعوا في المواقف التالية أن يحسموا الخلافة لأنفسهم وللأمويين!! ومن تأمل في سرده ونقولاته انتهى إلى صحة ما فعل معاوية، ومع ذلك فقد انتهى إلى نتيجة أن معاوية اجتهد فأخطأ!!

وأما في كتابه عن دولة المرابطين، فهو يلتمس العذر ليوسف بن تاشفين في توريثه ابنه فيقول: «كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده، وأن تنقسم عرى هذه الوحدة، وتنتهى هذه الدعوة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن... ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م، وناقشهم في المبررات التي دفعته إلى اختياره، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه، وعلى أثر ذلك قرئ مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار»^(٢). بل رأى الصلابي أن مشاورة يوسف بن تاشفين للفقهاء وأهل الحل والعقد، في تولية العهد لابنه، هو من التزامه بالشورى التي جاء بها الإسلام!! أي أنه أخذ بالشورى على ترك الشورى^(٣)!!

ولكنه مع ذلك يقول، وفي نفس الفقرة: «وهكذا حدث انحراف في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً والياً

(١) الصلابي، الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، (اسطنبول: دار الروضة، ٢٠١٧م)، ١ / ٥٣٠.

(٢) الصلابي، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي: دولة المرابطين، ٢ / ٣٦١.

(٣) الصلابي، صفحات مشرقة، ٢ / ٣٦٢.

لولاية العهد، وكان اجتهد يوسف بن تاشفين في هذا التعديل الخطير يعتمد على رأيه أن اجتهد ذلك يحفظ وحدة بلاده ودولته، ويقضى على التنافس من أجل الحكم ورأى مصلحة بلاده وشعبه تقتضى اختيار ابنه»^(١).

وهنا يقع التناقض، إذ كيف يمكن أن نجمع بين أن هذا الأمر هو من الشورى وهو انحراف في نفس الوقت! ولئن بدا الصلابي عاذرا لابن تاشفين ويقدر أسبابه، فهو سيأتي ليجعل هذا من أسباب سقوط دولة المرابطين فيما بعد، فيُدرج في أسباب السقوط «انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي»^(٢). فكيف يكون الشيء نفسه من عوامل الاستمرار ومن عوامل السقوط؟!^(٣)

ويتكرر ذات الموقف في حديثه عن الدولة الأيوبية، فهو يصوغ فعل صلاح الدين كأنه يعذره، يقول: «كما أن صلاح الدين قسّم دولته، كما يُقسّم الإرث، بين أبنائه وأخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفاً في تلك العصور»^(٤).

(١) الصلابي، صفحات مشرقة، ٣٦١ / ٢.

(٢) الصلابي، صفحات مشرقة، ٤٣١ / ٢.

(٣) هذا السؤال نظرحه استنكاراً على أصحاب هذا الرأي، إذ يظنون أن الأمر لو بقي شورى لاستمرت الدولة الإسلامية قائمة ناهضة كما كانت، فنحن نستنكر عليهم أن يلتمسوا العذر في ترك الشورى بغرض استقرار الدولة ووحدتها، ثم هم أنفسهم يجعلون هذا من أسباب سقوطها، فيقعون بهذا في التناقض! أما نحن فنرى أن نظام ولاية العهد من عوامل الاستمرار والاستقرار في أول الدولة، ثم هو نفسه يكون من عوامل سقوطها في آخرها، فتلك من سنن التاريخ وطبائعه، فما يصلح لأول الدولة هو ما يسقطها في نهاية الأمر، وكم في سنن الحياة أشباه هذا، فالرياضة التي يمارسها الشاب ليتقوى، هي ذاتها التي إن مارسها الشيخ العجوز أهلكته! وكثيراً ما انقلبت الاتجاهات على نفسها فولدت أصدادها، فالرأسمالية التي قامت لضرب الاحتكار وتوفير حرية البيع والتملك انتهت إلى ولادة أعظم الاحتكاريين في التاريخ، والشيوعية التي قامت لتحقيق العدالة الاجتماعية ولدت طبقة من «الرفاق» يتصاغر كل قيصر أمام سطوتها وسلطتها ونفوذا!

(٤) الصلابي، دولة المغول والتتار بين الانتشار والانكسار، ط ١ (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٩م)، ص ٢٩٩.

ولكنه حين يسرد أسباب سقوط الدولة الأيوبية يسكت عن توريث صلاح الدين لأبنائه، ويبدأ في استنكار التغلب الذي جرى بعده، يقول: «ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم بالحائط، ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة، والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال، ولقد وَلَدَتْ خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه: أنه قبيح بي أن أكون أتاكاً مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس هو بالميراث، وإنما هو لمن غلب»^(١).

فهنا يتجنب الحديث عن توريث صلاح الدين الدولة لأبنائه، ويستنكر على العادل تغلبه على أولاد أخيه، مع أن صلاح الدين هو من أورثها لأبنائه أولاً وترك أخاه وهو الأكفأ، ومع أن صلاح الدين نفسه لم يكن مختاراً من قبل الأمة، بل صعد في أروقة السياسة على يد المتغلبين، ثم صار هو متغلباً كذلك!!

إن كل ملك تقيّ قوي في تاريخنا قد ورّث ولده، ولم يستطع أحدهم أن يعيدها شورى، وكلُّ من حاول أن يلتمس لهؤلاء العذر، فإن معاوية الصحابي خير منهم وهو أولى منهم بالعذر، فهو خير منهم في الدين وفي السياسة معاً، وسيقع المؤرخون في التناقض حتماً ما لم يعترفوا أن طبيعة تلك العصور هي توريث الحكم للأبناء، فهي القانون العام والناموس السائد الذي تختل الأمم بخرقه وتجاوزه!

معالم في فهم مسألة التغلب

يحتاج التوضيح الكافي لهذه المسألة إلى مقامٍ أوسع من هذا المقام، ولذا سنضطر

(١) الصلابي، دولة المغول والتتار، ص ٢٩٥.

للاختصار الشديد، مع الإشارة إلى مجموعة من المصادر التي يمكن التوسع من خلالها، فنحن نتحدث الآن في سياق توضيح وفهم التاريخ، وليس في سياق بيان النظام السياسي الإسلامي وتفوقه على النظام الغربي، وهذا المنظور سيجعلنا لا نستطرد في عدد من الأمور المهمة، فنقول وبالله التوفيق:

(١)

أول ما يجب أن يُراعَى في فهم أقوال العلماء أن حجم تأثير السلطة في الناس والمجتمع لم يكن بهذا الحجم الذي نتصوره الآن، فالسلطة الآن متغلغلة في كل تفاصيل الحياة، واستبدادها شامل لكل تصرفات الناس، بل تقاس قدرة الدولة وكفاءتها في عصرنا هذا بمدى سيطرتها على سائر التفاصيل وإحاطتها بكل المعلومات المتعلقة بكل فردٍ في الرعية. أما السلطة في ذلك الزمن فصلاحياتها تكاد تقتصر على ملفي الأمن والدفاع وما يتعلق بهما، ويقل وجود السلطة وتأثيرها كلما ابتعد الناس عن العاصمة، فالتفكير الأساسي الذي يتعلق بالسلطة في كتب السياسة الشرعية هو المتعلق بإقامة الأمن في الداخل وحفظ الأمة من خطر العدو في الخارج.

ويتفرع عن هذا الأصل أمران في غاية الأهمية:

الأول: أن المجتمع يحتفظ بقوته وتكتله وعلاقاته الاجتماعية الوثيقة وتشكيلاته القبلية العريقة، وهو بهذا قادر على الطاعة وقادر على المعصية، إن حضور الحديث عن «السمع والطاعة» في تراثنا الفقهي هو نفسه دليلٌ على أن الناس يملكون القدرة على المعصية والخروج على الحاكم، وإلا فلا معنى للحديث عن السمع والطاعة في قوم لا يملكون هذا الخيار أصلاً. وهذا على عكس واقعنا الحالي، وعلى عكس ما ترسخ في التراث الغربي، فالفكرة المركزية في تراث الفكر السياسي الغربي هي فكرة الحرية، وذلك

أن السلطة كانت دائما قاهرة ومتفوقة! فلذلك بحثوا عن الحرية ونظروا لها، بينما كان مجتمعنا الإسلامي حراً وقويا، فلهذا احتاج فكره السياسي إلى مسألة «السمع والطاعة». فالمجتمع القوي هو جزء من نظام الإسلام الاجتماعي الذي يؤثر في حدود العلاقة مع السلطة وطبيعتها، وهو أمر نادراً ما يُتَّبَع له في سياق الحديث عن النظام السياسي^(١).

الثاني: أن السلطة -التي يمثلها في سياقنا الآن: الحاكم المتغلب- هي سلطة تنفيذ لا تشريع، وهي محكومة بتنفيذ شريعة لم يضعها الحاكم، ولا هو يستطيع التأثير في توجيهها، فالخليفة عند أهل السنة لا هو «نبي ولا مفسرٌ معصوم للإيمان، بل قائد تتلخص مهمته في صون السلام والعدل بين الجماعة»^(٢)، و«وظيفة الدولة تقتصر على تنفيذ شريعة الله»^(٣)، و«الحاكم المسلم لم يكن يمتلك دستوريا، إرادة سيادية ممثلة جوهريا في قانون خاص به، بل كان مُلْزَمًا بتطبيق شريعة ليست من صنعه»^(٤)، ولذلك «لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سنَّ حاكمٌ حُكْمًا وجعله شريعةً مُلْزِمةً للقضاء بها»^(٥)، وذلك أن شأن الشرع يقوم به العلماء والفقهاء، وهم تيار عام لا ينحصر في مؤسسة أو منظمة، وهو يتشكل ويتكوّن في المساجد والبيوت حيث يتناقل الناس العلم من الأجيال السابقة التي تلقته عن أسلافها حتى نصل إلى الصحابة! وهذا سياقٌ لا تتدخل فيه السلطة ولا تملك صناعته ولا التأثير فيه. والذي يَهْمُننا هنا من هذا الأمر أن تأثير الحاكم المتغلب لم يتمدد إلى التشريع الذي

(١) للمزيد في هذا، ينظر: محمد إلهامي، منهج الإسلام في بناء المجتمع، ص ١١٣ وما بعدها؛ محمد إلهامي، «أخطاء فهم الحديث في ضوء الثقافة المعاصرة: أحاديث طاعة الامراء في البخاري نموذجاً»، على هذا الرابط:

<<https://bit.ly/2tZPNNd>>

(٢) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ٩٥.

(٣) وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ٨ / ٦٣٨١.

(٤) وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص ١٣٦.

(٥) الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية،

د. ت)، ١٠ / ٣٤٩ (الحاشية، وهي من كلام المحقق الشيخ محمود شاكر).

هو جوهر السلطة القانونية وجوهر السيادة كما نفهمه في ثقافتنا السياسية والدستورية المعاصرة.

يجب استحضار هذه الأجواء حين نقرأ كلام الفقهاء في حكم التغلب والمتغلب، لكي نفهم طبيعة الأوضاع التي تحيط بتناجهم الفقهي^(١).

(٢)

قرر العلماء أن التغلب محرم، وأن الأصل في الخليفة أن يختاره الناس طوعاً، مستندين في ذلك إلى سنة الخلفاء الراشدين، ومع أن أغلب التاريخ الإسلامي كان قد جرى على سنة التغلب، فإن هذا الاستقرار المتطاوّل لهذا التغلب لم يستطع أن يُغيّر من الحكم الفقهي، وهذا دليلٌ جديدٌ نضيفه إلى أن السلطة لم تستطع التلاعب بالدين ولا التأثير على أحكامه في الحضارة الإسلامية. وهذه بعض أقوال العلماء في التغلب والمتغلب:

▪ قال الجويني: «الذي ينتهض لهذا الشأن، لو بادره من غير بيعَةٍ وحاجةٍ حافزة، وضرورة مستفزة، أشعر ذلك باجترائه، وغُلُوّه في استيلائه، وتشوُّفه إلى استعلائه، وذلك يسميه بابتغاء العلو في الأرض بالفساد»^(٢)، ويقرر أن الذي يحمل أهل الاختيار بقوته على اختياره فهو فاسق، يقول: «إن كانت ثورته لحاجة، ثم زالت وحالت، فاستمسك بعدّته مُحاولاً حمل أهل الحل والعقد على بيعته، فهذا أيضاً من المطاولة

(١) أكثر من يشنعون على الفقهاء في مسألة التغلب وطاعة السلاطين يُهدرون هذا الفارق، ويظهر في كلامهم أنهم يتصورون استبداد السلطة في الزمن القديم كاستبداد السلطة في زمن الدولة المركزية الحديثة، انظر مثلاً على هذا النوع من الكتابات: محمد العبد الكريم، تفكيك الاستبداد: دراسة مقاصدية في فقه التحرر من التغلب، ط ١ (بيروت: الشبكة العربية، ٢٠١٣م)، ص ١٦٨.

(٢) الجويني، الغياثي، ص ٤٢٨.

والمصاولة، وحمل أهل الاختيار على العقد له بحكم الاضطرار، وهذا ظلمٌ وغشٌّ يقتضي التفسيق»^(١).

- قال النووي عن المتغلب: «وإن كان عاصيا بفعله»^(٢).
- قال التفتازاني عن المتغلب: «إلا أنه يعصي بما فعل»^(٣).
- وقد مر معنا قول ابن حجر الهيتمي: «المتغلب فاسق معاقب لا يستحق أن يُبشَّر... بل إنما يستحق الزجر والمقت والإعلام بقبائح أفعاله وفساد أحواله»^(٤).

(٣)

إن الفارق بين الفقهاء والفلاسفة أن الفلاسفة قوم مثاليون حالمون، يتكلمون فيما يجب أن يكون دون أن يكون لديهم الحل الأمثل حين تتزاحم المصالح والمفاسد، بينما الفقهاء قوم عمليون، ينظرون فيما يقيم أحوال الأمة ويحفظ مصالحها ويجنبها الأضرار في واقعها العملي، ولهذا لم تقم دولة على أفكار فيلسوف أو بجهوده، بينما قامت حضارتنا العظيمة في واقع الزمن على قاعدة من هذا الفقه. ومن مظاهر هذه النزعة العملية أنهم أنتجوا فقها لحالة غياب المثال المرضي المتفق عليه، وهو في سياقنا الآن موضوع: ماذا إذا لم يمكن نصب إمام بالاختيار والاتفاق؟ ونهض إلى الأمر من كان ذا قوة وشوكة وقُدرة، فاستطاع أن يتغلب ويتمكن من الخلافة؟ ماذا يكون الحال عندها؟

(١) الجويني، الغياثي، ص ٤٢٨.

(٢) النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، ٤٦/١٠.

(٣) التفتازاني، شرح المقاصد، ٢٣٣/٥.

(٤) ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة، ٦٢٨/٢.

إن العلماء لا يسارعون لإسباغ الشرعية على المتغلب، بل يتحدثون عن حالته بعد التغلب فعلاً، والخارج على هذا المتغلب لا يكون باغياً ما دام لم يتمكن المتغلب من الأمر. يقول الصاوي: «المتغلب لا تثبت له الإمامة إلا إن دخل عموم الناس تحت طاعته، والخارج عليه لا يكون باغياً»^(١).

فإذا حقق هذا المتغلب التمكُّن بالفعل، فهنا قرر العلماء أنه يجوز إقرار المتغلب، ليس تأييداً له، ولا رضا بما صنع، ولا إسباغاً للشرعية على ما فعل، ولكنه إقرار ينظر إلى مصلحة المسلمين، ويقصد إلى تحقيقها. وهذا الأمر مع ظهوره ووضوحه في كلام العلماء إلا أن المعاصرين كثيراً ما يخلطون في فهمه، فالعلماء هنا لا يتحدثون في حكم التغلب، وإنما في كيفية التعامل معه إذا تغلب وتمكَّن، وهما مسألتان مختلفتان. وهذه بعض أقوالهم:

▪ قال الجويني: «إذا ثار لحاجة، ثم تألبت عليه جموعٌ لو أراد أن يتحول عنهم لم يستطع، وكان يجُرُّ محاولة ذلك عليه وعلى الناس فتناً لا تُطاق، ومِحناً يضيق عن احتمالها النطاق، وفي استقراره الاتساق والانتظام، ورفاهية أهل الإسلام، فيجب تقريره»^(٢).

▪ قال ابن تيمية: «المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيُدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما»^(٣).

(١) الصاوي، حاشية الصاوي على الشرح الصغير: بلغة السالك لأقرب المسالك، ٤/ ٤٢٧.

(٢) الجويني، الغياثي، ص ٤٢٨.

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ٣/ ٣٩١.

▪ قال ابن عابدين: «للأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجب، مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين، كما كان لهم نصبه وإقامته لانتظامها وإعلائها، وإن أدى خلعه إلى فتنة اُخْتُمِلَ أدنى المضرتين»^(١).

ويجب أن نُذَكِّرَ هنا بأن العلماء قرروا مثل هذه الأمور في سائر المجالات، غير مجال الحُكْم والسياسة، وتلك طبيعة عمل العلماء، فهم في كل مسألة يناقشون ماذا قد يكون التصرف إذا لم تكتمل الشروط الطبيعية أو الضرورية، ولذا فتراهم يناقشون ماذا قد يكون التصرف لو لم نجد في البلدة إلا رجلا لا يستكمل شروط القضاء، أو لمن يرجع الناس إن لم يجدوا من لم يستكمل شروط الفتوى، أو ماذا نفعل في حديث يرويه من لم يستكمل شروط الرواية.. وهكذا!

إن سائر هذه الأمور لها شروط نموذجية تامة هي المِثَال الذي يُرْنَى إليه، ولكن نقاشهم يراعى أيضا حالة عدم تحقق هذه الشروط، وكَمِثَالٍ على هذا، فإن الإمام ابن خويز منداد المالكي يقول صراحة: «الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهدا ولا راويا»^(٢)، فهذا هو المبدأ والمِثَال.

وأما التصرف في حالة الضرورات فهذا الذي -كما ذكرنا- يفرِّق بين عمل الفقهاء العاملين وبين الفلاسفة الحالمين المثاليين؛ قال ابن الوزير: «الفقهاء قد أطلقوا القول بانعقاد إمامة المتغلب للضرورة، والذي لا يتأمل كلامهم يُنكره لظنه أن مرادهم أنه إمامٌ على الحقيقة، وإنما أرادوا ما ذكرنا من جواز أخذ الولاية منهم لتنفيذ الأحكام المتعلقة

(١) ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، ٤/ ٢٦٤؛ وانظر: الإيجي، المواقف، ٣/ ٥٩٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ)،

بالمصالح العامة، لا اضطرار المسلمين إلى ذلك»^(١).

(٤)

حين يناقش العلماء أمر الحاكم المتغلب، فالصورة الأساسية التي تكون محلّ النقاش هي صورة من استجمع صفات الخليفة ولكنه أخذها بالسيف، ولم يختره أهل الحل والعقد الذين هم ممثلوا الأمة، فالأمر يشبه المقولة المعاصرة «التضحية بواجهة النظام للحفاظ على النظام»، فإذا كان النظام الإسلامي في صورته المثلى هو الحكم بالشرعية وحاكم تختاره الأمة، فإن صورة الوضع مع الحاكم المتغلب هي صورة الحكم بالشرعية وحاكم لم تختره الأمة.

ولذلك فما من قارئ يقلب في كتب السياسة الشرعية إلا ويرى النصّ على القبول بالحاكم المتغلب المتأهل للخلافة والقائم بواجباتها في العموم، فلم يكن القبول بالمتغلب دعوة لكل فاسق أو زنديق أو متسلط لكي يتجرأ على أخذها بالسيف، وإنما هي صورة نقاش علمي كالذي يدور دائماً في أروقة القانونيين والدستوريين عن حالات الاستثناء والطوارئ، وهو ما يُسجّل في الدساتير والمدونات القانونية، ليكون مرشداً للسلطة التنفيذية والقضائية إذا وقعت هذه التوقعات.

ومن أقوال العلماء في هذا:

▪ قال ابن بطال: «الفقهاء مجمعون على أن طاعة المتغلب واجبة ما أقام على الجماعات والأعياد والجهاد وأنصف المظلوم في الأغلب، فإن طاعته خير من الخروج

(١) ابن الوزير، العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م)، ٨/ ١٧٠.

عليه؛ لما في ذلك من تسكين الدهماء وحقن الدماء»^(١).

▪ قال الشرييني: «باستيلاء شخص متغلب على الإمامة، جامع الشروط المعتمدة في الإمامة، على الملك بقهر وغلبة بعد موت الإمام لينتظم شمل المسلمين»^(٢).

وأما حديث العلماء عن فسق الإمام، وما إن كان ينعزل بفسقه أو لا؟ أو أن فسقه موجب أو مُجِيزٌ للخروج عليه أو لا؟ أو نحو ذلك، فكلُّه متعلِّقٌ في الحقيقة بمسألة القدرة والفتنة، وما إن كان ذلك ممكناً أو أنه يجزُّ إلى منكرٍ أشدَّ منه!

ويجب أن نُذَكِّرَ هنا بأن مسألة الفسق ونحوه من التقييم الأخلاقي للإمام أمرٌ يهتم له المسلمون، فأمرٌ مثل شرب الخمر أو الكذب أو الإكثار من اللهو ونحوه هي أمور تخذش صورة الإمام والخليفة، بينما تلك أمور لا تأبه لها الأنظمة المعاصرة، فغاية ما تضعه من الشروط ما يكون تعاملًا بينه وبين غيره من الناس. إن الحساسية الأخلاقية الإسلامية بلغت شأنًا عاليًا في ضمير المسلمين، ومن الغريب أن يوجد بين المسلمين من تبهره المنظومات المعاصرة التي هي دون الإسلام بكثير!

والقصد أن العلماء في حديثهم عن المتغلب، تساهلوا تحت ضغط الضرورة فيما يخذش شخص الإمام، مراعاة وحفظاً لنظام الشريعة ومصالح المسلمين، بينما لم يتسامحوا مع التفريط في نظام الشريعة، فلم يُجَزَّ أحدٌ منهم ولاية الكافر، بل أوجبوا عزله إذا كان في منصب الإمامة، ومن أقوالهم في هذا:

▪ قال ابن بطلال: «فتسمع له وتطيع في الحق، وتعفو عما يرتكب في نفسه من المعاصي ما لم يأمر بنقض شريعة، ولا بهتك حرمة الله تعالى، فإذا فعل ذلك فعلى الناس

(١) ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، ٣٢٨/٢.

(٢) الشرييني، مغني المحتاج، ٤٢٣/٥.

الإنكار عليه بقدر الاستطاعة»^(١).

- قال ابن حجر: «ينعزل بالكفر إجماعاً فيجب على كل مسلم القيام في ذلك»^(٢).
 - قال التفتازاني: «ينحل عقد الإمامة بما يزول به مقصود الإمامة كالردّة»^(٣).
- ومعروف ما جاء في نص الحديث أن رؤية الكفر البواح موجب للخروج والقتال.

(٥)

ووقع خلاف بين العلماء فيما إذا تغلب أمير على الأمر، ولم يُمكن مدافعتُهُ، وهو يستوفي شروط الإمامة، هل يُعتبر تغلبه هذا نافذاً بنفسه، أم لا بد من عقد الإمامة له؟ وهو إجراء شكلي غير مؤثر في حقيقة الواقع، فذهب بعضهم إلى أنه يُعدُّ نافذاً بنفسه لأنه «لم يبق للاختيار اعتبار... فلاستظهار مع تعذر المعارضة والمناقضة يتضمن ثبوت الإمامة»^(٤)، ورجَّح الجويني وجوب العقد له، أي أنه أوجب هذا الأمر الشكلي، ليكون بمثابة الإلزام والإعلان بحقوق الإمامة، وليكون وسيلة لإطفاء ما قد يثور عليه بدعوى عدم الشرعية، فتحقق الدماء وتسكن الفتن، يقول: «فيجب العقد له، لما فيه من تقرير غرض الإمامة، وإقامة حقوقها، وتسكين الفتنة الشائرة، وتطفئة النائرة»^(٥). ويقول الماوردي وأبو يعلى: «لأن الإمامة عقدٌ لا يتم إلا بعقد»^(٦).

(١) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ٣٢٨/٢.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٢٣/١٣.

(٣) التفتازاني، شرح المقاصد، ٢٥٧/٥.

(٤) الجويني، الغياثي، ص ٤٢٧.

(٥) الجويني، الغياثي، ص ٤٢٧.

(٦) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٨؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢٤.

وهذا الأمر يشبه -في ثقافتنا المعاصرة- أن يقسم الرئيس على الدستور، فيكون قسمه هذا إلزاماً له به، حتى وإن لم يكن قد جاء بطريق دستورية! وذلك لئلا يكون خارجاً عن الدستور ومنفرداً بفعل ما يحلو له وكيفما شاء. فالقسَم على الدستور هو في حقيقته أداة دستورية لإخضاع الحاكم للدستور، وهي مصلحة للشعب والرعية لا للحاكم.

(٦)

وقرر العلماء أن المتغلب لا يُدافع عنه، كما يُدافع عن الإمام الشرعي في وجه الخارجين عليه، بل كما جاء بالتغلب يذهب به، وهذا هو التفسير الواضح والصحيح لمقولة بعض الأئمة كابن جماعة: «إذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد، ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده، انعزل الأول وصار الثاني إماماً»^(١)، ويقول التفتازاني: «إذا ثبّت الإمام بالقهر والغلبة، ثم جاء آخر فقهره، انعزل وصار القاهر إماماً»^(٢). فليس مقصود هؤلاء أن تكون الأمة قطيعٍ نعاج يتبع من غلب من غير رأي ولا مقاومة، بل صريح كلامهم أنه نقصٌ في شرعية المتغلب. وهذه بعض أقوالهم:

▪ سئل الإمام مالك عن القائم على الإمام يريد عزله، فقال: «أما مثل عمر بن عبد العزيز فنعم. وأما غيره: فلا، ودعه وما يريد منه، ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما»^(٣).

▪ قال الصقلي: «إن لم يكن عدلاً وخرج عليه عدل فعليك الخروج مع العدل حتى يظهر دين الله، وإن كان الخارجي غير عدل فيسعدك الوقوف... وإن كانوا يطلبون الوالي الظالم؛ فلا يجوز لك الدفع عنه، ولا القيام عليه، ولا يسعدك الوقوف عن العدل، كان هو

(١) ابن جماعة، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص ٥٦؛ وانظر مثلها عند: التفتازاني، شرح المقاصد، ٢٣٣/٥.

(٢) التفتازاني، شرح المقاصد، ٢٢٣/٥، ٢٥٧.

(٣) ابن يونس الصقلي، الجامع لمسائل المدونة، ٢٣٨/٦.

القائم أو المقوم عليه»^(١).

▪ قال ابن حزم، بعدما ذكر خلاف العلماء في القيام على الحاكم: «إلا أن جميع القائلين بهذه المقالة من أهل السنة إنما رأوا ذلك ما لم يكن عدلاً، فإن كان عدلاً وقام عليه فاسق وجب عندهم بلا خلاف سل السيوف مع الإمام العدل»^(٢).

▪ قال الشرييني عن التغلب: «باستيلاء شخص متغلب على الإمامة، جامع الشروط المعتبرة في الإمامة، على الملك بقهر وغلبة بعد موت الإمام لينتظم شمل المسلمين. أما الاستيلاء على الحي فإن كان الحي متغلباً انعقدت إمامة المتغلب عليه، وإن كان إماماً بيعة أو عهد لم تنعقد إمامة المتغلب عليه»^(٣).

(٧)

وقرر العلماء الخروج على هذا المتغلب، وعزله، طالما أمكن نصب من هو أعدل منه، وسمحت القدرة بعزله دون فتن ومفاسد، فالأمر هنا منوط بالقدرة على عزله، وهذا دليل آخر على أن موقف العلماء لم يكن دعماً للمتغلب أو الجائر، وإنما كانوا ينظرون إلى مصلحة الأمة. ومن أقوالهم في هذا:

▪ قال ابن بطلال: «إن أمكنه إمام عدل واتفق عليه جمهور الناس فلا بأس بخلع الأول، فإن لم يكن معه إلا قطعة من الناس أو ما يوجب الفرقة فلا يحل له الخروج»^(٤).

(١) ابن يونس الصقلي، الجامع لمسائل المدونة، ٢٣٧/٦.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١٣٢/٤.

(٣) الشرييني، مغني المحتاج، ٤٢٣/٥.

(٤) ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، ٢١٥/٨.

- قال الغزالي: «إن أمكن الاستبدال به من غير فتنة فعله أهل الحل والعقد»^(١).
- قال ابن عابدين: «يستحق العزل إن لم يستلزم فتنة»^(٢).

(٨)

لأن المسلم ملتزم بالشرعية أولاً، وهي معقد ولائه وبرائه، ولأن الحاكم في النظام السياسي الإسلامي هو منفذ، فإن تجاوز هذا الحاكم للشرعية أمرٌ يدفع إلى عصيانه ومقاومته، بل يدفع إلى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وهذا افتراق خطير وحاسم بين النظام الإسلامي وغيره من النظم الوضعية، بما فيها الديمقراطية المعاصرة، فإن الأمر المُنكر يمكن أن يتحول إلى معروف، فإذا تغير قانونٌ ما فإن الأمر الذي كان بالأمر غير قانوني صار الآن قانونياً، ومن نهض ليقاومه فإنه يُعدُّ خارجاً على القانون مستحقاً للعقوبة. إن قدرة السلطة التشريعية على إنتاج القانون وتغييره وتعديله يشل حركة المعارضين، ويُحوّلهم إلى مطلوبين أو حتى إلى إرهابيين!!

ولأن الشرعية أمر فوق السلطة وفوق الحاكم، ولأن الحاكم لا يملك التغيير في الشرعية أو تبديلها، فإن مساحة تصرفه في الأمور التفصيلية وأمور التدبير مساحة محدودة، وكذلك فإن خرقه للشرعية يساوي تهديد نظامه هو، ويمنح الناس مشروعية المقاومة، ولذلك فإن «أطغى الطغاة في العصور الأولى لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها»^(٣).

(١) الغزالي، الوسيط في المذهب، ٤/ ٤٨٤.

(٢) ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، ٤/ ٢٦٤.

(٣) القرضاوي، تاريخنا المفترى عليه، ص ٣٠.

ولذلك نرى نصوص العلماء صريحة واضحة في أن الحاكم لا يُطاع إذا أمر بمعصية، وإنما طاعته تكون في مرضاة الله وطاعته، فمن أقوالهم في هذا:

▪ قال المزني: «والطاعة لأولي الأمر فيما كان عند الله عز وجل مرضياً، واجتناب ما كان عند الله مُسَخِطاً»^(١).

▪ قال القرطبي: «لذلك قلنا: إن ولاة زماننا^(٢) لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم، ويجب الغزو معهم متى غزوا، والحكم من قبلهم، وتولية الإمامة والحسبة، وإقامة ذلك على وجه الشريعة»^(٣).

▪ قال ابن تيمية: «يطيعهم في طاعة الله ولا يطيعهم في معصية الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديماً وحديثاً. وهي واجبة على كل مكلف»^(٤).

▪ لفت العلماء النظر إلى أن آية طاعة أولي الأمر جاءت بعد آية الأمر بالحكم بالعدل، قال الرازي: «لما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية أمر الرعية بطاعة الولاة... قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حَقُّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا»^(٥)، وقال البيضاوي: «أمر الناس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على

(١) المزني، شرح السنة، تحقيق: جمال عزون، بدون بيانات، ص ٨٥.

(٢) قد تقدم أن القرطبي توفي في زمن السلطان الظاهر بيبرس، في واحد من أهم عصور القوة والتفوق الإسلامي.

(٣) القرطبي، تفسير القرطبي، ٢٥٩/٥.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٠٨/٢٨.

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١٢/١٠.

الحق»^(١).

▪ قال محمد الأمين الشنقيطي: «أجمع جميع المسلمين على أنه لا طاعة لإمام ولا غيره في معصية الله تعالى. وقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا لبس فيها»^(٢).

بل سنجد في أقوال العلماء، ما لا يُمكن أن ترقى إليه منظومة قانونية معاصرة، مثل:

▪ قال الرازي: «الأمة مُجْمَعَةٌ على أن الأمراء والسلاطين إنما يجب طاعتهم فيما عُلِمَ بالدليل أنه حق وصواب»^(٣).

▪ قال العز بن عبد السلام: «لا ننفذ من تصرفاتهم إلا ما ينفذ من تصرف الأئمة المقسطين والحكام العادلين، فلا نبطل تصرفه في المصالح لأجل تصرفه في المفسد؛ إذ لا يُترك الحق المقدور عليه لأجل الباطل، والذي أراه في ذلك أنا نصح تصرفهم الموافق للحق - مع عدم ولايتهم - لضرورة الرعية كما نصح تصرفات إمام البغاة مع عدم أمانته؛ لأن ما ثبت للضرورة يُقدر بقدرها والضرورة في خصوص تصرفاته، فلا نحكم بصحة الولاية فيما عدا ذلك، بخلاف الإمام العادل فإن ولايته قائمة في كل ما هو مفوض إلى الأئمة»^(٤).

▪ قال ابن تيمية: «الإمام العدل تجب طاعته فيما لم يُعْلَم أنه معصية، وغير العدل تجب طاعته فيما عُلِمَ أنه طاعة»^(٥).

(١) البيضاوي، تفسير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٨٠ / ٢.

(٢) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٣٠ / ١.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١٤ / ١٠.

(٤) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنعام، ١٠٧ / ١.

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٩٦ / ٢٩.

تدل هذه الأقوال على أن للقاضي، وسائر أهل الوظائف، بل وسائر الناس، الحق في تقييم السلطان هل هو عدل أم لا، وهل ما يأمر به طاعة أو معصية، فلهم الحق، بل عليهم واجب، أن لا يطيعوه ولا ينفذوا من أمره إلا ما كان من الطاعة، بل إن الأمور التي يختلف في تقييمها وتقديرها ومصحتها، يُنظر فيها للسلطان نفسه، فإن كان صالحا عدلا أطيع فيما يأمر، وإن كان غير ذلك لم يُطع إلا فيما يثبت أنه طاعة!!

ولا يمكن لسلطة معاصرة أو لنظام قانوني مهما كان منحازا للشعوب أن يمنحها هذا الخيار في تنفيذ أوامر السلطة أو رفضها!

والمقصود: إن القبول بحكم المتغلب مراعاة لمصلحة الرعية، لا يعني أبدا طاعة هذا الحاكم في سائر ما يفعله أو يأمر به، وإنما من الواجب على المسلم مقاومته فيما يأمر به من المعصية، فهاتان مسألتان مختلفتان.

(٩)

كذلك فإن القبول بالمتغلب لا اعتبارات مصلحة الأمة وحقن دماء المسلمين، لا يعني السكوت عن أفعال الحاكم، بل يلزم أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وأولئك العلماء الذين سجّلوا في كتبهم قاعدة القبول بالمتغلب لطالما سجّل عنهم التاريخ وقفتهم في وجه المتغلب آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، وعانى هؤلاء من السجن والتضييق والضرب والجلد والمحنة، وبعضهم مات سجيناً، وبعضهم مات طريداً، وهذا من أدل الدلائل على أن قبولهم بالتغلب كان لمصلحة الأمة والدين لا لمصلحة الحاكم، كما يتوهمه النظر القاصر، وهو كذلك من أدل الدلائل على أن قبولهم بالتغلب لم يكن جُبْنًا وضعفاً، وإنما هو ثمرة نظر فقهي وعقل عملي يوازن بين المصلحة والمفسدة.

لقد «كان من عادة السلف -رضي الله عنهم- التعرض للأخطار، والتصريح بالإنكار

من غير مبالاة بهلاك المهجة، والتعرض لأنواع العذاب الأليم لعلمهم بأن ذلك شهادة»^(١).

وهذه بعض أقوالهم في إدانة حُكّام الظلم والجور:

▪ قال العز بن عبد السلام: «وأما ولاية السوء وقضاة الجور فمن أعظم الناس وزرا وأحطهم درجة عند الله، لعموم ما يجري على أيديهم من جلب المفسد العظام ودرء المصالح الجسم، وإن أحدهم ليقول الكلمة الواحدة فيأثم بها ألف إثم وأكثر على حسب عموم مفسدة تلك الكلمة، وعلى حسب ما يدفعه بتلك الكلمة من مصالح المسلمين»^(٢).

▪ قال ابن القيم: «أي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان؟ شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟، وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه»^(٣).

▪ قال ابن رجب الحنبلي: «التغيير باليد لا يستلزم القتال، وقد نص على ذلك أحمد أيضا في رواية صالح، فقال: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح، وحينئذ فجهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات، مثل أن يريق خمورهم أو يكسر آلات الملاهي التي لهم، ونحو ذلك، أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كان له قدرة على ذلك، وكل هذا جائز، وليس هو من باب قتالهم، ولا من الخروج عليهم الذي ورد النهي عنه، فإن

(١) ابن داود الصالح الحنبلي، الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٢٠١.

(٢) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ١/ ١٤٢.

(٣) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٢/ ١٢١.

هذا أكثر ما يُخشى منه أن يُقتل الأمر وحده»^(١).

ومما يمكن أن يُضاف إلى هذا أن جمهرة من علمائنا كانوا إذا وازنوا بين أهل البدع والضلالات، فإنهم جعلوا المرجئة الذين يقولون بالسمع والطاعة ولا يذهبون إلى التكفير بحال، أدنى وأضل من الخوارج الذين تطرفوا في الخروج وغلوا في التكفير، فمن ذلك:

▪ قال إبراهيم التيمي: الخوارج أعذر عندي من المرجئة^(٢).

▪ وقد ورد أن السبب في تكفير بعض العلماء الحجاج بن يوسف الثقفي غلوّه في طاعة بني أمية^(٣).

(١٠)

خلاصة الحديث في موضوع التغلب أنه بحث في «حالة ضرورة لا يمكن فيها إقامة شورى ولا اختيار ولا حكم بلا دماء واقتتال، إنما هو في حال إما قبول بحكم حاكم معين وإن كان قد ارتكب ما ارتكب، أو الدخول في منازعة واقتتال بلا قدرة أو بما يؤدي إلى مفسد غالبية ولا يُدرى ما ثمرتها، وغالباً لن يؤدي بعد مزيد دماء وفتن إلا إلى حكم متغلب آخر، فكان الموقف العقلاني أن اختاروا للأمة اخف الضررين وأقل المفسدتين مراعاة لما يحقق المصلحة العامة للمسلمين»^(٤).

ترى هل كان من المصلحة أن يُمسك العلماء عن إقرار المتغلب، وبقاء الأمر بلا

(١) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ٢/٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، ١/٣٣٧.

(٣) عبد الرحمن المعلمي اليماني، آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ٣/٧٠٧، ٧٠٨.

(٤) فهد العجلان، «فقه التغلب بين مدرستي الغلو والتشويه»، موقع صيد الفوائد، على الرابط:

<<http://www.saaaid.net/Doat/alajlan/28.htm>>

شرعية؟! يجيب ابن الوزير قائلا: «لا شك أن أكثر الأقطار الإسلامية قد غلب عليها أئمة الجور من بعد انقراض عصر الصحابة، فإن الشام ومصر والمغرب والهند والسند والحجاز والجزيرة والعراقين واليمن وأمثالها، ما استدامت فيها دولة حق^(١) في قرون عديدة، ودهورٍ طويلة، ولا شك أن في هذه الأقاليم من عامة أهل الإسلام عوالم لا يُحصون، وخلائق لا ينحصرون، ولا شك أنهم في هذه القرون العديدة، وفي هذه الأقطار الكبيرة لو تركوا هملاً لا يُقام فيهم حدّ، ولا يُقضى فيهم بحقّ، ولا يُجاهد فيهم كافر، ولا يُؤدّب فيهم عاصٍ، لفشا فيهم الفساد، وتظالم العباد، ومرج أمر المسلمين، وتعطلت أحكام رب العالمين»، وضرب ابن الوزير أمثلة منها أن العلماء يُعطّلون شرط الولي في النكاح إذا كان غائبا أو جهلت حياته، فإذا كان هذا «لأجل مصلحة امرأة واحدة، وخوف مضرة امرأة المفقود، فكيف بمصلحة عوالم من المسلمين وخوف مضرتهم»^(٢).

كذلك فإن من أهم ما يجب التركيز عليه، والتأكيد عليه، وهو من المزايا العظمى في ديننا وحضارتنا، أن التغلب برغم طول مدته التي يستدعيها الظرف الاجتماعي والسياسي كما أوضحنا سابقا، إلا أنه لم يتحول أبدا إلى الأصل في الشريعة، بل ظل واضحا لدى الفقيه المسلم في كل عصر أن الأصل في تنصيب الإمام هو الاختيار الحر من قبل الأمة.

ومع ذلك، فالجدير بالذكر أننا هنا ذهبنا إلى توضيح رأي جمهور العلماء في مسألة التغلب، ويجب أن نقول بأن هذا الرأي ليس هو الرأي الوحيد، بل لقد خالف كثير من العلماء في أمور أخرى:

١. فمنهم من رفض القبول إلا بمن كان مؤهلا مستحقا للإمامة، ورأى أنه إن تولاها

(١) وهنا نكرر ونؤكد على ما سبق وذكرناه من أن «دولة حق» المقصودة هنا، هي بمعيار الراشدين، لا بمعيار الثقافة السياسية المعاصرة.

(٢) ابن الوزير، العواصم والقواصم، ٨/ ١٧٢، ١٧٣.

غير مستحق، فقد جاز الخروج عليه، يقول ابن العربي: «وأما مبايعة الإمام وطاعته إذا لم يكن أهلاً لذلك، وهل ينازع، أو يخرج عليه أم لا؟ فمنهم من قال: يخرج عليه؛ لأن الذي لزمته فيه العهدة وانعقدت عليه البيعة ألا ينازع الأمر أهله، فأما أن يترك بيد من ليس هو بأهل لها، يظلم ويجور ويعبث، فلا. وبهذا خرج الحسين بن علي رضي الله عنه، وعبد الله بن الزبير على يزيد، وخرج القراء على الحجاج»^(١).

٢. ومنهم من أوجب عزل الحاكم الجائر إذا لم يُذعن للعدل، يقول ابن حزم: «الواجب أن وقع شيء من الجور، وإن قلَّ، أن يُكَلَّم الإمام في ذلك ويُمنع منه، فإن امتنع وراجع الحق، وأذعن للظلم من البشارة أو من الأعضاء وإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه، فلا سبيل إلى خلعه، وهو إمام كما كان لا يحل خلعه، فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه، ولم يراجع، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق»^(٢).

٣. ومنهم من قال ينخلع بالفسق، ونسبه القرطبي إلى الجمهور، قال: «الإمام إذا نصب ثم فسق بعد انبرام العقد فقال الجمهور: إنه تنفسخ إمامته ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم، لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يُقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر في أمورهم إلى غير ذلك مما تقدم ذكره، وما فيه من الفسق يُقَعِّدُه عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها. فلو جوزنا أن يكون فاسقاً أدى إلى إبطال ما أقيم لأجله»^(٣).

٤. ومنهم من أجاز الخروج حتى وإن لم يتحقق يقينا من انتصاره إذا خرج، واستدل القائلون بذلك على فعل من قاتل من الصحابة في الجمل وصفين، وفعل الحسين وعبد

(١) ابن العربي، المسالك في شرح موطأ مالك، ٥٦٧/٧.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ١٣٥/٤.

(٣) القرطبي، تفسير القرطبي، ٢٧١/١.

الله بن الزبير في الخروج على يزيد، والعلماء الذين ثاروا على الحجاج وهم من التابعين، ولهذا قرر ابن حجر أن الخروج بالسيف على الإمام الجائر «مذهب للسلف قديم»^(١)، ويقول ابن حزم بعد سرده لأسماء كثير من السلف في خروجهم بالسيف: «كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه وإما الفاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رآه منكرا»^(٢).

وفي النهاية يجب التأكيد على أننا هنا لسنا في مقام بحث فقهي، فالبحث الفقهي أمرٌ واسعٌ، ومسألة استقصاء الأقوال وتحريرها والجمع بينها أو الترجيح مسألة فوق طاقة الكاتب، وفوق طاقة هذا المقام، وإنما نحن في سياق توضيح الموقف الفقهي الذي يُساء إليه ويكثر تشويهه في واقعنا المعاصر، لشدة الطغيان السياسي المعاصر، والتماس بعض الطواغيت وعلمائهم شريعة الله تبريرا لفجورهم.

وهذه الصورة التي نحسب أنه اتضح الآن بعض ملامحها، لا تنطبق بحال على حكام الحقبة الجبرية التي نحيها الآن، ففي هذه الحقبة يكاد ينتفي عن جميع الحكام المعاصرين الشروط الأساسية التي حملت علماءنا على تقبل حكم المتغلب للضرورة، فحكام هذا العصر يعطلون الشريعة، ويستبدلون بها القوانين الوضعية، ولا يحفظون الأمة، ولا يقيمون الجهاد بل على العكس إنما يقاتلون أهل الدين، وظهر في بلادهم الكفر البواح الظاهر البرهان، حتى إن حُكْمَهُم ليوصف في الاصطلاح السياسي بأنه «احتلال بالوكالة»، وهو وصف صحيحٌ ودقيق، وإن وثائق الدول الأجنبية وما يصدر من مذكرات زعمائها ورجال أمنها تُثبت بما لا يدع أي مجال للشك في أن هذه الأنظمة وأولئك الحكام جنودٌ مخلصون للاحتلال الأجنبي: الصليبي والصهيوني، وأن دورهم في حراسة

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٢/ ٢٨٨.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٣٢.

إسرائيل وتمكين المصالح الغربية هو دورٌ حيويٌّ وجوهريٌّ لا يمكن أن يبقى الاحتلال من دونه!!

وحين تتهدد هذه الأنظمة تنهمر عليها المساعدات الأجنبية: الأمنية والعسكرية، من الأسلحة والخبراء والتدريب، فضلا عن الدعم السياسي والإعلامي، بل تنزل الجيوش الأجنبية لتحافظ على هذه الأنظمة من السقوط، وقد حدث هذا منذ قرن ونصف القرن في مصر، حين نزلت الجيوش الإنجليزية لتحفظ نظام الخديوي توفيق، ويحدث الآن في سوريا بنزول قوات الاحتلال الروسي.

وهذا الوضع المعاصر لا ينطبق عليه اجتهاد العلماء في المتغلب، بل هذا انحلال وخروج من الدين بالكلية، وبقاء هذه الأنظمة هو نقيض المقصود من نصب الإمام، واستقرار هؤلاء الحكام هو نفسه أكبر الضرر، إذ فيه إزالة الدين والدنيا على الحقيقة.

وأقرب ما ينطبق عليه من أقوال العلماء هو قاله ابن حزم والجويني وغيرهما، فقد شنَّ ابنُ حزم حملة شديدة على حُكَّام الجور، وحرص على قتالهم، وكانت كلماته حارَّةً حارقة، ولا عجب، فقد كان في عصر ملوك الطوائف الأندلسيين، فجادل من ينادون بالصبر عليهم، بأسلوبه الحجاجي المعروف، على هذا النحو:

«يقال لهم: ما تقولون في سلطان جعل اليهود أصحاب أمره، والنصارى جنده، وألزم المسلمين الجزية، وحمل السيف على أطفال المسلمين، وأباح المسلمات للزنا، وحمل السيف على كل من وجد من المسلمين، وملك نساءهم وأطفالهم، وأعلن العبث بهم، وهو في كل ذلك مقرُّ بالإسلام معلنا به، لا يدع الصلاة؟

فإن قالوا: لا يجوز القيام عليه، قيل لهم: أنه لا يدع مسلما إلا قتله جملة، وهذا إن تُرِكَ أوجب ضرورة ألا يبقى إلا هو وحده وأهل الكفر معه.

فإن أجازوا الصبر على هذا خالفوا الإسلام جملة وانسلخوا منه.

وإن قالوا: بل يُقام عليه ويُقاتل، وهو قولهم^(١)، قلنا لهم: فإن قتل تسعة أعشار المسلمين أو جميعهم إلا واحد منهم؟ وسبي من نسائهم كذلك؟ وأخذ من أموالهم كذلك؟

فإن منعوا من القيام عليه تناقضوا، وإن أوجبوا سألناهم عن أقل من ذلك، ولا نزال نحيطهم إلى أن نقف بهم على قتل مسلم واحد، أو على امرأة واحدة، أو على أخذ مال، أو على انتهاك بشرة بظلم.

فإن فرّقوا بين شيء من ذلك تناقضوا وتحكموا بلا دليل، وهذا مالا يجوز. وإن أوجبوا إنكار كل ذلك رجعوا إلى الحق.

ونسألهم عمن غصب سلطانه الجائر الفاجر زوجته وابنته وابنه ليفسق بهم، أو ليفسق به بنفسه، أهو في سعة من إسلام نفسه وامراته وولده وابنته للفاحشة؟ أم فرض عليه أن يدفع من أراد ذلك منهم؟

فإن قالوا: فرض عليه إسلام نفسه وأهله أتوا بعزيمة لا يقولها مسلم. وإن قالوا: بل فرض عليه أن يمتنع من ذلك، ويقا تل، رجعوا إلى الحق، ولزم ذلك كل مسلم في كل مسلم، وفي المال كذلك^(٢).

وقال الجويني: «إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود، وارتفعت الصيانة، ووضحت الخيانة، واستجراً الظلمة، ولم يجد المظلوم منتصفا ممن ظلمه، وتداعى الخلل والخلل إلى عظام

(١) هنا يصرح ابن حزم بأن القائلين بالصبر على أولئك الحكام يقولون بالخروج عليهم حين تعظم المصيبة ويشدد الضرر وتكون المفاسد أعظم من المصالح، ولكنه لا يرضى منهم بهذا، بل يجعل قتل مسلم واحد ظلماً يقتل جميعهم، لأنه لا دليل على هذه التفرقة في العدد.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ٤/ ١٣٤، ١٣٥.

الأمر، وتعطيل الثغور، فلا بد من استدراك هذا الأمر المتفاقم... وذلك أن الإمامة إنما تعنى لنقيض هذه الحالة. فإذا أفضى الأمر إلى خلاف ما تقتضيه الزعامة والإيالة، فيجب استدراكه لا محالة، وترك الناس سدًى ملتطمين لا جامع لهم على الحق والباطل، أجدى عليهم من تقريرهم على اتباع من هو عون الظالمين، وملاذ الغاشمين، وموئل الهاجمين، ومعتصم المارقين الناجمين»^(١).

ومع هذا فإن الجويني، كواحد من أئمة المسلمين، لم ينس ذكر النصيحة في الخارجين على هذا الحاكم الذي صار وجوده نقيض الإمامة، فحرّم الخروج عليه لمن لم يستكمل العدة، وحرّض عليها من كان ذا عدة وأتباع، يقول:

«لا نطلق للآحاد في أطراف البلاد أن يثوروا؛ فإنهم لو فعلوا ذلك لاضطلموا وأببروا، وكان ذلك سببا في ازدياد المحن، وإثارة الفتن، ولكن إن اتفق رجل مطاع ذو أتباع وأشياء، ويقوم محتسبا، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وانتصب بكفاية المسلمين ما دفعوا إليه، فليمض في ذلك قدما. والله نصيره على الشرط المقدم في رعاية المصالح، والنظر في المناجح، وموازنة ما يدفع، ويرتفع بما يتوقع»^(٢).

واليقين الذي عندي، بعد دهر في متابعة هذه الأمور، أن الفوضى التي يمكن أن يتخوّف منها إذا وقع الخروج على هؤلاء الحكام هي أقل ضررا من بقائهم وتمكنهم، فإن الناس ما أسرع ما يستطيعون تنظيم أمورهم وتأمين نفوسهم وصيانة الأغلب من مصالحهم.

ولكن بقاء هذه الأنظمة هي بقاء الحال على ما هو عليه في ازدياد السوء وتمكن العدو، وهذه الأنظمة إما أنها توصلنا إلى احتلال صريح أو يستمر استبدادها ويكون كل يوم أشد

(١) الجويني، الغياثي، ص ٢٧٦.

(٢) الجويني، الغياثي، ص ٢٨٢، ٢٨٣.

من سابقه! فالواقع أن الدولة القطرية القومية ضمن المنظومة العالمية ليست إلا سجنا يتحكم بحركة الشعوب، وكفاءتها يتعلق بكفاءتها في كونها سجنا محكم الإغلاق، و«الدولة الفاشلة» في المصطلح السياسي المعاصر، هي الدولة التي لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة، وليست كما يظن كثير من الناس أنها الدولة التي لا تستطيع توفير الحياة الكريمة لشعبها.

إن أقرب الصور التاريخية لواقع حُكَّام اليوم هو صورة حُكَّام المغول الذين دخلوا في الإسلام ظاهرا، ومع ذلك فقد بقيت مرجعيتهم قوانين جنكيز خان، وكانوا يحتكمون إليها، وهؤلاء قاتلهم الأئمة والعلماء، وأفاض في التحريض عليهم ابنُ تيمية^(١)، وشارك في قتالهم بنفسه تحت راية المماليك.

وقد نقل المؤرخون تكفير العلماء لتيemor لنك لهذا السبب، قال ابن حجر: «كان يُقدَّم قواعد جنكز خان ويجعلها أصلاً، ولذلك أفتى جمعٌ جمٌّ بكفره، مع أن شعائر الإسلام في بلاد ظاهرة»^(٢).

وقد نطق كثيرٌ من العلماء المعاصرين بالحق في هذه الأمور، منذ أن جرى تبديل الشريعة في عصرنا بفعل الاستعمار ووكلائه، ولكن لم تشتهر أقوالهم مع الأسف الشديد، وما ذلك إلا لغلبة وقهر هؤلاء الحُكَّام وسيطرتهم على وسائل النشر والثقافة والتعليم والإعلام.

وليس هاهنا مجال التفصيل في ذلك، وإنما ذكرناه لغرض واحد، وهو القول بأن العلماء الذين سطروا في كتبهم قبول حكم المتغلب، هم بأنفسهم كفَّروا وقاتلوا من خرج

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٥٣٠، ٥٠٦/٢٨.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، ٣٠٣/٢؛ وانظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٤٩/٣؛ ابن عريشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص ٤٤٥.

على الشريعة وبدلها، فكانوا أصحاب دين وشجاعة، ولم يكونوا -كما يتصورهم المعاصرون- أصحاب جبن ونفاق!

وهذا المقام لا يحتمل أكثر من هذا، ولعل الله تعالى يوفقنا في إكمال هذه «الخلاصة»،
فربما نعود إلى وصف أكثر تفصيلا لهذا الوضع إذا وصلنا في التأريخ إلى حقبة التاريخ الحديث.



صورة حضارة الإسلام في ظل الملوك والمتغلبين

إننا «حين نراجع تاريخ هذه الفترة المتطاوله من الزمان فسنجد ولا شك انحرافا تدريجيا عن حقيقة الإسلام. ولكن حجم هذا الانحراف يُجَسِّم عن عمد، ويُكَبِّر حتى يملأ فراغ الصورة، ويُصَغِّر إلى جانبه أو يخفى ما بقي في دنيا الواقع من معالم الإسلام الأصلية، لإعطاء هذا الإيحاء المسموم في النهاية: أن الإسلام قد انتهى بنهاية عصر الخلفاء الراشدين»^(١).

إن ما حدث، هو في حقيقة الأمر، لم يكن غير «هبوط عن الذروة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده. وهذا الهبوط عن تلك الذروة هو ذاته أحد أسباب الوهم الذي يتجسد في أذهان بعض الناس من أن الإسلام قد انتهى منذ ذلك الحين»^(٢)، وبقليل من التأمل وقراءة التاريخ «سيتبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات أن الحصيلة المتبقية ضخمة جدا رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالي فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الذين وضخامته، وأصالة

(١) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص ١٢٦.

(٢) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص ١٣٤.

جذوره في التربة وتعمقها، بحيث يجتث منه ما اجتثته الدولة الأموية ثم تبقى منه هذه الحصيدلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية التي تسعى لنشر الدين في الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التي قام بها المسلمون في العهد الأموي بالذات»^(١).

إن معظم ملوك الإسلام والحكّام المتغلبين طوال هذا التاريخ لم يخونوا الأمة ولا المِلَّة، بل عملوا على رفعة شأنها، وعلى يدهم وفي ظلهم انطلقت حضارة الإسلام وكانت له دولة شامخة مهيبة عظيمة العمران والبنيان، ومنها شَعَّ النور على كافة أرجاء الأرض، و«يكفي أن نسجل فقط حركة الانسياح الإسلامي في الأرض، التي تمت في عهد بني أمية، لنُدحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين!! إن حركة الفتح الإسلامي ليست مجرد توسع في الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار. إنما هي أكبر حركة «هداية» للناس في التاريخ، وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور»^(٢).

وهذا الأثر ظاهرٌ لا يمكن أن تداريه المناظير السود التي ينظر بها البعض إلى تاريخنا، وهو أمرٌ تثبته أدنى الدراسات المنصفة، وإن جمهرة العلماء والمؤرخين من غير المسلمين، الذين درسوا الحضارة الإسلامية، يسطرون هذا في دراساتهم بغير تحفظ، وسجّل الموسوعيون منهم ممن درسوا تاريخ الحضارات فضائل ومزايا لم تكن لحضارة أخرى.

هذا المؤرخ الأمريكي المرموق، ول ديورانت، صاحب موسوعة «قصة الحضارة» التي أرخ فيها للحضارة الإنسانية، يثني على الإنجاز الذي كان في زمن أولئك الذين لا نرى منهم إلا وصف المُلك العضوض والحاكم المتغلب، فيقول: «ولكن الخلفاء قد أَمَّنُوا الناس إلى حدٍّ كبير على حياتهم وثمار جهودهم، وهَيَّئُوا الفرص لذوي المواهب،

(١) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص ١٤٠.

(٢) محمد قطب، كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص ١٣٦.

ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم تَرَقْ مثل هذا الرخاء بعد عهدهم، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم، وازدهرت العلوم، والآداب والفلسفة، والفنون ازدهارًا جعل آسيا الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة»^(١).

وهذا الفيلسوف المستشرق الموسوعي جوستاف لوبون، صاحب النظريات الشهيرة في الحضارة وعلم الاجتماع، والذي غاص في أخبار الحضارات، ينتهي إلى القول بأن «الأمم التي فاقت العرب تَمَدُّنًا قليلةً إلى الغاية، وإننا لا نذكر أُمَّة كالعرب حَقَّقَتْ من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حَقَّقُوا، وإن العرب أقاموا دينًا من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا دينًا لا يزال تأثيره أشدَّ حيويَّة مما لأيِّ دينٍ آخر، وإنهم أنشؤوا - من الناحية السياسية - دولةً من أعظم الدول التي عَرَفَهَا التاريخ، وإنهم مَدَّنُوا أوربا ثقافةً وأخلاقيًا، فالعروقي التي سَمَتْ سُمُوَّ العرب وَهَبَطَتْ هبوطَهُمْ نادرةً»^(٢).

وهذه المستشرقة الألمانية التي هامت حبا في الحضارة الإسلامية، تقرر أن الإمكانيات التي وجدها المسلمون أمامهم كانت متاحة أمام غيرهم، ولكنهم لم يفعلوا شيئًا مما فعله المسلمون، تقول: «هذه القفزة السريعة المدهشة في سُلَّم الحضارة - التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بَدَتْ من اللاشيء - لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة - التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة في هذا العصر - لفريدة في نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقَارَن بغيرها، وتدعونا هنا أن نقف هنيهة متأملين: كيف حدث هذا؟ وكيف أمكن لشعب لم يُمَثَّل من قبل دورًا حضاريًا أو سياسيًا يُذَكَّر، أن يقف مع الإغريق في فترة وجيزة على قدم المساواة؟ إن ما حققه العرب لم تستطع أن تحقِّقه شعوب كثيرة أخرى، كانت تمتلك من مقومات الحضارة ما قد كان

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣ / ١٥١.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٦١٨.

يؤهلها لهذا»^(١).

في زمن أولئك الملوك والمتغلبين، لم يبقَ «ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يَزِدْ ثروة التقاليد الغربية فيها غنى، فثمة الأطعمة والأشربة، والعقاقير والأدوية، والسلاح والدروع ونقوشها، والفنون الصناعية والتجارية والبحرية، ثم بعد ذلك الأذواق والموضوعات الفنية، ودَعَّ عنك الحديث في المصطلحات العديدة في الفلك والرياضة، فإن قائمة تدلُّ على المدى الكامل لمساهمة الإسلام في كل ذلك تستنفذ صفحات عدَّة دون أن تَبْلُغَ ولو من بعيد درجة التمام، وإن نفس وجود العالم الإسلامي كان له أثر كبير في صوغ التاريخ الأوربي والحضارة الأوربية... لا شكَّ أن أعظم رجال اللاهوت، وأعظم الشعراء في القرون الوسطى الأوربية مَدِينُونَ للإسلام بأكبر الفضل في ناحيتي الإلهام والمادة جميعاً»^(٢).

في زمن أولئك الملوك والمتغلبين، «ظَلَّ الإسلام خمسة قرون من عام (٧٠٠م) إلى عام (١٢٠٠م) يتزعم العالم كله في القوة، والنظام، وبسطة الملك، وجميع الطبائع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة... وكان الفنُّ والثقافة في بلاد الإسلام أعمَّ وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى؛ فقد كان الملوك أنفسهم خَطَّاطِينَ، وتجاراً، وكانوا أطباء، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة»^(٣).

لذلك كله، ستجد أن عددا من المفكرين والمستشرقين الغربيين يتأسفون ويتحسرون

(١) زيجريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ص ٣٥٤.

(٢) جوستاف جرونيهام، حضارة الإسلام، ص ٤٣٥.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣ / ٣٨٢.

أن ملوكنا ومتغلبينا لم يفتحوا بلادهم، وأن بلادهم لم تدخل في ظل أولئك الملوك والمتغلبين الذين حكموا بالإسلام فنشروا حضارته الرائعة، هذا جوستاف لوبون يعتقد أن المشكلة كانت في أن جوَّ فرنسا البارد زَهَّد المسلمين في فتحها، فيقول: «لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جوَّ شمال فرنسا غير باردٍ ولا ممطر كجوَّ إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدثُ في أوربا التي تكون قد هُذِّبَت ما حَدَثَ فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتلمي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يَعْرِفْهُ المسلمون من الوقائع الخطيرة التي صَرَّجَتْ أوربا بالدماء عِدَّة قرون»^(١).

وهذا الكولونيل البريطاني رونالد فيكتور بودلي يتأسف أن الإسلام لم يسر في أوربا، ويرى أن المشكلة في أن الشعوب الأوروبية شعوب معقدة، بينما المسلمون قوم بسطاء غير معقدين، يقول: «ما كانت أوربا لتعتنق الإسلام لو أن شارل مارتل قد هُزِم في تور»^(٢)، فهذا الدين يوائم أناساً غير مُعَقِّدين؛ أناساً أرواحهم قريبة من الطبيعة، والعرب حقاً غير مُعَقِّدين، وكان محمد غير معقد»^(٣).

لقد كانت هذه الفتوحات هي فتوحات الملوك والمتغلبين، وفتح الأندلس ومحاولات فتح باریس إنما كانت في زمن الوليد بن عبد الملك، وأخيه هشام بن عبد الملك، والحضارة التي أشرقت في الأندلس حتى افتنن بها أهل أوربا، إنما كانت تحت رعاية بني أمية في الأندلس، ثم أتمها العامريون والمرابطون والموحدون والنصريون!

((١)) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٣١٧.

((٢)) يقصد معركة بلاط الشهداء، التي كانت قريبة من مدينة تور.

((٣)) ر. ف. بودلي، الرسول، ص ٣٤٠.

في هذا الفصل، سنكتفي بالنقل عن المستشرقين والمؤرخين غير المسلمين، ليرى المسلم كيف أن هذا الانحراف في باب الحكم لم يَقْضِ على الإسلام ولم يُقَوِّض أركانه، كما يزعم الذين تسرعوا في النظر والرأي، أو الذين نظروا بعين واحدة وأغمضوا الأخرى عن بقية الصورة! بل لا نبعد ولا نبالغ إذا قلنا إن التحول إلى الملك، والذي نرى أنه كان ضرورة واضطراراً، قد حفظ لهذه الأمة استقراراً ممتازاً مَكَّنَها من إنشاء حضارة فريدة.

وإذا شاء الله، ومدَّ في العُمُر، وأسعفت الهمة، فسُنْفِصِل الحديث عن حضارة الإسلام في سلسلة الوعي التاريخي بعد أن ننتهي من موجز التاريخ، فالمرجو إن شاء الله، أن تكون «الخلاصة» قسمان: قسم لإعطاء صورة موجزة عن التاريخ، وقسم لإعطاء صورة موجزة عن الحضارة، بهما يتسلح العامل لدين الله في حركته ودعوته، فالله المستعان، ولعل القارئ لا ينسانا من دعوة صالحة.

كان ضرورياً أن نضع هذا الفصل بعد الحديث عن الملك العضوض وعن التغلب، ليرى القارئ أن حضارة الإسلام ازدهرت ولم تنطفئ في ظل أولئك الملوك والمتغلبين كما يشعر بهذا القارئ في التاريخ السياسي أو في المصادر المعاصرة التي تشتط في الهجوم على تاريخنا الإسلامي. إن القارئ يتصوّر أن الملوك والمتغلبين في تاريخنا كانوا على نحو أولئك الذين يحكموننا الآن فيدمرون ديننا ودياننا، ذلك أن صورة الاستبداد والطغيان في أذهاننا قد تكوّنت وتلونّت واصطبغت من خلال خبرتنا المعاصرة، ومن هنا يصعب على أكثر الناس تصوّر أن المَلِك قد يكون مستبداً ولكنه مخلص لأُمته وملته، حريص على رفعتها وقوتها، وأن ما اقترفه من ذنوب وآثام بل وحتى كبائر ما كانت لتجرح أو لتخدش هذا الانتماء والولاء لدينه وأُمته.

وكان من الأفضل أن ننقله كله من أقوال غير المسلمين ليكون ذلك أبلغ في الحجة، وأقوى في الدلالة، إذ لا يُتَّهَم هؤلاء بالتعصب ولا بالانحياز. كما أنهم حين كتبوا فإنما كانوا يكتبون لأهلهم وبلغتهم، ولم يكونوا يكتبون لنا. ثم إنهم كتبوا هذه الدراسات في

زمن ضعف المسلمين وتفوق الغرب، فما كان لهم حاجة أو مصلحة في الكذب على قومهم أو نفاق المسلمين!!

وسنكتفي هنا بإلقاء ضوء سريع على خمسة جوانب فحسب، وهي: القوة السياسية، والهيمنة الأخلاقية، وازدهار العلوم، والنهوض الاقتصادي، وأحوال الأقليات.

القوة السياسية والفتوحات الإسلامية

منذ الدولة الأموية والإسلام يتمدد من الصين إلى جنوب فرنسا، ولما جاءت الدولة العباسية ونشأ في أطرافها مجموعة من الدول المستقلة استمرت مسيرة الفتوح شمالاً وجنوباً، وكانت الدولة الإسلامية هي قلب القوة التي استند إليها عدد غير معروف من الدعاة والتجار الذين نشروا الإسلام فيما وراء حدود الدولة، حتى دخلت بلاد كثيرة في الإسلام بغير فتح ولا جيش ولا قتال!

كانت القوة والمهابة التي تتمتع بها الدولة الإسلامية، وكذلك كان رقيها وحضارتها، أهم داعم وحافز ودليل يساعد أولئك الدعاة والتجار في دعوتهم إلى الإسلام. ففي حقيقة الأمر لم يكن الداعية أو التاجر أو الرحالة بنفسه، وإنما كان بأمرته ودولته المهيبه التي ينتمي إليها.

ومن غير شك، فإن فساد الأديان، وضعف الأمم، وما يعانيه الناس من المظالم والجرائم قد كان الدافع المقابل الذي يدفع بالناس إلى تقبل الإسلام والإسراع إليه، ولذا كثر في أخبار الفتوح أن نجد أولئك الأقوام يساعدون الفاتحين في فتح بلادهم، أو يرحبون بهم إذا فتحوها.

لنبداً بإلقاء الضوء على هذه القوة والمهابة التي تمتعت بها الدول الإسلامية..

يتحدث مؤرخ الحضارة ول ديورانت عن أصل هذه القوة فيقول: «ليس في التاريخ دين

غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يُفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام»^(١).

وما كان لهذا أن ينجح لولا هذا الإخلاص والعزم الذي أبداه ملوك الأمة وأمرؤها في احتياز القوة وتنميتها واتخاذ سبل الإعداد كلها. حتى وصل الحال لتكون بغداد، عاصمة الحضارة الإسلامية لخمس قرون أشبه بالأساطير.

يقول الزعيم الهندي جواهر لال نهرو: «إن المدينة التي ازدهرت في أيام الخلفاء العباسيين هي مدينة ألف ليلة وليلة، كانت مدينة فسيحة تزرع بالقصور، والمحلات العامة، والمدارس والكتليات، والأسواق، والمتنزهات، والحدائق الغناء، وكان تجارها يتعاملون مع بلدان الشرق والغرب، وكان لها جيش عرمرم من الموظفين، الذين يُراقبون جميع أطراف الإمبراطورية، وكلما تعقدت شئون الإدارة قسمت إلى إدارات عديدة، وربطت جميع أنحاء الإمبراطورية بالعاصمة بنظام البريد، وانتشرت المستشفيات، وأمّها الزوار من مختلف أقطار العالم، وخصوصاً العلماء وطلاب العلم والفنانون، وكان الخلفاء يُرحّبون بأهل العلم والفن»^(٢).

ألقت هذه القوة السياسية والمهابة التي تتمتع بها الدولة الإسلامية بآثارها العظمية وثمراتها الكبرى على انتشار الإسلام في الخافقين، ومن أكثر المستشرقين توسعاً في تتبع انتشار الإسلام في سائر الأقطار، المستشرق البريطاني الشهير توماس أرنولد، في كتابه «الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية»، ومنه نقبس هذه الفقرات:

«إن هناك شواهد كافية تدلُّنا على وجود جهود سلمية في الدعوة لنشر عقيدة الإسلام في خلال السنوات الستمائة الأخيرة، حقاً إن السيف كان يُمتَشَقُّ أحياناً لتأييد قضية الدين،

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/٦٨.

(٢) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ص ٣٤.

ولكن الدعوة والإقناع - وليس القوة والعنف - كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه، وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاص، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالي... وإلى جانب التجار كانت هناك جموعٌ ممن يصحُّ أن نُسَمِّيَهُم الدعاة المحترفين، وهم الفقهاء والحُجَّاج^(١).

«ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمرٍّ في البنغال السفلى لم يكن راجعاً إلى القوة والعنف، فقد راق الإسلام نظر الأهالي، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحوَّلوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء، وأدخل في أذهانهم تصوُّراً أرقى لمعنى الإله، ومثلاً أسمى للأخوة الإنسانية، وقَدَّم للعشائر المنحطة التي غَصَّت بها البنغال - والتي ظلت أجيالاً دينيَّة وضيفة أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية - منفذاً حرّاً تقدَّمت منه إلى نظام اجتماعي جديد»^(٢).

«دفع هذا الشعور نفسه - شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظلِّ الحكم الإسلامي - كثيراً من مسيحيي آسيا الصغرى، في إِبَّان هذه الفترة ذاتها إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة، باعتبارهم مُخلِّصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكن بسبب رُوح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الإغريقية... طالما دعا الأهلون الأتراك في عهد ميخائيل الثامن إلى الاستيلاء على مدنها الصغيرة في داخل آسيا الصغرى؛ تخلَّصاً من استبداد الدولة، وكثيراً ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية»^(٣).

«رَحَّب اليهود بالعرب الغزاة وعدُّوهم مُخلِّصين لهم مما حلَّ بهم من المظالم،

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٤٥.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٣١٤.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١١٦، ١١٧.

فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت بأيديهم. كذلك رَحَّبَ بالمسلمين هؤلاء الأرقَّاء الذين حَلَّ بهم البؤس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك»^(١).

الهيمنة الأخلاقية

لاحظ الباحثون في تاريخ انتشار الإسلام، أن من أهم أسباب هذا التمدد السريع ما يتمتع به المسلمون من أخلاق راقية، ويرى عدد من الباحثين المعاصرين أن أزمة الحضارة الغربية الحديثة إنما هي في جوهرها أزمة أخلاق، ويقترحون أن يبحث الغرب عن حلٍّ لهذه الأزمة في التراث الإسلامي^(٢).

إن قراءة التاريخ السياسي لأي أمة، إنما هو قراءة في تاريخ الحروب وصراعات القصور ومكائد السياسة، ولذا فالتاريخ السياسي هو الوجه الأسوأ لتاريخ أي أمة، ومع ذلك، فإن تاريخنا السياسي كان الأقل سوءاً بل والأكثر نصاعة من بين تواريخ تلك الأمم، فلقد كانت الهيمنة الأخلاقية الوافرة التي تظلل المجتمع كابحة لجماح الانفلات الأخلاقي الذي قد يلجأ إليه السياسة، إذ السياسي مضطَّر في كل الأحوال إلى التمتع بالأخلاق التي يرضيها المجتمع، فإن لم تكن أخلاقه هذه طَبْعاً وأصلاً، فإنه يصطنع ذلك تقرباً إلى الناس.

وقد أفرد ابن خلدون فصلاً في مقدمته عن «أن من علامات المُلْك التنافس في الخلال الحميدة»، فكشف فيه كيف أن ملوك الدول الإسلامية كانوا أهل تنافس في الخلال

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٥.

(٢) من أبرز من أطلق هذه الدعوة وائل حلاق، الأستاذ بجامعة كولومبيا، وهو نصراني من أصول فلسطينية، وأفرد لهذا كتابه الأشهر «الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي».

الحميدة، بل كيف أن الأخلاق الحميدة هي الصفات التي تؤهل أصحابها للملك والسيادة إن كانوا أهل شوكة وعصبة. ولن ننقل هنا كلام ابن خلدون كي لا نخرج عما اشترطناه من الاقتصار على أقوال الباحثين والمؤرخين من غير المسلمين، لكن القصد منه أن نشير إلى أن الهيمنة الأخلاقية في الحضارة الإسلامية صبغت حتى الملوك والساسة بصبغتها، وأن هذا قد انجلى حتى في السلوك السياسي والعسكري، الذي يندر أن يلتزم الناس فيهما بالأخلاق.

وبهذا نرى مشهدين كلاهما يُعصّد الآخر ويقويه، مجتمع أخلاقي تهيمن عليه النزعة الأخلاقية، فيصطبغ بها الملوك - رغبا وطوعا وتخلقا أو رهبا وطمعا وتزلفا - ثم ينعكس هذا كله في السلوك السياسي والحربي للفتوحات والمعارك، وبهذا ظهر في سلوك الفاتحين من الأخلاق ما دفع الناس للإقبال على دينهم، بل وما دفع الناس لاستدعائهم لفتح بلادهم. ولا نقصد هنا الفتوحات التي كانت في زمن الخلافة الراشدة، بل الفتوحات التي كانت في زمن الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

(١) أخلاق المجتمع الإسلامي

يقرر مؤرخ الحضارة ول ديورانت أن «المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقه التجاري، وفي وفائه بوعده، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره، ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية. والمسلمون شرفاء فيما يختصُّ بعادة الكذب، فهم يُبيحون الكذب إذا كان فيه نجاة من الموت، أو حسم لخصومة، أو إدخال السرور على زوجة، أو خدعة في الحرب لأعداء الدين. والآداب الإسلامية تجمع بين التكلُّف والبشاشة، وحديث المسلم ملئ بالتحية والمبالغة في

التأديب»^(١).

ويرى المستشرق البريطاني ألبرت حوراني أن الأخلاق كانت عماد الحياة الاقتصادية الإسلامية، لأن الإمبراطورية الإسلامية كانت شاسعة مترامية الأطراف، يقول: «إن حياة اقتصادية معقدة على مسافات كهذه لا يمكن أن توجد دون إطار من التوقعات المشتركة لأولئك الذين يتوجب عليهم التكامل فيما بينهم دون أن يرى بعضهم الآخر ولا يعرفه. ويمكن للروابط العائلية أحياناً أن تدعم تلك التوقعات... فإن لم توجد روابط كهذه تصبح الحاجة ماسة إلى قوانين أو معايير لأخلاق اجتماعية معترف بها بوجه عام... وقد أصبح هذا ممكناً عندما اعتنق الإسلام معظم سكان البلاد التي يحكمها المسلمون، وبدأت تتضح لهم المضامين المتعلقة بالحياة الاجتماعية لرسالة محمد ﷺ»^(٢).

«وإن مما يؤثّر في الغريب اليوم أدب العربي الصميم، ورقّة قلبه، وحسن ضيافته، ولا يوجد جنس بشري آخر يبلغ في الكرم ما يبلغه العربي، كرمٌ يصدر عن نفس صادقة، لقد انقضى ثلاثة عشر قرناً منذ أعطى محمد دروس الأخلاق في المدينة، ولكن تلك الدروس لم تُنسَ إلى الآن»^(٣).

«المألف أن المسلم كان مثال الرقة، والإنسانية، والتسامح، وكان -إذا وصفنا أواسط الناس- سريع الفهم، حادّ الذكاء، سريع التهيج، يسهل إدخال السرور إلى قلبه، والمرح على نفسه؛ يجد الرضا في البساطة، ويصبر على بلواه في هدوء، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر، وكرامة، وشمم، وكبرياء»^(٤).

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٤١.

(٢) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ٧٩.

(٣) ر. ف. بودلي، الرسول، ص ١٣٨.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٤٣، ١٤٤.

«التعاون وحسن الضيافة والكرم والأمانة للالتزامات -التي تؤخذ تجاه أعضاء المجتمع والاعتدال في الرغبات والقناعة- تلك هي الفضائل التي لا تزال تميّز المسلمين، وهي مثالية حقيقية، تريد أن ترتقي بقوى الطبيعة البشرية، والتي تكفي لإعطائهم عزّة نفس وكرامة كان يجهلها عرب الجاهلية»^(١).

«كان عرب إسبانيا يتّصفون بالفروسية المثالية خلال تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى هذه الخلال»^(٢).

«لقد علّم الإسلام الناس أن يُواجهوا صعاب الحياة، ويتحمّلوا قيودها، بلا شكوى ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله، وقد عرّف الدين وحدّه تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله»^(٣).

(٢) الحج: ذروة الصورة الأخلاقية

وكان الحج إلى مكة يمثل ذروة الصورة الأخلاقية للمجتمع الإسلامي، حتى قيل فيه: «لم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصوّر وسيلة أحسن من هذه الوسيلة؛ تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، ترى زنجي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق، ويتعرّف التركي الرقيق المذهب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين، الذين يسكنون أبعد أطراف الملايو، وفي هذا الوقت نفسه تتطلّع قلوب المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي -في عطف وحنين- إلى إخوانهم الأسعد

(١) دومينيك سورديل، الإسلام، ص ١٠٧.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٢٧٨.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣ / ٦٩.

حظاً منهم الذين تجمّعوا في المدينة المقدسة»^(١).

«الحج أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام؛ فهناك يجتمع المسلمون الأوروبيون والآسيويون والإفريقيون، والصعاليك والأمراء، والتجار والمقاتلون في نفس الإزار البسيط الذي كان محمد وأتباعه يرتدونه في حجة الوداع عام (٦٣٢هـ)، إنهم جميعاً يتناولون نفس الطعام، ويتقاسمون نفس الخيام، ويُعاملون دون تمييز، سواء أ جاءوا من مرافئ سيراليون أم من قصر نظام حيدر أباد، إنهم جميعاً مسلمون»^(٢).

«الإسلام قد وُفّق أكثر من أديان العالم جميعاً إلى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية، وخاصة بين أبنائه، ولا شك في أن الاجتماع في موسم الحج له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية»^(٣).

(٣) معاملة العبيد

ومما تمتع به المجتمع الإسلامي، وكان يمثل مظهراً مدهشاً لزوّار الغرب ورحالتهم ومؤرخيهم، تعاملهم مع الفئات الضعيفة، ومنهم العبيد والخدم والموالي، فقد تمتع أولئك بما لم يكن يتمتع به الأحرار في المجتمعات الأخرى، ومن المفارقات أن هذه الفئة استطاعت في كثير من الحالات أن تصل إلى مراتب السلطان، وكان ذروة هذه الحال في الدولة المملوكية.

يصف ديورانت العلاقة بين السيد وعبيده على هذا النحو: «كان في العادة يُحسن

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٥٧.

(٢) ر. ف. بودلي، الرسول، ص ٣٣٩.

(٣) فيليب حتي، العرب، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١م)، ص ٦٠.

معاملته إلى حدٍّ لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل في المصانع الأوروبية في القرن التاسع عشر، بل لعله كان أحسن حالاً من ذلك الصانع؛ لأنه كان آمن على حياته منه»^(١).

«ينبغي أن نُقرَّر فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم معاملة أحسن من تلك التي كان النصراني يُعاملون بها خدمهم وعبيدهم.. فكان الخادم الماهر في فنٍّ من الفنون يتمتع بكل ما يريجه الحرُّ، ولا ينقصه إلا التحرُّر»^(٢).

وإلى وقت قريب، إلى ما قبل القرن أو القرن ونصف القرن، وصف الرحالة الغربيون ما شاهدوه من معاملة العبيد على هذا النحو:

داوتي، الرحالة الشهير الذي قضى عامين في الجزيرة العربية، ثم سرد قصته في أربعة مجلدات، يقول: «ظروف العبيد هي دوماً أمور مقبولة في الجزيرة العربية، وغالباً ما تكون ظروفًا سعيدة؛ والعبيد هنا ينشأون باعتبارهم إخوان مساكين وفقراء لأبناء الأسرة، وهو نوعٌ من مكافأة الرب لرب الأسرة المسلم المتدين، وهم العم لهؤلاء العبيد أثناء عبوديتهم، وهو أيضاً الأب بالنسبة لهم... هؤلاء الأفارقة لا يحسون بأي قلق أو ضيق لأنهم كانوا عبيداً في يوم من الأيام... وبوسعهم أن يقولوا: هذا فضل الله، لأنهم استطاعوا عن طريق ذلك الذي حدث لهم أن يدخلوا في الدين المنقذ. ومن هنا فهم يعتقدون أن هذا البلد، الجزيرة العربية، هو الأفضل حيث أعتقوا فيه، وأن الحياة المدنية في هذا البلد أفضل من بلدهم، وأن هذه هي بلاد الحرمين الشريفين، أرض محمد (ﷺ) ولذلك شكر هؤلاء العبيد الله على بيع أجسادهم في أسواق العبودية»^(٣).

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٣/ ١١٢.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، هامش ص ٢٠١.

(٣) تشارلز داوتي، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، ط ٢ (القاهرة: المركز القومي

للترجمة، ٢٠٠٩)، الجزء الأول، المجلد الثاني، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

ويتعجب المؤرخ الإيطالي إتوري روسي حين يرصد وضع تجارة الرقيق في طرابلس الغرب (ليبيا) في منتصف القرن التاسع عشر، ومجهود أوروبا وبالذات الإنجليز في محاربة هذه التجارة و«إنقاذ» العبيد، يقول: «الغريب أن عملية الإنقاذ هذه قد تعرضت لصعوبات جمّة، من قبل هؤلاء العبيد أنفسهم، الذين عاد عدد كبير منهم إلى أسيادهم، بعد تحريرهم وإعتاقهم، كما تعود البهائم المعتادة على النير وحمل الأثقال. عاجزين عن أن يشقوا لأنفسهم طريقا خاصا مستقلا، وقد تخلوا في غير أسف عن تلك الحرية التي لم يرغبوا فيها، رغم ما كان يُوفّر لهم من حماية ومساعدة. ومن الحق أن يقال: إن وضع هؤلاء العبيد، لم يكن سيئا قاسيا، وأن أصحابهم كانوا يعاملونهم معاملة إنسانية في العادة، كما أن أوضاع العبيد في البيئة الإسلامية لم تكن مهينة، كما يمكن أن تبدو على ضوء الأفكار الحديثة، في المساواة بين البشر»^(١).

(٤) سفراء الأخلاق

من هنا كان الداعية المسلم، أو التاجر المسلم، إذا قصد جهة ما للدعوة أو للتجارة، فإنما كان يبدو سفيرا لمجتمع قوي وأخلاقي، وبهذه الوسيلة فُتحت البلاد التي لم تفتح بالجيوش والحروب:

«حيثما شقَّ الإسلام طريقه نجد هناك الداعي المسلم حاملاً الدليل لعقائد هذا الدين؛ فالتاجر سواء أكان من العرب أم البول أم الماندنجو، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يرى أن يُحوّلهم إلى الإسلام، وتنفي عنه كل ما يُحتمل أن يُتهم به من دوافع شريرة، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية

(١) إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١، ترجمة: خليفة التليسي، ط ٢ (طرابلس: الدار العربية للكتاب،

وثنية، فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة، التي يبدو فيها كما لو كان يُخاطَب كائنًا خفيًا، وإن ما يتحلَّى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين، الذين يُبدي لهم في نفس الوقت استعدادهم ورغبته في مدِّهم بمزاياه ومعارفه السامية»^(١).

«نلاحظ أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدين الإسلامي على أن يتعصَّبوا عليه، ولا شكَّ أن نجاح الإسلام قد تقدَّم في إفريقية الزنجية تقدُّمًا جوهريًا بسبب انعدام كل إحساس باحتقار الأسود، وفي الحقَّ يظهر أن الإسلام لم يُعامل الأسود قطُّ على أنه من طبقة منحطة، كما كان الحال لسوء الحظِّ - في كثير من الأحيان - في العالم المسيحي»^(٢).

«أجاد شخص - كان نفسه زنجيًا - في توضيح الفارق بين الطريقة التي تُقدَّم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الإفريقيين، وذلك في العبارات الآتية: بينما تُنسب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر مُعيَّن، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحوِّلونهم إلى الإسلام، وبذلك أصبح الزنوج ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض، ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حدٍّ أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لي نصيب ولا حظُّ في هذا الدين. أمَّا الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص، ويقول له: إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقَّف عليك، ومن ثمَّ أقبل الزنجي بدافع من الحماسة على هذا الدين بروحه وجسده»^(٣).

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٩١.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٩٤.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٩٤، ٣٩٥ (الحاشية).

(٥) أخلاق الفاتحين والمقاتلين

بهذه الصورة، كان المجتمع الإسلامي يمثل حلما للشعوب المقهورة المظلومة، وكانت جيوش الفتح الإسلامي تُعامل باعتبارها جيوش إنقاذ وتحرير، وهذه من أسباب السرعة المدهشة في الفتوحات وفي اعتناق الشعوب للإسلام:

«سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون المسلمون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد»^(١).

«ما جَهِله المؤرخون من حِلْم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم، التي رَسَخَتْ وقاومت جميع الغارات، وبَقِيَتْ قائمةً حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم»^(٢).

«كثيرًا ما كان المسيحيون يُفَضِّلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين»^(٣).

«الإغريق -ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددًا في كلٍّ من الولايات الأوربية التابعة للدولة العثمانية- قد جعلهم التسامح الديني الذي رُخِّصَ لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم، يُسرِّعون في الموافقة على تغيير ساداتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية، وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يَلْقَوْنَ ترحيبًا

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٧.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٦٠٥.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ٢٩٧.

من جانب الإغريق، ويعدّونهم مُخَلِّصِينَ لهم من الحكم الظالم المستبدّ^(١).

«كان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويُسيئُوا معاملة المغلوبين، ويكرهُوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحقُّ أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم»^(٢).

«كان خطر الدخول في الإسلام -وهو ما كان (يتعرَّض) له حجاج الأراضي المقدسة- قد شاع أمره في ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن أموري دي لاروش (Amaury de la Roche) رئيس فرسان المعبد التمس من البابا ونوابه في فرنسا وصقلية، في مذكرة دونها حوالي سنة ١٢٦٦ م، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين؛ لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرَّضون إما للقتل أو الأسر، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم»^(٣).

«في الصراع مع السلاجقة تخلَّى الإغريق الصليبيون عن إخوانهم في الدين، وكتب المؤرخ القديم^(٤): لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار- يقصد المسلمين السلاجقة- الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربوا على ثلاثة آلاف قد انضمُّوا بعد أن تقهقروا، إلى صفوف الأتراك، آه! إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أنه من المؤكد أنهم لم يُكرهوا

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٧٢.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٦٠٥.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١١٢.

(٤) هو هنا ينقل عن: Odo de Diogilo, De Ludovici vii, Itinere. Migne. Part Lat. Tom cxv, p.1243.

أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدّموا لهم من خدمات»^(١).

ازدهار العلوم

حرص الخلفاء والملوك على تنمية العلوم وتهيئة الفرص لأربابها من المترجمين والمُعَلِّمين وطلاب العلم، لكن أمران ميّزا ازدهار العلوم في الحضارة الإسلامية:

الأول: أنه مُحاطٌ بالأخلاق

والثاني: أن تطور العلوم لم يكن منافيا ولا مناقضا للدين كما هو الحال في الحضارة الغربية وتجربتها مع الكنيسة، وهذان الأمران قد يُغفل عنهما في واقعنا المعاصر، أما مسألة التقدم العلمي وأثره في النهضة الغربية المعاصرة، فهذا يكاد يكون موضع إجماع.

ونحن هنا نؤكد، أننا لسنا الآن في موضع استقصاء فضل حضارتنا، فهذا مكانه الموسوعات الكبيرة، ولكننا نذكر الوجه المسكوت عنه، والمغفول عنه، لدى من يظن أن تاريخنا الإسلامي انهار بعد الخلافة الراشدة، أو أن ملوك المسلمين من الأمويين والعباسيين والعثمانيين، كانوا مجرمين وخونة وخائنين، على نحو ما هو واقع في حياتنا المعاصرة من حُكّام الجبر الذين هم دعاة على أبواب جهنم.

إننا هنا نذكر هذا الجانب، لنقول إن ملوكنا والمتغلبين في تاريخنا كانوا من أعمدة نهضتها ورفعتها، بل إن التحول إلى المُلْك العضوض كان اضطرارا حملت عليه ظروف اجتماعية وطبائع إنسانية في وقته، وأن هذا الاضطرار وإن كان نقصا وانحرافا -بمعايير فقهاء السياسي- فإنه ولد استقرارًا كانت شرطا لنهضتنا الحضارية. فتاريخنا نحن تحت حكم الملوك والمتغلبين كان جَنَّةً بالنسبة إلى الأمم الأخرى.

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٠٨، ١٠٩.

وهذه اقتباسات مأخوذة من المؤرخين غير المسلمين:

«كان التعليم الأولي يهدف إلى تقويم الأخلاق، والثانوي إلى معرفة العلم»، «كان الهدف الأعلى للطالب هو تحصيل الأدب بأوسع معانيه: العادات الحسنة، وسمو الذوق؛ وسرعة البديهة، والكياسة والظرف، والمعارف السهلة التي تُكوّن في مجموعها صفات الرجل الكامل المهذب»^(١).

«الإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح»^(٢).

«القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلّوا عن العقل؛ فالآيات مُوجّهة إلى (قوم يعقلون)، و(لقوم يعقلون)، والقرآن يحثُّ المسلمين على أن (ينظروا) إلى الآيات في العالم الطبيعي وأن يتدبّروها بعناية، وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية عادة التأمل والاستطلاع الذكي، التي مكّنت المسلمين من إرساء وتطوير تراث رائع في العلوم الطبيعية والرياضيات، ولم ينشأ في يوم من الأيام أي صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي»^(٣).

«لهذا الكتاب (القرآن) سحر خفي، له تأثير عجيب في العرب؛ فقد حوّل الرعاية والتجار والبدو والبسطاء إلى مقاتلين وبناء إمبراطورية، ومؤسسي مدن كبغداد وقرطبة ودلهي، وإلى علماء وحكماء ورياضيين، وإن هذا الكتاب -ولا شك- لهو الذي عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالمًا أوسع من العالم الذي سيطر عليه الفرس والروم، وقد

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/١٦٨، ١٦٩.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ١٢٦.

(٣) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ص ١٥٤.

فعلوا ذلك في عشرات السنين، واستغرق ذلك ممن سبقوهم قرونًا^(١).

وكانت رعاية الملوك والحُكَّام للعلوم وازدهارها، وإغداقهم الأموال عليها وعلى أهلها، مما زاد في انتشارها وتوسعها وسرعة هضم المسلمين لعلوم السابقين، ثم انطلاقهم للإبداع وإضافة الجديد، وزاد كذلك في إقبال الناس ودخولهم في الإسلام:

«مما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة جدًا على تفسير نجاح الإسلام، أن مجرد الدخول فيه يدلُّ ضمناً على الترقِّي في الحضارة»^(٢).

«من المظاهر التي تشرف بها الحياة في بغداد أن الفنون والعلوم التي لا يُحرَّمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يُشجّعها ويأخذ بناصرها، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء، وأن الهواء كان يُردّد أصداء الشعراء»^(٣).

«لم يكن الزائر إذا دخل مدينة في أي بلد من بلاد الإسلام يخالجه شكٌّ في أنه يستطيع الاستماع إلى محاضرة علمية في مسجد المدينة الأكبر في أية ساعة من ساعات النهار تقريباً، وكان الطالب الجائل في كثير من الأحيان يجد في المدرسة المأوى والطعام مدة من الزمان، فضلاً عن التعليم المجاني»، وقد «وضعت الحكومة هذه (المدارس الثانوية) تحت إشرافها، وتكفّلت بالإنفاق عليها... وكان التعليم في هذه المدارس بالمجان، وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم في بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات»^(٤).

(١) ر. ف. بودلي، الرسول، ص ٢٣٥.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٩٦.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣ / ١٦٥.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣ / ١٦٨، ١٦٩.

«كانت بغداد مركزاً لهذا الإشعاع الفكري، وكانت قرطبة عاصمة إسبانيا العربية مثيلة بغداد في دنيا الغرب، وكانت في العالم العربي مراكز علمية أخرى ازدهرت فيها العلوم؛ ومنها: القاهرة، والبصرة، والكوفة، ولكن بغداد -التي وصفها أحد المؤرخين بأنها: «عاصمة الإسلام، وعين العراق، وقلب الإمبراطورية، ومركز الجمال والثقافة والفن»- فاقت هذه المراكز جميعاً، وكان عدد سكان بغداد يربو على مليون نسمة»^(١).

«خلال القرون الأربعة لسيادة الإسلام وُجدت روح البحث الديني والفلسفي في كل مراكز العلم، وإن لون الطابع الذي تميّز به العقل الشرقي وسحره ما زال باقياً متسكعاً في كتابات ذلك العصر، الذي كان كل تاجر فيه شاعراً، وليس كل شاعر تاجراً»^(٢).

«إننا لنجد شيئاً لا يكاد العقل يصدق، وبالتالي فهو أمر يخلب اللبّ، حين نقرأ عن كيف تحوّلت الحضارات القديمة في الشرق الأوسط إلى حضارة إسلامية»^(٣).

«ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى، في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها»^(٤).

«لم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور -لا نستثني من هذا التعميم (أي عصر)- الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم». «لم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة، وكانت إيواناتها تُردّد أصداً علمهم وفصاحتهم، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين، والمؤرخين، وعلماء الدين،

(١) جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ص ٣٥.

(٢) ألفريد جيوم، «الفلسفة وعلم الكلام»، ضمن: توماس أرنولد (إشراف)، تراث الإسلام، ص ٤٠٠.

(٣) مونتنجيري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص ١٩.

(٤) كار دي فو، «الفلك والرياضيات»، ضمن: توماس أرنولد (إشراف)، تراث الإسلام، ص ٥٦٤.

يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة؛ وكان بلاط مئات الأمراء يُردّدون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية، ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون». «كان علماء الدين والنحاة يُعدّون بالمئات؛ أما الخطباء، وفقهاء اللغة، وأصحاب المعاجم، والموسوعات ودواوين الشعر، والمؤرخون، وكتاب السير فلم يكن يُخصّص عدد لهم»^(١).

«للفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يؤسسوا دولاً عظيمة، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشئوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكّنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة»^(٢).

ولم يعد علماء الغرب الآن يجادلون في أن نهضتهم المعاصرة، إنما بُنيت على المعارف والعلوم الإسلامية، حتى أولئك الذين زعموا -بأثر من التعصب الصليبي- أن المسلمين إنما احتفظوا بعلوم اليونان وترجموها، لم يعد لقولهم هذا معنى في الساحة العلمية المعاصرة، وهذه بعض الاقتباسات:

«إننا -معشر الأوربيين- نأبى في عناد أن نُقرّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحياناً إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحياناً تجاهلاً تاماً، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافاً كاملاً بهذا الفضل، أمّا إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٧١، ٢٢٥، ٣٠٧.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ١٣٥.

على كبرياء زائف»^(١).

«كانوا كالغيث الذي يخصب المكان الذي ينزل فيه، وإن عصر الإحياء في أوربا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد، الذين حملوا مشعل الثقافة، حين كانت أوربا غارقة في ظلمات العصور الوسطى»^(٢).

«لم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند العرب، فعندهم فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد عليه، يتدرّج من الجزئيات إلى الكليات، وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية السليمة للباحثين، وبرزت الحقائق العلمية كثمرة للمجهودات المضنية في القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل. وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تُحصى اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء العلمية مرارًا وتكرارًا، فأثبتوا صحّة الصحيح منها، وعدّلوا الخطأ في بعضها، ووضعوا بديلاً للخاطئ منها، متمتعين في ذلك بحريّة كاملة في الفكر والبحث، وكان شعارهم في أبحاثهم: (الشكّ هو أول شروط المعرفة). تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال... إنهم مؤسّسوا الطرق التجريبية في الكيمياء، والطبيعة، والحساب، والجبر، والجيولوجيا، وحساب المثلثات، وعلم الاجتماع، وبالإضافة إلى عدد لا يُحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم، والتي سُرّق أغلبها ونُسبَ لآخرين، قدّم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح، التي مهّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة»^(٣).

«كلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم ظهرت

(١) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص ٨.

(٢) ر. ف. بودلي: الرسول، ص ١٤٧.

(٣) زيجريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ص ٤٠١، ٤٠٢.

لنا حقائقٌ جديدة وآفاقٌ واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحابُ الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرّف لها -مُدَّة خمسة قرون- موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدّنوا أوربا مادةً وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أُمَّة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قوم في الابتداع الفني»^(١).

«المرء متى أدرك مدى التجارب العربية، والفكر العربي، والتأليف العربي، بوسعه أن يرى أن العلوم والفلسفة الأوربية ما كانت ستتطور بدون فضل العرب في الوقت الذي تطورت فيه، ولم يكن العرب مجرد نَقْلَة للفكر اليوناني، وإنما كانوا حملة للشعلة مبدعين، حافظوا على العلوم التي درسوها، ثم وسّعوا آفاقها، وحين شرع الأوربيون حوالي عام (١١٠٠م) في الاهتمام الجدّي بعلوم أعدائهم العرب وفلسفتهم، كانت هذه العلوم والفلسفة في أوجها، وكان على الأوربيين أن يتعلّموا كل ما بوسعهم تعلّمه من العرب قبل أن يتمكّنوا هم أنفسهم من إحراز المزيد من التقدّم في هذه المجالات»^(٢).

«بقي (الطب الغربي) قرونًا طويلة من الزمن نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وكانت معظم المخطوطات الأوربية الطبية في أول عصور الترجمة وحتى القرن السابع عشر تقليدًا للعرب ونقلًا عنهم»^(٣).

«يجب أن نقر بأن نصف بل أكثر من نصف الأدوية المعالجة للأمراض التي يستخدمها الغرب، إنما جاءت عن العلماء المسلمين»^(٤).

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٢٦.

(٢) مونتجمري وات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص ٦٢.

(٣) زيجريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ص ٣١٥.

(٤) فرناند بروديل، تاريخ وقواعد الحضارات، ص ٩٢.

«إن كل مستشفى مع ما فيه من ترتيبات ومختبر، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه، إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقرية العربية. كما أن كل حبة من حبوب الدواء، مذهبة أو مسكرة، إنما هي - كذلك - تذكار صغير ظاهر، يُذكّرنا باثنين من أعظم أطباء العرب^(١) ومعلمي بلاد الغرب^(٢)».

النهوض الاقتصادي

كذلك نهض أولئك الملوك باقتصاد الأمة، ونهضت في عهودهم الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت العواصم الإسلامية تتدفق بالعلم والحضارة، ففيها ينمو الاقتصاد ويزدهر، وينمو الاقتصاد تنمو حركة العلم والحضارة، هذه بعض الاقتباسات في النهضة الاقتصادية الإسلامية التي شيدها أولئك الملوك والمتغلبون:

«إن حوض دجلة والفرات كان أنشط أماكن الحركة العلمية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فالبصرة وحرّان وبغداد كانت أهم مراكز العلم والحضارة^(٣)».

«تعاضم الفائض الزراعي بفضل هذه التحسينات، وترافق مع نمو الصناعة والتجارة فازدادت أهمية النفود في اقتصاد الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط، وتطور نظام نقدي عالمي معترف به»، «كان إرواء الأراضي ينتشر مع التوسع العربي في حوض البحر المتوسط^(٤)».

«لم يجبر الخلفاء في الميدان على سُنتهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية

(١) تُريد: ابن سينا والرازي.

(٢) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص ٣٣٤.

(٣) ف. بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٠.

(٤) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ٧٩، ٨٩.

للمشروعات الحرّة، بل كانت الحكومة تُشرف على قنوات الري الرئيسية، وتعهدها بالصيانة والتطهير، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة، وماء دجلة إلى أرض فارس، وشقّت قناة كبيرة بين النهرين التوأمن عند بغداد، وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يُشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات، وتعمير القرى المخربة والضياع، التي هجرها سكانها، وكان الإقليم المحصورة بين بخارى وسمرقند يُعدّ في أثناء القرن العاشر (إحدى الجنات الأرضية الأربع) وكانت الثلاث الأخرى هي جنوبي فارس، وجنوبي العراق، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشام^(١).

«ازدهرت مناطق كاملة مثل الدوائر المحيطة بسمرقند وبخاري، مميزةً بأحياء وقرى جديدة، وبشبكات ري، وبأسوار دفاعية... إن منطقة خوارزم ودلتا نهر جيحون (آموداريا) التي لم تكن قبل الفتوح العربية تؤوي إلا أعداد قليلة من العزب والمزارع الصغيرة المزركشة بالقصور الإقطاعية، ما لبثت أن أصبحت منطقة عالية التحضر والتمدن وكثيفة الاستيطان»^(٢).

«في أيام هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) أصبحت بغداد مركزاً للغنّى الباذخ والأهمية العالمية، ولم يكن مضى على تأسيسها نصف قرن، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطة، وكان مجدها متناسباً مع الإمبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير»^(٣).

«كان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان قد صُنعت من الجلد والنحاس الأصفر

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/١٠٧.

(٢) إيرام. لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/١١١.

(٣) فيليب حتي، العرب تاريخ موجز، ص ١١٦.

المنقوش، وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة بابًا يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة، ثم ينسحبون ويُغلقون الباب»^(١).

«لم يكد العرب يُتَمُّونَ فتح إسبانيا حتى بدعوا يَقُومُونَ برسالة الحضارة فيها؛ فاستطاعوا في أقل من قرن أن يُحْيُوا مَيِّتَ الأرضين، وَيَعْمُرُوا خَرِبَ المدن، وَيُقيموا فخم المباني، وَيُوطِّدُوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى»^(٢).

«كانت الأندلس بالنسبة إلى سكان الممالك النصرانية الشاملة من شبه الجزيرة الأيبيرية قطعة من الجنة وأرض المعاد»^(٣).

«بلغت الإيرادات في أيام عبد الرحمن الثالث ٠٠٠, ٠٤٥, ١٢ دينار ذهبي (أي ما يعادل ٧٥٠, ٢١٣, ٧٥ دولار أمريكي)^(٤) وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة، ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثرًا من آثار الحكم الصالح، وتقدم الزراعة والصناعة، ورواج التجارة»^(٥).

«إذا أردنا فعلاً معرفة درجة غنى الأندلس وأهميتها، فيجب أن نتذكر أن اقتصادها كان قد قام على الاكتفاء الذاتي، وأن نموها دام ثلاثة قرون، لقد كانت الأندلس قادرة في سنة

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٠٨.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٢٧٣.

(٣) بدرو شلميطا، «صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي»، ضمن: سلمى الخضراء الجيوسي (تحرير)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ٢/ ١٠٦٠.

(٤) هذا المبلغ يعادل الآن (فبراير ٢٠٢٢م) = أكثر من ٧٠٠ مليون دولار.

(٥) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ٢٩٣.

(٤٠٠هـ = ١٠٠٩م)، وحتى ٧٥ سنة إضافية على أن تدعم وتمول (دون إرادة منها)^(١) نمو مجموعة اجتماعية أخرى، طفيلية وأجنبية: هي الدول النصرانية الشمالية، (ليس من) دليل أفضل من ذلك لحقيقة الاقتصاد الأندلسي وأهميته^(٢).

«أشّر وصول العرب إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بداية أعمق وأكبر تطوّر عرفته الزراعة في هذه البقعة التي كانت قد آلت إلى حالة من التخلف والكساد في السنين الأخيرة لحكم القوطيين الغربيين»^(٣).

«قَدِمَ العربُ إلى صقلية من تونس، فحوّلوا خرائب صقلية إلى حدائق غناء، واستوردوا لها من بلادهم أشجار النخيل، وزرعوا فيها أشجار البرتقال والفسق والموز والزعفران، فحوّلوا الجزيرة الفقيرة بالقطن وقصب السكر إلى بلد يزخر بالخيرات، وزَيَّنُوها بالقصور والمساجد الرائعة... يُحصيها ابن حوقل عام (٩٧٠م) في بالرمو فقط بثلاثمائة ما بين قصر ومسجد، واستخدم المتعلمون في صقلية في كتاباتهم ورقًا أبيض كان أول ورق عرفته أوروبا، وكان ذلك قبل أن تُصدّر إسبانيا (الأندلس التي كانت تحت حكم المسلمين أيضًا) للغرب بزمن طويل»^(٤).

«كانت صقلية حين جلاء العرب عنها أرقى ثقافة وصناعة واجتماعيًا منها حين

((١)) يقصد بهذا التمويل الجزية الباهظة التي ظلّت الأندلس تدفعها لمملكة قشتالة خلال عصر ملوك الطوائف، وتلك المبالغ كانت عظيمة، إلى حدّ أنها كانت جانبًا له تأثير عظيم في نهوض الصليبيين وتقويتهم على محاربة وتهديد الأندلسيين.

((٢)) بدرو شلميطا، «صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي»، ضمن: سلمى الخضراء الجيوسي (تحرير)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ١٠٦٠/٢.

((٣)) إكسبيراثيون جاريثا سانشيز، «الزراعة في إسبانيا المسلمة»، ضمن: سلمى الخضراء الجيوسي (إشراف)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ١٣٦٧/٢.

((٤)) زيجريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ص ٤١٠.

دخلوها، ونحن إذا علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى من ناحية الحضارة تُقدَّر بمقدار نهوضها بها، وإصلاحها لها، رأينا أنه كان للعرب تأثيرٌ عظيم في صقلية»^(١).

«جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي، وأدخلوها في بلاد الشام، وآسيا الصغرى، وفلسطين، ومصر، وإسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية، كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند، ونشروهما في جميع أنحاء الشرق الأدنى، ومن تلك البلاد نقلها الصليبيون إلى أوطانهم، وكان العرب أول من زرع القطن في أوروبا، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين (أراضي) معظمها جذب قاحل بفضل وسائل الري المنظم»^(٢).

«لا شك أن الولايات التركية كانت أحسن حُكمًا وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحُكَّام المسيحيين، أضف إلى ذلك عاملاً كبيراً كان من أهم العوامل في زيادة نشاط المملكة التجاري، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائماً على استعدادٍ لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وأن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً عندما خلَّصها الفتح التركي ممَّا أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية، التي عرَّقلت نهضتها وشلَّت حركتها»^(٣).

«لما حكم المُغل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة، وأبدعوا

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٣٠٨.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٠٧.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٧٤.

كما يبدع الصيَّاغ»^(١).

أحوال الأقليات

يعد موضوع أوضاع الأقليات في الحضارة الإسلامية من أكثر الموضوعات التي نوقشت في ساحة البحث التاريخي، يرجع ذلك إلى عدد من الأمور، من أهمها: أن الحضارة الغربية المعاصرة خرجت من رحم الصراعات الدينية إلى العلمانية، فتفاخرت بأنها رسّخت لحقوق الأقليات وأنهت فكرة الاضطهاد الديني، وهو ما دفع كثيرين إلى الردّ بأن هذه الصورة البراقة لحقوق الأقليات كانت حاضرة وظاهرة في الحضارة الإسلامية، التي ضربت المثل باحتوائها للأقليات وحفاظها على حقوقهم في عالم وزمان لم يكن يفهم سوى الاضطهاد للمخالفين!

ولسنا في هذا المقام لبحث هذا الموضوع، وإنما نلقي الضوء عليه هنا، لكي نؤكد من جديد أن أولئك الملوك والمتغلبين في تاريخنا لم يكونوا قساة مجرمين كما يتصوّرهم القارئ في التاريخ السياسي، لا سيما إن كانت مادة قراءته لمن يسارع في إدانة الملوك والمتغلبين بغير نظر وتدبر وتأمل، ولو أنهم كانوا على هذا النحو من القسوة والإجرام لكانت الأقليات أولى ضحاياهم.

صحيحٌ أن الفضل في هذا لا يرجع إليهم وحدهم، بل يرجع إلى تعاليم الإسلام التي حفظت لهؤلاء الأقليات حقوقهم، ويرجع لأخلاق المجتمع المسلم الذي يرى من واجباته الدينية منع إيذاء الأقليات ورفع الظلم عنهم، ولكن الذي نجادل عنه هنا أن أولئك الملوك كانوا إفرارا للإسلام ومجتمعه، ولم يكونوا خارجين عليه ولا خالعين ربقته، وإن صورتهم حين ننظر في هذا الموضوع، تخالف تماما تلك التي تصوّرها كتب

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣ / ٢٦١.

التاريخ السياسي.

ونحن حين ننقل بعض هذه الاقتباسات التي كتبها المؤرخون والباحثون من غير المسلمين، نقتصر على ما أورده في العهود الإسلامية التي أعقبت عصر الخلافة الراشدة:

«كان من السهل على أي حاكم من حُكَّام الإسلام الأقوياء أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين، أو ينفهم من بلادهم، كما فعل الإسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريباً»^(١).

«يجب أن نذكر دائماً أن الإسلام أضفى على (عقائد أهل الكتاب) -أي المسيحية واليهودية- مكانة خاصة يحميها الشرع، وإن تكن ذات مرتبة أدنى في الدولة، ولم يَدُمِ التزمّت والاضطهاد فترات طويلة إلا في أوقات الشدّة، وعدم الشعور بالأمان، أما قانون المسيحية فليس فيه أي مكان لأي دين آخر؛ لذا فقد انتقل بسرعة وبتطور منطقي، عندما انتصر على الإسلام إلى التعصب والاضطهاد»^(٢).

«لم نسمع عن أية محاولة مُدبّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد مُنظَّم قُصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخُطّتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها (لويس الرابع عشر) المذهب البروتستانتي مذهباً يُعاقبُ عليه مُتّبِعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مُبَعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٦٤.

(٢) فرانثيسكو جابرييلي، «الإسلام في عالم البحر المتوسط»، ضمن: شاخنت وبوزوروث (إشراف)، تراث الإسلام،

انعزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي، الذي لم يُوجد في جميع أنحاء أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين، ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما أقدمت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم»^(١).

«كانت العلاقات طيبة في العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتززون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقاً يُقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيراً ما يُطلق عليهم المستعربون»^(٢).

«رضوا (مسيحيو إسبانيا) عن طيب خاطر بأن يُحرّموا بما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي وسلطة، لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى حتى إننا لم نسمع في خلال القرن الثامن الميلادي كله إلا عن محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجة، ويظهر أنهم انضوا في ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربي». وقد «بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحوّلوا إليه من مسيحيي إسبانيا مبلغاً عظيماً، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنّه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحاً لإظهار بأسهم، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق كريم... لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظلّ الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بُعداً تاماً عن الاضطهاد الديني»^(٣).

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٨، ٩٩.

(٢) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ص ٣٢.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٩، ١٦٤.

«كانوا (السلاجقة والأيوبيون) يُعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يُحدِّثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليهم؛ ليطردوا حُكَّامها البيزنطيين الظالمين»^(١).

«من أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية؛ فحرَّم اضطهاد المسيحيين تحريمًا قاطعًا، ومنح البطريق الجديد مرسومًا يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حقَّ التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات، التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق. ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعًا -أيضًا- بسلطة أهلية واسعة»^(٢).

«المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين -على الأقل بعد أن غزَوْا بلاد اليونان بقرنين- لتدُلَّ على تسامحٍ لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفًا في سائر أوربا، وإن أصحاب كالفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة، ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنَّوا بسرور أن يشترُوا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، وحدث أن هرب اليهود الإسبان المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجئوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر، كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء -الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية- قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ٣٢٢.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٧٠-١٧٢.

أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»، حتى لقد كتب بطريك أنطاكية في القرن السابع عشر يقول: «أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد.. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهود أو سامرة، أمّا البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح، الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا لهم قسًّا يعرفون أسرار دينهم»، «وحتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلَّعون بشوق عظيم إلى الترك؛ لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح، اللذين يؤسوا من التمتع بهما في ظلّ أية حكومة مسيحية، وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة في أملاك سلطان تركيا»^(١).

«في إيطاليا عبَّرت كثيرٌ من الأقاليم لحكوماتها المستبدَّة عن أنها تُرْحَب من كل قلبها بغزو تركيٍّ مثلما فعل بعض البلقانيين المسيحيين»، ولقد «لجأ أتباع مذهب (كالفن) (١٥٠٩-١٥٦٤م) في هنغاريا وترنسلفانيا، وبروتسنت سيليزيا، وقدماء المؤمنين من قفقاس روسيا إلى تركيا، أو تطلَّعوا إلى الباب العالي في هروهم من الاضطهاد الكاثوليكي أو الأرثوذكسي، وذلك مثلما فعل اليهود الإسبانيون قبل ذلك بقرنين»^(٢).

«إن الفلاحين في المناطق التي غُزيت -من الأتراك- قد تمتَّعوا بدورهم بتحسُّن كبير في أوضاعهم، وقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى، وكان الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقولهم أكبر بكثير من ذي قبل،

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٨١ - ١٨٣

(٢) مكسيم رودنسون، «الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية»، ضمن: شاخت وبوزوروث (إشراف)، تراث الإسلام، ص ٤٩، ٥٥.

وكانت الضرائب التي يدفعونها تُقدَّر بصورة مخفَّفة، وتُجمَع بطريقة إنسانية»^(١).

«ظُلَّ الكفار على وجه الإجمال ينعمون في ظلَّ الحكم الإسلامي بدرجات من التسامح لم نكن نجد لها مثيلاً في أوروبا حتى عصور حديثة جدًّا»^(٢).

بعد هذه الجولة التي حاولنا أن نعيد بها الاتزان لتصور هذه العصور وكيف كانت، يأتي السؤال الطبيعي:

أيهما كان أولى بالعلماء والفقهاء في تلك العصور؟ الحفاظ على هذا القدر الضروري من الاستقرار الذي تُبنى هذه الحضارة في ظلاله، أم إيقاد حرب وإشعال ثورة عند كل محطة حُكْمٍ لا يتحقق فيها الاختيار الحر المباشر من الأمة لشخص الحاكم؟!

هذا، مع أن العلماء كما ذكرنا وكررنا، لم ييخلوا أبداً على أولئك الحكام بوصف المتغلبيين والطغاة، ولم يشرعنوا حالهم إلا بعد الحصول الفعلي لتمكنهم، ولم يفعلوا ذلك إلا لضرورة الأمة من إقامة الحكومة وحفظ الأمن وسد الثغور. وهذا كذلك مع بقاء قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة ما يصدر عنهم مما يغضب الله باليد أو اللسان أو القلب. وهو كذلك مع مراعاة أن الحاكم لم يبدل الشريعة، وهو لا يتدخل في التشريع أصلاً بموجب وضعه في النظام الإسلامي الذي لا يمنحه صلاحية التشريع.

إن أدنى نظر منصف، سيرى في موقف العلماء موقفاً ثورياً متقدماً، ولا أشك أن هذا النظر سيسود، كلما بدا ضعف النظام الديمقراطي المعاصر أكثر وأكثر، وكلما افْتُضِح أمره في بلاده وكثر ناقدوه، فلستُ أشكُ في أن أغلب المنسوين إلى الحركات الإسلامية

(١) برنارد لويس، «السياسة والحرب»، ضمن: شاخت وبوزوروث، تراث الإسلام، ص ٢٢٨.

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٦١.

والعلم الشرعي، إنما فُتِنُوا بهذا النموذج، قليلا أو كثيرا، مباشرة أو أصابهم منه رذاذ،
وذلك في زمن التفوق الغربي الهائل، فتشوشت صورة الفقه والتاريخ في أذهانهم،
وانطمست معالمها الناضرة!



الخلاصة

قال التفتازاني، وهو من علماء القرن الثامن الهجري، متأسفاً على ما صار إليه البحث في باب الإمامة، من أنه صار بحوثاً في الضرورات:

«وبالجملة: مبنى ما ذكر في باب الإمامة على الاختيار والاقتدار، وأما عند العجز والاضطرار واستيلاء الظلمة والكفار والفجار، وتسلب الجبابة الأشرار^(١)، فقد صارت الرياسة الدنيوية تغلبية، وبُنيت عليها الأحكام الدينية المنوطة بالإمام ضرورةً، ولم يُعبأ بعدم العلم والعدالة وسائر الشرائط، والضرورات تبيح المحظورات، وإلى الله المشتكى في النائبات، وهو المرتجى لكشف الملمات»^(٢).

وقد تمكّن التفتازاني أن يقول هذا الوصف، وهو يكتب الكتاب في سمرقند، وفي زمن طاغية الزمان: تيمور لنك، وكان تيمور لنك قد أرسل في طلبه، وألحّ في ذلك، ثم إنه أكرم

(١) وأغلب ظني أنه يقصد بالكفار والجبابة ملوك المغول الذين استولوا على بلاد الإسلام، ثم دخلوا فيه، ولكنهم لم يلتزموا شرائعه، فإنه وُلِدَ في خراسان وتنقل بينها وبين بلاد ما وراء النهر، وكان هؤلاء ملوك زمانه.

(٢) التفتازاني، شرح المقاصد، ٥/ ٢٤٥.

وفادته واستقبله خير استقبال^(١)!

وهذا تيمورلنك الذي فاضت الكتب والتواريخ بالتشنيع عليه، وهو مستحق لذلك،
وكفّره جمعٌ من العلماء!!

وسُئل الإمام أحمد: الرجل يفرح بما ينزل بأصحاب ابن أبي دؤاد، عليه في ذلك إثم؟
قال: ومن لا يفرح بهذا؟ قيل له: إن ابن المبارك قال: الذي ينتقم من الحجاج، هو ينتقم
للحجاج من الناس. قال: أي شيء يشبه هذا من الحجاج؟ هؤلاء أرادوا تبديل الدين^(٢).

فهذا الإمام يرى أن المعتزلة أسوأ وأشدّ سوءاً من الحجاج، لأنهم أرادوا تبديل الدين،
بينما اقتصر بطش الحجاج وفجوره على شأن الدنيا. هذا والحجاج قد كان منبوذاً مبغوضاً
في حياته وبعد موته، وفاضت كتب التاريخ والطبقات في التشنيع عليه، وقد كفّره جمعٌ من
العلماء.

وكم كان الإمام الشعبي بعيد النظر حين قال: يأتي على الناس زمانٌ، يُصلُّون فيه على
الحجاج^(٣).

وأحسبه هذا الزمن..

ففي هذا الزمن، بلغ من فساد الحال أن تشوشت صورة الأمور في أذهان المنتسبين إلى
علم الشريعة، والمنتسبين إلى العمل الإسلامي، حتى بلغ الحال بأحدهم أن يكتب قائلاً:
«يشعر المرء بالقرف من استمرار هذا العفن قائماً في تراثنا الديني وفكرنا السياسي،
ويضع يده مباشرة على هذه الألغام التي قوّضت حضارة الإسلام وأسلمتنا إلى

(١) ترجمة التفتازاني، بقلم المحقق، في: شرح المقاصد، ٨١ / ١.

(٢) الخلال، السنة، (١٧٦٩).

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٢ / ١٧٥.

الانحطاط، إنّه من غير ثورة شاملة تطيح بهذه السموم التي لا تزال تجري في دماء الأمة وتشلّ طاقتها وتجهض انتفاضتها، وتحبط أحلام نهضتها...»^(١).

وقد عشنا حتى رأينا يتنازل عن الإسلام قطعة قطعة، بدعاوى الفهم والحكمة والسياسة وبعد النظر، ثم قاد تجربة هي أسوأ وأردأ ما وقع في هذا الوقت المعاصر، ثم هو —حتى لحظة كتابة هذه السطور— لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ويتنظر السجن أو الموت، ولا أمل له في منصب رئيس حي فضلاً عن زعامة، ولا زال ينادي بالحوار والحوار، ويستسلم لحكم المتغلب بلا مقاومة، ويخضع للدستور والقانون الذي عطّله المتغلب عليه، في مشهد مأساوي ذليل!!

ثم إنه قد انفص عنه صحبه، وأفاضوا في اتهامه بالاستبداد، والتفرد بالرأي ومخالفة لوائح حزبه الداخلية، واستثارته بالمال والعلاقات، وإزاحته كل من لا يرضى عن نهجه. وقد سمعتُ من هذا قدراً كثيراً من شهود عيان!

إنني في هذا الزمن أجد نفسي أحيانا أتأمل في هذا الحجاج، الحجاج الذي كان يفتح نصف العالم الشرقي، وينقذ نساءً سباهُنَّ ملك السند من سفينة، ويجتهد في تعريب العملة والدواوين وتحزيب القرآن وتكريم حفظته، وهذه الذنوب العظيمة التي اقترفها، تبدو لي الآن في زمن الذلة العامة، مجرد مشكلات داخلية يمكن احتواؤها، أو حتى فليؤيأثمها أمام الله. فأبي مقارنة بين عصر الحجاج كان يمكنني فيه أن أخرج من العراق فأسكن أي ديار الإسلام شئت فيرتفع عني قهره، أو أذهب في جيش من جيوش الفتح فأطمح إلى الأجر، أي مقارنة مع هذا الزمن الذي لا يأمن فيه مسلم على نفسه في أي دار كانت!! وتأتيه —وهو حبيس عجزه— أنباء سبي أطفال المسلمين ونسائهم من الصين والهند شرقاً

(١) راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ط ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣م)،

إلى السويد وبلجيكا غرباً؟!!

سأَتفهم تماماً وأستوعب تماماً لو سمعت أحد الناس في زماننا هذا يقول: ألا ليت لدينا واحدٌ كالْحِجَاجِ يعيد هيبة الأمة والدولة، ويقهر أعداءها، ويجيش جيوشها، ثم ليفعل بعد ذلك ما شاء!

من الغرائب حقاً أن ترى أحداً من كبار علمائنا، ينفلت في فورة حميته، فيدين جيل صدر الإسلام، أن لم يتوصلوا إلى ما يمنع وراثته الحكم، فيما أفلح الإنجليز في ذلك، فما كان أحسن ردّ جلال كشك إذ قال: «الشيخ^(١) يطالبهم بوضع دستور جمهوري يحرم وراثته الحكم في القرن السابع، وأقدم وثيقة دستورية^(٢) كما يقال عنها تجاوزاً، وهي ملكية عضو، لم تظهر في أوروبا إلا بعد ستة قرون»^(٣).

كيف لعقل كبير أن يُهدر ستة قرون؟! بل كيف له أن يرى نفسه أحسن عقلاً من الجيل المشهود له بالخيرية؟!!

لقد كان المسلمون في عهود مَلَكِيَّتِهِمْ أحسن حالاً من ملكية غيرهم، حتى على المستوى الإجرائي، فلقد كان ولي العهد في الغرب والشرق يأخذ اللقب منذ أن تلده أمه، يأخذها بحق الدم والوراثة وحده. بينما لا تنعقد ولاية العهد في تاريخنا إلا ببيعة الناس.

(١) يقصد الشيخ رشيد رضا رحمه الله! وكان الشيخ رشيد ممن اشتد على معاوية والأمويين في كتابه «الخلافة»، واشتد عليه جلال كشك كعادته في النقد، ولكم وددتُ أن يكون العلامة رشيد رضا أحسن من هذا وأنضج في قراءة التاريخ، فهو من عظماء عصرنا، ومثل ذلك، فلکم وددتُ أن يكون جلال كشك أهدأ وأقل حدة في الرد على أصحاب الفضل. ولكن رشيد رضا كان ممتحناً في عصر ذلّة واستضعافٍ وتألّقي غربيٍّ كبيرٍ مع استبدادٍ منتشرٍ في عموم العالم الإسلامي، فأصيبَ من هذا بشيء أفقده توازنه. وأما جلال كشك فلا يكافئ حدة بصره وذكاءه في قراءة التاريخ والواقع إلا حدة لسانه!

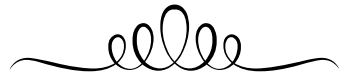
(٢) يقصد: الما جنا كارتا.

(٣) جلال كشك، جهالات عصر التنوير، ص ١٠٨.

حتى لو أن ذلك كان أمراً شكلياً في كثير من الأوقات، إلا أنه تعبيرٌ واعترافٌ بأن الأمة هي صاحبة الولاية وهي طرف العقد، وليست متاعاً يورث كما تورث البهائم. هذه المعاني والفوارق هي التي تجعل الأمم دائماً قادرة على تصحيح المسار حين تسنح الظروف.

لئن استطاع هذا الفصل تصحيح شيء من صورة الملك العضوض، وحكم المتغلب، في أذهان المعاصرين، فقد أدّت مهمتها، مع التأكيد التام على أننا نتوق لعصر الخلافة الراشدة، ونطمح إليها، ولا يرضينا ما هو دونها. لكن هذا شيء، والقبول بتشويه تاريخنا والتأثر بزبالات تجارب الأمم الكافرة شيء آخر!





الفصل السادس: الدولة الأموية



قد ذكرنا ونكرر أن هذا الكتاب يبتغي تقديم «خلاصة تاريخ الإسلام للعاملين»، فليس هو عرضاً تاريخياً دراسياً، ولا بحثاً شاملاً في جوانب التاريخ، وإنما هي نظرة تحليلية لهذا التاريخ في ضوء حاجتنا المعاصرة، فنحن نتناول فيها ما نرى أنه مفيد لنا في واقعنا المعاصر، ونضرب صفحاً عن الأمور التفصيلية أو البعيدة، والقصد منها أن يتكون لدى العامل للإسلام وعي بالتاريخ الإسلامي.

ومن هاهنا، كان لا بد أن تختلف المعالجة، بين كل مرحلة وأخرى، فأهم المراحل قاطبة هي السيرة النبوية وتاريخ الخلافة الراشدة، إذ هما التطبيق العملي للإسلام في واقع الحياة، يليهما في الأهمية: التاريخ المعاصر الذي نفهم به كيف سقط النظام الإسلام وانهارت الخلافة الإسلامية وشمّلنا هذا الواقع الفاسد، ثم يلي ذلك في الأهمية: معرفة تاريخ الدول الإسلامية الكبرى: الأموية والعباسية والعثمانية، وما كان للإسلام من حضارة في هذه العصور، فإن ذلك يعزز إيمانه وثقته بتفوق دينه وحضارته على سائر الحضارات الأخرى.

فالعامل للدين لا بد له من معرفة قوية بعصري النبوة والخلافة الراشدة، ثم بالتاريخ الحديث والمعاصر لبلاده، ثم معرفة عامة بتاريخ الإسلام وحضارته.

وطبقاً لهذا المنهج فإننا تناولنا في الفصول السابقة عصري النبوة والخلافة الراشدة بشيء من التفصيل، ونعزم إن شاء الله أن نتناول بنفس النهج التاريخ الحديث والمعاصر للعالم الإسلامي، إلا أننا سنسير في هذا سيرة تاريخياً طبق الترتيب الزمني، فنتناول عصر النبوة ثم الخلافة الراشدة ثم دول الإسلام ثم التاريخ الحديث والمعاصر للعالم الإسلامي، نسأل الله التوفيق والإعانة.

وقد وصلنا الآن إلى الفصل السادس الذي نتناول فيه تاريخ الدولة الأموية، وقد تناولنا في الفصل الأول الفترة المكية، وركّزنا على نشأة الدعوة وسيرها في الوصول إلى الاستقلال والدولة، وهذه أهم فترة تحتاجها الحركات الإسلامية المعاصرة، إذ كلها

تقريباً في مرحلة الدعوة والسعي إلى الدولة. وتناولنا في الفصل الثاني الفترة المدنية التي هي فترة الدولة، وحاجتنا إليها الآن هي حاجتنا إلى ضبط تصوراتنا عن الدولة التي نشدها والمجتمع الذي نبشر به ونسعى إليه. ثم في الفصل الثالث فترة الخلافة الراشدة التي هي النموذج التام الأكمل لنظام المسلمين السياسي، حيث انقطع الوحي وصار على المسلمين أن يحكموا أنفسهم بهداية الوحي والاجتهاد في تطبيقه، فكل مسائل اختيار الحاكم وصلاحياته ومراقبته وعزله مأخوذة من فقه الخلفاء الراشدين، وهي السنة المتممة لسنة النبي ﷺ، ثم في الفصل الرابع: الفتنة بين الصحابة، وتوسعنا في ذلك أكثر من غيره لشدة الشبهات والطعون في هذه الفترة، ولكثرة ما يبقّى العاملون من العنت في فهم هذا الخلاف الذي نشب بين الصحابة حتى وصل إلى التقاتل. ثم وضعنا في الفصل الخامس تمهيداً لتاريخ الدول الإسلامية، ومقدمة في أهم القضايا الأساسية التي يجب فهمها واستيعابها لتستقيم صورة التاريخ الإسلامي، مثل قضية الملك العضوض وحكم المتغلب وانتقال المسلمين من مرحلة الخلافة الراشدة إلى مرحلة الملك العضوض.

فلو أننا وفّقنا في هذا فهو من فضل الله ورحمته وكرمه، وإن كانت الأخرى فإن المرء يعرف من نفسه أنه مظنة الجهل والخطأ والتقصير.

وهذا الفصل هو أول الفصول التي تناقش تاريخ دول الإسلام، وفي ظل المنهج الذي أشرنا إليه، فإن الذي يهمّ العامل للإسلام في هذا العصر أن يعرف نبذة عن تاريخ هذه الدولة، ونبذة عن أهم محاسنها، ونبذة عن أهم مساوئها، وهو النهج الذي سرنا عليه هنا، ونعزم أن نسير عليه في الفصول القادمة إن شاء الله.



موجز تاريخ الدولة الأموية

قال ابن خلدون: «كان ينبغي أن تُلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم؛ فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحة»^(١).

لقد كانت الدولة الأموية هي أفضل دول الإسلام بعد دولة الخلافة الراشدة، ولم تأت بعدها دولة أفضل منها؛ فلقد اتسعت فيها الفتوح ما لم تتسع من قبل، وأعادت فتح ما كان قد خرج من دولة الإسلام في زمن الفتنة، ثم أضافت إليها أرضاً وبلاداً جديدة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وحفظت بقاء الدولة موحدة يجمعها خليفة واحد يحكم من أقصاها إلى أقصاها.

تبدأ الدولة الأموية منذ تنازل الحسن بن علي -رضي الله عنه- عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-؛ فانتهدت بذلك سنوات الفتنة التي شغلت الأمة الإسلامية، وسُمِّي هذا العام بـ «عام الجماعة».

وعام الجماعة هو عام (٤١ هـ)، وذلك أنه لما قُتل علي رضي الله عنه في جامع الكوفة،

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٨٨/٢.

بايع أهل الكوفة ابنه الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان الحسن أول مفضول يتولى الخلافة في ظل وجود الفاضل، إذ كان سعد بن أبي وقاص حياً، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وهو بقية الستة أهل الشورى الذين رشَّحهم عمر للخلافة من بعده، وكان هذا أول انتقال للخلافة من والدٍ إلى ولده، رضي الله عن الجميع.

وكان الحسن في سياسته على خلاف سياسة أبيه علي، فقد كان كارها لمبادرة أبيه إلى البيعة، وكارها لمبادرته عزل ولاية عثمان، وكارها لتركه المدينة -عاصمة الدولة منذ بدأت دولة الإسلام- إلى الكوفة، وكارها للقتال في الجمل وفي صفين، ولما بايعه أهل الكوفة اشترط عليهم طاعته في السلم وفي الحرب، فبايعوه على ذلك.

ومن جهة معاوية فقد كان مقتل عليٍّ يعني انتهاء المنافسة بين الرجلين، فمعاوية وإن كان مُقَرَّراً أن عليّاً خيرٌ منه وأولى بالخلافة منه، فإن تتالي الحوادث -كما ناقشناه في عصر الفتنة- قد جعله في آخر عهدٍ عليٍّ متمسكاً بالخلافة، لرؤيته أنه الأقدر على إدارة الأمر لما يراه من الانقسامات المتكررة في معسكر عليٍّ، فسعى معاوية إلى أن يضمَّ إليه الأمصار، ونجح في ضم مصر والحجاز واليمن، بينما تناقل أهل الكوفة عن النهوض مع علي لقتال معاوية.

وإذن، فقد كان مقتل عليٍّ الفرصة النهائية لمعاوية لضمَّ العراق وما وراءها من أرض المشرق، وكان مقتل عليٍّ أيضاً قد نقل مسألة القتال مع معاوية لدى أهل الكوفة من الاختيار إلى الاضطرار، فإنهم إن لم ينهضوا هذه المرة فقد انتهى الأمر كله! فاحتشد الجمعان: جيش الشام وجيش العراق، وتحرك كل منهما إلى صاحبه، فكانا حشداً عظيماً يبتثرون الروعة في القلوب.

والظن بالحسن بن علي رضي الله عنه، أنه حرص على حشد أكبر عدد ممكن ليكون ذلك أسهل عليه في الوصول إلى الصُّلح، فإنه -وهو الحصيف الكيس الحليم- لا يخفى عليه أن الصلح لا يأتي إلا حين تتكافأ القوى، ويرى كل طرفٍ أن الصلح أحسن له، ودليل

حرصه على الصلح عزَّله قيس بن سعد بن عبادة وهو قائد مقدمة جيش العراق وكان موافقا لسياسة علي في القتال، فقد عرف الحسن أنه لا يوافقه في الصلح، ووَلَّى مكانه عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس موافقا للحسن في رأيه.

وقد تحقق هدف الحسن من الحشد، فقد وصف الحسنُ البصريُّ جيش العراق بأنه «كتائب أمثال الجبال»، حتى إن عمرو بن العاص لما رأى جيش العراق قال: «إني لأرى كتائب لا تُؤلِّي حتى تقتل أقرانها»، فقال معاوية «إذا قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم»^(١). فما هو إلا أن عرض معاوية الصلح على الحسن، وقبل سائر ما يشترط الحسن لنفسه، حتى ورد في بعض الروايات أنه أرسل إليه صحيفة بيضاء مختومة، أي أن معاوية يقبل سائر شروط الحسن بغير مراجعة. وهو الأمر الذي استجاب له الحسن.

وبهذا التنازل تحققت نبوءة رسول الله ﷺ حين قال عن الحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٢). وهذا الحديث الذي هو من دلائل النبوة، وفيه فضيلة للحسن، هو ذاته يشهد لهاتين الفئتين المتقاتلتين بأنهما فئتان عظيمتان من المسلمين، ولذلك يفرح العلماء به، وهو من أدلتهم في تعظيم كلا الفريقين من الصحابة، وأن المخطئ منهما مجتهد معذور.

ودخل معاوية الكوفة، وبايعه الحسن وقادة معسكره، وبايعه بعد ذلك المسلمون الذين كانوا قد اعتزلوا الفتنة والقتال، ولذلك سُمِّي عام الجماعة.

وعام الجماعة هذا هو لحظة فارقة في تاريخ الإسلام، وهو ميزان الفرق، فإن الذين فرحوا بهذا العام وما حصل فيه هم «أهل السنة والجماعة»، وأما الذين لم يرضوا به فهم

(١) البخاري (٢٥٥٧).

(٢) البخاري (٢٥٥٧)، (٣٥٣٦).

الفرق التي ضلّت مثل «الشيعة» و«الخوارج». وعلى هذا التنازل بُنيَ فقه كثير في السياسة الشرعية الإسلامية.

وكان معاوية بهذا أول ملوك الإسلام، وهو مؤسس الدولة الأموية وأول خلفائها، وبولايته صارت دمشق عاصمة الدولة وعاصمة الإسلام، وقد كان واليا عليها منذ عهد عمر بن الخطاب، إذ ولّاه عمر عليها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان، إذ كان أميرها قبله، ثم ولّاه عثمان على سائر الشام، واستمرَّ يحكم الشام في عهد علي وقت الفتنة الكبرى؛ حتى تنازل له الحسن عن الخلافة، فكان حاكمًا أربعين سنة؛ منها عشرين في الإمارة، وعشرين أخرى في الخلافة، فمات سنة (٦٠هـ)، وعمره ثمانية وسبعون عامًا.

وكان معاوية محبوبًا غاية الحب في الشام، وهذا هو أساس حبّ أهل الشام لبني أمية وولائهم لهم، وكان في غاية الحلم والذكاء، ويُضرب به المثل فيهما، قيل عنه «إنه أسطوري الحلم: موهبة أو ملكة التعامل مع الأتباع وجعلهم يتعاونون دون أن يشعروا بأن كراماتهم قد مُسّت»^(١). وحكم ملكًا عظيمًا وساسه بخير سياسة؛ حتى لُقّب بـ «كسرى العرب»، وكان حكمه نهاية للفتنة التي أصابت المسلمين، وبداية جديدة لعودة الفتوحات^(٢).

وضبط معاوية الأمور، وأورد المقرّيزي أنه أجرى إحصاءً جديدًا، حيث أرسل رجلا يطوف على القبائل فيسأل: «هل وُلِدَ الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد فلان غلام، ولفلان جارية، فيكتب أسماءهم، ويقال: نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله،

(١) إيرام. لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ١٢٤.

(٢) في ترجمة معاوية، انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٤٠٦؛ البغوي، معجم الصحابة، ٥/ ٣٦٣؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٥٩/ ٥٧ وما بعدها (وفيه كثير من الروايات الضعيفة)؛ ابن الأثير، أسد الغابة ٤/ ٤١٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ١١٩ وما بعدها؛ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ٦/ ١٥١.

فيسميه وعياله، فإذا فرغ من القيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك، وأعطى مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم، وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور، وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز، وبعث إلى معاوية ستمائة ألف دينار فضلاً»^(١).

استقرت الدولة عبر عشرين سنة، لم ينغص عليها إلا بعض ثورات الخوارج التي استطاع معاوية بذكائه، واستطاع ولأته بكفاءتهم أن يخدموها، ومن عظيم ما كان لمعاوية أن كان في حاشيته أذكى الناس، وقد روي عن الشعبي قوله الشهير: دهاة العرب أربعة: معاوية والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص وزياد بن أبيه. وذكر ما يتميزون به، فمعاوية يتميز بالحلم والتفكير في الأمر البعيد الذي يقع بعد عشرين سنة، وعمرو بن العاص للمفاجآت، والمغيرة بن شعبة للأمور العويصة، وزياد لكل كبيرة وصغيرة^(٢). فكان المغيرة وزياد ولاية على العراق وفارس، وكان عمرو واليا على مصر، وكان معاوية الخليفة. ولهذا عاشت الدولة في عهد معاوية في أتم سياسة!

قال ابن تيمية: «لم يتولَّ أحد من الملوك خيراً من معاوية؛ فهو خير ملوك الإسلام، وسيرته خير من سيرة سائر الملوك بعده»^(٣).

ولالإمام الذهبي - مؤرخ الإسلام - كلمة بليغة في أمر الفتنة التي توزع فيها الناس بين المحب والمُبغض، قال:

«وخلف معاوية خلقٌ كثير يحبُّونه ويتغالون فيه، ويُفضِّلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإمَّا قد ولدوا في الشام على حبه، وتربى أولادهم على ذلك. وفيهم

(١) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ١/١٧٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٩/١٨٢، ٥٩/١٩٠، ٦٠/٤٩.

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ٧/٣٢٨.

جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونشئوا على النصب - نعوذ بالله من الهوى - كما قد نشأ جيش علي - رضي الله عنه - ورعيته - إلا الخوارج منهم - على حبه، والقيام معه، وبغض مَنْ بغى عليه، والتبري منهم، وغلا خلق منهم في التشيع. فبالله كيف يكون حال مَنْ نشأ في إقليم، لا يكاد يُشاهد فيه إلا غالياً في الحب، مفرطاً في البغض، وَمَنْ أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟ فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق، واتضح من الطرفين، وعرفنا مأخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحمنا على البغاة بتأويل سائع في الجملة، أو بخطأ - إن شاء الله - مغفور، وقلنا كما عَلَّمَنَا اللهُ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]. وترضينا - أيضاً - عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق، وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا علينا، وكفروا الفريقين»^(١).

الفتنة الثانية

لما أحس معاوية - رضي الله عنه - بقرب أجله رتب الأمر ليتولّى من بعده ولده يزيد بن معاوية، ورأى أن ذلك هو الأفضل لمصلحة الأمة، والمانع لتفرقها ودخولها في فتن جديدة؛ لا سيما والدولة قد اتسعت، وكثرت الأمم الداخلة فيها، وما هي بحاجة لأن تحتمل نزاعات جديدة قد تؤدي بها.

والتحليل المتأنّي لجميع الروايات ولأحوال هذه الفترة يُفضي إلى القول بأن هذا القرار كان هو القرار الأصوب في هذه الفترة، وقد لخص هذا ابن خلدون حين قال: «الذي

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٢٨.

دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره ممن يُظنُّ أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول؛ حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء، الذي شأنه أهمُّ عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا؛ فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوته عن دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحقِّ هواده، وليس معاوية ممن تأخذه العزّة في قبول الحقِّ؛ فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه^(١).

كثير من الروايات وردت عن فسق يزيد بن معاوية وتهتكه وشربه للخمر، وثمة روايات أخرى تصمه بأكثر من هذا، ولا يصح شيء من هذه الروايات، بل إن يزيد كان من الشخصيات القوية والمؤهلة للخلافة -ولو لم يكن أفضل الموجودين بطبيعة الحال- وقد كان قائد الجيش الذي غزا القسطنطينية في عهد أبيه، وتحت قيادته بقيّة من الصحابة وكبار التابعين.

وبايعت الأمصار يزيد بن معاوية، ولم يرفض بيعته إلا أربع شخصيات: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، فلمّا تُوفّي معاوية كان عبد الرحمن بن أبي بكر قد مات، وكان عبد الله بن عمر معترضاً على مبدأ مبايعة الخليفة القادم في حياة القائم؛ فلمّا تُوفّي معاوية وبويع ليزيد بايعه عبد الله بن عمر، وبقي عبد الله بن الزبير والحسين على معارضتهما ليزيد، فأما عبد الله بن الزبير فلم يخرج، وأما الحسين فقد غرّه أهل الكوفة وطلبوا قدومه إلى الكوفة ليبياعوه ولكي يتزعمهم في الخروج على يزيد. وقد شعر يزيد بخطورة امتناعهما عن البيعة فأرسل يُلحُّ على بيعتهما،

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢١٠، ٢١١.

مما دفع بالأمر إلى الصدام المحتم.

نصح كثير من الصحابة والتابعين إلى الحسين ألا يخرج على يزيد، لا سيما وأن أهل الكوفة لم يَبْدُ منهم عزمٌ جادٌ؛ فما زال الوالي الأموي يحكمهم ولم يخرجوا عليه ولم يستقلّوا ببلدهم عن سلطة يزيد! إلّا أنّ الحسين -رضي الله عنه- أصرَّ على الخروج، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليأخذ له البيعة، فما كان مصير ابن عمه إلّا الاعتقال وتفرق أهل الكوفة عنه، ولما وصل الحسين إلى الكوفة كان حال أهلها كما قال الفرزدق: «قلوبهم معه وسيوفهم عليه». وما صمدوا معه ولا ثبتوا أمام والي العراق ولا جيش الأمويين الذي كان أهله من العراق أيضًا، وسارت الأحداث كأشوأ ما تكون المسيرة؛ حتى أسفرت عن استشهاد الحسين في مأساة كربلاء الشهيرة.

كان استشهاد الحسين مصيبة من المصائب التي نزلت بالأُمَّة المسلمة، لكنها على كل حال ليست أفدح من استشهاد عمر وعثمان وعلي بن أبي طالب، وتضخيم هذه الحادثة وحدها إنما هو في جوهره ليس تدينا وإنما تضخيم لمصالح سياسية وقتية، وتفجيراً مستمراً للاشتعال بين السُّنَّة والشيعة، وما ثمة أحد في السُّنَّة يحبُّ يزيد أكثر مما يحبُّ الحسين، بل أهل السنة مختلفون في لعنه^(١)، إلّا أنها إعادة إنتاج الأحداث بما اشتملت عليه من روايات ضعيفة وباطلة رواها كذابون لا يعتدُّ بهم^(٢).

(١) من المؤسف أن السياسة الإيرانية المعاصرة، وجرائمها الشنيعة في العراق وسوريا ولبنان واليمن، فضلاً عما في الداخل الإيراني، قد أحييت من جديد أفكار النواصب، وظهر في الناس من يبغض آل البيت ويحبُّ يزيدًا ويمدحه، وقد رأيتُ بنفسني بعض الكتب قد صدرت في الثناء على يزيد، ويأتيني من الأسئلة ما فيه الطعن في علي وفي الحسين. وهذه فتنة نسأل الله أن يقي المسلمين شرّها، فإن فرقة النواصب وأفكارها كانت قد انقطعت وانقرضت من بلاد المسلمين.

(٢) راجع في هذا: علي الصلابي، الدولة الأموية، ٤٨٢ / ١ وما بعدها، ويُعدُّ هذا من أوفى ما كُتب في الموضوع، فقد جمع فيه خلاصة ما كُتب في المراجع الأخرى.

على كل حال؛ انتهت ثورة الحسين باستشهاده؛ لكنها أشعلت القلوب، لا سيما وأن يزيد - وإن كان لم يأمر بقتل الحسين ولم يُرضه قتله، وبكى عليه وأكرم أهل بيته - لم يأخذ إجراءً عملياً ضد عبيد الله بن زياد (والي الكوفة) أو عمر بن سعد (قائد الجيش)، وكلاهما لم يتركا للحسين فرصة للعودة أو لإنهاء القتال، وإنما أرادوه أسيراً فأبى، وقاتل حتى قُتل، فكان من آثار استشهادهِ: ثورةٌ في العراق قام بها مجموعة ممّن شعروا بالندم لخذلانهم الحسين، وسموا أنفسهم «التّوّابين»، إلّا أن الثورة الأخطر والأكبر كانت في المدينة المنورة!

ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وتزعّم هذه الثورة عبد الله بن مطيع وعبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ومحمد بن عمرو بن حزم ومجموعةٌ أخرى من فقهاء المدينة، فيما عارضها آخرون كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ومحمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية) وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وسعيد بن المسيب، وأخرج الثّوّار والي المدينة الأموي عثمان بن محمد بن أبي سفيان، كما حاصروا بني أمية في المدينة، ثم طردوهم عنها، فأرسل إليهم يزيد بن معاوية جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري، وحاول الجيش الأموي إنهاء الأمور بالتفاهم والأمان فلم يُفلح؛ فنشبت المعركة المعروفة في التاريخ باسم «موقعة الحرة»، وفيها انهزم أهل المدينة.. وليت الأمر توقّف هاهنا! ولكن جيش مسلم بن عقبة استباح المدينة ثلاثة أيام، فنهبها وانتهك حرمتها، وأجبر المنهزمين على البيعة ليزيد باعتبارهم عبيداً له. غير أن الجيش لم يرتكب ما نسبته إليه الروايات الشيعية من تهمة انتهاك الأعراض واغتصاب بنات المدينة وما سوى ذلك من الكفر القبيح، إلّا أنّ انتهاك حرمة المدينة واستباحتها وانتهاجها وإذلال أهلها كان من الكبائر التي اقترفها يزيد بن معاوية وقائد جيشه مسلم بن عقبة.

وكما حرّك استشهادُ الحسين وما يُقال عن يزيد أهل المدينة، فإن هذا - إضافة إلى ما وقع في الحرة - قد حرّك ثورةً أخرى في مكة، تزعمها بعض الصحابة والتابعين: كعبد الله

بن الزبير، والمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان بن أمية، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، لقد بدا في ذلك الوقت بما لا يدع مجالاً للشك أن انتقال الخلافة من الشورى إلى الملك العضوض؛ إنما سيؤدّي إلى الطغيان والتجبر والفساد وانتهاك محارم الله - حتى ولو كان ابن بنت رسول الله - وحرمة مدينة رسول الله، ولا شك أن استدعاء الأحداث وقتها ومعاشتها سيفضي إلى هذه النتيجة بشكل لا لبس فيه، فهذا أول خليفة وصلته الخلافة بولاية العهد يتجرأ على مثل هذه الكبائر، فمن ثم كان لا بد من محاولة لإعادة الأمر إلى نصابه، وإعادة الخليفة إلى الشورى.

ولمرة أخرى فشل يزيد بن معاوية في إنهاء الأمر سلمياً عبر الرسائل والوفود، فوجّه سريتين إحداهما بقيادة عمرو بن الزبير (أخي عبد الله بن الزبير)، فهزمتا خارج مكة، ثم جيشاً بقيادة الحصين بن نمير السكوني، فكان ابن الزبير ينهزم بسهولة ويفقد في كل يوم خيرة أصحابه؛ حتى لم يعد أمامه إلا أن ينسحب ويلجأ إلى البيت الحرام بعدما فقد كل مواقعه، ومع استمرار حصار ابن الزبير وضربه بالمجانيق؛ أضيفت كارثة ثالثة لعهد يزيد بن معاوية وهي احتراق جزء من الكعبة، فتقول بعض الروايات: احترقت من أثر شعله نار شردت وحمّلتها الرياح من أصحاب ابن الزبير، وتقول أخرى: بل احترقت من أثر الضرب بالمجانيق، وفي كل الأحوال، وسواء كان هذا هو السبب أو ذاك فإن إحراق الكعبة أمر لا يقصده ولا يتعمده أحد لا من أهل الشام ولا من أتباع ابن الزبير، ولكنها الحادثة التي اهتز لها المعسكران!!

وما هو إلا أن وصلت الأخبار بموت يزيد بن معاوية (أول ربيع الآخر ٦٤هـ)، وكان قد مات (١٥ من ربيع الأول ٦٤هـ) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، وهنا دخلت ثورة مكة منعطفاً جديداً؛ إذ اقترح الحصين بن نمير قائد جيش يزيد على عبد الله بن الزبير أن يسارع بالمناداة إلى نفسه خليفة، وأن يمضي معه إلى الشام فيأخذ البيعة؛ فهو أحق المسلمين بها.

أمّا أن يزيد بن معاوية قد أخطأ وار تكب جنوده عظام فهذا ما لا يمكن أن يُنكره أحد، وأمّا أنه يتحمّل كل المسؤولية فهذا ما لا نُوافق عليه؛ فهذه الثورات التي انطلقت إليه ما كان منها ثورة واحدة قد استكملت أسبابها؛ بل كلها كان ينهزم بأقلّ المجهود، ثم تحصّنهم في المدينة وفي مكة، واتخاذهم حرم الله حرماً لهم وهم يثورون؛ فهذا ما أوقع في الحرج، فما كان بإمكان يزيد أن يتركهم في ثورتهم، ولا هو نجح في ردّهم ولا التصالح معهم بالكتب والوفود، ولا كان لهم قوّة على مواجهة يزيد؛ فضلاً عن حكم الأمّة كلها.. ولسنا الآن نوزّع المسؤوليات والأخطاء، فالجميع بين يدي الله تعالى وهو أعلم بهم وهو أحكم الحاكمين، ولكننا ننظر فيما عرفناه من التاريخ لنعتبر ونتعلم، بإنصاف لا يعتريه هوى!



لم يرَضَ عبد الله بن الزبير الخروج إلى الشام كما نصحه الحصين بن نمير، ولعلّه خشي ألا يرضى به أهل الشام، وأمّا أهل الشام فقد بايعوا بعد يزيد ولدّه معاوية بن يزيد، وكان صالحاً وضعيفاً ومريضاً، فلم تستمرّ أيامه إلّا ثلاثة أشهر على أقصى تقدير، وفيها خلع نفسه، وترك الخلافة للناس يولون عليهم مَنْ أرادوا، وما لبث بعدها أن مات، وهو في حدود العشرين من عمره، أو أكثر من ذلك قليلاً.

لم يتفق أهل الشام على خليفة، ونبذ أهل العراق واليهام الأموي عبيد الله بن زياد، وبايعت الأمصار لعبد الله بن الزبير، وكاد أهل الشام والأمويون أنفسهم أن يبايعوا ابن

الزبير بالخلافة في مكة، وتزعم هذا الضحاك بن قيس أمير دمشق، وأوشك أن يفعله مروان بن الحكم كبير بني أمية، لولا اعتراض قبائل اليمانية بزعامه حسان بن مالك، الذين رفضوا أن يصير الأمر إلى غير الأمويين، وستثبت تطورات الأحداث أن بني أمية كانوا هم عصبه العرب وأقوى البيوت فيها، وأنهم لهذا هم الأقدر على ممارسة الخلافة، وهو ما ذهب إليه معاوية -رضي الله عنه- من قبل، وعامة الصحابة والتابعين الذين وافقوا على البيعة ليزيد ونصحوا الحسين بعدم الخروج، كما لم يوافقوا على ثورة المدينة، ولا ثورة عبد الله بن الزبير، ستثبت الأحداث أن هذه النظرة كانت هي الأصح.

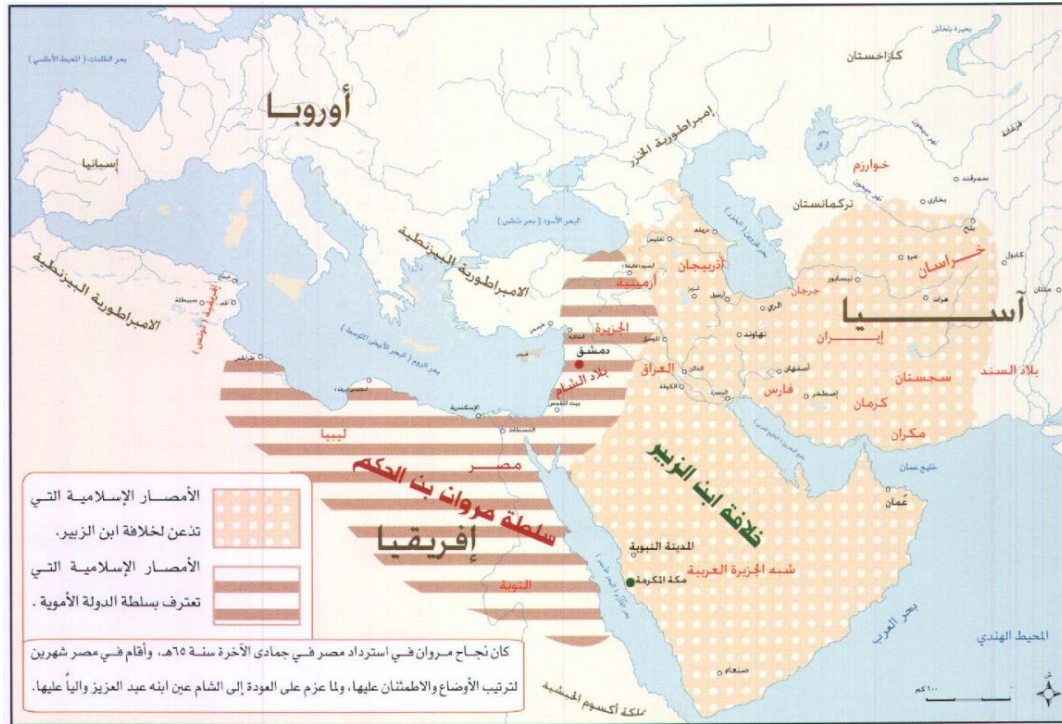
فهذا عبد الله بن الزبير بايعته الأمصار جميعاً، ولم يبقَ خارجاً عن سلطته إلا الشام، والشام نفسه يعاني من الانقسام بين طائفة تريد ابن الزبير وطائفة تريد بقاء الأمر في الأمويين وتؤيد مروان بن الحكم، ويبدو الأمر كما لو أن مؤيديه أكبر من مؤيدي مروان بن الحكم، وهكذا صار ابن الزبير الخليفة الشرعي للمسلمين.

لكن الأمور لم تصفُ لابن الزبير؛ إذ رفض ابن عمر -كما هو منهجه- أن يُبايعه لأنَّ الناس في فرقة ولم يجتمعوا عليه، كذلك لم يُبايعه ابنُ عباس، وانتهى الأمر بخروج ابن عباس من مكة إلى الطائف، وكذلك محمد بن الحنفية، ثم ثار المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة وسيطر عليها، وهو من الخوارج المنحرفين، الذين رفعوا شعار آل البيت، واتخذ المختارُ محمدَ بنَ الحنفية إماماً، لكن محمداً تبرأ منه ومما يدعو إليه، وقد لا نجد عملاً كبيراً لعبد الله بن الزبير في خلافته، إلا حرب المختار بن أبي عبيد وقلته (٦٧هـ) على يد أخيه مصعب بن الزبير، الذي ولاه أمر العراق.

وفي الشام أسفرت الأمور عن اختيار أهل القوة والعُصبة من أهل الشام لمروان بن الحكم ومبايعته خليفة، ثم دارت حربٌ بين مروان بن الحكم وبين أنصار ابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري في مرج راهط (ذي الحجة ٦٤هـ)، انتصر فيها مروان بن الحكم بعد قتال شديد، واستقرَّ له أمر الشام، ثم بدأ في ضمَّ البلاد إليه؛ فبدأ بمصر -لأهميتها

الجغرافية والاقتصادية - التي دخلت في سلطانه بسهولة، ثم عهد بالولاية من بعده لابنه عبد الملك، ثم لعبد العزيز، ولا شك في هذه اللحظة أنه كان مقتنعاً إلى النهاية بأن ولاية العهد هي التي تمنع الفتن والانقسامات والتنافس على الخلافة، فما زال الأمر مضطرباً منذ أن انفرط عقد الشام بموت يزيد بن معاوية، ثم خلع معاوية بن يزيد نفسه، ثم صدقت الأحداث ظنونه فما لبث أن مات هو (رمضان ٦٥ هـ) بعد تسعة أشهر فقط في الحكم، وتولى بعده ابنه عبد الملك بن مروان.

والمتابع لتاريخ الفترة يتعجب من خلو مشهد الشام من عبد الله بن الزبير، الذي اعتمد كليةً على أنصاره في الشام، ولم يُجيش معهم الجنود، ولا أرسل إليهم الدعم للقضاء على المعارضة الأموية هناك، كذلك خرجت مصر من بين يديه بسهولة، وسرى بعدئذ أن البلاد ظلت تتساقط من بين يديه برغم ما كان متحققاً له من اجتماع الكلمة؛ بينما استطاع بنو أمية أن يستعيدوا ملكهم كاملاً مرة أخرى؛ بل وأن يُوسّعوه أضعافاً على الرغم مما وقع في الشام من فرقة وانقسام .. في دلالة فارقة على أن بني أمية كانوا الأصلح للخلافة في هذا الوقت؛ بما امتلكوه من عصبية وتوحد، وبما نشأ فيهم من شخصيات قوية حازمة واسعة السياسة وبعيدة النظر.



تولّى عبد الملك بن مروان الأمر وليس بيده إلا الشام ومصر - وكان من كبار العلماء والفقهاء في وقته^(١) - فكان المؤسس الثاني لمُلْك بني أمية، فعبد الملك شخصية قوية بارعة نجية إلى الحدّ الذي ولاه معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - أمر المدينة وعمره ستة عشر عامًا فحسب، فكيف وهو الآن في الأربعين من عمره، أي في اكتمال النضج؟!

في عهده ضمّ إليه باقي البلاد الإسلامية، وانتصر على مصعب بن الزبير في العراق، ثم على عبد الله بن الزبير في مكة، واستقرّ الأمر له، ولم يخلُ الأمر من فظائع أخرى تُعيد التذكير بعهد يزيد بن معاوية؛ إذ كان الحجاج بن يوسف الثقفي واحدًا من أبرز رجال عبد الملك، وهو الذي تَبَّتْ له أمر العراق^(٢)، وانتصر على الخوارج، وهو الذي قاد له الحملة

(١) ولا يصح ما روي من أنه لما تولى الخلافة نظر إلى المصحف وقال: «هذا فراق بيني وبينك».

(٢) مع التسليم بأن الحجاج كان مسرفاً في القتل، إلا أن ما يُروى عن أعداد من قتلهم هو قطعاً من المبالغات، فقد قيل إنه قتل أكثر من مائة ألف إنسان، وهذا شيء يفوق أعداد السكان في ولاية العراق في ذلك الزمن، ولا يُتَصَوَّر أن

على عبد الله بن الزبير في مكة حتى هزمه، ثم صلب جثة عبد الله بن الزبير، وأساء إلى سيِّدة الدنيا في وقتها أسماء بنت أبي بكر؛ فقرَّعه في ذلك عبد الملك بن مروان، وعلى الجانب الآخر تخاذل الناس وانفضُّوا عن ابن الزبير واحداً تلو الآخر، وجماعة تلو الأخرى في مشهد يُعيد التذكير بالحسين بن علي -رضي الله عنه-، كما يُعيد التأكيد على أن جميع القوى افتقدت التماسك والتوحد، الذي كان متوفراً للأمويين ما يزيدُ في التأكيد على أنه لم يكن أحد في هذا الوقت أقدر على الخلافة منهم.

العهد المرواني

صَفَّتِ الأمور لعبد الملك بن مروان، ولم يُعدَّ يُضايقه إلا بعض ثورات الشيعة المحدودة في العراق، وثورات الخوارج، التي تولَّى القضاء عليها البطل الكبير المهلب بن أبي صفرة، واستطاع أن يهزمهم هزائم قاسية في أكثر من موقعة فاصلة، وقد كانت ثوراتهم أشدَّ الثورات على بني أمية.

ولكن سياسة الحجاج الظالمة المتعسفة ما لبثت أن أشعلت ثورة خطيرة وكبرى قادها عبد الرحمن بن الأشعث ومعه سعيد بن جبير والشعبي، وكلاهما من العلماء الكبار، إضافة إلى دعمٍ وموافقةٍ من الصحابي الجليل أنس بن مالك؛ ولكنه لم يستطع القتال لشيخوخته، وانتشرت الثورة واشتعلت، وانضمَّ إليها كثير من الناس تبعاً لمن انضمَّ إليها من العلماء والفقهاء والقراء، وبلغت الثورة منحى خطيراً، وهزَمَ جيش ابن الأشعث كافة الجيوش التي أرسلها إليه الحجاج لمواجهته؛ مما دفع عبد الملك إلى أن يعرض على

يُقتل في ذلك الزمن مائة ألف رجل ثم تستمر الحياة والتناسل دون انخفاض ضخم مؤثر في سائر المجالات. ينظر

مثلاً: يوسف العش، الدولة الأموية، ص ٢٢١، ٢٢٢.

أهل العراق أن يعزل عنهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وأن يتولّى عبد الرحمن بن الأشعث إمارة ما شاء من البلاد، ولكن الثائرين ظنّوا أن هذه التنازلات تُخبر بقرب انتصارهم الكامل؛ فرفضوا هذا العرض، فاستمرّ القتال مائة يوم وقعت فيها ثمانون معركة، كان أغلبها لصالح أهل العراق، ثم انتهى الأمر بانتصار حاسم للأمويين وفشلت هذه الثورة الكبرى، التي لم تواجه الدولة أخطرَ منها طوال فترة قوتها.



وفي أثناء الصراع الداخلي في الدولة الإسلامية توقفت الفتوح بطبيعة الحال، بل تراجعت الدولة الإسلامية، وضاعت منها بلاد كانت قد فُتحت في الشمال الإفريقي، بل



واضطّرَّ عبد الملك إلى أن يُصالح الروم على إتاوة سنوية يدفعها لهم!! وهو الأمر الذي ما كانوا يحلمون بشيء منه! ولكن بعد وحدة الدولة تحت سلطة عبد الملك انتهت هذه المرحلة، واستعاد المسلمون قوتهم؛ بل بدءوا مرّة أخرى في فتح البلاد، ومنها بلاد الروم نفسها، التي أخذت في التساقط أمام المسلمين في عهد عبد الملك وأبنائه.

ومن أهمّ ما صنعه عبد الملك بن مروان هو تنظيم الدولة

إداريًا، وجعله اللغة العربية لغة رسمية تُكتب بها الدواوين، وسكَّ العملة بالعربية، وفرض التعامل بها في الدولة؛ وهي القرارات التي كان لها أكبر الأثر في حياة الأمة الإسلامية بأسرها، ومكَّنت استقلالها السياسي والاقتصادي والحضاري.

تُوفِّي عبد الملك بن مروان (شوال ٨٦هـ)، وهو في الستين من عمره، بعد عشرين عامًا حَقَّق فيها ما غاب عن الأمة منذ ربع قرن، منذ وفاة معاوية، من أمن البلاد وتوحيدها، وانتهاء الفتن، والعودة إلى عصر الفتوح، وأعاد فيها سلطان بني أمية، ووطَّد فيها أمر الخلافة، وتولَّى الأمر من بعده ولده الوليد بن عبد الملك، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره.

وجد الوليد ساحة مهیئة، وكان يهيم بالبناء والعمارة، فبنى المسجد الأموي الذي هو

تحفة معمارية لا مثیل لها

في وقتها، وبنى في المسجد

النبي وتوسّع فيه، واهتمّ

بزخارفه وزينته، كما اهتمّ

بأعمال حفر الترع

والقنوات والآبار، وتسيير

الطرق، وكان أول مَنْ

بنى المستشفيات، وجعل

فيها نظام الأطباء العاملين

بمرتب، وبنى مستشفى

لمرضى الجذام، وتعهّد

أمر المحتاجين والفقراء والعاجزين، وما إلى ذلك؛ حتى جعل لكلّ مُقعد خادمًا، ولكل

أعمى قائداً. وحرص على تعريب الإدارات فاستبعد غير المسلمين من الدواوين، ولا

شك أنه استفاد في ذلك من خطوة أبيه في تعريب الدواوين وبنى عليها.

وشهد عهد الوليد

أوسع موجة لاتساع

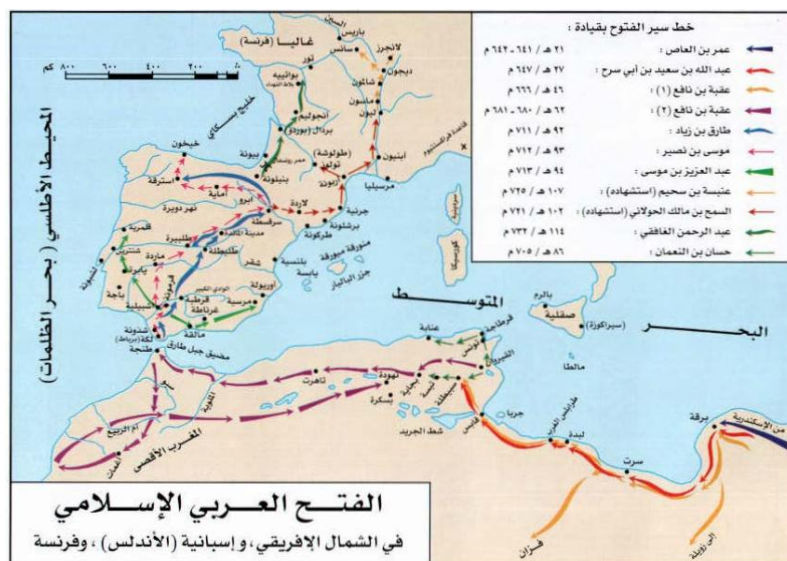
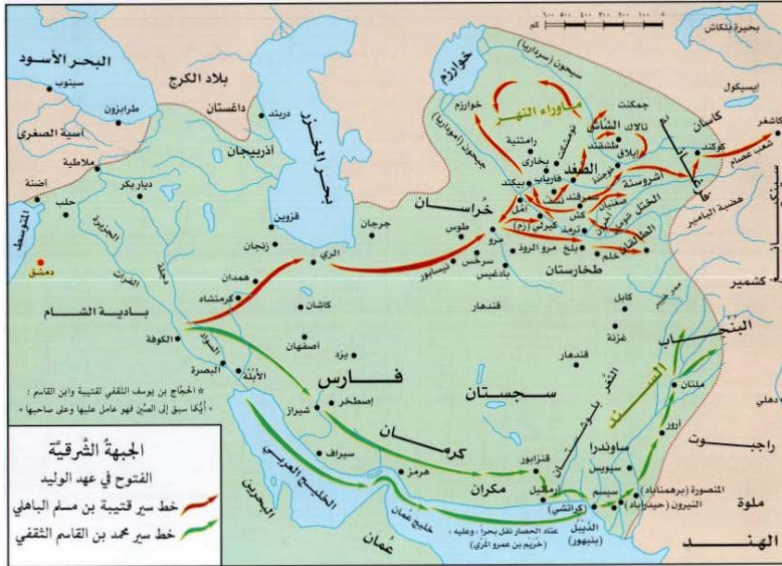
الفتوحات الإسلامية،

فاستعاد سائر المناطق

التي استردها الروم في

أزمة الفتنة والخلاف،

وتمدد في الشمال في



أرمينية وأذربيجان وبلاد القوقاز، وتجددت التهديدات الأموية لعاصمة الروم الكبرى: القسطنطينية، وفي عهده تمّ الفتح العظيم في أقصى بلاد الغرب: فتح الأندلس، التي ستكون فيما بعدُ بقعة فارقة في تاريخ الإنسانية، كما توالى الفتوحات شرقاً في أواسط آسيا وبلاد السند حتى بلغت حدود الهند والصين^(١). وبالجملة فلقد «حقّق العالم العربي آخر تقدماته الكبرى تحت حكم عبد الملك وابنه»^(٢).

واستمرّ التطور المالي والإداري في الدولة في عهد الوليد بن عبد الملك، ظلّ الوليد عشر سنوات في منصب الخليفة؛ حتى وافاه الأجل (٩٦هـ)، وهو في الثامنة والأربعين من عمره، وتولّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك.

ساد الهدوء بشكل عامّ خلال عهد سليمان بن عبد الملك، وكان سليمان ممن يستعين بالعلماء وأهل الصلاح ويؤيّدهم، ومن أبرز مستشاريه رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز، وكانت سياسته قائمة على المودعة والملاينة، ووَصَلَ آل البيت وآل الزبير، وكان على خلاف مع الحجاج بن يوسف، الذي تمنى أن لا يمكن الله سليمان منه وقد كان؛ إذ مات الحجاج قبل ولاية سليمان، غير أن عهد سليمان شهد مأساة أخرى.

رفض الفاتح العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي البيعة لسليمان، وخشي على نفسه؛ فقد كان قتيبة ممن دعم عزل سليمان من ولاية العهد، فأعلن ثورةً على سليمان بن عبد الملك؛ لكن لم يستطع أن يجمع مَنْ معه من الجيش على رأيه، وتطوّرت الأحداث حتى قُتل قتيبة بن مسلم في هذا الخطأ القاتل والزلة التي أنهى بها حياة الأمجاد الواسعة والمآثر العظيمة، فكم دخل الإسلام بلادًا وقلوبًا بفضل قتيبة بن مسلم. ولقد كان هذا سبباً إضافياً ليشد سليمان بن عبد الملك في عزل رجال الحجاج بن يوسف الثقفي، وتولية مَنْ كان

(١) بلاد السند: يمكن القول بأنها الآن الجزء الجنوبي من باكستان.

(٢) مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، ٣٩٦/١.

الحجاج قد ظلمهم، أو لهم عنده ثأر، فولّى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي تقصى رجال الحجاج بالانتقام والعزل؛ ومنهم محمد بن القاسم فاتح السند وأحد أكبر الفاتحين في التاريخ الإسلامي، الذي سُجن وعُذّب، وثمة روايات أيضًا تُفيد بأن موسى بن نصير - فاتح المغرب والأندلس - لما حضر من الأندلس إلى دمشق حبسه سليمان وغرّمه أموالاً، وقيل أيضاً: عَذَّبَه حتى مات^(١)، وهكذا وُصف عهد سليمان بن عبد الملك بأنه عهد مقتل الفاتحين الكبار، الذين أعطوا للدولة الأموية ولتاريخ الإسلام كله مآثرة لا تُقدَّر بثمن، وهذه المقاتل كانت سبباً أضيفت إلى الدولة الأموية.

لكن الفتوح استمرّت، بل قام سليمان بمحاولة جريئة لفتح القسطنطينية، واستشار في الأمر فوجد قاداته على رأيين: رأي يقول بالتمهل والفتح التدريجي للحصون والمدن حتى

(١) كان موسى بن نصير قد استدعاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى دمشق، يقال: ليمنعه من التوغل في أوروبا، إذ كان موسى بن نصير يطمح إلى فتح أوروبا، وهو أمر أشبه بالمستحيل، إذ كيف للأعداد الصغيرة أن تخترق هذه المساحات الشاسعة وقد انقطع المدد بينها وبين المسلمين! وفي ذلك الوقت كان موسى بن نصير في الثمانين من عمره! ولا يمكن الفصل في هذه الأمور التي لا ترد فيها معلومات كافية، فالفكرة في ذاتها مستبعدة أن تكون خطة حقيقية لدى قائد عسكري متمكن مثل موسى بن نصير، ربما تكون أمنية وحلماً، لكن لا يمكن أن نتوقع منه تنفيذها على الحقيقة. ولو أن الخبر وصل إلى الوليد على هذا النحو فلا بد له أن يستدعيه لكي لا يلقي بالجيش في هلكة بعيدة. ولا نجد فيما بين أيدينا من الروايات أن خلافاً كبيراً أو محاولة تمرد وقعت من موسى بن نصير، ولهذا فليس لدينا سبب مفهوم يُفسّر عقوبة موسى بن نصير على يد الوليد أو يد سليمان. وثمة روايات أخرى تذكر أن موسى بن نصير مات موتاً طبيعياً في المدينة المنورة، بعدما حج إلى مكة. ويلوح لي أن النزعة التعميمية التي توجد عند الرواة والمؤرخين الأدباء في وصف العصر بصفة عامة، هي التي صنعت - أو قوّت - الروايات القائلة بمقتله على يد سليمان، فقد نظر القوم في عصره فوجدوا أنه شهد مقتل الفاتحين الكبار: قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم، فاستسهلوا أن يضيفوا إلى ذلك رواية عن مقتل موسى ليستقيم لهم الوصف العام لعصر سليمان. وما أقل الروايات عند هذه الفترة وحوادثها! ويجب ألا ننسى أن قسماً عظيماً من روايات التاريخ عن بني أمية وضعها خصومهم، وهي التي راجت في عصر بني العباس، وفي عصر العباسيين كُتبت المؤلفات التاريخية الأولى. وكانت المزية العظمى للأمويين هي فتوحاتهم العظيمة، والطاعنون يتطلعون لسلب خصومهم هذه المكرمة التي لم يكن للعباسيين مثلها.

القسطنطينية، ورأي يقول بمهاجمة القسطنطينية رأساً بجيش كبير، فاستبعد واستطال الرأي الأول ومال إلى الثاني، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، وتعامل مع هذا الفتح وكأنه قضية حياته؛ فترك دمشق واتخذ مدينة دابق في شمال الشام مركز عمليات يُتابع منه الوضع، وأقسم ألا يعود إلى دمشق حتى يفتح القسطنطينية أو يتوفاه الله، وهو ما كان، إذ توفاه الله (صفر ٩٩ هـ) بعد ثلاث سنوات من الخلافة، وكان في الرابعة والأربعين من عمره، وكان من مآثره أنه عهد بالخلافة من بعده لأفضل خليفة في الدولة الأموية؛ وهو عمر بن عبد العزيز.

ذروة الدولة الأموية: عمر بن عبد العزيز

ولأجل علمه أن ولاية عمر لن ترضي الأسرة المروانية؛ فعمل على التحايل بأن كتب الولاية بالعهد في رسالة هذا نصها: «هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوه، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم». وأمر بأن يُباع على ما فيها دون أن يعلم أحد بما فيها، وبهذا تمَّ الأمر، ولم يخلُ - مع ذلك - من صعوبات واعتراضات.

كان عمر بن عبد العزيز جوهره الخلفاء في بني أمية، جدّد سيرة الخلفاء الراشدين، وأقام العدل في أنحاء البلاد، واعتبره العلماء مجدّد المائة الأولى الذين أخبر النبي ﷺ أن الله يبعثهم لتجديد أمر الدين، وضرب المثل في الزهد والصلاح، والحرص على مصالح المسلمين، وكان من العلماء الذين بلغوا رتبة الاجتهاد في الدين، وجمع خلال الخير؛ حتى كأنه أكثر من شخص واحد؛ بل لقد قال فيه الإمام الذهبي مؤرّخ الإسلام كلمة عجيبة: «يُعَدُّ في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن

البصري، وفي العلم مع الزهري»^(١). والكلام في مدحه يطول، والمواقف التي تروى عنه كثيرة -رضي الله عنه-.

بدأ عمر خلافته بالتخلي عن البيعة التي بويعت له، وترك للناس تقديم مَنْ يرضونه في الخطبة التي خطبها أول عودته إلى دمشق، ولكن الناس تمسكوا به؛ لما يعرفونه عن شخصه وسيرته وعلمه، ولما رأوا من زهده في الخلافة، فبدأ عمر خلافته برّد المظالم، وخرج من كل أملاكه التي آلت إليه بالوراثة أو الهدية، مما كان يحوطها من شبهة ظلم، ثم ثنى برّد المظالم التي اقترفها بنو أمية من الناس، ثم عزل الظالمين من الولاة، وولّى أهل الصلاح، وأطلق من كان في الحبس، ورفع المظالم عن الموالى والعبيد، وما كان قد وقع من مظالم على أهل الذمة، بل وأمر الجيش الفاتح بعد دخوله سمرقند أن يخرج منها؛ بعد وصول شكوى أهل سمرقند بأن الجيش لم يدخل مدينتهم دخولاً شرعياً، وبالفعل كاد القرار ينفذ لولا أن تنازل أهل سمرقند عن شكواهم ورضوا بالفتح وبالمسلمين، وتآلف القلوب، ولا يتسع المقام لتتبع مآثره في هذه العجالة.

وكانت سياسة عمر التوقّف في الفتوح، والاكتفاء بما وصل المسلمون إليه؛ خشية على المسلمين من التوغّل، الذي يُوقعهم في كمائن الأعداء بعد طول انقطاعهم عن مراكز الإمداد في البلاد الإسلامية، فأعاد جيش القسطنطينية الذي تحول الموقف العسكري إلى غير صالحه، وراسل السمع بن مالك الخولاني -والي الأندلس- بالألا يتوغّل في بلاد فرنسا، وأرسل بهذا إلى عبد الرحمن بن نعيم الغامدي -والي خراسان- ألا يتوغّل في بلاد ما وراء النهر^(٢) وأن يكتفي بما تم فتحه، ثم راسل ملوك الهند (الأرض التالية للسند التي فتحها محمد بن القاسم)؛ فدعاهم إلى الإسلام وطمأنهم، ووعدهم أن يظلّ كل منهم على

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٩٠ / ١.

(٢) بلاد ما وراء النهر، تعني البلاد الواقعة وراء نهر جيحون.

حاله في مملكته، وكان قد وصلت إليهم أخباره وسيرته، فأسلم بعضهم ودخلوا في سلطة الخلافة الإسلامية؛ وبذا تم فتح بلا سيف ولا دم، وأمّا الجبهات التي تعرّض المسلمون فيها للإغارة - كما وقع من بلاد الترك ومن الروم - فقد تصدّت الجيوش الإسلامية لها وانتصرت عليها.

وفي سنتين فقط هما فترة عمر بن عبد العزيز في الخلافة تمّت إنجازات إدارية ومالية ودعوية وسياسية وحربية وقضائية وعمرانية لا تكاد تصدّق، شمولاً وتنوعاً واتساعاً، حتى سكن الخوارج في عهده وخضع أغلبهم، ثم اختلفت الروايات هل مات ميتة طبيعية، أم مات بآثر السم الذي وضعه له أحد الخدم الذين دفعهم بعض بنو أمية الموتورين على عمر؟ ومهما يكن من أمر فقد رحل عمر بن عبد العزيز إلى جوار ربه في رجب من عام ١٠١ هـ، وهو في الأربعين من عمره .. فترك سيرة خالدة لا تطويها الأيام، ولا تُنسى عبر القرون والأجيال.

آخر الخلفاء الأقوياء

تولّى بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك، ومهما بلغ أمر يزيد فإن المقارنة مع عمر تجعله في وضع صعب، فلو أنه تولّى بعد الوليد أو بعد سليمان فربما كانت صورته في التاريخ أفضل، لقد كان يزيد شخصية عادية ليست في صلاح عمر، ولا في سياسة عبد الملك بن مروان، ولا في همّة الوليد بن عبد الملك، وحاول أول عهده أن يسير على خطى عمر بن عبد العزيز فلم يستطع؛ إما لأنه لم يتحمّل، أو لأن بطانته خلت من العلماء؛ فتسلقها أهل السوء فعدلوا به عن هذه المسيرة، ونُسب إليه الإسراف في المأكل، وفي الإقبال على الجواري، ووردت في هذا أمور مبالغة وباطلة لا تُصدّق.

وفي عهده عاد ذكر الثورات، ولكنه قضى عليها، وكان من أكبرها ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وبعض ثورات للخوارج، كما استوعب بذلك ثورة البربر في الشمال

الإفريقي؛ حين قتلوا واليهام الظالم يزيد بن أبي مسلم، وولّوا عليهم محمد بن يزيد، وكان مولى فأقرّهم على ما فعلوا، وفي عهده كُثِرَ الموالي في المناصب القيادية، واستمرّت سياسة الغزو والفتوح في عهد يزيد بن عبد الملك؛ فقضت الجيوش الإسلامية على تمردات الترك فيما وراء النهر، وأعادت فرض نفوذها على مناطق الشمال في أرمينية وبلاد الخزر^(١)، واستمرّت الفتوح في البحر المتوسط؛ وفي عهده غزا المسلمون جزيرة صقلية أكبر جزر البحر المتوسط، التي كانت مركزاً حربيّاً للروم ينطلقون منه في حملاتهم العسكرية على بلاد الشمال الإفريقي، وكذلك استمرّت الفتوح في فرنسا على يد السماح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن الغافقي. ومات يزيد بن عبد الملك في شعبان عام ١٠٥ هـ، بعد أربع سنوات من الخلافة، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وتولّى الأمر بعده أخوه هشام بن عبد الملك.

يُعَدُّ هشام بن عبد الملك آخر الخلفاء الأقوياء، الذين استقامت لهم البلاد في بني أمية، قضى في الخلافة عشرين سنة، ضبط فيها أمر الدولة ضبطاً إدارياً فائقاً، وكان حريصاً على الأموال، شديد الرقابة على العمال والموظفين، حريصاً على إقامة العدل، وكان له مجلس للعامة يُقَدِّمون له فيها الشكاوى مهما كان حال الشاكي من العبودية أو الفقر أو قلة الحال، وفي عهده استمرّ الغزو في البلاد لا سيما في جبهة السند والهند على يد عمرو بن محمد بن القاسم، وجبهة أذربيجان وأرمينية على يد أخيه مسلمة بن عبد الملك، ثم مروان بن محمد، وكان يقرب العلماء، وأشهرهم في وقته الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري والإمام الفقيه عبد الرحمن الأوزاعي، وكان لهما أثر على سياسة هشام بن عبد الملك. وعانى هشام بن عبد الملك في عهده

(١) هي مناطق القوقاز الآن.

من بعض الثورات، وكان أكبرها ثورة زيد بن علي بن الحسين، وثورات البربر في المغرب، الذين انتشر فيهم فكر الخوارج^(١)، كما عانى من ظهور المذاهب المنحرفة في عهده؛ كغيلان الدمشقي الذي تزعم القول بمذهب القدريّة^(٢)، والجعد بن درهم؛ الذي كان أول مَنْ قال بخلق القرآن، والمغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان وكانا من غلاة الشيعة؛ يكفران كلّ الصحابة إلّا مَنْ ثبتوا مع علي -رضي الله عنه-، ويزعمون أنه نصف إله .. وغير ذلك من المذاهب المنحرفة التي أطلّت برأسها في عهد هشام. ظلّ هشام بن عبد الملك خليفة قويًّا حتى وافاه الأجل (ربيع الآخر ١٢٥هـ)، بعد عشرين عامًا في الخلافة، وأربعة وخمسين عامًا في الحياة .. ثم دخلت الدولة بعده في مرحلة الانهيار.

أفول الدولة الأموية

بدأ انهيار الدولة الأموية حين تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك. وقد تولاها بنفس الحيلة التي كانت سبب وصول الدولة الأموية إلى ذروتها مع عمر بن عبد العزيز، فلكي يمرر سليمان بن عبد الملك توليته العهد لعمر بن عبد العزيز في البيت الأموي جعل وليّ العهد من بعد عمر: يزيد بن عبد الملك، فكانت سابقةً تمسّك بها يزيد بن عبد الملك الذي جعل ولاية العهد من بعد أخيه هشام بن عبد الملك: ابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك. وهذا يلفت أنظارنا إلى ما يعتري البشر من النقص، وأن ما يتجونه من الحلول لمشكلاتهم قد يكون هو نفسه سبب تفاقم المشكلات فيما بعد.

(١) في الكلام عن اعتناق أهل المغرب لفكرة الخوارج، يُنظر الفصل العاشر.

(٢) وهو المذهب الذي يقول بأن الأقدار تجري ولا يعلمها أحد مسبقًا ولا حتى الله نفسه!

لم يكن الوليد بن يزيد أهلاً للخلافة، ولكنه تولاها بمقتضى النظام السائر، ومع أن هشام بن عبد الملك حاول عزله عن ولاية العهد، إلا أنه لم يستطع خرق النظام المستقر، ورفض الوليد أن ينزل عن ولاية العهد طوعاً، فلما مات هشام انتقم الوليد من أبنائه وإرثه، وانقلب على سياسته، ومضى على سياسة رعاء استفز بها القبائل اليمانية، وهي من أعمدة الدولة الأموية، وتخلخل بها التوازن القبلي العربي الذي أقام الدولة الأموية واستطاع خلفاؤها الحفاظ عليه، فما لبث أن اشتعلت ضده ثورة قادها أبناء عمومته: أبناء الوليد بن عبد الملك مع أبناء هشام بن عبد الملك، مستندين بذلك إلى القبائل التي أساء إليها، فانشق البيت الأموي ودخل في نزاع داخلي، واستطاعت ثورة قادها يزيد بن الوليد بن عبد الملك أن تعزل الوليد بن يزيد، فتعصّب له آخرون على رأسهم مروان بن محمد بن مروان، وهو الرجل العسكري القوي الذي كان والياً على أرمينية وأذربيجان في الثغور، وزاد من تضعضع الوضع أن الخليفة الجديد (يزيد بن الوليد بن عبد الملك) ما لبث أن مات بعد ستة أشهر فحسب من ولايته، فتولّى بعده أخوه إبراهيم بن الوليد، وهُزم هذا الأخير على يد مروان بن محمد.

ورث مروان بن محمد تركة ثقيلة، فاليوم الأموي متمزق متحارب، وما يزال بعضهم يحاربه، وثورات الخوارج وجدت فرصتها السانحة واشتعلت في العراق والجزيرة، وبعض الطموحين من الثائرين كعبد الله بن معاوية بن جعفر أو حتى من الولاة كعبد الله بن عمر بن عبد العزيز أعلنوا ثورة أو استقلوا بولاياتهم، والقبائل العربية في الشام قد انقسمت تبعاً لانقسام البيت الأموي واشتعلت الثورات في منطقة الشام. فلم يكن مروان يخرج من حربٍ حتى يدخل في غيرها، ينتصر أحياناً وينهزم أحياناً حتى جاءته الضربة القاضية من حيث لا يحتسب!

لقد تطورت في أقصى الشرق، في خراسان، دعوة سرية كان أصلها علويٌّ ثم انتقلت قياداتها إلى الفرع العباسي من آل البيت، حيث تولى أمرها محمد بن علي بن عبد الله بن

عباس، واستطاعت هذه الدولة إنشاء تنظيم سري، قيادته العليا في الحميمة من أرض الشام، وقيادته الوسطى في الكوفة، وجسده الأساسي في خراسان! وقد شعرت الدولة الأموية بهذه الحركة لكنها لم تستطع أن تقبض على رؤوسها ومحركيها إلا بعد فوات الأوان.

وكانت ظروف خراسان، من حيث بُعدها الجغرافي، وخريطة القوى العربية فيها، وما نتج فيها من أوضاع وظروف اقتصادية واجتماعية بيئةً صالحةً لتكون حاضنة لمعارضة الأمويين، واستثمر العباسيون طاقتهم هناك، ثم اكتشف دعائهم شاباً فارسياً نابغة متعدد المواهب والقدرات، لفت الأنظار إلى موهبته وقدرته، فكان خادماً لمحمد بن علي -إمام الدعوة- ثم صار بعد زمن قليل أمير الدعوة في خراسان، ذلك الذي عرف في التاريخ باسم «أبي مسلم الخراساني»، فاستطاع أن ينقل الدعوة قفزات واسعة إلى الأمام.

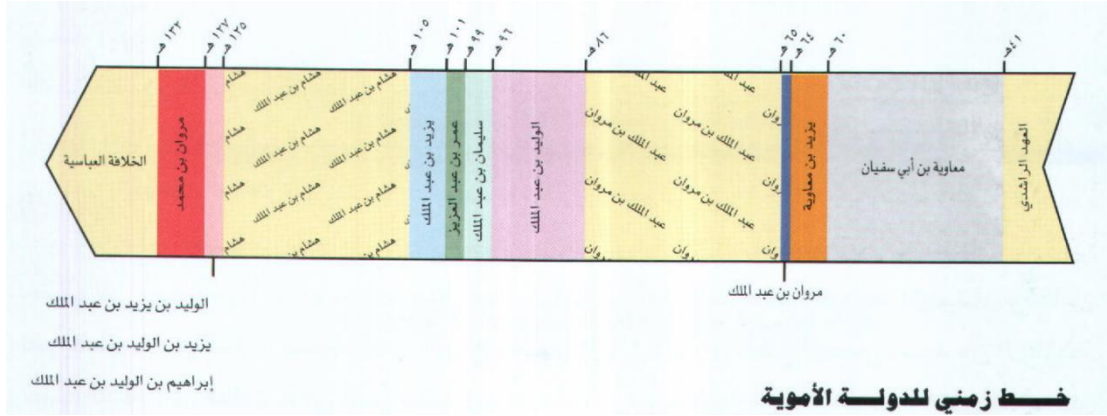
من خلال التواصل الفعال بين قيادة الدعوة في الحميمة والكوفة وخراسان، كان النزاع الداخلي في البيت الأموي، والثورات المتعددة التي انفجرت في وقت واحد بالشام والعراق، فرصةً نفيسةً لحركة التنظيم العباسي -الذي يرفع شعار الدعوة إلى ولاية آل البيت- في خراسان.

وبسرعة استطاع التنظيم أن يعلن عن نفسه، وأن يستخلص خراسان من الأمويين، ثم يمضي منطلقاً إلى الغرب حيث يجتاح فارس والعراق، فلا تقف له الجيوش التي يرسلها الخليفة الأموي مروان بن محمد، حتى وقع الاصطدام الكبير عند نهر الزاب في العراق، فتكون هذه المعركة هي الضربة القاضية التي نزلت على رأس الأمويين وأنهت دولتهم.

تمزق الجيش الرئيسي للأمويين، ودخل العباسيون إلى الكوفة، عاصمة الدعوة التي صارت الآن عاصمة الدولة، وبعد أيام ظهر فيها أول الخلفاء العباسيين: أبو العباس عبد

الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، الملقب بـ «السفاح»^(١). وطاردت الجيوش العباسية مروان بن محمد حتى استولت على دمشق وسائر الشام ثم أدركته في مصر، فاستطاعت قتله لتنتهي بذلك الخلافة الأموية، وتبدأ صفحة جديدة في التاريخ: صفحة الخلافة العباسية.

الإنجاز الأموي



إن من اللافت للنظر أنه فيما عدا أربعة من الخلفاء هم: معاوية بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، فيما عدا هؤلاء مات جميع الخلفاء في سنٍّ صغيرة في الثلاثينيات والأربعينات. كذلك فيما عدا معاوية، وعبد الملك، وهشام بن عبد الملك فإن كل فترات الخلفاء في السلطة قصيرة؛ تتراوح بين الشهور الثلاثة وبين السنوات الأربع فقط. وعلى الرغم من كل هذا الاضطراب والانتقال السريع للسلطة وتبدُّل الأحوال؛ فإن الإنجاز التاريخي لهذه الدولة هو إنجاز ضخْم؛ بل ومذهل بكل المقاييس، وسيُتضح هذا الأمر جليًّا حين نقارن مثلاً بين هذه الدولة وبين الدولة العبيدية

(١) لقب السفاح الذي أعطي للخليفة العباسي الأول لم يكن يعني ما يتبادر إلى الذهن الآن من كثرة القتل وسفك الدم، وإنما خطب السفاح خطبته الأولى فقال فيها «أنا السفاح» يعني بها «الكريم»، وهو من معاني الكلمة في لغة العرب. لكن الخلفاء العباسيين بعده اتخذوا الألقاب: المنصور، المهدي، الرشيد... إلخ! فأعطاه المؤرخون هذا اللقب!

(الفاطمية) فيما بعد؛ والتي كان عدد خلفائها كعدد خلفاء بني أمية أربعة عشر، ولكن طالت أعمارهم كما طالت سنواتهم في الخلافة - بل قضى المستنصر بالله ستين سنة في الخلافة - فحكّم بنو أمية تسعين سنة فيما حكّم العبيديون أكثر من مائتي سنة، ولا مجال على الإطلاق للمقارنة بين الإنجاز التاريخي للدولتين!



حسانات بني أمية

قال ابن حزم: «وكانت دولة عربية لم يتخذوا قاعدة»^(١)، إنما كان سكنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجاجاً^(٢) الأموال ولا بناء القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبهم بالتمويل^(٣) ولا التسويد^(٤)، ويكاتبهم بالعبودية والمُلك^(٥)، ولا تقبيل الأرض ولا رجل ولا يد^(٦)، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمال، ويولّون الآخرين في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد. وبعثوا إليها الجيوش، وولّوا عليها من ارتضوا من العمال، وملكوا أكثر الدنيا، فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلب عليهم بنو العباس

(١) أي لم يتخذوا مدينة ملكية.

(٢) الاحتجاج: جمع الشيء وضمه إليك. ابن منظور، لسان العرب، ١٠٨/١٣.

(٣) أي لم يلزم الخليفة الناس أن يقولوا عند مخاطبته: يا مولاي.

(٤) أي أن يقولوا: يا سيدي.

(٥) أي أن يكتبوا إلى الولاة والوزراء بقولهم: من الملك، أو من السيد إلى العبد أو المولى.

(٦) كان من عادة خلفاء الدول من بعد بني أمية، ومما يُعدُّ من الآداب السلطانية أو «البروتوكول الرسمي» -بمصطلح

هذه الأيام- أن يُقبَّل الناس يد الخليفة، وبعض الدول كان الناس يُقبَّلون الأرض بين يدي الخليفة.

بالمشرق، وانقطع بهم ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرًا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير»^(١).

١. انتشار الفتوحات

كان بنو أمية يفتحون البلاد في أربع جهات على البر، بخلاف فتح جزر البحر المتوسط، وبلغت دولة الإسلام أقصى اتساع لها -كدولة واحدة- في ظل الأمويين، وكانت ذروة الفتوحات الإسلامية على أيدي هؤلاء القادة: تم فتح المغرب والأندلس

على يد القادة: عقبة بن نافع،

وحسان بن النعمان، وموسى

بن نصير، ومن ورائها فرنسا

على يد عبد العزيز بن موسى

بن نصير، والسامع بن مالك

الخولاني، وعبد الرحمن

الغافقي، وسارت الفتوح في

الشرق في بلاد ما وراء النهر

حتى الصين بقيادة قتيبة بن

مسلم الباهلي، وفي الجنوب الشرقي حتى السند بقيادة المهلب بن أبي صفرة، ومحمد بن

القاسم، وفي الشمال وبلاد القوقاز بقيادة مسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد. هؤلاء

القادة هم الذين رَسَّخُوا الوجود الإسلامي في تلك المناطق، وكانت فتوحاتهم تميماً



(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ١٤٦/٢.

وتكميلاً لما سبقها من فتوح في عهد الراشدين، وتأسيساً لدخول هذه المناطق في الدولة الإسلامية بشكل نهائي^(١).

وفي البحر، سيطر الأسطول الأموي على شرق البحر المتوسط، واستطاع قهر الأسطول البيزنطي العتيد الذي انفرد بالسيادة على البحر المتوسط قروناً طويلة.

وقد جرت في كل تلك الفتوح أعمال من أندر وأروع ما يمكن أن يكتب في تاريخ البطولة والأبطال، وقدم الفاتحون نماذج لا مثيل لها في الجهاد والبذل والتضحية والإخلاص، وكم من مجاهد مات في هذه الأرض البعيدة لا نعرف اسمه ولا قبيلته ولا شيئاً من حياته، ترك الدنيا كلها وذهب ليموت في تلك الأصقاع لا يرجو إلا الله والدار الآخرة، ستأتي هذه البلاد في ميزان حسناته يوم القيامة!

وما استطاع أحد بعد بني أمية أن يسطر في الفتوح تاريخاً كتاريخهم، ولا حتى تاريخاً يقاربهم!

وها هو المؤرخ الدكتور حسين مؤنس ينعى على الدولة العباسية أنها لم تصنع شيئاً ذا بال في الفتوحات مقارنة بالدولة الأموية، يقول: «إن الخلافة العباسية لو تنبّهت إلى حقيقة وظيفتها كخلافة إسلامية، وهي نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الترك والمغول في الإسلام، لأدّت للإسلام والحضارة الإنسانية أجلّ الخدمات، ولغيّرت صفحات التاريخ. وهكذا تكون الخلافة العباسية قد خذلت الإسلام في الشرق والغرب. فهي في الشرق لم تتقدّم وتدخل كل الأتراك والمغول في الإسلام، كما تمكّنت الخلافة الأموية من إدخال الإيرانيين ومعظم الأتراك في الإسلام، وفتحت أبواب الهند لهذا الدين. وفي الغرب قعدت الخلافة العباسية عن فتح

(١) د. حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٣٠ وما بعدها.

القسطنطينية؛ ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصقالبة والخزر والبلغار الأتراك في الإسلام تبعًا لذلك؛ إذ لم تكن قد بقيت أمام هذه الأجناس أية ديانة سماوية أخرى يدخلونها، وهنا نُدرِك الفرق الجسيم بين الخلافة الأموية والخلافة العباسية؛ فالأولى أوسعت للإسلام مكانًا في معظم أراضي الخلافة البيزنطية، وأدخلت أجناس البربر جميعًا في الإسلام، ثم انتزعت شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) من القوط الغربيين، ثم اقتحمت على الفرنجة والبرغنديين واللومبارد بلادهم بالإسلام، وحاولت ثلاث مرّات الاستيلاء على القسطنطينية. أمّا العباسيون فلم يُضيفوا -على الرغم من طول عمر دولتهم- إلى عالم الإسلام إلّا القليل، ومعظمه في شرقي آسيا الصغرى»^(١).

وكما خفت الجهاد البري خفت -أيضًا- صوت الجهاد البحري، الذي كان يدوي من موافي الشام ومصر، وقلَّ الاهتمام بالبحر المتوسط، وتولّت الإمارات الإسلامية في المغرب والأندلس مسئولية الدفاع عن حوض البحر المتوسط، وقلّت الاشتباكات البحرية بالطابع الذي عرفه العصر الأموي^(٢).



(١) د. حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ٥١.

(٢) د. حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٦٨.

٢. وحدة الدولة

ظَلَّت الدولة الإسلامية دولة واحدة في عهد الأمويين، وهو ما لم يتوفّر لدولة من بعدهم أبداً إذ كثرت الاستقلالات الذاتية للولايات والمناطق لا سيما البعيدة، وخصوصاً في أوقات ضعف الخلافة المركزية، بعكس الحال في عهد بني أمية؛ إذ ظلت الدولة متوحّدة يملك خليفتها في دمشق أن يُعيّن الوالي أو يعزله في الأندلس غرباً أو في بلاد ما وراء النهر شرقاً، وما إن انتهت الدولة الأموية حتى كأنها على موعد مع انتهاء الدولة الإسلامية الواحدة.

فما إن بدأ عهد العباسيين حتى انفصلت الأندلس، التي قام فيها الأمير الأموي الهارب عبد الرحمن الداخل بإنشاء إمارة مستقلة، وفشلت كل المحاولات العباسية في عهدي المنصور والمهدي في استرجاعها، ثم بدأ الانفصال في المغرب يزحف شرقاً؛ حتى اعتمدت الخلافة سياسة الدول المستقلة الموالية لها في عهد الرشيد، فظهرت دولة الأغالبة في إفريقية ثم ظهرت دولة الطاهريين في خراسان والسامانيين فيما وراء النهر، وغيرهم .. حتى إذا ما انتهى عصر القوّة العباسي كانت سيادة الخليفة مجرد اسم وشكل بلا قيمة حقيقية.

٣. التعريب

انطلق الأمويون في طريق تفضيل العرب، باعتبار العربي مُقدِّماً على غير العربي، لا تعصبا له، بل تعاضداً به واستنجادا بنزعته نحو الإسلام الذي أصبح دين العرب، وكان الأمويون معتزين بإسلامهم كل الاعتزاز، يريدون أن يرفعوا رايته في كل مكان. ولتكن تلك سياسة، ولتكن ديننا، ولتكن مصلحة. أيا كان فبنو أمية يعتزون بإسلامهم، والإسلام

والعروبة عندهم قالب متحد منسجم^(١).

لقد ظلت الدواوين الإدارية تُكتب بغير العربية^(٢)، بل بلغة البلاد المفتوحة، ففي مصر كانت الدواوين تكتب باللغة القبطية حتى بعد الفتح، وفي العراق وفارس تُكتب بالفارسية وفي الشام تُكتب بالرومية (اليونانية) وهكذا؛ حتى أمر عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك بتحويل الدواوين إلى اللغة العربية^(٣).

وكان لهذا القرار تأثير واسع في انتشار وثبات اللغة العربية في البلاد المفتوحة، وساهم في إقبال غير العرب على تعلّمها واستيعابها، وهو ما أدّى إلى النهضة باللغة العربية، وجعلها لغة العلوم والحضارة فيما بعد^(٤)، ويكفي أن نعلم أن البلاد التي ثبتت فيها اللغة العربية لم يخرج منها الإسلام أبداً إلا في حالة واحدة وهي «الأندلس»، وحسبك بهذا وحده حسنة من حسنات الدولة الأموية.

كما كان لهذا القرار أثر عميق على توحيد الدولة توحيداً حقيقياً وراسخاً؛ وليس مجرّد انصواء تحت سلطة سياسية واحدة، ولا حتى توحيدها مالياً وإدارياً فحسب.. إن مثل هذا القرار مكّن الأجيال التالية عبر القرون أن تنتقل من الأندلس غرباً إلى أقصى الشرق تطلب العلم أو تطلب الرزق، دون أن تعترضها حواجز اللغة، وحين تتكلّم هذه الأقطار الواسعة لغة واحدة تُفكّر بها فتقول وتخطب وتكتب وتؤلّف بها؛ فلا بُدَّ أن نتوقّع ثراءً غير محدود، وإسهامات غنية من الشرق والغرب والشمال والجنوب وما بينها، وبهذه الإضافات كانت الحضارة الإسلامية أكثر الحضارات ثراءً وخصوبة.

(١) يوسف العش، الدولة الأموية، ص ٣٤٢، ٣٤٦؛ إيرا م. لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ١٢٨، ١٢٩.

(٢) بخلاف ديوان العساكر أو الجند الذي كان يُكتب باللغة العربية منذ تأسيسه في عهد عمر بن الخطاب.

(٣) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١/ ١٨٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٤٤.

(٤) إضافة إلى ما في الإسلام نفسه من حثٍّ على تعلّم العربية لضرورات العبادة والتفقه في الدين.

ولئن كنا نتذكر فضل الخليفة العباسي المأمون على الحضارة الإسلامية؛ كأوسع خليفة تَمَّت في عهده حركة ترجمة العلوم إلى العربية، فلا بُدَّ أن نتذكر قبله بالفضل عبد الملك بن مروان؛ الذي أسس لسيادة اللغة العربية نفسها؛ فمن ثَمَّ نشأت الحاجة إلى ترجمة العلوم إليها، فلم يضطر المسلمون إلى الخروج من ذواتهم وهويتهم حين أنشأوا الحضارة؛ بل احتفظوا بأصالتهم، فاستوعبوا حضارات مَنْ قبلهم، ثم أضافوا إليها فأبدعوا.

٤. تدوين الحديث الشريف

وهذا ما انتبه له عمر بن عبد العزيز (رحمه الله)؛ حيث بدأ جيل الصحابة في الانقراض، وتفرَّق تلاميذهم في البلاد المفتوحة لتعليم الناس، فحُشِيَ على السُّنَّة من الضياع، أو من أن يدخلها تحريف أو تأويل، فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى البلاد والأمصار أن «انظروا حديث رسول الله فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله، ولا تقبلوا إلَّا حديث النبي، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا». وكَلَّف الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري بمتابعة هذه العملية والإشراف عليها، واهتمَّ تحديدًا بجمع الحديث في المدينة المنورة معقل الحديث الشريف؛ حيث أرسل إلى واليها الفقيه الكبير أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم يأمره بهذا، ثم جمع الزهري ما دُوِّن من السُّنَّة في كتب، وأخذ عمر في نسخ هذه الكتب وإرسالها إلى «كل أرض له عليها سلطان»^(١).

وعن هذه النسخ رُوِيَت السُّنَّة منضبطة مدقَّقة، وسارت بين الفقهاء والرواة والعلماء، فكان هذا عملاً في المرتبة الثانية بعد جمع القرآن الكريم موضوعاً في ميزان عمر بن عبد

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ٢ / ٣٣١.

العزیز وفي میزان دولة بني أمية.

٥. النهضة والإعمار

على الرغم من أن الحضارة الإسلامية بلغت زهرتها وأوجها في عهد العباسيين؛ فإن تقييم المعاصرين أن الأمويين كانوا أنفع للناس وللأمة من العباسيين، وقد سأل هارون الرشيد واحداً من أبرز علماء عصره وهو أبو بكر بن عياش: مَنْ خير الخلفاء نحن أو بنو أمية؟ فقال: هم كانوا أنفع للناس، وأنتم أقوم للصلاة^(١).

وقال ابن تيمية: «وكان خلفاء بني العباس أحسن تعاهداً للصلوات في أوقاتها من بني أمية؛ فإن أولئك كانوا كثيرى الإضاعة لمواقيت الصلاة»^(٢).

والمفهوم من هذا أن العلماء -حتى في عهد العباسيين- فضّلوا الأمويين على العباسيين، فالأفضلية في التدبُّن الشخصي والحرص على إقامة الصلاة أمر يُحمد به الإنسان لذاته، ولا يُحمد به وقت كونه حاكماً على الناس.

والواقع أن العباسيين في أيامهم الأولى بصورة عامة كانوا أكثر تدبُّناً من الأمويين، وأكثر تمسُّكاً بالإسلام، ولكنهم أقلّ خدمة للأمة، وليس معنى هذا أن الأمويين كانوا جملة مهملين أمور دينهم، وأن العباسيين كانوا تاركين أمور رعيّتهم، وإنما القضايا نسبية، فقد كان الأمويون أهل فضل ودين وإن وقعت في أيام بعضهم حوادث كان يجب ألا تقع^(٣).

وقد أنشأ الأمويون عدداً من المدن في شرق العالم الإسلامي وغربه، منها: الرملة (في

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٣٣٢/٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/٥١.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٤/٢٠.

(٣) محمود شاكر، موسوعة التاريخ الإسلامي، ٥/٨١، ٨٢.

الشام)، والمنصورة (في السند) وواسط (في العراق) وحلوان (في مصر) والقيروان وتونس. وهذا بخلاف ما أنشؤوه من العماثر كالمساجد الكبيرة والقصور، وما حفروه من الأنهار والقنوات والآبار، وما أقاموه من السدود والخزانات، وما مهّده من الطرق. ولا تزال بعض آثار هذه المنشآت قائمة حتى الآن، ومعظمها -بطبيعة الحال- في منطقة الشام التي كانت فيها عاصمة الدولة الأموية. ونَظَّمُوا البريد ورتبوا له المراحل والخيول والفنادق، وبالجمل فلو «لو عرف الناس الأوج الذي بلغه بنو أمية في الحضارة لعدوه معجزة»^(١).



(١) يوسف العش، الدولة الأموية، ص ٣٤٩.

مظالم بني أمية وأسباب سقوطهم

وعلى الرغم من هذه الإنجازات التاريخية للأمويين؛ فإن عوامل أخرى وسلبات مؤثرة ظلت تعمل في جسد الدولة حتى أنهكتها وأودت بها؛ من أهم هذه السلبات:

١. العصبية القبلية

نستطيع أن نقول: إن العصبية القبلية لم تختف من الحالة العربية، وإنما كان التعامل الإسلامي معها يحيلها إلى أن تكون عنصراً فاعلاً في خدمة الحق، وألا تكون العصبية مُقدّمة على العدل، ثم بدأت تعود القبلية بصورتها الجاهلية في أواخر عصر عثمان، ثم تجلّت وبرزت في عصر علي في أحداث الفتنة الكبرى، وكانت عصبية الشام أقوى وأكثر تماسكاً وفاعلية من عصبية العراق، ثم من عصبية الحجاز أيام عبد الله بن الزبير، ومن ثمّ كان الأساس القوي للدولة الأموية هو عصبية الشام.

لكلّ هذا كانت القاعدة الصلبة للدولة الأموية هي القبائل العربية، وكان طبيعياً في هذه الفترة المبكرة في التاريخ الإسلامي أن يكون الاستعانة بغير العرب من البلاد المفتوحة ضعيفاً جداً ومقصوراً على الأعمال الإدارية الفنية فحسب، بينما رجال الدولة وعصبها هم العرب.

وقد أثبتت الأيام أن عصبة الشام كانت أثبت من عصبة العراق ثم من عصبة الحجاز؛ فكان التفاف الدولة حول العرب في الشام كالتفاف العرب في الشام حول الدولة، كلا الطرفين وجد نفسه محتاجاً إلى الآخر متقوياً به مكتفياً به عن غيره، لا يُفكر في أن يستبدل به من أحد، بل لا يجد الداعي أصلاً لأن يُفكر في قاعدة للدولة غير قاعدة العرب.

لكل هذا، وفي بيئة هذا الوضع، يمكن فهم أن العلاقة مع الموالي جاءت في درجة أقل من العلاقة مع العرب، وهم قوم يحفظون أنسابهم ويتيهون بها ويرونها شرفاً، فتقديم الموالي عليهم كان مدعاة لاشتعال الحزازات وتغير القلوب، وتوتر الخريطة السياسية والاجتماعية المستقرّة.

ولقد حفظت هذه العصبية كيان الدولة الأموية فترة، وكان يمكن أن تطيل فترة بني أمية لو أن الخلفاء الأواخر ساروا على نهج الخلفاء الأوائل في موازنة العلاقات بين القبائل المكوّنة للطيف العربي في الشام.

إلا أن الوليد بن يزيد لم يكن حصيفاً ولا حكيماً؛ فأقدم على الإساءة لشيخ القبائل اليمانية خالد بن عبد الله القسري فأسلمه إلى عدوّه يوسف بن عمر بن هبيرة؛ الذي عذبه حتى قتله، وكانت القبائل اليمانية هم أغلب جند الشام، وانحاز الوليد إلى القبائل القيسية؛ فانقسمت الشام إلى قيس ويمن، ولما كان الوليد قد أساء إلى أبناء عمومته؛ فإن هؤلاء وجدوا قبائل اليمانية مهيأة لتثور معهم عليه، فنزعوا منه الخلافة وأسلموها إلى يزيد بن الوليد، وهنا جاء دور القبائل القيسية التي ساندت مروان بن محمد حتى وصل إلى الخلافة فعلاً^(١).

وبهذا انتهى التوحد الذي مثلته الخلافة الأموية بميلها وتحيزها إلى جانب قبلي يُعيد

(١) علي الصلابي، الدولة الأموية، ٢/ ٦٢٠.

إنتاج تحيُّز آخر، هذا إلى أن العباسيين قد وجدوا أمامهم قبائل جريحة هي القبائل اليمانية، ولم يُفلتوا هذه الفرصة الثمينة؛ ومن ثَمَّ انهارت الأمور من بين يدي مروان بن محمد.

وكان أخطر تمثُّل للقبلية في معركة الزاب؛ التي كانت الضربة القاصمة للبيت الأموي، وسيأتي معنا كيف كان هذا التحزُّب هو السبب الرئيسي في هزيمة الأمويين تلك الهزيمة القاسية.

٢. الموالي في الدولة الأموية

قضية الموالي تابعة لقضية العصية العربية؛ فلئن كانت ثمة عصبيات قائمة بين القبائل العربية، فلا بُدَّ أن تُلقَى بتأثيراتها على طوائف المجتمع من غير العرب.

لقد دخل في الإسلام طوفان كبير من غير العرب مع الفتوحات الشاسعة، التي امتدَّت إليها الجيوش الإسلامية في عصر الدولة الأموية، فضُمَّت الأمة الإسلامية عددًا متزايدًا من الموالي؛ ومما لا شكَّ فيه أن عددًا من الموالي وصل إلى مناصب عُليا في الدولة؛ مثل الولاية وقيادة الجيوش والكتابة للخلفاء؛ فقد كان سرجون بن منصور الرومي كاتبًا لمعاوية على ديوان الخراج، وكان مرداس كاتب زياد ابن أبيه، وكان زاذان فروخ كاتبًا على الخراج، وذلك في أيام معاوية بن يزيد بن معاوية، وكان أبو الزعيزة مولى عبد الملك بن مروان كاتبًا على ديوان الرسائل، وكان شعيب الصابي مولى الوليد بن عبد الملك على ديوان الخاتم، وكان يفيح بن ذؤيب مولاه -أيضًا- كاتبًا على المستغلات بدمشق، كما كان طارق بن زياد -من البربر- قائدًا على جيش فتح الأندلس، وكان موسى بن نصير واليًا للشمال الإفريقي، وقبله تولَّى أبو المهاجر دينار مولى الأنصار إفريقية

أيضاً، وتولاها -أيضاً- يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، ولما قُتل تولاها محمد بن يزيد مولى الأنصار^(١).

إلا أن هذه الأسماء تُعدُّ استثناء من بين العدد الرهيب من الموالي الذي تدفق على الأئمة الإسلامية؛ لكنه يُثبت أن الدولة الأموية لم تكن تنظر للموالي نظرة عنصرية بإطلاق، وإنما كانت تستعمل منهم مَنْ تضمن فيه الولاء والكفاءة.

غير أن هذه النظرة المتعالية سادت في الأوساط القبلية، وحالت دون أن يأخذ الموالي موقعهم الذي يستحقونه من أعمال الدولة، فهذا سعيد بن جبير أحد أبرز أئمة المسلمين في العلم والفقه لم يرَضْ به أهل الكوفة قاضياً؛ وقالوا: «لا يصلح القضاء إلا لعربي»^(٢). على جلالته في العلم والفضل، وعلى الرغم من أنهم وأبناءهم يجلسون إليه يأخذون عنه العلم، ثم هم الذين ما أنكروا على الحجاج قتل أحد كما أنكروا عليه قتل سعيد بن جبير.

ومن ثَمَّ كان نصيب الموالي -في الأغلب- المهن اليدوية كالزراعة والصناعة؛ بينما كان العرب يعملون في الحرب والسياسة، مما زاد في التعالي عليهم وازدراؤهم^(٣)؛ حتى لقد ورد عن المختار بن أبي عبيد الثقفي في وصيته لقائده أن الموالي لا يصلحون للحرب، وعليه فيجب أن يجعلهم المشاة في مقدمة الجيش، وأن يجعل العرب هم الفوارس من خلفهم؛ حتى لا يهرب الموالي إن لم يثبتوا^(٤).

وكان الموالي يُحرَمون من الفيء؛ حتى إن أهل الكوفة شَقَّ عليهم أن جعل المختار بن أبي عبيد الثقفي للموالي نصيباً في الفيء، وقالوا: «لقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب

(١) علي الصلابي، الدولة الأموية، ٦١٥/٢.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٦٧/٦.

(٣) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، ص ١٠.

(٤) المبرد، الكامل في الأدب والتاريخ، ٤٧/٢.

وأعطاهم وأطعمهم فيئنا»^(١).

ومما ورد في شأن المعاملة المهيئة التي كان يلقاها الموالى أن العرب «كانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى. وكانوا لا يكتنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يقدّمونهم في الموكب، وإن حضروا طعامًا قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسنّه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان؛ لئلا يخفي على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلّون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريبًا. وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها، وإنما يخطبها إلى مواليتها، فإن رضي زوج وإلا ردّ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأي مواليه ففسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها، وكان سفاحًا غير نكاح»^(٢).

ولا نستطيع أن نقول: إن هذا كان سياسة عامة من الدولة الأموية تجاه الموالى، ولا حتى السياسة العامة لكل العرب تجاه الموالى. لا سيما في الأوساط العلمية والدينية؛ فإن العلم رفع أهله من الموالى فوق كل اعتبار، وكان العلماء من الموالى يحظون بالإجلال والتعظيم والتقدير. غير أن الخلاصة أن هذا الوضع جعل كتلة كبيرة من البشر في حالة من السخط والغضب، ومن ثمّ فهي مرشحة لأن تكون قوّة بشرية مهمّة في ثورة ضدّ هذه الأوضاع.

كما لا يفوتنا أن ننبّه إلى أن الموالى لم يكونوا كتلة واحدة، ولا ذوي اتجاه واحد؛ فلقد

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٣/ ٤٥٤.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/ ٣٦١، وقد أفرد ابن عبد ربه في موسوعته الأدبية «العقد الفريد» بابًا بعنوان «باب المتعصبين للعرب»، وأورد فيه بعض الروايات، ومنها - كما هي العادة في كتب الأدب - ما لا شك في كذبه، ومنها ما هو واضح المبالغة والتناقض، ومنها ما هو صحيح ومقبول ومتناسق مع ما ثبت من الروايات، وهي بمجموعها تدلّ على وجود وانتشار هذه النظرة للموالى.

كان من الموالي مَنْ حارب في معسكر الدولة الأموية تبعًا لولائه، وستثبت في سياق هذه الدراسة أن الثورة العباسية لم تكن ثورة الموالي، وإنما كانت ثورة عربية استفادت من الموالي.

ولهذا يجب الانتباه عند الحديث عن الموالي إلى «اختلاط الروايات التاريخية في مطلع القرن الثاني للهجرة؛ بسبب ظهور الفرق الدينية ونشوب الفتن الكبرى، وبقدر ما يتعلّق الأمر بحالة الموالي والفرس يجدر الانتباه إلى مبالغات الشعبية ومغالطاتها؛ هذا على الرغم من أننا لا نُنكر وقوع حالات من الضغط الاقتصادي والتفاوت الاجتماعي؛ فإنها لم تكن لتدُل على الوضع العام؛ ذلك أن العرب استخدموا الموالي في إدارة الأعمال والدواوين وفي الأعمال المالية أيضًا، وبرز منهم ولاة وقادة وقضاة، وطبيعي ألا يكون كثير من الموالي في جيش قوامه من العرب المقاتلة، وأمّا من الناحية الاجتماعية فلقد ظهر الكثير من الموالي أصحاب الكنى؛ كأبي سلمة الخلال، وأبي مسلم الخراساني، وأبي هاشم بكير بن ماهان، ولعلّ عناية العرب بأنسابها في مجتمع قبلي حدّ من تزاوجهم بالأجانب، وليس في هذا ما يُوجب السخط والتذمّر ويؤدّي إلى ثورة عارمة. كما أن ثقل الضرائب شمل كل الناس من العرب والموالي والعجم وغير المسلمين، ولقد مرّ النظام المالي بين مدّ وجزر خلال الحقبة الأموية، فلم يكن كله مظالم وأثقال. ثم إن كثيرًا من المدن الإيرانية لم تشترك في الثورة، وبعضها انحاز إلى نصر بن سيار الوالي الأموي؛ إضافة إلى ذلك فإن خراسان ظلّت -حتى بعد نجاح الثورة العباسية- من أخطر البقاع القلاقل ذاتها؛ مما يُؤيّد أن الأمر لم يكن اقتصاديًا واجتماعيًا»^(١).

٣. عيوب نظام ولاية العهد

(١) فاروق عمر، الثورة العباسية، ص ٤٩، ٥٠، ١٤٨.

كان نظام التوريث هو النظام الأمثل الضامن لاستمرار المملكة في تاريخ البشرية قبل استحداث النظم الديمقراطية، وكان الحكم يؤول دائماً إلى العائلة الأقوى؛ لأنها الوحيدة التي تضمن القدر الأكبر من الاستقرار وانتظام الحياة، وظلّت هذه هي عادة البشرية - عدا استثناءات محدودة - حتى جاء التطور الإنساني بالنظام الديمقراطي الذي يفصل بين القوة وبين شخص الحاكم، فتحمي قوة الدولة شخص المرشح؛ مهما كانت درجته في قوة العصبية.

وعلى رغم مما كان يُؤدّيهِ نظام توريث الملك من استقرار في المملكة، وتجنب لحروب ودماء لدى كل انتقال في السلطة، فإن الزمن كان يأخذه إلى مَنْ ليس أهلاً للحكم^(١)، فتدخل الدولة في مراحل الضعف حتى تنهار.

ونحن نميل إلى أن نظام ولاية العهد، كان هو النظام الأمثل الذي اضطر إليه معاوية - رضي الله عنه - في الظروف القائمة حينذاك^(٢)، إلا أنه ومع دخول الدولة في مراحل الضعف ساهم هذا النظام في حدوث الانشقاقات في البيت الأموي، وفي أن يصير الحكم إلى غير أهله، وبدت هذه المعضلة أوضح ما تكون حين حاول هشام بن عبد الملك صرف ولاية العهد عن ابن أخيه الوليد بن يزيد؛ الذي لم يكن أهلاً للحكم، فلما لم يمكنه ذلك لكثير من الظروف، تولى الوليد الخلافة وهو حائق على هشام وأهل بيته، وعلى مَنْ وافقه على خلعه من ولاية العهد؛ ومن ثمّ ساهمت مظالم الوليد في ثورة عليه قادها ابن عمه يزيد بن الوليد، فأدّت هذه بدورها إلى تبرّم أنصار الوليد، ثم إلى خروج آخر قاده مروان بن محمد الذي لم يستقرّ في الحكم يوماً إلّا وهو يُجالد انشقاقات في البيت الأموي وثورات خارجه.

(١) يوسف العش، الدولة الأموية، ص ١٦٤.

(٢) راجع ما ذكرناه في الفصل الخامس: مقدمة في تاريخ الدول الإسلامية.

إن خرق نظام الولاية وتحوله إلى التغلب والقوة هو من بؤادر الانهيار، حين يرى من يظن بنفسه القوة والقدرة أنه أولى بها، فيجالد عليها ويقا تل يكون بيت الحكم قد انه د ركنه وضعفت قواعده. وحيث لا يمكن حتى لهذا القوي أن يتمكن من الأمر كما كان، وهذا مروان بن محمد -وهو من شجعان بني أمية وفرسانهم- لا يستطيع أن يستعيد وحدة البيت الأموي، ولا ريب في أنه لو لم تكن أمامه هذه الانشقاقات الأموية وانتشار كلماتهم، لكان أداؤه أفضل في مواجهة العباسيين؛ الذين كانوا بدورهم لن يخاطروا بالظهور العلني مع استقرار البيت الأموي، نستطيع أن نقول بما يؤجل انهيار الأمويين لعشر سنوات على الأقل.

إن العصبية العربية التي صبغت الدولة الأموية، تبعها شيء مهم وهو أن التقاليد العربية لا تعترف بنظام الوراثة المطلقة؛ بل تذهب إلى إعطاء السلطة لأصلح الموجودين من العائلة الحاكمة، ومن هنا كانت المشكلة تتفاقم مع كل تولية عهد إلى شخصية يوجد من هو خير منها، فكان تاريخ الأمويين فترة نزاع صامت بين مبدأ الوراثة المطلقة، وبين المبدأ القبلي الذي انتصر أخيراً على يد مروان بن محمد، كما انتصر أولاً على يد مروان بن الحكم^(١).

٤. الثورات ضد الأمويين

منذ بدأت الدولة الأموية حتى انتهت وهي تواجه الثورات، وقد تنوعت الثورات وتعددت وكثرت حتى أرهقت الدولة أيما إرهاق، ونستطيع أن نقسم هذه الثورات إلى خمسة أقسام رئيسية:

١ - ثورات لأفراد من آل البيت يرون أنفسهم أحق بالأمر من بني أمية، ويعترضون

(١) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص ٨.

على تحوّل الملك إلى مُلك وراثي، وعلى ما صنعه بنو أمية من انحراف عن الحق، وما ارتكبوه وولاتهم من المظالم في البلاد، وما إلى ذلك من أسباب. من هذه الثورات: ثورة الحسين بن علي (رضي الله عنهما) على يزيد بن معاوية، وحفيده زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك.

٢- ثورات علماء ودعاة وشخصيات من غير آل البيت لكنها كانت للأسباب نفسها؛ ومنها ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وسعيد بن جبير على الحجاج بن يوسف الثقفي، وإلى حد ما^(١) يمكن أن نُدرج فيها ثورة عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب بن الزبير.

٣- ثورات الخوارج^(٢) التي استمرّت منذ قيام الدولة الأموية حتى نهايتها، ولا تكاد الدولة تُخمد واحدة حتى تنشأ أخرى، وهذه الثورات التي شملت كل أطراف الدولة في شرقها وفي قلبها وفي حجازها ويمنها، بل حتى في المغرب والأندلس كان الخوارج أصحاب ثورات دائمة لا تفتّر، وهذا القسم هو الأكثر والأعنف والأقوى بين كل

(١) قلنا: «إلى حد ما». لأن كثيراً من المؤرخين يتبنون رأياً وله وجاهته، وهو أن خلافة عبد الله بن الزبير كانت هي الخلافة الشرعية بعد أن بايعت له الأمصار؛ فيما كان مروان بن الحكم هو الخارج عليه، ثم عبد الملك بن مروان حتى استطاع التغلب ودانت له البلاد.

(٢) كان الخوارج قوم قتال وأهل بأس شديد، وقد وصفهم حميد بن عبد الحميد الطوسي -أحد القادة العسكريين الكبار في الدولة العباسية في القتال - على هذا النحو: يضربون الضربة الأولى بأسرع وأقوى شدة فيبلغون بها ما أرادوا، ويصبرون على طول المسير والانتقال والرحلة؛ حتى ليقطعون المسافات الكبار في زمن لا يتوقعه عدوهم الذي يجد نفسه أمامهم فجأة، ولا يدركهم أحد إن قرروا الانسحاب أو عدم المواجهة من سرعة حركتهم، ثم إن زهدهم وقلة أموالهم وعدم تعلقهم بالحياة يجعلهم أشجع في القتال لا يتعلقون بدنيا، وأشد على العدو الذي لا يجد معهم ما يغنمهم ولو هزمهم. وفي اجتماع الخليفة العباسي المأمون مع قادته العسكريين سألهم: أن يلقي بهم مائة تركي أو مائة خارجي؟ (والأترك هم سكان وسط آسيا في بلاد ما وراء النهر، وهم أبطال المعارك وسيكون منهم جند الخلافة العباسية فيما بعد)، فقال معظم القادة: لأن نلقى مائة تركي أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي. انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٤٠ / ١ وما بعدها. فهذا النصّ يشير إلى مدى قوة الخوارج وإخلاصهم في القتال!

الثورات.

٤- ثورات شخصيات أخرى يغلب على الظن أن تكون من أجل الملك والمصلحة، وإن تسترت بغطاء فكري وشعارات دينية وميول شيعية؛ منها ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في فارس، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة في البصرة.

٥- ثورات من أصحاب البلاد المفتوحة يُريدون استرجاع ملكهم وسلطانهم، كما في بلاد ما وراء النهر في أقصى الشرق وفي الأندلس في أقصى الغرب.

وهذا بخلاف العديد من التمردات الأخرى الصغيرة والمحلية في أطراف الدولة البعيدة، والتي قُضي عليها بغير كثير عناء.

وعلى الرغم من أن الدولة استطاعت القضاء على هذه الثورات جميعًا، فإن الثمن كان غاليًا جدًا من أموال الدولة ورجالها، ومن توقّف الفتوحات غير مرّة، ونتوقع أن لو كانت الثورات أقلّ من هذا لكان بنو أمية قد استطاعوا فتح الدنيا في وقتهم، فهم -مع كل هذه الثورات- ملكوا نصف العالم تقريبًا، وجمعوه في دولة واحدة.

لقد كانت هذه الثورات أحد أهم أسباب ضعف الدولة الأموية، لا سيما في آخر عهدها، ثم كانت سياسة الأمويين في التعامل معها -أيضًا- مما يزيد في إثارتها، لا سيما ما كان من ثورات آل البيت، وهم الذين تجب محبتهم على المسلمين جميعًا!

ومن سياستهم لعن علي بن أبي طالب وابنيه؛ ذكر ابن حزم في سياق حديثه عن العباسيين أنهم كانوا «بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولعن بنو الطاهرين من بني الزهراء؛ وكلهم كان على هذا حاشا عُمر بن

عبد العزيز ويزيد بن الوليد رحمهما الله تعالى؛ فإنهما لم يستجيزا ذلك»^(١).

٥. أحوال خراسان

كان لا بُدَّ للمحلّلين والمؤرّخين الالتفات إلى الأحوال في خراسان تحديداً، المكان الذي ترعرعت فيه الدعوة العباسية، ومنه خرجت جيوشها.

فُتحت خراسان في عهد عثمان بن عفان -رضي الله عنه-، لكنها ظلّت مضطربة لا سيما بعد ضعف الخلافة في زمن علي -رضي الله عنه-، ثم بدأت الأحوال تستقرُّ بعد استقرار الخلافة لمعاوية -رضي الله عنه-، وكان والي خراسان في العموم تابعاً لوالي العراق وهو الذي يُعيّنه، فمن هنا كانت أغلب القبائل العربية التي ذهبت إلى خراسان بدافع الجهاد، أو بدافع السكنى من مناطق العراق كالبصرة والكوفة، وكان طبيعياً أن تحمل القبائل معها عاداتها وتقاليدها، ولكن بمرور الزمن تكونت تكتلات وتحالفات جديدة بين القبائل؛ حتى إن الفخذ الصغير لينضم إلى عشيرة أخرى غير عشيرته، أو إلى تحالف آخر من جرّاء المصالح التي تجددت وتغيرت في الأرض الجديدة.

على المستوى السياسي أخطأت السياسة الأموية حين اعتمدت إبقاء المقاتلين على الثغور في فصل الشتاء بعد جهادهم في الصيف، في الوقت الذي يُريد فيه هؤلاء المقاتلة العودة لأهلهم وديارهم في مرو، وإضافة إلى هذا فإن والي الأموي كان يسلب هؤلاء المقاتلة أحياناً فيئهم وغنيمتهم ويأخذ أكثر من الخمس، وقد يأخذ بعض الغنائم النفيسة فيُرسلها إلى دمشق، ما أثار تذمُّراً واسعاً في صفوف المقاتلين، ولا شك أن أخطر ما تتعرّض له دولة أن يتذمّر جنودها وهم أصحاب القوّة فيها، وكانت هذه الاضطرابات وغيرها مما يدفع الدولة أحياناً إلى جعل خراسان ولاية مستقلة، ويكون واليها تابعاً

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ٢/١٤٦.

للخلافة مباشرة، وهكذا كان نصر بن سيار -آخر ولاة الأمويين- مُعيَّناً من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك، وعلى الجانب الآخر فإن الخلاف بين الوالي الأموي دفع العرب إلى البحث عن أماكن أخرى غير مرو -عاصمة خراسان- للاستقرار فيها ولو مؤقتاً؛ مثل: مرو الروز، هراة، نيسابور^(١).

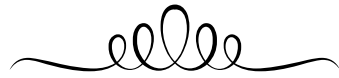
وعلى المستوى الاجتماعي كان العرب الذين استقروا في خراسان ممن اجتمع عليهم الشَّرَّان؛ إذ لم يكونوا من الطبقة الحاكمة كما كان العرب في الشام والعراق، كما أنهم لم يسلموا من الرضوخ للدهاقين (جامعي الضرائب) الفرس، الذين كانوا أصحاب اليد العليا في خراسان، فهم حين استوطنوا البلاد واشتغلوا بالزراعة حُذِفوا من ديوان الجند ولم يكن لهم عطاء؛ ففقدوا ما يتمتع به المقاتلون من امتيازات، هؤلاء العرب كانوا -فيما بعد- من المجموعات التي سعى إليهم الدعاة العباسيون لضمهم إليهم، وإثارة الحساسيات بينهم وبين العرب المقاتلة، كما داعبوا خيال الزعماء القبليين؛ مثل: ابن جديع الكرمانى، وشيبان الصغير، وشريك بن شيخ المهري .. وغيرهم^(٢).



(١) فاروق عمر، الثورة العباسية، ص ٢٤، ٥١ وما بعدها.

(٢) فاروق عمر، الثورة العباسية، ص ١٩، ٥٧ وما بعدها، وهو يُوجز ويلخص رسالة الدكتور عبد الحي شعبان:

الجدور السياسية والاجتماعية للثورة العباسية في خراسان؛ يوسف العش، الدولة الأموية، ص ١٥٤، ٢٩١.



الفصل السابع: الدولة العباسية - عصر القوة



تعد الخلافة العباسية هي العصر الثالث الكبير في أحقاب التاريخ الإسلامي، فهي الخلافة الثانية بعد الخلافة الأموية، وقبل الخلافة العثمانية، ومع أنها امتدت رسمياً نحو ثمانية قرون إلا أن عصر قوتها الحقيقي هو قرنٌ واحدٌ فحسب (١١٥ سنة على وجه الدقة)، وهو الذي يسميه المؤرخون «العصر العباسي الأول»، وقد حكم فيه عشرة خلفاء، وذلك هو العصر الحافل بالأسماء المشهورة كأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم بالله، بينما تلا ذلك عصرٌ غاب فيه نفوذ الخلفاء، وتسلمت عليهم نخب عسكرية أخرى.

تأسس هذا العصر العباسي الأول في أعقاب ثورة ناجحة، تعد نموذجاً في التخطيط والتنفيذ، انتهت إلى قلب الدولة الأموية ونصب الخليفة العباسي في الكوفة، لتبدأ رحلة تأسيس الدولة وإقرارها، ثم نقلها إلى الاستقرار والازدهار.

وفي هذا الفصل نقدم تاريخاً موجزاً لهذه الحقبة، معتمدين في ذلك نفس النهج الذي نسير عليه في هذه «الخلاصة»، «خلاصة تاريخ الإسلام»، ويتلخص هذا النهج في أننا نسعى لتقديم صورة تاريخية موجزة ومفهومة للعاملين للإسلام في زماننا المعاصر، مع التركيز على أهم الأمور التي نُقدّر أننا نحتاجها في بناء تصوراتنا الفكرية وخطواتنا العملية.



موجز تاريخ الدولة العباسية في عصر القوة

يمتد نسب العباسيين إلى العباس، عم النبي ﷺ، فمؤسس الدعوة العباسية هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ومحمد هذا هو والد الخلفاء العباسيين، وهو الذي تبدأ منه قصة الثورة العباسية.

الثورة العباسية

تعددت الثورات التي أشعلها العلويون، أبناء وأحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بداية من ثورة الحسين بن علي، وهي الثورات التي استمرت طوال العصر الأموي وأرهقت الدولة الأموية، ولكن سائر هذه الثورات باء بالإخفاق، غير أن نتيجتين مهمتين ترتبتا على هذه الثورات:

١. ترسخ واشتداد فكرة الظلم الأموي، فكل ثورة تُخمد تضيف قصصاً جديدة لسجل المظالم الأموي، وهو الأمر الذي لا يمكن تبرئة الأمويين منه، كما لا يمكن تحميلهم المسؤولية الكاملة عنه، فما من ثائر إلا وهو ينوي البطش بالنظام القائم، وما من نظام قائم إلا ويندفع بالغريزة لضرب التمرد عليه.

٢. ترسخ واشتداد فكرة أن الخلاص من هذا الظلم هو أن يتولى أمر المسلمين رجلٌ من آل البيت النبوي، فإنهم أشرف البيوت وألصقها بالنبي ﷺ، ومن ثمَّ فهم أحق الناس بذلك، ومَهَّدت الأحداث الدامية المتكررة بيئة خصبة لرواية أحاديث المهدي الذي يكون

من آل بيت النبي، والذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً. وأحاديث المهدي وإن كانت صحيحة بل بلغت حدَّ التواتر المعنوي، إلا أنه لا يمكن الجزم بزمان المهدي ولا بشخصه.

وبينما أخفق العلويون في سائر محاولاتهم الثورية، فإن الذي استطاع الظفر بهذه الثمار كلها هم الفرع الآخر من البيت النبوي، فرع العباسيين. فمع أن العباسيين لم يحاولوا تنفيذ ثورة ضد الأمويين، إلا أنهم أحسنوا التخطيط والتدبير لثورتهم الوحيدة، التي وجدت من الظروف والرجال ما جعلها الثورة الأولى الناجحة، والتي استطاعت إزالة الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية.

أرجح الروايات تفيد أن الثورة العباسية كان أصلها علويًا، فمن العلويين من رأى أن الإمامة ينبغي أن تنتقل بعد الحسين إلى أخيه من أبيه: محمد بن علي بن أبي طالب، المعروف باسم محمد بن الحنفية لأن أمه كانت من بني حنيفة، وهؤلاء انتهت الزعامة فيهم إلى ابنه أبي هاشم، وأبو هاشم حين أشرف على الموت ولم يكن له ولد، سلّم الإمامة إلى محمد بن علي العباسي. والغالب على الظن أن محمدًا هذا كان له أيضًا تنظيم ودعوة، ازدادت قوة بمن انضاف إليها من العلويين، وتدل سيرة محمد الذي هو مؤسس الدعوة العباسية على شخصية قوية بصيرة قيادية من الطراز الأول. فقد استطاع من مكان إقامته في الحميمة القريبة من دمشق عاصمة الدولة الأموية أن يدير تنظيمًا رأسه في الكوفة بالعراق، وجسده الكبير في خراسان في أقصى المشرق! وتدل المعلومات المتوفرة حول هذا التنظيم على حركية متميزة وحسن تخطيط واختيار وتصرفٍ ومقاومةٍ لمحاولات الاختراق الأموي أو لمحاولات الانحراف الداخلية. كذلك فإن محمد بن علي منع أتباعه من المشاركة في ثورة زيد بن علي، وقد توقع لها الإخفاق، فكأنه الرجل الوحيد الذي استطاع جني ثمار ما زرعه العلويون بحسن تأنيه وتخطيطه وتنظيمه وطول صبره! وكان من أهم ما أسسه محمد بن علي هو كتمان اسم الإمام، وإطلاق هذا الشعار الغامض

«الرضا من آل محمد»، وهذا الكتمان حقق غرضين كبيرين؛ أولهما: حماية الإمام أطول فترة ممكنة، وثانيهما: الاستفادة من العلويين ومحبيهم، إذ لم يخطر ببال أن يكون الإمام عباسيا لا علويا، فالعباسيون لا تُعرف لهم ثورة، بينما نار العلويين لم تهدأ.

مات محمد بن علي (١٢٥هـ) والتنظيم قد استتبت أموره، وتولى الإمامة بعده ابنه إبراهيم بن محمد، فتابع عمله، وفي هذا الوقت أتيح لهم العثور على شابٍ خطير متعدد المواهب متقد الذكاء متدفق الطاقة، هو أبو مسلم الخراساني، ومع صغر سن هذا الفتى إلا أنه صعد في مراتب التنظيم بسرعة فائقة حتى تولّى قيادة التنظيم في خراسان فوق أشياخه ومؤسسيه، واستطاع الفتى أن يضبط أمر التنظيم والدعوة وأن يستفيد من الخلافات القائمة بين القبائل بعضها وبعض، وبينها وبين والي الأموي نصر بن سيار، حتى جمع منهم جيشا واستطاع به أن يستولي على مرو، عاصمة خراسان، وأن يطرد منها والي الأموي، لتكون أول بقعة تنضم لسلطان العباسيين.

بدون أي تقليل من مجهود العباسيين، فما كان لهم أن يصلوا إلى هذا الحال لولا الاضطراب الذي وقع في بيت الخلافة، فمنذ مات هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ)، وهي نفس السنة التي توفي فيها محمد بن علي العباسي، بدأت الانقسامات التي تحولت إلى حروب داخلية بين الأمويين، وهو ما استتبع حروبا وانقسامات بين القبائل العربية التي هي شوكة الحكم الأموي وعماده، حتى استولى على الخلافة مروان بن محمد بن مروان، وهذا الاضطراب نفسه قد أتاح الفرصة لثورات أخرى من الخوارج وبعض الطامحين أن تشتعل في العراق والشام وفارس، وهذه الثورات شغلت مروان بن محمد وأتاحت فرصة عظيمة ووقتا غالبا لتمدد الثورة العباسية، فما إن أحمد مروان هذه الثورات القريبة في العراق والشام والجزيرة حتى دهمته العاصفة العباسية!

ولما انتبه الأمويون إلى قوة الحركة العباسية، ونشطت أجهزة أمنهم في تتبعها، أوقعوا القبض بالفعل على إمامها إبراهيم بن محمد، وحملوه إلى دمشق وقتلوه، ولكن الوقت

كان قد فات، فقد انطلق الجيش العباسي من خراسان، يلتهم المناطق غربا، بقيادة القائد العسكري الفذ قحطبة بن شبيب الطائي، وهو من مؤسسي الدعوة في خراسان، فلم يزل ينتصر على أتباع الأمويين، حتى وقعت بينه وبين الأمويين الموقعة الفاصلة عند نهر الزاب، وانجلت المعركة عن انتصار العباسيين رغم مقتل قائدهم قحطبة، وعن انهزام الأمويين مع نجاة خليفتهم مروان بن محمد الذي فرّ منسحبا إلى دمشق.

كان الإمام إبراهيم بن محمد قد عهد إلى أخيه عبد الله بالإمامة من بعده، وهو الرجل الذي سيكون الخليفة العباسي الأول، والذي سيُعرف في التاريخ بلقب «السفاح».

ومما تجب الإشارة إليه قبل ترك الحديث عن الثورة العباسية، أمران في غاية الأهمية:

١. أن عماد هذه الثورة كان من العرب وليس من الموالي، على خلاف ما ساد لفترة طويلة في الأروقة البحثية، حتى ظهر من الدلائل والمصادر ما يؤكد أنها ثورة العرب في خراسان، وقادتها غالبيتهم الساحقة من العرب، ولكنهم استفادوا من الموالي كما تفعل أي حركة ثورية أخرى^(١).

٢. أن الثورة العباسية مثال على الثورة الدينية الناجحة، فلقد كانت طبيعة الثورة وأهدافها دينية تماما، ولا يعني هذا خلوها التام من أية دوافع أخرى قومية أو اقتصادية أو اجتماعية، فإن الثورة بطبيعتها ظاهرة مركبة تمتزج فيها جملة من الدوافع والغرائز، لكن يظل المحرك الأساسي لها واضحا بالمقارنة والتأمل في فكرتها وشخصها وطبيعتها اتجاهها. ومسألة الثورة الدينية تتعرض في عصورنا الأخيرة إلى تشكيك كثير لغلبة القراءة المادية في زماننا هذا الذي غلبت فيه العلمانية وطريقتها حتى على المدارس البحثية والأكاديمية، فصارت كل ثورة مهما اتضح اتجاهها الديني يُلتبس لها - في القراءة

(١) للمزيد في هذا، ينظر: محمد إلهامي، رحلة الخلافة العباسية: العباسيون الأقوياء، ٢٠٦/١ وما بعدها.

المادية - أسبابا مادية قومية واقتصادية واجتماعية، غير أننا نستطيع القول وبثقة تامة أن الثورة العباسية كانت في جوهرها ثورة دينية قامت لدفع مظالم بني أمية ولإقرار الحق والدين كما يراه الذين قاموا بها، فهي عندهم عمل ديني يقومون فيه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويضحون في سبيله تضحية يرجون ثوابها في الآخرة، ويقبلون أن يبذلوا أرواحهم في سبيل نجاحها وتحقيقها. فيجب أن نقرأ تاريخنا الإسلامي بروحه الدينية التي هيمنت عليه.

تأسيس الدولة

تولى عبد الله السفاح الخلافة وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وورث بذلك دولةً قد بدأت دعوتها قبل أن يولد هو، فكان أول خلفائها، ويُلاحظ أن أخاه الإمام إبراهيم عهد إليه بالإمام مُقَدِّمًا إياه على أخيه أبي جعفر مع أنه أصغر منه بتسع سنوات! وهذا أبو جعفر سيُثبت فيما بعد أنه من أعظم ملوك الدنيا وأقواهم وأقدرهم، فهذا التقديم دليلٌ على ما يتمتع به السفاح من المواهب، إلا أن يكون معنى التقديم كون أبي العباس ابن حرة عربية وأما أبو جعفر فأمه جارية.

والسفاح لقب أطلقه أبو العباس على نفسه، ومعناها الكريم، ولكن التصقت به الدلالة السيئة المعبرة عن كثرة سفك الدم لأن أول واجبات الخليفة الجديد هو القضاء على النظام القديم، وهو ما يعني مطاردة الأمويين وتعقب كل من يمكن أن يصلح للإمارة، فإن ترك الواحد منهم يعني أنه سيثور غدا مطالبًا بخلافة أجداده، وهذا هو الواقع، فإن الأمير الوحيد الذي أفلت استطاع أن يستقل بالأندلس عن العباسيين وينشئ فيها إمارة أموية، وإليه لجأ بقية بني أمية ممن كُتبت له النجاة.

سارت جيوش السفاح تتعقب الأمويين، فاستولت على دمشق، وطاردت الخليفة الأخير مروان بن محمد حتى أدركته فقتلته في مصر، وتولى المهمة عمه عبد الله بن علي

الذي عرف بالسفاح -بمعناها الدموي- لكثرة من قتلهم من بني أمية، إذ قد تعدد منه الغدر بمن أعطاهم الأمان، حتى ساءت سمعة العباسيين في مطلع دولتهم، وغضب أبو العباس ونهاه عن الإسراف في القتل. وقد أدى هذا إلى ثورات في الشام اقتنع معها العباسيون بضرورة تغيير سياستهم واللجوء إلى التهدة وتأمين الناس والكف عن القتل.

واستدار أبو العباس ليقضي على التهديدات الداخلية والخارجية، فمند ظهر أن الدعوة عباسية لا علوية بدأت بعض التمردات التي تريد صرفها للعلويين، وأخطرها تلك التي قام بها كبير الدعاة نفسه، والرجل الثاني في التنظيم: أبو سلمة الخلال، ولكنها فشلت فقُتِل لخيانته. واتخذ عاصمة أخرى قريبة من الكوفة لما في الكوفة من الهوى العلوي وما قد يستتبعه ذلك من التهديد الأمني، وإنعاش قوة العلويين، وهم شركاء الثورة. وأحمد العباسيون أيضا جيوبًا للخوارج ثارت في عُمان.

ولكن بقيت معضلة ضخمة أمام أبي العباس، تلك هي أبو مسلم الخراساني نفسه، الذي كان يحكم خراسان وفارس، فقد بلغ من القوة والنفوذ والاستقلال بالرأي والعمل فوق كل حدٍّ، حتى إن أمر الخليفة لا يمضي في دياره لو لم يرضه أبو مسلم، وكان أبو مسلم من المنحازين إلى سياسة الاستئصال، فقتل كثيرا من الناس، حتى من نقباء الدعوة ورؤسائها دون أن يستشير أحدا أو يرجع إلى الخليفة، وكان أصله الفارسي فوق مواهبه الكثيرة مما يجعل حوله كتلة فارسية قوية ترى فيه بطلا عظيما منافسا لخلافة العرب، هذا إن لم يجنح بها الطموح فتراه مجددا لدولة الفرس! وكان أبو مسلم يشعر بقوته وأنه رجل الدولة والمؤسس الفعلي لها، فطمح أن يكون أميرا للحج -وهو منصب عظيم يقوم به الخليفة نفسه أو أقرب ولاته ووزرائه إليه- ولم يكن الخليفة بقادر على أن يوغر صدر أبي مسلم فخرج من الأمر بأن أخاه أبا جعفر يريد الحج هذا العام، فكان أبو مسلم يتعالى على أخي الخليفة وولي عهده في الحج. ثم طمح أبو مسلم لما لا يتصور، فأرسل يخطب عمه الخليفة أمينة بنت علي الهاشمية القرشية، وهو الأمر الذي لا يتشوف له من لم يكن من في

الصدر من قريش من أبناء العرب، فكيف بالمولى الفارسي مجهول النسب؟! فكظم أبو العباس غيظه وتعامل مع رسالة أبي مسلم كأنها لم تكن.

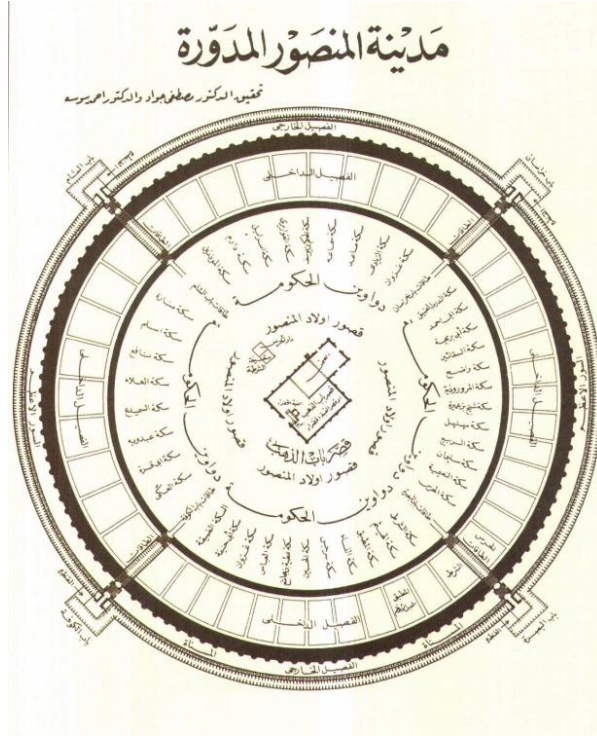
ما إن انتهت رحلة الحج التي كان أميرها أبو جعفر، وكان نجمها الظاهر أبو مسلم، حتى كان أبو العباس قد توفي في العراق (١٣٦ هـ) وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وتولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور، وهو في أشد الأوقات غيظا وغضباً على أبي مسلم.

غير أن انشقاها خطيرا ظهر في البيت العباسي، فقد رأى عبد الله بن علي (عم الخليفة أبي العباس، والذي تولى مطاردة الأمويين) أنه أحق بالخلافة من أبي جعفر، فكان أبو جعفر معه شرعية الخلافة وعبد الله معه شوكة الجيش العباسي، فاضطر أبو جعفر أن يضرب عدويه بعضهما ببعض، فندب أبا مسلم الخراساني لقتال عمه عبد الله بن علي، فانتصر أبو مسلم وعاد مظفرا. ثم دبر أبو جعفر لأبي مسلم حتى أوقع به وقتله، ومن هذه اللحظة صارت الدولة خالصة للعباسيين، وعلى الخصوص لنسل أبي جعفر من بعده.

لم يمض قتل أبي مسلم دون خسائر، لكنها على كل حال أقل خطر من الخسائر التي كانت ستحدث لو أنه بقي حيا، فقد زحرت خراسان بالتمردات من بعده، منها ما كان تمردا على الخلافة لذهاب الرجل الكبير وخفوت القبضة القوية، ومنها ما كان محاولة للثأر والانتقام لأبي مسلم، الذي تحول إلى شخصية أسطورية وشبه مقدسة عند كثير من الفرس، وصارت مُلهمةً لكثير من الحركات الشعبية والمرتدقة لمائة عام على الأقل!

كذلك لم يمض تولي أبي جعفر للخلافة بلا خسائر، فقد بدا واضحا أن العباسيين قد أخذوا الخلافة لأنفسهم، وأنها لم تعد خلافة آل البيت التي أعلنوها شعارا، والتي ظنها معظم أنصارهم دعوة علوية، وهذا ما أثار العلويين الذين رأوا أن العباسيين قطفوا ثمرة الدعوة العلوية، والثورات العلوية السابقة، واحتجوها لأنفسهم من دون العلويين، فاشتعلت ثورة محمد بن الحسن، من نسل الحسن بن علي، والملقب بالنفس الزكية من المدينة وفي نفس الوقت أشعل أخوه إبراهيم الثورة في البصرة وتمدد نفوذه حتى شمل

الأهواز والمدائن وكاد يبلغ الكوفة، وتلك هي الثورة التي أرهقت أبا جعفر ومثلت تهديدا خطيرا له، لا سيما وقد جاءت في وقت كانت الجيوش العباسية منقسمة بين المشرق



والمغرب والحجاز، غير أن المنصور استطاع بمزيد من دهاء السياسة والتدبير ثم بقوة الجيش أن يُخمدتها. وكانت هذه الثورة بمثابة انطلاق شرارة الانقسام بين العلويين والعباسيين، كذلك اندلعت ثورات خارجية أخرى في الموصل والجزيرة الفراتية وبلاد فارس وما وراءها، وفي المغرب أيضا، ولكن المنصور استطاع بعد زمن يطول أو يقصر القضاء على هذه الحركات كلها.

وما إن استقرت الأحوال الداخلية وانتهت التمردات الخطيرة حتى استأنف المنصور حركة الجهاد، وبدأ بتحسين الثغور وإعادة بناء القلاع في المناطق الحدودية، وكانت قد تعرضت إلى غارات بيزنطية، بعضها خطير، إلا أن قوة الاندفاع الأموية من جهة، وانشغال الروم باضطرابات وحروب داخلية مع البلغار من جهة أخرى جعل غاراتهم غير حاسمة ولا شديدة الخطر، رغم ما أوقعته من أضرار.

وبدأت في عهد المنصور النهضة العلمية والعمرانية، وهو الذي بنى بغداد، التي صارت عاصمة الدنيا لقرون قادمة، وبها خلد اسم المنصور، فقد تكثفت فيها الحضارة الإسلامية في عصرها الزاهر، وكانت مجمع العلماء والأدباء والشعراء وأصحاب الفنون، كما كانت مركز التجارة العالمية. وقد تعددت الدوافع لبنائها، فمنها الدافع الأمني حيث

شعر المنصور بأن بقاءه قريبا من الكوفة ذات الهوى العلوي ليس آمنا، وقد تخير في موقعها أن تكون ملائمة لحركة التجارة - لا سيما البحرية - فتتصل بالأنهار الواصلة إلى الخليج جنوبا ومنها إلى الهند والصين، وإلى الشام والجزيرة وأرمينية غربا وشمالا، وهذه الأنهار ذاتها هي عائق طبيعي يمثل حماية عسكرية أيضا أمام العدو الذي يقصد بغداد. كذلك فإن موقع بغداد كان عند نقطة يقترب فيه نهر دجلة والفرات وتتصل بينهما القنوات المائية مما صنع أرضا خصبة غنية وقادرة على إمداد المدينة بالطعام وإخراج الفائض في التجارة.

إذن، نعمت المدينة الجديدة، بغداد، بموقع عبّري، كما نعمت بخليفة يقظ حريص على إنهاضها، فسعى إلى اجتذاب العلماء وتيسير سبل التجارة، حتى نمت بغداد نموا سريعا وكثرت أسواقها ومتاجرها، ثم نُقلت أسواقها إلى خارج السور فما لبثت أن اتصلت الامتدادات الخارجية لبغداد بالمدينة ذاتها، وقد روي الكثير في استقرار الأمور في بغداد وبدء ازدهارها ووفرة أموالها وبضائعها، لا سيما والمنصور كان حريصا على المال حتى نُسب إلى البخل، ولكن الموازنة بين الروايات تنتهي إلى قول المسعودي: «كان يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضییعا»^(١)، وكان يقظا في متابعة الولاية ومعتنيا بأمر البريد حتى يرى بعض المؤرخين أنه المؤسس الفعلي لنظام البريد في الحضارة الإسلامية، ونمت في عهده التجارة البحرية بما أنشئ على فروع أنهار العراق من المدن، وما زاده المنصور من حفر الأنهار وتوسيعها.

ويعد المنصور هو المؤسس الفعلي للدولة العباسية، بغير انتقاص من الجهد الكبير الذي بذله أبو العباس، ولكن أربعة أعوام لأبي العباس في الخلافة لا تقارن نتائجها لا في القوة ولا في السعة والشمول باثنين وعشرين عاما قضاها في الخلافة أبو جعفر! فقد ترك

(١) المسعودي، مروج الذهب، ط ٢ (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٠م)، ٢/ ٢٩٢.

هذا الأخير بعده خلافة مستقرة آمنة، لتبدأ في حصاد ثمارها في عهده وعهود أولاده من بعده.

ازدهار الدولة

تولى المهدي بن المنصور الخلافة بعد أبيه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، وتلقب بالمهدي لأن اسمه محمد وأبوه اسمه عبد الله، وكان ذلك في سياق التنازع مع العلويين الذين طمحووا لأن يكون محمد بن عبد الله، الثائر الملقب بالنفس الزكية، هو المهدي، وذلك أن من صفة المهدي -كما جاء في الحديث^(١)- أن اسمه محمد بن عبد الله. وكان قد ورث دولة ممهدة موطأة الأركان، فكان أرفق من أبيه كثيرا، وأسمح بالمال منه جدا، ولهذا فقد كان أحب إلى الناس من أبيه حتى في حياة أبيه، وقد وصلته الخلافة وهو في الحادية والثلاثين من عمره، فكانت له تجربة جيدة في الخلافة والحرب، فقد كان يحضر مجالس أبيه، وتولى الإشراف في حياة أبيه على الري، وسكن الرافقة، المدينة التي يمكن تسميتها بالعاصمة المصغرة الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة في مقابل بغداد.

وقد بدأ عهده بإطلاق السجناء المعارضين وتعويضهم، وأعاد الأموال المصادرة إلى أهلها، وأجرى رواتب دائمة لمرضى الجذام والمساجين والعميان والضعفاء من الرعية، واستأنف إرسال الحبوب والغلال من الشام إلى الحجاز من بعد ما كان المنصور قد أوقفها -تخوفا من تمويل ثورة علوية جديدة- وأنشأ غرفة تُلقى فيها الشكايات (وهي أشبه ما تكون في عصرنا بالخط المباشر لتقديم الشكاوى) واتخذ مستشارا خاصا يشير عليه بأمور من الكرم والمروءة والمآثر الاجتماعية في تزويج الشباب وتقوية الجند وفداء

(١) جاء في الحديث: «لا تقوم الساعة حتى يملك الناس رجلٌ من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسمُ أبيه اسمُ أبي».

والحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم، وصححه الألباني وحسنه شعيب الأرناؤوط.

الأسرى وتحصين الثغور، ونحوها مما رفع منزلته في قلوب الناس.

ولم يواجه تمردات خطيرة إلا أنه قد عرف في تمردات خراسان أنها إنما تخفي وجهها للزنادقة، فلهذا كان أكثر ما اشتهر به المهدي في عصره هو حملته على الزنادقة! وكانت حركة الزنادقة - التي واجهها المهدي - تشمل طيفا متنوعا من الاتجاهات، لكنها تلتقي على الطعن في الإسلام والعرب، فمن ذلك: التيار الشعبي الذي يطعن في العرب ويزدريهم، أو: التيار الإلحادي الذي يخلق الحديث ويكذب فيه فيحلل الحرام أو يحرم الحلال، أو: التيار الإباحي الذي ينشد الأشعار الماجنة فيصرح فيها أو يعرض بجيل الصحابة أو ينسب ذلك إليهم. وفي ظل الاستقرار العام لزمان المهدي كانت حركته ضد الزنادقة هي أبرز ملامح عصره، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد، ولم يتسامح حتى مع من كانوا أبناء للولادة أو الوزراء في بلاطه.

وبعد عشر سنوات في الخلافة، توفي المهدي ولا يزال في الثالثة والأربعين من عمره، وتولى بعده ابنه موسى الملقب بالهادي، ولا يزال في الثالثة والعشرين من عمره، ليكون أصغر من تولى الخلافة في هذه السن حتى ذلك الوقت، ولكنه عُرف منذ صغره بقوة شخصيته وصرامته، ولما تولى الخلافة تابع عمل أبيه في تعقب الزنادقة، ولم يواجه غير تمرّد علويّ في المدينة استطاع إخماده بسهولة في المعركة المشهورة، معركة فخ (١٦٩هـ) وذلك لأن أحد العلويين الذين نجوا منها استطاع الوصول إلى المغرب، وأسس فيها دولة الأدارسة، ولم يبق الهادي في الخلافة إلا عاما وثلاثة أشهر، ثم مات وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

تولى بعده أشهر خلفاء الدولة العباسية في عصر القوة، أخوه هارون الرشيد، والذي يعد زمانه ذروة عصر القوة في الدولة العباسية، حتى وصف الخطيب البغدادي حال بغداد

في زمنه فقال عبارته البليغة: «أكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد إذ الدنيا قارّة المضاجع، دارّة المراضع، خصيبة المراتع، مورودة المشارع»^(١). جاءت الخلافة إلى هارون وهو في أول العشرينات من عمره، وقضى فيها نحو ربع القرن، شغلها في النهضة والعمران ورعاية العلوم وبسط نفوذ الخلافة، فكان يغزو عاما ويحجّ عاما.

ونستطيع تقسيم عهد الرشيد إلى ثلاثة مراحل:

١. فالسنوات الأربعة الأولى كانت والدته الخيزران هي أهم شخصية حاكمة، وقد كانت ذات قدر ونفوذ منذ عهد زوجها المهدي، ثم كتبها ابنها الهادي، ثم استعادت النفوذ كله في مطلع عهد ولدها الرشيد، وبقيت كذلك حتى توفيت.

٢. والمرحلة الثانية هي السنوات الثلاثة عشر التالية كان النفوذ الواسع فيها للبرامكة، وهم أسرة فارسية مشهورة ارتبطت منذ جدهم بالخلفاء العباسيين وكانوا من أقدر الوزراء وأعظمهم دينا وخلقا وأكثرهم كفاءة وإخلاصا، ولا ريب أن لهم نصيب الأسد مما كان في عهد الرشيد من رخاء وازدهار واستقرار، فقد فوض الرشيد إلى يحيى بن خالد البرمكي - وهو أبوه من الرضاة ومؤدبه - صلاحيات واسعة، وكذلك ولّى ابنه جعفر والفضل ولايات مهمة ومناصب حساسة، وكذلك ولّى غيرهم من أقاربهم، وظل البرامكة في أرفع مقام حتى نكبتهم الرشيد (١٨٧هـ) النكبة المشهورة التي ما تزال أسبابها حتى الآن لغزا محيرا.

٣. والمرحلة الثالثة هي السنوات الستة الباقية في عهد الرشيد، وفيها تولى الرشيد سائر الأمور بنفسه وحرص على متابعة التفاصيل وأن تكون مراقبة الولاة وسياستهم على عينه. حفل عهد الرشيد بالاهتمام بالجهد والعمارة والعلوم، وكانت حاشيته فائضة بالعلماء

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١/ ١١٩.

المبدعين، حتى ليقول مؤرخ الحضارة ول ديورانت: «لسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوي العقول الراجحة الناهيين. وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية، والملك شارلمان في فرنسا، ومن قبله بزمان قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج، ولكن



هارون الرشيد بزَّهم جميعاً في الثراء، والسلطان، وأبهة الملك، والتقدم الثقافي الذي ازدان به حكمه، غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك. فقد كان يشترك اشتراكاً فعلياً في تصريف شئون الحكم، ونال شهرة واسعة بعدله في قضاؤه، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٤٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار -على الرغم من أبهة الملك التي لم يسبق لها مثيل^(١).

ولم يخل عهد الرشيد من تمردات خارجية وعلوية وشعبية، واستطاع أن يقضي عليها بعد معارك متفاوتة في شدتها وطولها، وقد استطاع الأخوان العلويان -الناجيان من معركة فخ- إدريس ويحيى ابني عبد الله بن الحسن أن يقيما دولتين: واحدة في المشرق في

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ٩٢/١٣.

طبرستان والأخرى في أقصى المغرب وهي دولة الأدراسة. ولكن سيرة هذه التمردات لا تبدو واضحة ولا مؤثرة بالنظرة العامة إلى عصر الرشيد. ولهذا لم يلمع من تلك الأخبار سوى نكبة البرامكة.

ونكبة البرامكة توفرت لها كل عناصر الشهرة، فهي نكبة مفاجئة وقوية ومجهولة الأسباب، وسائر ما يذكر في تفسيرها هو تحليل واستنتاج، وهذا ما دفع القصاص والوضّاعين لنسج الحكايات والأساطير في بيان أسبابها، وتبعهم على هذا بعض المؤرخين، وأقرب ما نستفيده من الروايات أن شأنهم بلغ من النفوذ والمكانة ما أزرى بالخليفة ووضع من قدره. وبهذه النكبة خسرت الخلافة العباسية نخبة من أكفأ وزرائها وأعظم رجالها.

وعلى نحو ما قال الشاعر: «لكل شيء إذا ما تم نقصان»، فقد ولد عصر الرشيد، الذي هو عصر الذروة، بذور الانحدار من بعده، وتلك البذرة كانت مسألة ولاية العهد.

ومختصر القصة أن خلفاء العباسيين اعتادوا تسمية ولي للعهد من بداية توليهم للخلافة، ولكن الوفاة المبكرة للهادي وصغر سن الرشيد جعلت هذا الأخير يتولى الخلافة وهو في مطلع العشرينات، وقد وُلِدَ أكبر أبنائه في ذات الليلة التي مات فيها أخوه الهادي، وهو المأمون وأمه جارية فارسية، وبعدها بأيام وُلِدَ له ابنه الأمين من زوجته الحرة العربية العباسية زبيدة بنت جعفر (حفيدة الخليفة المنصور)، فظل الرشيد غير قادر على تسمية هذا الطفل وليا للعهد لصغر سنه، ولكن فراغ المنصب جذب إليه الطموحات، ومعها التكتلات بين الأمراء العباسيين، وتجنبًا لتطور الأمور فقد رتب الرشيد أخذ البيعة لولديه، وكان يجتهد في التدبير لذلك وإحكامه.

ثم وقعت مشكلة ثانية، فلئن كان الرشيد سيابغ لإحدى ولديه فالعباسيون ومعهم زبيدة زوجة الرشيد يميلون إلى الأصغر منهما وهو الأمين الذي هو عباسي الأب والأم، ومن ورائهم الكتلة العربية، بينما تميل الكتلة الفارسية إلى المأمون، وقد انتهى هذا إلى أن

أخذ الرشيد البيعة للأمين مع أنه الأصغر منهما. ولكن الأيام أظهرت أن المأمون هو الأكفأ والأليق بالخلافة من بعده، غير أن طول التدبير والإحكام لأمر ولاية العهد جعل التراجع عما مضى وأقرَّ أمرًا عسيرًا. فبقي الأمر على أن ولاية العهد للأمين ثم للمأمون.

وما إن مات الرشيد حتى دبَّ الخلاف بين الأميرين، وبطبيعة الحال بين الكتلتين: العربية والفارسية، وكانت بغداد عاصمة الأمين، بينما كان المأمون في مرو التي صارت عاصمة له، وكان المأمون ورجاله أكثر قوة وكفاءة وقدرة من الأمين ورجاله، فما هو إلا أن اشتعلت الحرب بين الأخوين، والتي بدأت شرارتها من الأمين الذي عزل المأمون عن ولاية العهد وسعى في أن يجعل ابنه موسى وليا للعهد، وهو ما ردَّ عليه المأمون بالاستقلال بما تحت يده من خراسان وبلاد المشرق، ثم زحفت الجيوش وانتهت المأساة بعد حرب طاحنة وفصول مريرة إلى انتصار المأمون ومقتل الأمين في بغداد.

وقد أتاحت هذه الحرب فرصة ثمينة لتمرّدات واسعة قام بها العلويون حتى استطاعوا السيطرة على الكوفة والبصرة ومكة واليمن، ولتمرّدات أخرى قام بها عربٌ من أتباع الأمويين سخطوا على زوال أمر العرب وهيمنة الفرس، وزاد في الأزمة ما عزم عليه المأمون من الإقامة في مرو، عاصمة خراسان، وهو ما أثار سخط العباسيين والعرب وأهل العراق من أن تذهب عاصمة الخلافة من بلدهم بغداد، ثم اتخذ المأمون قرارا زاد من السخط، حيث أعلن خلع السواد -شعار العباسيين منذ بدأت دولتهم- ولبس الثياب الخضراء، وأخطر من ذلك أنه عهد بولاية العهد إلى رجل من العلويين هو علي الرضا بن موسى الكاظم، ففزع العباسيون أن تخرج الخلافة منهم إلى العلويين، فقاد ثورتهم إبراهيم بن المهدي (عم المأمون) وسيطر على بغداد، وطرد عنها الحسن بن سهل والي المأمون على بغداد، وهو أخى الفضل بن سهل، الذي هو الوزير الأثير للمأمون، بل الوزير المهيمن عليه، وصاحب لقب «ذي الرياستين».

استمرت تلك الثورة سنتين، واقتتل العباسيون في بغداد، قسّم مع المأمون وقسّم مع

إبراهيم بن المهدي، ولم ينتهِ الأمر إلا حين أدرك المأمون خطورة ما فعل، فتخلص من الفضل بن سهل، ورجع إلى بغداد، وكان علي الرضا قد مات فانتهدت فكرة ولايته للعهد. ويمكن القول أن نكبة الفضل بن سهل هي النكبة الثانية للكتلة الفارسية في العصر العباسي، ولم يظهر بعد ذلك فارسي ذو شأن في بلاط الخلافة.

ومن بغداد استأنف المأمون رحلة الخلافة العباسية، فكان خليفة يقظا، تُروى الأخبار في تعهده لأُمور الرعية بنفسه^(١)، يمزج باقتدار بين الحلم والحزم، ويكثر من العفو في غير ضعف.

واجه المأمون عددا من الثورات، اختلفت في شدتها، لكنها أيضا لا تظهر بقوة أمام النظر العابر لعصر المأمون، واستطاع القضاء عليها بكفاءة، أغلبها بعرض السلم والأمان، وقليل منها بمواجهات عسكرية، إلا تمردا واحداً كان خطيرا وأرهقه غاية الإرهاق، وهو تمرد بابك الخُرَّمي في منطقة أذربيجان، وهو التمرد الذي نسج تحالفا مع الروم، وظل الفريقان يتبادلان المعلومات والدعم، وهذا التمرد أهلك كثيرا من الجيوش التي قاتلته، وأوقع بعدد من قادة المأمون الأفاض الكبار، حتى مات المأمون ولم يقضِ عليه.

وكان من فضل الله على المسلمين أن انشغل الروم بخلافاتهم الداخلية، واضطرابات بلاطهم السياسي في فترة الحرب بين الأمين والمأمون، ولولا ذلك لكانت النتائج كارثية! ولما استعاد المأمون زمام الأمر كان الروم قد انتهى أمرهم إلى إمبراطور قوي جديد هو توفيل بن ميخائيل، فتجدد بينهما مثل الذي كان من قبلهما، غارات متبادلة، النصر فيها غالبا حليف المسلمين، لكن ليست فيها نتائج حاسمة، مع مزيد من تحصين الثغور وبناء القلاع، إلا أن المأمون -في هذا الجانب- له عذره، فمن بين عشرين سنة قضاها في

(١) قيل في المأمون، أنه نَظَمَ ١٧٠٠ من عجائز بغداد لمتابعة أخبار الناس، وقراءة ما يأتون به في كل ليلة. ينظر: ابن ظافر

الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ٣/ ٣٤٠.

الخلافة، لم يتسنَّ له أن يجاهد سوى آخر ثلاث سنوات، ثم لم يمهلُه الأجل، فتوفي أثناء جهاده في بلاد الروم، في ثغر طرسوس، (٢١٨ هـ) وهو في الثامنة والأربعين من عمره، وقد أصابته دعوة الإمام أحمد، الذي دعا عليه لشدة ما ارتكبه من الأذى والنكال بمن أبى القول بخلق القرآن.

بداية الغروب

لكن ستبدأ من عهد المأمون بذرة خطيرة الأثر في تاريخ الخلافة العباسية، وهي الاستكثار من الجند الأتراك، فإن الاضطراب الواقع بين الأمين والمأمون، ثم بين المأمون والعباسيين، ثم بينه وبين الفرس، قد جعله يبحث عن عنصر جديد يطمئن إليه، فكلَّف أخاه أبا إسحاق (الخليفة المعتصم فيما بعد) أن يستكثر من شراء العبيد الأتراك ليكونوا عماد الجيش العباسي، وكان الأتراك يتميزون -فضلا عن القوة والشجاعة- بأنه لم تُصَبِّهم فرقة كالتى أصابت العرب، ولم تنفَس فيهم أفكار خطيرة كالشعبوية التي ظهرت في الفرس.

تولى بعد المأمون أخوه المعتصم وقد قارب الأربعين، ولُقِّب المعتصم بالخليفة المثلث، فهو الخليفة الثامن من خلفاء العباسيين، والثامن من أولاد العباس فينه وبين جده الأعلى العباس سبعة، وحكم ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام، وأنجب ثمانية أولاد وثمانية بنات، وأنه وُلِدَ في شعبان (الشهر الثامن)، وتوفي وعمره ثمانية وأربعون سنة!!

وكان المعتصم قوي البدن للغاية، يحمل الأثقال ويتحمل الألم، وكان يكره الكتَّاب جدا، وغبط صديقا له مات في طفولته لأنه ارتاح من الكتَّاب، ففرق به أبوه الرشيد فلم يُعَلِّمه، فكان عسكريا بالطبع والسليقة ضعيفا في العلوم، ولهذا استمرت محنة خلق القرآن وحبس الإمام أحمد وضربه مع أنه هو لا يفهم طبيعة الموضوع، ولكنه يُقلِّد في ذلك أخاه المأمون، ولهذا أيضا كانت نفقته وعنايته في شأن الحرب، بل حتى المدن والحصون كان

يَهْمُهُ فيها الإحكام والقوة ولا يأبه بالزينة والتجميل.

وأبرز ما وقع في خلافة المعتصم: الاستكثار من الجنود الأتراك حتى صاروا هم أكثر جيش الخلافة، وقد تسارع هذا الأمر حين اكتشف المعتصم أن الكتلة الفارسية حاولت تنفيذ انقلاب عليه لتولية العباس بن المأمون خليفة بدلا منه، فلما اكتشف هذا نكبهم وشتتهم، لتكون هذه هي خاتمة الكتلة الفارسية وعناصرها في حاشية الخلفاء. فمن هاهنا استكثر المعتصم من الجنود الأتراك.

لكن أهل بغداد لم يحتملوا هذا العنصر الجديد، وكان لا يزال في جفاوة البداوة، ف وقعت كثير من المشكلات بين البغداديين والجند الأتراك، فاتخذ المعتصم لنفسه ولهم عاصمة جديدة هي سامراء، فكانت أول انتقال للخلافة عن بغداد منذ بُنيت، وكانت سامراء في أول أمرها عاصمة عسكرية ثم ما لبثت أن تدرجت في المدنية، لكن عمرها لم يطل كما طال عمر بغداد.

استطاع المعتصم بهذا الجيش الذي صار عماده من الأتراك القضاء على التمرد الأخطر وهو تمرد بابك الخرمي بعد أن أرهق الخلافة وجيوشها لعشرين سنة، وبلغت ضحاياه نحو ربع المليون قتيل، كذلك نفذ المعتصم بهذا الجيش أقوى حملة إغارة على الروم فاقتحم أنقرة وعمورية - وهما أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية - بعد عاصمتها القسطنطينية، وذلك ردًا على إغارة خطيرة دموية نفذها الإمبراطور الرومي توفيل بن ميخائيل، وهذا هو النصر الذي أنشد له أبو تمام بيته الأشهر:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجد واللعب
وفيما عدا ذلك، يمكن القول بأن خلافته كمن سبقه، تمردات في بعض المناطق يستطيع القضاء عليها، أو مؤامرات داخلية في قصره يمكنه اكتشافها ومعاقة المتآمرين.

ولما مات المعتصم (٢٢٧هـ)، تولى بعده ابنه هارون، الواثق بالله، وهو في الحادية

والثلاثين من عمره، وفي عهده استشرى نفوذ الجُند الأتراك، حتى إن الواثق لُقّب الأمير التركي أشناس بالسلطان، ومن هاهنا بدأت القصة التي ستنتهي بهيمنة العسكر الأتراك على الخلفاء العباسيين، لا سيما وعصر الواثق لم يكن فيه جهد عسكري، فانصرفت طاقة العسكر إلى عمل السياسة والإدارة. كذلك فإن عدم تسميته وليا للعهد أتاح لأولئك العسكر أن يختاروا الخليفة القادم.

شهد عصر الواثق تمردات محدودة، تصدى لها الجند الأتراك، ومن أخطرها تمرد في قلب بغداد قاده أحمد بن نصر، وهو من علماء بغداد وهو أيضا حفيد أحد النقباء الاثني عشر أصحاب الدعوة العباسية، وكان ذلك اعتراضا على الواثق الذي اشتد للغاية في قضية خلق القرآن، وامتنحن الناس فيها، بل ارتكب عارًا التصق به أبد الدهر، إذ امتحن الأسرى المسلمين بها، فكان إذا افتدى الأسير سأله عن عقيدته، فإذا تبين له أنه لا يقول بخلق القرآن تركه أسيرا عند الروم!!!

وروي أنه تاب من امتحان الناس في خلق القرآن آخر حياته، إلا أن حياته كلها قصيرة، فلم يلبث في الخلافة سوى خمس سنوات وأشهرًا، ثم مات وهو في السادسة والثلاثين من عمره (٢٣٢هـ). وكان عهده من عهود الرخاء وكثرة الأموال والعمارة ونشاط التجارة.

تولى بعد الواثق أخوه المتوكل على الله، وكان في السادسة والعشرين من عمره، ونستطيع أن نصف هذا العهد بأنه النبضة العباسية الأخيرة في عصر القوة، وبأنه ردُّ فعلٍ - عنيفٍ أحيانًا - على العهود الثلاثة السابقة عليه: عهود المأمون والمعتصم والواثق - وذلك أن المتوكل:

١. سعى جهده في كسر نفوذ العسكر الأتراك الذي تفشى حتى كادوا أن يجعلوا الخليفة بعد الواثق ابنه محمدًا الذي لم يتجاوز العاشرة، فعمل على الإسراع بالبيعة بولاية العهد لأبنائه كي يقطع عليهم طريق اختيار الخليفة من بعده، وعزم على نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق، معقل العرب، لكن لم يقوَ على الاستمرار فيها.

٢. وانقلب على القول بخلق القرآن فرفع المحنة وقرب إليه أهل السنة، وزاد في إكرام الإمام أحمد، ونقل المحنة فجعلها على المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن وكانوا حاشية الخلافة ورجالها المقربين.

٣. وعزل كثيرا من رجال البلاط، بمن فيهم وزير المعتصم والوائق، وعاقب بعضهم بالسجن ومصادرة الأموال بحسب ما صدر عنهم من جنایات، أو ما كانوا يمثلونه من الخطورة عليه.

٤. وانقلب كذلك على العلويين، واشتد في تتبع الشيعة، وهدم قبر الحسين، واتحد في حركته هذه دافع السياسة بدافع المذهب، فالعلويون كان مقربين من المأمون والوائق، كما أنهم كانوا عريقين في الثورة على العباسيين، فضلا عما لدى المتوكل من تشدد وتطرف في جهة السنة.

٥. وانطلق في عقوبة أهل الذمة من اليهود والنصارى، وكانوا قد بلغوا حدًا هائلا من النفوذ والقوة، فأوقعوا الكثير من المظالم على المسلمين، واستغلوا جو الحرية الفكرية حتى تناولوا على الإسلام والنبي أحيانا^(١)، فشدد المتوكل في عزلهم من المناصب المؤثرة وإلزامهم الثياب المميزة لهم، وإلزامهم تمييز دورهم، وإلزامهم ألا يظهرُوا صليبا في أعيادهم، وهدم ما استحدثوه من البيع، ونحو ذلك من الإجراءات.

لهذا كله حنقت أطراف كثيرة على المتوكل، حتى جاءت الضربة القاضية حين رأى المتوكل أن ابنه المعتز بالله أكفأ وأجدر بولاية العهد من ابنه الأكبر المنتصر بالله، فسعى في الضغط على ولده المنتصر ليخلع نفسه من ولاية العهد، فأبى هذا الأخير وحنق عليه، ثم وجد فرصة مناسبة في سخط القائد العسكري التركي وصيف الذي أمر المتوكل بمصادرة

(١) يُنظر في هذا: رسالة الرد على النصارى للجاحظ، وهو معاصر لهذه الحقبة، ويبدو فيها المستوى الذي بلغه النصارى من النفوذ والقوة والتجروء على المسلمين ودينهم.

ضياعه في بعض المناطق، فوقع التآمر بين الطرفين على قتل المتوكل، فُقُتِلَ (٢٤٧هـ) وهو في الأربعين من عمره، بعد خمسة عشر عاما حافلة في الخلافة!

ولم يدر المنتصر أنه بهذا كتب نهاية عصر القوة في عُمر الدولة العباسية، وأنه افتتح عصر تحكم العسكر الأتراك بالخلفاء، وأنه سيدوق الموت باليد التي استعان بها في قتل أبيه بعد قليل!



حسنة الدولة العباسية

١. استمرار الجهاد

منذ اللحظات الأولى في عمر الدولة، ظهر الخطر الصيني في المشرق، إذ كانت الصين حلفاء للأتراك الوثنيين الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد، وجرى ما يمكن أن نسميه حرباً بالوكالة بين قسمي الأتراك: المسلمين والمتأخمين للمسلمين، وبين الوثنيين الذين تدفعهم الصين من خلفهم، وجرت معركة فاصلة (١٣٤هـ) خرجت بها الصين تقريباً من ميدان الصراع، وتقررت فيها سيادة الحضارة الإسلامية على النفوذ الصيني في بلاد الأتراك، وتفرغ بعدها العباسيون للخطر البيزنطي.

وتلقى العباسيون ضربة رومية بيزنطية في بدايات دولتهم، استطاعوا امتصاصها، تركزت تلك الضربة على هدم الحصون والقلاع في الثغور الأمامية، ثم شرعوا بعد استقرار دولتهم في الرد على الروم، فشرعوا في تحصين الثغور وبناء القلاع وتقوية خط المواجهة، وهو الأمر الذي استمر في عهد المنصور والمهدي وبلغ أوجه في زمن الرشيد، ثم بدؤوا في شن الغارات الدورية (الصوائف) على أنحاء الروم منذ عهد المنصور ووصلت الجيوش إلى خليج القسطنطينية (بحر مرمرة) في زمن المهدي، وسيطر

المسلمون تماما على جبهة الروم في عهد الرشيد حتى لجأت الإمبراطورة إيريني إلى طلب الهدنة ودفع الجزية السنوية، لكن حين خُلعت وتولى مكانها الإمبراطور نففور نقض الهدنة، فجرت معارك كاسحة سُحقت فيها جيوش الإمبراطورية البيزنطية وفقدت عددا من أهم مدنها الحصينة وعادت إلى دفع الجزية وطلب الهدنة أكثر من مرة. غير أن هذا الجهاد شهد انتكاسة في عصر المتوكل، إذ تكررت غارات الروم على السواحل الإسلامية في مصر والشام، وعلى مناطق الثغور والجزيرة، بل قتلت الإمبراطورة البيزنطية اثنا عشر ألف أسير مسلم، دون أن يجد هذا كله ردًا مناسبًا مكافئًا.

لكن الفارق الخطير بين الأمويين والعباسيين، هو في العلاقة بين المسلمين والروم البيزنطيين، فلم تكن خطورة العباسيين على الروم كما كانت خطورة الأمويين، ولم يعد فتح القسطنطينية هدفًا حاضرا وضاعطا على العباسيين كما كان لدى الأمويين، وقد تأثرت حركة الجهاد البحري، وقل الاهتمام بالأسطول كثيرا عما كان في عهد الأمويين، وذلك بسبب ابتعاد العاصمة عن البحر المتوسط، وكان جهاد العباسيين ضد الروم غارات واستنزافا وردعا، مع أن لهم معارك في غاية القوة مثل عمورية وأنقرة في زمن المعتصم، ولكنها كانت كالضربات المؤثرة، ليس فيها ضربة قاضية أو شبه قاضية أو ترتبت عليها نتائج حاسمة، ومع ذلك فقد كان من بركة هذا الجهاد أنه حفظ الأمة وأقام هيبتها وأذل عدوها واستثمر طاقتها وشغل الطبقة العسكرية فيما هو مفيد، وأنعش اقتصادها بكثير من الغنائم والموارد.

لكن كان للعباسيين ضربات قاضية في جبهة المشرق وأرمينية وجنوب القوقاز وبلاد الترك والأفغان، فقد استطاعوا حسم الموقف في كل هذه المناطق، ففتحوا ما لم يكن قد فُتح، وأعادوا ما كان قد نُقِصَ وخرج في وقت الضعف الأموي والبداية العباسية، وذلك عبر موجات متعددة من الكرّ والفرّ، ومن المعاهدات والحروب.

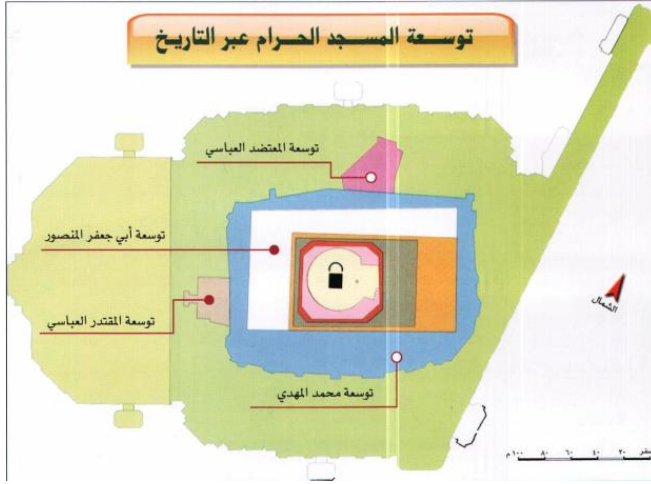
وبالجملة فإن العباسيين لم يضيفوا شيئا يُذكر إلى مساحة العالم الإسلامي كما ورثوه

من الأمويين، إلا أنهم اجتهدوا في الحفاظ على هذه الرقعة الموروثة.

٢. النهوض المادي والعمراني

بدأت تظهر المدن الجديدة منذ بداية الدولة العباسية، ومثلما انتشرت القلاع والمدن الحصينة في الثغور، انتشرت المدن في وسط العراق وأنحاء الدولة لغايات متعددة، تبدأ بالضرورة الأمنية ولا تزال تنمو وتتوسع حتى تصير مركزا حضاريا، فقد ذهب أبو العباس لبناء هاشمية الكوفة، ثم الهاشمية الجديدة في الأنبار، ابتعادًا عن المزاج العلوي الذي قد يتهده في الكوفة، ثم جاء المنصور فعزم -بعد محاولة انقلاب عسكري من فرقة خراسانية، كان خطيرا ومفاجئا عرف بـ «حركة الراوندية»- على اتخاذ عاصمة جديدة، ففكر في بناء بغداد على الجانب الغربي من نهر دجلة، ثم بنى إزاءها مدينة الرصافة على الجانب الشرقي للنهر، وجعلها لابنه المهدي، فكان في بغداد جيش المنصور الرئيسي الذي يغلب عليه العرب، وفي الرصافة جيش المهدي الذي يغلب عليها الخراسانيون، وعرفت الرصافة ببغداد الشرقية واتصلت ببغداد عبر ثلاثة جسور، وكلف المنصور ابنه ببناء مدينة الرافقة على نهر الفرات، وعمّر الرشيد الرقة وكاد يتخذها عاصمة. وكانت للمعتصم عناية بالبناء وإحكامه دون تزيينه وتجميله، وخُتِمَ عصر العباسيين الأقوياء بالمتوكل على الله وقد كان يحب العمران، حتى قال ياقوت الحموي أنه لم يبن أحدٌ مثل ما بنى المتوكل في سامراء من القصور والدور^(١)، وعزم على إنشاء مدينة جديدة هي المتوكلية، لكنه مات قبل تمامها.

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/ ١٧٥.



وفي عهد المنصور جرت توسعة جديدة للحرم المكي. واستمر ذلك في عهد المهدي، فجرت توسعة الحرم مرتين، والاعتناء الكبير بطريق مكة وتوفير سبل الراحة للحجاج، وكانت للمهدي آثار عظيمة في رعاية الحرم أنفق عليها

ملايين الدنانير. وكذلك الواثق الذي أنفق على أهل الحرمين كثيرا حتى لم يعد فيهم سائل يسأل الناس. وتتفق الدراسات على زيادة مساحة الأراضي المنزرعة في عهدهم، وعلى براعتهم في التعامل مع المياه وتنظيم الري وإنشاء السدود ونحو ذلك، ولا يمكن في هذه العجالة تقديم موجز لما حفره العباسيون من الأنهار أو ما مهّدوه من الطرق أو ما قدّموه من وسائل لتسهيل حركة التجارة وتنشيطها.

وبلغ الرخاء أوجه في عهد الرشيد، حتى رُوِيَ عنه وعن عاصمته الأساطير، فبلغت بغداد في الاتساع عشرة أضعاف المدائن -عاصمة الإمبراطورية الساسانية- وفاقحت حجم القسطنطينية -عاصمة الإمبراطورية البيزنطية العريقة- ولم يتجاوزها في الشرق الأوسط إلا اسطنبول بعد ثمانية قرون^(١). وأمدنا الجهشيارى الكاتب المؤرخ في بلاط العباسيين بقائمة الواردات في عهد الرشيد، فبلغت أكثر من نصف مليار درهم^(٢)! وتفنن المؤرخون في وصف بهاء الخلافة وعظمتها، حتى شعر المؤرخ الفرنسي جاك ريسلر بالعجز عن توفية الوصف حقه، فقال: «من الصعب جدا أن نذكر، بكلمات، روعة البلاط الملكي

(١) لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ١٣٧.

(٢) هذا المبلغ يساوي الآن نحو المليار وربع المليار دولار. (بأسعار اليوم ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٢م)

وفخامة الخلفاء؛ حتى إن جلال وبهاء البلاطات الفارسية والبيزنطية كانا يعجزان عن إعطاء فكرة عن تلك الفخامة»^(١)، ومع هذا كله نرى المسعودي يجعل عصر المتوكل هو العصر الأوسع في النفقات من بين سائر العصور^(٢)، وهو ما يشير إلى كثرة ما عمّره المتوكل.

وهذا الرخاء المادي والتطور العمراني كان ثمرة ونتيجة عن تطور مُناظِر في الأنظمة الإدارية، حيث توسّع جهاز الإدارة والمتابعة داخل البلاط العباسي، والتي كان من أهمها: ديوان الجند (المختص بالنفقات والشؤون العسكرية) وديوان الرسائل (المختص بالمكاتبات والمتابعات) وديوان الخراج (المختص بالموارد المالية)، وفكرة الدواوين موجودة منذ عهد عمر بن الخطاب، لكن العصر العباسي الأول شهد توسعا كبيرا وتقسيمات متعددة المستويات وكثرة في الموظفين.

ويجب القول هنا أن هذا الرخاء المالي والعمراني كان له وجهه الآخر الذي يجب أن ينتبه له المؤرخ المسلم، بل وكل داعية مسلم وصاحب رسالة، فإن الإسلام يأمر بالقوة والغنى ويمدح المال الصالح للعبد الصالح، ولكن الخطورة تتمثل في انتشار الملذات والاستكثار من المباحات والتنافس على الدنيا، وهو الباب المُفضي لانتشار المعاصي والتوسع فيها، وذلك كله يؤثر سلباً على الحالة الإيمانية للمجتمع المسلم، فالناظر في تراث العصر العباسي يجده حافلاً بمجالس الأدب والسمر وكثرة الطعام والشراب واللهو والغناء، وهذه الظاهرة نفسُها كان لها ردُّ فعلٍ مقابلٍ كانتشار الطرق الزاهدة والمتصوفة، وبعضها كانت فيه شدة تخرج به عن الحد المقبول مثل التصوف البدعي. وهذا أمر ليس هنا محل التفصيل فيه، ولكن القصد أنه يجب الانتباه إلى أن كثرة الأموال والرخاء مثلما

(١) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص ١٤٢.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٥٠٤/٢.

كان لها وجه حسن يتمثل في قوة الدولة و ثرائها وكثرة الإنفاق على الخير والجهاد والعمران، كان لها هذا الوجه الآخر السيئ الذي ينقص الإيمان.

٣. النهوض العلمي

كان بنو العباس من علماء الناس وزُهادهم قبل الخلافة، حتى قيل «أفضت الخلافة إليهم وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن، ولا أفضل عابداً وناسكاً منهم»^(١). ولطبيعة البدايات فلم تتسنّ الفرصة ليظهر ما لدى أبي العباس من العلم، بينما كان المنصور من فقهاء الخلفاء، وتعددت المواقف التي تكشف عن علمه الغزير، ومن عصره بدأت الحركة العلمية التي ترعاها الدولة، فهو أول خليفة ترجمت له الكتب من السريانية والفارسية واليونانية، وهو واضع بذرة بيت الحكمة. وبخلاف الترجمة فقد طلب المنصور من العلماء تأليف الكتب في أنواع العلوم، فهو الذي طلب من مالك تأليف الموطأ في الحديث، وطلب من آخرين وضع كتب في الأنساب والتاريخ وغيرها، ولما ضاقت دواوين الخزائن في قصر الخلافة بالكتب التي بدأ جلبها منذ المنصور، شرع الرشيد في نقلها إلى دار رحبة فصارت بهذا أول مكتبة عامة مفتوحة للعلماء والباحثين، وسمّاها «بيت الحكمة»، التي بلغت أوجها في عهد المأمون، حيث أضيف إليها أقسام للترجمة وانهقدت فيها دروس علمية واحتوت على مرصد فلكي، وقد وُصف المأمون بأنه «نجم ولد العباس في العلم والحكمة، وقد كان أخذ من جميع العلوم بقسط»^(٢)، وكان يرسل الملوك ليرسلوا إليه بكتب العلوم. وتتعدد أخبار الخلفاء المهدي والهادي والرشيد والمأمون في الإنفاق على العلماء والترجمات حتى تبلغ حدودا خيالية لا شك

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣١٣/٥.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٤٠١؛ وينظر: الزبير بن بكار، الأخبار الموقفيات، ص ٤٥، ٤٦.

أنها مُبَالِغٌ فيها^(١)، إلا أنها تشير إلى مقدار ما أنفقتة الدولة في نشر العلوم ورعاية أهلها، لا سيما في عصر المأمون الذي هو العصر الذهبي للترجمة.

ويكاد يكون سائر رواد العلوم في الحضارة الإسلامية ممن عاشوا في هذا العصر العباسي الأول، كأصحاب المذاهب الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وأصحاب كتب الحديث: البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، وأئمة اللغة والنحو والأدب كالخليل والأصمعي والكسائي وسيبويه والجاحظ وابن قتيبة، وأئمة التاريخ والسير كابن إسحاق وسيف بن عمر والواقدي وابن سعد، ورواد الفلسفة والعلوم الطبيعية كالكندي والخوارزمي وجابر بن حيان.

وهذه النهضة العلمية أظهرت ثراء اللغة العربية وحيويتها وقدرتها العجيبة على استيعاب العلوم وامتصاص دقائقها، والتعبير عن المزيد منها، وبهذا صارت اللغة العربية هي لغة العلم لألف سنة تالية، واضطر سائر من يطلبون العلم إلى تعلم العربية ليفهموا تراث العالم الإسلامي، وتراث العالم القديم الذي لم يعد يمكن الوصول إليه إلا من خلال الترجمات العربية.

وكأي ظاهرة إنسانية، فقد احتوت هذه النهضة على بعض السلبيات، لا سيما وأن علوم الأمم السابقة كان فيها قدر كبير من الاختلاط بين ما هو نافع وما هو ضارّ، وقدر كبير غير محرر بين العلم والخرافة، فكان ثمة اختلاط بين الطب والفلسفة، وبين الكيمياء والسحر، وبين الفلك والتنجيم، ونحو ذلك. ومع أن العقل الإسلامي استبعد كثيرا من الوثنيات والخرافات من الترجمات، إلا أنه تسرّبت في الترجمات أمور ضارة مما هو مختلط كفلسفة اليونان ومنطقهم وطريقتهم التنظيرية التجريدية في العلوم، وهو ما سبّب بعض المشكلات والنزاعات داخل البيئة العلمية الإسلامية، وظهرت على إثره فرقٌ مثل

(١) ينظر مثلا: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٢/ ١٣٣؛ القفطي، إخبار العلماء، ص ٣١؛ الزركلي، الأعلام، ٢/ ٢٨٧.

الفلاسفة والمعتزلة، تأثرت في طريقتها ومنطقها وتعاملها مع الشريعة بأساليب اليونان ومنطقهم، وأسفر هذا عن بعض المحن وأشهرها محنة خلق القرآن، وقد لقي كل هذا التراث الدخيل مقاومة صلبة من علماء المسلمين، ولا ينفي هذا أنه ترك آثارًا واضحة على بعض الإنتاج التراثي الإسلامي.

٣. استقرار الخلافة

يحسب لأبي جعفر المنصور أنه نقل العباسيين من حالة الثورة إلى حالة الدولة، وهذه نقلة خطيرة لا بد فيها من امتزاج السياسة بالحزم، ومن تقديم العقوبة على العفو، ومن بديع ما قاله أبو جعفر جوابه لعمه صالح بن علي الذي قال له: «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو! قال المنصور: لأن بني أمية لم تبُل رِمْمُهُمْ، ولأن آل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين الناس قوم قد رأونا أمس سوقة، واليوم خلفاء فليست تتمكن هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة»^(١). ومعنى كلامه: أن وقت تأسيس الدولة هو وقت الحزم والشدة، فإن النظام القديم لم ينته بعد، وإن شركاء الثورة لم يخضعوا بعد، وإن الناس لم يعتادوا بعد على التعامل مع الخلفاء الجدد كخلفاء لهم مقامهم وهيبته، ودواء ذلك كله التعجيل بالعقوبة وإظهار القوة. وقد استطاع المنصور بالفعل استخلاص الدولة للعباسيين وأن يعبر بها من مرحلة أن العباسيين هم ممثلو ثورة التقت عليها طوائف معارضة مختلفة الأغراض والمشارب والطموحات، يرون أنفسهم شركاء في الحكم، إلى مرحلة أن العباسيين هم الخلفاء أصحاب الدولة، ولهم على الناس حق السمع والطاعة والتوقير.

لكن ثمة عنصر آخر كان له الفضل الأكبر في استقرار الخلافة العباسية، ذلك هو

(١) ابن عساکر، تاریخ دمشق، ١/ ٢٣٦.

الاستكثار من الموالي والعجم، حتى وصف الجاحظ الدولة العباسية بأنها «عجمية خراسانية، ودولة بني مروان (الأموية) عربية أعرابية»^(١).

ولقد كانت الاستعانة بالموالي والاستكثار من الأعاجم في صفوف الدعوة العباسية، ثم في البلاط العباسي، من آثار النظر البعيد لمؤسس الدعوة العباسية محمد بن علي العباسي حيث أوصى بالاستكثار من أولئك، وذلك أنهم لا يملكون التطلع إلى الخلافة، لقد كان يحاول بذلك أن يستفيد من تجربة الدولة الأموية التي لا تستطيع أن تستقر إلا إن حافظت على توازن دقيق بين القبائل والعصب العربية. والتي حسمت الأمر لنفسها بعد صراعين كبيرين اصطدمت فيهما القوة العربية بعضها ببعض. وبمجرد أن انتهى التوازن بين القبائل القيسية واليمانية، وبدا أن الدولة تنحاز لأحدهما: القيسية أولا ثم اليمانية، حتى دخلت الدولة في مرحلة الانحدار والانهايار.

تمثلت الفكرة إذن في الاستكثار من العنصر غير العربي، الذي سيري أن بقاء مرهون ببقاء الخلافة، وقنعوا بمكانهم في الوزارة والإمارة والولاية، وبالفعل، لقد استمر الحكم العباسي لفترة طويلة، وهذا ما سيظهر بوضوح بعد انتهاء عصر القوة، حيث سيخضع الخلفاء العباسيون الضعفاء لهيمنة مراكز القوى الجديدة، كالطبقة العسكرية التركية، ثم الدولة البويهية، ثم دولة السلاجقة، ثم دولة المماليك في مصر والشام، وفي كل هذه الفترات لن يجرؤ أحد هؤلاء الأقوياء على إزالة الدولة العباسية، أو إسقاط الخلافة العباسية.

وللأعاجم أيضا مزية أخرى، ذلك أن ثقافتهم السابقة على الإسلام تجعلهم ينظرون إلى بيت الخلافة، أو بيت المُلْك، باعتباره بيتا متعاليا ومتساميا على بقية العُصَب والأطراف، والعباسيون هم من آل بيت النبي ﷺ، فهم فوق العرب والعجم معا، وهذه

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ٣/ ٢٣٧.

الدعوة العباسية قد مزجت بين الحق في الحكم وجعلته عقيدة دينية مستحقة لأقرب الناس إلى النبي ﷺ، فمن ثم تمتعت الخلافة العباسية بنوع من التبجيل والتقدير، أو حتى بنوع من القداسة، في ضمير المسلمين حتى كان الأمير القوي يتجراً أحياناً على قتل الخليفة أو خلعه، لكنه لا يستطيع بعدها إلا أن يُؤلّي بدلاً منه خليفة عباسياً آخر، فلا يجرؤ على أن يُنصب نفسه أو أن يصرفها عن العباسيين. وبهذا كان دخول الأعاجم بميراثهم الكسروي من عوامل الاستقرار -نوعاً ما- وإطالة عمر الخلافة العباسية.



الإخفاقات وأسباب السقوط

أول ما يخطر بالبال في ما أخفقت فيه الدولة العباسية هو إخفاقاتها في تحقيق شعار الثورة، وهو نشر العدالة والرحمة، وثاروا لأجله ضد الأمويين وشحنوا القلوب ضدهم، فإن لم يكن الخلفاء العباسيون أسوأ حالا من الخلفاء الأمويين، فهم بلا ريب كانوا مثلهم في ذلك، فلم يظهر فيهم الإمام الموعود الذي يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلِئت جورا، بل تمتع خلفاؤهم - وفرضوا أيضا - بمظاهر المُلْك والرسوم السلطانية بما لم يفكر فيه الأمويون الذين كانت دولتهم عربية بسيطة خالية من رسوم السلطنة ومظاهر التفخيم المملكيّة. وقد اضطر العباسيون في مواجهة ثورات العلويين للمقاتلة في مكة والمدينة وهو الأمر الذي لطالما شنعوا به على الأمويين. ولئن كان الأمويون قد شُنع عليهم بالحجاج بن يوسف الثقفي، فإن العباسيين أخرجوا نظيره في دولتهم: أبا مسلم الخراساني الذي لُقّب بحجاج بني العباس، وأخرجوا معه عبد الله بن علي العباسي!

ومن غير شك فإن العباسيين كانوا أشد استبدادا من الأمويين، فالأمويون كانوا دولة عربية تحفها تقاليد العرب التي ليست فيها تعظيم الملوك ولا أبْهَتُهُمْ ولا احتجابهم عن الناس، وغير ذلك من الأمور التي سنشير إليها بعد قليل. ولكن يجب القول أيضا أنه ومن غير شك أيضا فإن العباسيين كانوا أخفّ استبدادا وأهون كثيرا من كسرى فارس وقيصر

الروم وملوك الهند وأباطرة الصين، وذلك لطبيعة الإسلام، إذ إن نظام الإسلام يحدُّ من صلاحيات الحاكم، ويجعله محكوماً بالشرعية، ويمنع من تكوُّن فجوات طبقية واسعة، وليس فيه كهنوت ديني يمكن للسلطة أن تتحكم به.

١. انتهاء وحدة الدولة الإسلامية

أخفقت الدولة العباسية في أن تحكم الأمة كلها في دولة واحدة على نحو ما نجح فيه الأمويون، فمنذ اللحظات الأولى انفصلت بعض المناطق عنهم، مثل بلاد السند في الشرق والأندلس في الغرب، فأما بلاد السند فقد استطاعوا استعادتها من يد الوالي الأموي الذي استقل بها، وأما الأندلس فعجزوا عن استعادتها، ونشأت فيها إمارة أموية ظلت لنحو ثلاثة قرون.

ومع استمرار الأيام، بدأت تنشأ في الأطراف البعيدة دولٌ أخرى خارج سلطان الخليفة العباسي، وأخفق العباسيون في ردِّ هذه الديار إلى سلطانهم، مثل: الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى، والدولة العفريّة في مناطق من اليمن. وفي مرحلة لاحقة: أقر الخلفاء العباسيون في هذه الأطراف الحُكم الذاتي لعدد من الأسر، فوَضُوا لها الولاية على بلادهم، وأن تبقى فيهم وفي أعقابهم، مع الاعتراف بسلطان الخلافة عبر الخطبة ودفع الأموال السنوية، وبهذه الطريقة نشأت -أو استمرت- دولة بني مدرار في المغرب الأقصى، ودولة الأغالبة في تونس، والدولة الطاهرية في خراسان، والدولة السامانية فيما وراء النهر، والدولة الزيدية في اليمن.

ومع ذلك، فقد كانت لهذه الدول المستقلة حسنات وفوائد، وهو ما ستعرض له فيما بعد بشكل أكثر تفصيلاً، من أهمها: أن هذه الدول استطاعت أن تنشر الإسلام -بالفتح العسكري أو بالدعوة والهيمنة الحضارية- في المناطق التي تليها من بلاد الكفر، في وقت لم تكن تستطيع فيه الخلافة أن تفعل ذلك. وكذلك استطاعت هذه الدول أن تقف حائط

صدّ أمام غارات الأعداء وتمردات الخوارج والثائرين في وقت لم تكن الخلافة لتستطيع أن تتصدى لذلك.

لكن يجب أن يكون معلوما في نفس الوقت، أن هذا العصر احتفظ بطابع الوحدة الإسلامية العام، فالخليفة العباسي كان هو الخليفة الوحيد في عموم العالم الإسلامي شرقا وغربا، ولم يستطع أحد أن يناوئه الخلافة أو أن ينسبها إلى نفسه، فالعباسيون في عصرهم الأول وإن لم يبلغوا ما بلغ الأمويون في تحقيق الوحدة الفعلية إلا أنهم لم يفقدوا انفرادهم بتمثيل الأمة وخلافتها، على عكس ما سيحصل في العصور المقبلة من نشأة الدول التي ستنازعهم الخلافة، كالدولة الفاطمية، والخلافة الأموية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، ودولة الموحدين في القرنين السادس والسابع!

٢. بذرة حكم العسكر

إذا نظرنا من زاوية القسمة بين مدنيين وعسكريين، سنرى أنه منذ وفاة النبي ﷺ كان الخلفاء من المدنيين، حتى من كانت لهم مواهب عسكرية فائقة مثل علي بن أبي طالب كانت تغلب عليه النزعة المدنية العلمية الحضرية، واستمر هذا في الزمن الأموي، فحتى معاوية وابنه يزيد ممن قادوا الجيوش بأنفسهم، لا يُحسبون على العسكريين. وأول خليفة في الإسلام نرى أن نزعته العسكرية تغلب نزعته المدنية هو المعتصم بالله العباسي، وهذا الخليفة هو الذي اعتمد تماما على العنصر العسكري التركي، وأقصى العرب والفرس، في خطوة يتضح منها قلة اعتباره للموازانات المدنية الحضرية والآثار الاجتماعية والسياسية لمثل هذه الخطوة، فلما جاء ابنه الواثق من بعده تنامي في عهده النفوذ العسكري التركي، وزاد من سوء الحال أن عصره لم يكن فيه نشاط جهادي، والعسكر إذا فرغوا من عمل الجهاد توغلوا وتغولوا في الدوائر المدنية، فتوضع هاهنا بذرة الفساد! وهذا هو الأمر الذي جعلهم يكادون يختارون الخليفة بعد الواثق لولا أن ابن الواثق كان أصغر من أن يُؤلّى،

فكانوا مع المتوكل في موضع المنازعة والندية، حتى انتهى بهم الأمر إلى قتله.

سيأتي معنا في الأحقاب التالية، كيف تنامي هذا الفساد الذي سببه الحكم العسكري، وعندها ستظهر هذه السيئة والمثلية بشكل أوضح.

٣. حكم العجم

حين نتحدث عن حُكم العجم باعتباره سيئة وإخفاقاً ومثلية في الدولة العباسية، فيجب أن نؤكد كثيراً ونكرر التأكيد على أن المسألة هنا لا تتعلق بنزعة قومية عروبية على الإطلاق^(١)، إلا أن طبيعة العرب كانت أليق وأوفق لنزول الرسالة عليهم^(٢)، ونزلت الرسالة بلغتهم، وكان نبيهم عربياً، ولسانه عربياً، ومهما اجتهد غير العرب في فهم الدين فمن المؤكد أن فهمهم له لن يكون كفهم العربي، وأن قدرًا يقل أو أكثر من تشوش الفهم وعدم إدراك المعنى المقصود سيقع، وسيقع معه قدرٌ يقل أو أكثر من الدمج والجمع والتوفيق بين ما جاء به الإسلام وبين ثقافة ما قبل الإسلام بما فيها من أنماط حياة وطبائع ومعاني. وهذا ما سيحدث بالضرورة ولو اجتهد الأعجمي في فهم الدين وتطبيقه، فكيف إن تدخل مع ذلك جملةً من المصالح والأهواء والنزعات، مع جملة من العادات والتقاليد الراسخة المترسبة في النفوس والمجتمعات؟!

(١) لقد جاء الإسلام بالتسوية بين الناس عند الله، وجعل الأفضلية للتقوى، ووسَّع النبي معنى العروبة فجعلها متعلقة باللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، كما قال النبي ﷺ، وبهذا المعنى فقد خرج من مسمى «العرب» من كانوا قرشيين هاشميين ممن نشؤوا بأرض أعجمية ولم يحسنوا العربية، ودخل فيه من لم يكونوا من العرب نسبا ولكن أتقنوا اللسان. وأجدي مضطرا إلى ذلك أنني -كاتب هذه السطور- لست عربيا بالمعنى العرقي، بل ترجع أصولي في النسب إلى قبائل هوارية، وهم من البربر المغاربة. وقد اضطررت لذكر هذه الملاحظة للتأكيد على انتفاء الفكرة القومية العروبية فيما أكتب هنا.

(٢) راجع الفصل الأول من «خلاصة تاريخ الإسلام».

والعجم الذين نقصدهم هنا بالأصالة هم الفرس، أصحاب التراث الفارسي العريق المتشعب بالقيم الكسروية في الدين والسياسة، ثم يلحق بهم بعد ذلك الحكم التركي والديلمى الذي جاء فيما بعد، وأولئك وإن خلّوا من الميراث الحضاري العريق كالفرس إلا أنهم حملوا مقدارا يزيد أو ينقص من ميراثهم القديم من الوثنيات والديانات الشائعة في وسط آسيا والقوقاز وجنوب بحر قزوين. وما من شك في أن هذه الشعوب دخلت في الإسلام طوعا وأخلصت له، وفيهم من صاروا أئمة المسلمين في دينهم بلا منازع، لكن القصد هنا أن الفارق سيظل حاضرا -في العموم- بين عربيّ أعاد الإسلام صياغته، وبين أعجمي استقبل الإسلام في مرحلة لاحقة!

وهذا الوضع يُفسّر عددًا من الظواهر المهمّة في سياقنا هذا، بعضها يترتب على بعض ويفرز بعضها بعضا، من أهمها:

١. انحدار شأن العرب وفراغهم من القوة العسكرية: كانت الدولة الأموية دولة عربية خالصة تقريبا، وكان الأمويون ينفرون أو يتخوفون من ارتفاع شأن الموالي ولا يستكثرون منهم في رجال الدولة، وفي المقابل: تكوّنت مشاعر مماثلة ومقابلة لدى الموالي من غير العرب تجاه الأمويين. وفي كتب التاريخ روايات كثيرة جدا عن امتهان الموالي واحتقارهم، وبعضها لا شك في أنه كذب ومبالغاة فجّة، ولكنه لا يزيل الحقيقة التاريخية التي لا يمكن لأحد الزعم بخلافها، من أن مرتبة الموالي لم تكن في مرتبة العرب. ونعني بهذا في دائرة السياسة والحكم، وأما في دائرة العلم والمجتمع، فقد ارتفع من استطاع من الموالي حتى صار فوق كل عربي حرّ بما اكتسبه من العلم أو من التقوى، وصاروا أئمة المسلمين الذين يهابهم الخلفاء والملوك أنفسهم.

وفي العصر العباسي انقلب الحال تدريجيا، فقد زاحمت العناصر الفارسية في البلاط العباسي العناصر العربية، وظل ثمة نوع من التوازن حاضرا حتى عصر المأمون الذي كان انتصاره إلى حدّ ما هزيمة للكتلة العربية، فلما جاء المعتصم واعتمد على العنصر

العسكري التركي، وأزال العرب من ديوان الجند، ومن ثمَّ فرغ العرب من القوة العسكرية التي كانت خالصة لهم في زمن الأمويين، ثم زاحمهم فيها الفرس والترك صدر الدولة العباسية، وهذا الفراغ من القوة العسكرية جاء بالضرر على الخليفة العباسي نفسه فيما بعد، وأخفض شأن العرب ككتلة سياسية واجتماعية.

٢. تسرب المظاهر السلطانية الفارسية والأدب الفارسي وكذلك التقاليد السياسية الفارسية، إلى الخلافة العباسية، فعلى حين كان الخليفة الأموي عربيا لا يُلقب بغير أمير المؤمنين، فإن الخليفة العباسي صار محفوفًا بنوعين من التعظيم: نوعٌ تسرب إليه من جهة الدين كما فهمه الشيعة، إذ أئمة أهل البيت لهم مقام علوي محفوظ، ولهم -بسبب الدم والنسب- ما يجعلهم فوق الناس. ونوعٌ آخر تسرب إليه من جهة السياسة، إذ صار البلاط العباسي متأثرا بشدة بالبلاط الفارسي، وصارت الآداب السياسية والتقاليد الملوكية السلطانية تجري على نمط قريب مما جرت عليه القصور الفارسية، وظهرت عادات مثل المخاطبة بمولاي وسيدي، وتقبيل يد الخليفة أو ركبته أو الأرض أمامه، وصار الأصل في الخلفاء احتجاجهم عن العامة، فإنَّ ظهوروا ففي مواكب ملكية فاخرة تزيج لها العيون رهبة ورغبة! وباختصار، فإنَّ «خليفة بغداد لم يكن، بأي حال، شيخا من شيوخ القبائل، بل خَلَفَ لملوك فارس الكبار»^(١).

وانتشرت الآداب الفارسية في السياسة والحكمة، وهو ما قاومه المجتمع الإسلامي بإنتاج آداب عربية إسلامية، وإنتاج المؤلفات في السياسة الشرعية، ومن المؤكد أن الفترة العباسية كانت فترة إسلامية أصالة، لكن شابتها مظاهر فارسية، فلم

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٧٩.

تخرج التأثيرات الفارسية مهما كانت قوتها عن حدّ كونها تأثيرات في الوضع الإسلامي، ولم تتحول الدولة العباسية إلى نسخة فارسية كما زعم البعض. لكن هذا الانحراف المتأثر بالميراث الفارسي كان انحرافاً كبيراً عن طبيعة الحكم الإسلامي.

٣. توقف التعريب، فمع أن الدولة العباسية عربية اللغة والحضارة والخلفاء، إلا أن كثرة العجم في بلاطهم ووزرائهم وولاتهم، لا سيما في الجناح الشرقي للدولة الإسلامية، أوقف مسيرة انتشار اللغة العربية في تلك الأنحاء. لا شك أن اللغة العربية ظلت لغة العلم الأولى، وظلت لغة الثقافة العليا لمن شاء أن يتدرج في المراتب والمناصب، لكن عاشت معها اللغات الأخرى ولم يتعرب أهلوها، على عكس ما نجد في الجناح الغربي للدولة الإسلامية، وهو الجناح الذي كان بعيداً عن متناول الدولة العباسية، فاستمر فيه الميراث الأموي، واستمر فيه العرب في الإمارة والولاية فصار جناحاً عربياً من مصر - التي نسيت تماماً لغاتها القديمة - وحتى أقصى المغرب، ولا شك أن الأندلس التي تولاها الأمويون وسادت لفترة طويلة على المغرب الأقصى كان لها دورٌ قوي كذلك في استمرار اللسان العربي وسيادته على ما سواه، وهو ما جعل الثقافة الإسلامية والتمكن العلمي لعلماء هذه الديار عبر السنين متفوقاً على نظرائه في الجناح المشرقي الإسلامي فيما وراء العراق وحتى أقصى المشرق. وحتى هذه اللحظة، نحن نعرف عن الأندلس وتاريخها وثقافتها وتراثها - مع سقوطها منذ خمسة قرون - أكثر مما نعرف عن ثقافة دول المشرق الإسلامي وتاريخها وتراثها!

٤. تقوية تيار الشيعة: الدولة العباسية دولة سنية، ولقد حمل الخطاب الأول لخليفاتها الأول في الكوفة ثناءً على الخلفاء الراشدين وعدلهم، وقد دخلت في مواجهات متعددة مع العلويين والشيعة فازدادت استمساكاً بسُنّيتها ومكافحة

للتشيع، ومع ذلك كله، فإن أصل الفكرة التي قامت عليها هي فكرة شيعة، إذ هي تجعل أولى الناس بالخلافة بعد النبي الرجل الألصق به نسباً، وحول هذا الرجل الألصق به دارت الخلافات العباسية العلوية، فالعباسيون يقولون: عمّ الرجل أقرب إليه من ابن عمه، وبهذا يكون عم محمد ﷺ (العباس) ألصق به وأولى بالخلافة بعده من ابن عمه (علي بن أبي طالب)، وأما العلويون فيقولون: نسل الرجل أقرب إليه من عمومته، فأبناء فاطمة وعلي هم أشرف النسب وألصق الناس بالنبي ﷺ، ومن كان نسبه متصلاً بالنبي من فاطمة ابنته ومن علي ربيه، هو أقرب إليه ممن اتصل نسبه بالنبي في جده عبد المطلب! وبين الفريقين جدالات تطول في هذا.

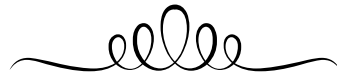
ولكن إن كان بين الفريقين اتفاق على أصل الفكرة، وأن معيار الجدارة بالخلافة والولاية هو قرابة النسب، فإن هذا قد أصّل لهذه الفكرة وقوّأها، وقد ازدهرت لا سيما في بيئة العراق وفارس ذات الموروث الكسروي الذي يرى المُلْك حقاً في أولاد الملوك لصلة الدم والنسب، وقد وُجِدَ من الخلفاء العباسيين من صرّح بأن علياً هو أفضل الصحابة وتوعّد بالعقوبة من ترحم على معاوية أو ذكر فضائله كما فعل المأمون ومثله الواثق. ولا ريب في أنه لو طال عصر الدولة الأموية، لما كان ممكناً أن ينتشر التشيع في تاريخنا بمثل هذه القوة.

ومن الجدير بالذكر هنا أن حركة الفقه الإسلامي لم تتأثر بهذه الفكر رغم تبني السلطة لها، وظل الفقه يعتمد ويقرر أن الإمامة في قريش، وليست منحصرة في نسل علي أو العباس، وأنها تذهب لأجدر الناس من قريش، وأن اختيار الخليفة حقٌّ للأمة وليست استحقاقاً بالنص أو بالدم، وأن شرعية تولي الخليفة إنما تُستمدُّ منبيعة الأمة له، ولهذا ظلت السلطة الإسلامية دائماً مضطرة إلى الحرص على نظام البيعة، مهما كان شكلياً، فالخليفة في التاريخ الإسلامي لم يتولَّ على الناس لأنه من نسل

فلان، بل لأنه حصل على البيعة من أهل الحل والعقد، ومهما قيل فيما يشوب هذه البيعة من التدبير والإعداد وأنها أقرب إلى الأمور الشكلية، فالذي نريد أن نركز عليه هنا، أن ذلك إنما هو دليل على أن الشريعة ظلت حاكمة على السلطة، وأن السلطة لم تصنع الشريعة ولم تنتجها، وأن هذه الفكرة الشيعية لم تستطع التسرب إلى ساحة الفقه، ولم تشرعن نفسها.

جديرٌ بالذكر أيضا أن سُنيّة الخلافة العباسية، وكفاحها الدائم ضد الشيعة العلويين وضد الخوارج في المشرق والمغرب، هو الذي رسّخ سُنيّة الدول التي نشأت على ضفافها في المشرق والمغرب، كالدول السامانية والغزنوية والسلجوقية والأغلبية والأدارسة وغيرها، ولولا هذه الصبغة السنية القوية للخلافة العباسية لتوقعنا انتشارًا خطيرا وكثيفا للمذاهب الهدامة من الشيعة والباطنية المختلطة برواسب الجاهلية والوثنيات القديمة. فالموازنة بين أثر الدولة العباسية في هذا العصر على فكرة التشيع يحتاج توازنا وتعمقا دقيقا وبصيرا.





الفصل الثامن:
الدولة العباسية - عصر النفوذ التركي
والبويه



صَحَّت رؤية صاحب الدعوة العباسية، محمد بن علي العباسي، إذ أمر أنصاره بالاستكثار من العجم لأنهم لا يطمعون بالخلافة، وآخر ما سيطمchon إليه هو الوزارة. نعم، لم يتطلع الأعاجم للخلافة لكنهم تغلبوا على الخلفاء حتى خلعواهم وقتلوهم وعذبوهم، وتحكموا فيهم، وهذا هو الأمر الذي لم يخطر ببال صاحب الدعوة العباسية!

ما إن ذهب الخلفاء الأقوياء بمقتل المتوكل على الله، إلا وبدأ عصر الضعف في الخلافة العباسية، لقد تسلط عليهم أول الأمر جنودهم الأتراك الذين مَدُّوا في عمر الدولة أيام المعتصم والواثق والمتوكل، وبدأت مائة عام كانت السلطة الفعلية فيها لقائد الجيش التركي، اللهم إلا أربعين عاما عُرِفَتْ باسم صحوة الخلافة حيث تهيأ لثلاثة من العباسيين انتزاع السلطان وتجديد عهد الخلفاء الأقوياء، ثم انتكس الأمر بعدهم من جديد!

ولما جرت سنة الدول على العسكر الأتراك، وذهب أقوياءهم، وتنازعوا وفشلوا وذهبت ريحهم، جاءتهم ريح البويهيين الذين كانوا يسيطرون على منطقة فارس ويتمددون إلى الأهواز والعراق، فبدأت بهم الدولة البويهية التي كانت صفحة مريرة في تاريخ العراق والخلافة العباسية، فقد بذرت هذه الدولة بذرة الحروب الدينية المذهبية السنوية، وأسست للمناسبات التي تتجدد فيها كل عام، وهي الدولة الوحيدة التي لم تجاهد الروم عدو المسلمين التاريخي مع أن الروم حققوا في ذلك الوقت اختراقات قوية وألحقوا بالمسلمين هزائم شنيعة، وفيما عدا خمس سنوات هي ذروة الدولة في إبان حكم ملكها عضد الدولة البويهية، فإن بقية هذا العصر كان

حافلا بالفساد والاضطراب والفتن، فوق ما فيه من انهيار تام لسلطان الخلفاء.

تمثل هذه المرحلة أساسا يفهم منه العامل للإسلام تصورا عن مرحلة الفوضى والاضطراب، وخطورة التفريط في توازن القوى الذي أنشأه الإسلام بين السلطة والمجتمع، وكذلك خطورة انفراد العسكريين بالحكم والسلطة، وطبيعة الدسائس التي يعمد إليها المستبدون لتفتيت وحدة الشعوب وبذر الفتن بينهم.



عصر النفوذ التركي

كانت الدولة في زمن النبي والخلفاء الراشدين والأمويين دولة العرب، فالعرب هم حكامها ورجالها وأنصارها وجنودها، وسائر العناصر الأخرى من الموالي وغيرهم إنما هم في أحسن الأحوال موظفٌ كبير في الجهاز الإداري. فلما جاءت الدولة العباسية كان خلفاء الدولة من العرب ولكن كثيرا من وزرائها وقادتها وموظفيها من الفرس، فكان الفرس من أهل دعوة العباسيين وأنصارهم ورجال دولتهم. وأما الأتراك فكانوا جنودًا نظاميين لدولة قائمة، وقد بدأت علاقتهم بالدولة العباسية من موقع علاقة العبيد بالسادة، وهؤلاء الأتراك كانوا حينها -كما يقول الجاحظ- «بدو العجم»، وفيهم جفاء وخشونة وقرب عهد بالبداءة حتى اضطر الخليفة الذي جاء بهم (المعتصم بالله) إلى ابتناء مدينة خاصة بهم واتخاذها عاصمة للخلافة، وهي مدينة سامراء. ولنا أن نتصور كيف يمكن أن يحدث حين ينفرد هؤلاء القوم بالقوة العسكرية للدولة الكبيرة؟ حتى لقد سعى آخر خليفة حاول التملص من نفوذهم (المتوكل على الله) نحو الانتقال إلى دمشق أو اتخاذ عاصمة أخرى هي «المتوكلية»، إلا أنهم قتلوه قبل أن يتم بناء المدينة الجديدة.

كان مقتل المتوكل على الله علامة على بدء عصر جديد، يمكن أن نسميه عصر «مقاتل الخلفاء»، وهو ذلك العصر الذي أسفر عن أن الجنود العبيد قد انفردوا بالقوة وتسلطوا

على الدولة وعطلّوا الخلفاء، فسعى الخلفاء إلى مقاومة هذا الوضع الجديد، وحاولوا استثارة القوى التي كانوا قد قبل ذلك قد كسروها وشتوها، فكان الأمر ينتهي بمقتل الخليفة، ليُنصَّب الجندُ الأتراكُ خليفةً آخر، يكرر سيرة الخليفة المقتول؛ «فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه»^(١).

لم يعتدل الأمر إلا حين ظهر خليفة قوي يقود الجيوش بنفسه، فاستطاع أن يتزع من قرن الهيمنة العسكرية التركية نصفَ قرن من الصحوة، هو وابنه وحفيده، فلما مات حفيده مبكرا انتقلت الخلافة إلى طفل صغير، فاستعاد العسكر الأتراك هيمنتهم مرة أخرى. ولم يكن القتل سلوكهم مع الخلفاء فحسب بل هو سلوكهم فيما بينهم كذلك حين تقع المنافسة على المال أو النفوذ، فالعسكري سريعٌ إلى وسيلة القتل لحل المشكلات. ثم جرت عليهم هم أنفسهم سنة الدول من الضعف والفساد حتى هُزموا أمام عسكرٍ آخر جاءهم من الشرق: أولئك هم البويهيون.

وقد أَلقت هذه الأوضاع بآثارها السيئة على عموم العالم الإسلامي، إذ انكشيت سلطة الخلافة حتى صارت عمليا لا تحكم سوى العراق، وبعض المناطق المتاخمة لها، تزيد أو تنقص بحسب قدرة الأمراء والحكام المحليين على الاستقلال، وبحسب قدرتهم على توظيف قوتهم وعلاقاتهم، فاستقلت تمامًا ممالك الأطراف، ثم استقلت ممالك أخرى عمليا، وآثار أخرى سنستعرض هنا موجزا.

مقاتل الخلفاء

بدا للمتوكل على الله، الخليفة العباسي العاشر، أن ابنه محمدا (الملقب فيما بعد

(١) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، ط ١ (بيروت: دار

القلم العربي، ١٩٩٧م)، ص ٢٤٠.

بالمعتز بالله) أولى بالخلافة وأجدر بها من ابنه الأكبر محمد (الملقب بالمنتصر بالله)، وسعى المتوكل في أن يتنازل الكبير لأخيه الصغير، إلا أن هذا الأخير أبى، واستعان بالجند الأتراك الذين كان المتوكل قد صادر أموال أحد كبرائهم، وهو القائد وصيف، فاتفق المنتصر والأتراك على قتل المتوكل، وهو ما كان، وأعلن المنتصر بالله خليفة بعد والده المقتول.

كان طبيعياً أن تنشب معركة الحسم بين الأنداد الشركاء، فكان الهم الأكبر للمنتصر - وقد تسنم الخلافة - أن يضمن ألا تدور عليه الدائرة، وألا يُقتل باليد التي قتلت له، فأرسل القائد التركي وصيفا إلى غزوة الروم ردّاً على غارة شنّها هؤلاء، وأوصاه حين ينتهي من الغزو أن يبقى في الشام أربع سنوات لتمهيد أمورهما وإصلاح أحوالهما. ومن جهة أخرى خلع المنتصر أخويه: المعتز والمؤيد من ولاية العهد ليجعلها في ولده الصغير: عبد الوهاب، وقال لأخويه بأن هذا عن رغبة من الجند الأتراك الذين لا يمكن خلافهم الآن، ولا ريب أن هذا التخلص من الأخوين إن لم يكن بضغط من الجند الأتراك فقد كان عن رضا منهم، فإنهم قد قتلوا أباهما، ومن مصلحة العسكر الانفراد بالمنتصر ثم بابنه الصغير في حياته ومن بعده. ثم لم تمض ستة أشهر إلا ومات المنتصر فجأة، وهي الوفاة التي حملت المؤرخين على التشكك في أنها كانت بالسُّم، ولئن كانت بالسُّم فلا يُعرف أيضاً على وجه الحقيقة من الفاعل: هل هو أحد الأتراك الذين استشعروا محاولة الخليفة الإطاحة بهم فسبق إليه، أو ربما أراد أن يحسم المسألة بسرعة وأن يُؤلّي الأمر عبد الوهاب بن المنتصر فيكون تحكمهم في الخلافة كاملاً، أم أن القاتل هو من الجناح الآخر الذي يرفض سطوة الأتراك ورأى أن في التخلص من هذا الخليفة تخلصاً من نفوذهم، فما سادوا وتسلطوا إلا به؟ وإن كان هذا صحيحاً، فهل للأخوين المخلوعين يدٌ في ذلك أم هو من فعل الجناح المدني في البلاط العباسي الذي كان يترؤسه أحمد بن الخصيب: الوزير المدني ورأس الجهاز الإداري.

كلها أمور علمها عند الله، لكن الذي حصل بالفعل أن القادة الثلاثة الكبار للجند الأتراك: بُغا الكبير وبُغا الصغير وأتامش، هم الذين امتلكوا زمام القرار، وصرفوا الخلافة عن أولاد المتوكل وجعلوها لأحد أبناء المعتصم، وهو الذي تلقب فيما بعد بالمستعين بالله. واستطاعوا فرض قرارهم هذا على من لم يرض به من مؤيدي المعتز (ولي العهد المخلوع)، وبهذا لم يعد من شك في أن قرار الخلافة قد صار بيد الجند الأتراك حتى في تولية الخليفة الجديد الذي لم تكن له بيعة أصلاً! وعلى الجهة الأخرى فقد جاء المستعين إلى الخلافة وهو خالي الذهن من فكرة مقاومة نفوذ العسكر الأتراك!

تولى المستعين الخلافة وهو في السابعة والعشرين من عمره، وقضى فيها أقل من أربع سنوات مضطربة، كان فيها مجرد واجهة، واشتعلت فيها المنافسة بين القادة الأتراك وبين الوزير -ممثل الجناح المدني- فأزاحوه ونفوه، ثم اشتعلت المنازعات فيما بينهم هم أنفسهم، فاجتمع جناح من الأتراك بقيادة وصيف على مع الخليفة على قتل القائد التركي باغر الذي استشرى نفوذه وتعاضمت قوته، ولكنهم لما قتلوه لم يستطيعوا الصمود في وجه أتباعه، فاضطر الخليفة ومعه وصيف أن يهربوا من سامراء إلى بغداد، فأخرج أتباع القائد المقتول وليّ العهد المحبوس المعتز بالله وأعلنوه خليفة، واشتعلت الحرب بين المعتز في سامراء والمستعين في بغداد، وكان المستعين يعتمد على قوة محمد بن طاهر القائد الفارسي وبقية البيت الطاهري المخلص للعباسيين ومعه العامة، بينما يعتمد المعتز على قوة الجيش التركي، وانتهت الحرب إلى استسلام المستعين!

كان من عجائب الأقدار أن يعجز المعتز عن بلوغ الخلافة وأبوه الخليفة القوي المتوكل على الله يحاول أن يضعه فيها، ثم تأتيه الخلافة وهو في السجن!

لما انفرد المعتز بالخلافة (٢٥٢هـ)، بدأ في التخلص من منافسيه، فقتل الخليفة السابق المستعين بعدما أعطاه الأمان، وقتل أخاه وولي عهده، لكنه فشل في القضاء على القائدين التركيين: وصيف وبغا الصغير، لكن تمردًا داخلياً بين العسكر الأتراك انتهى إلى قتل

وصيف، فانفرد بغا الصغير بالجاء والمال والنفوذ، فنشبت معركة النفوذ بين بغا الصغير وبين الخليفة المعتمد بالله، حتى كان هذا الأخير لا يبيت إلا في حراسة مشددة من خواصه ومعه سلاحه، وخدمت الظروفُ الخليفةَ الذي استثمر انقساماً بين الأتراك انتهى إلى قتل بُغا الصغير، لكن النفوذ آل من بعده إلى صالح بن وصيف الذي هو ابن القائد المقتول الأول وهو أيضاً زوج ابنة بُغا الصغير، ثم أدّت أزمة الرواتب إلى أن تمرد العسكر الأتراك على الخليفة فاقترحوا عليه قصره وأذلّوه وأهانوه وأجبروه على نزع نفسه من الخلافة وتسليمها إلى ابن عم أبيه: محمد بن الواثق، الذي تلقب فيما بعد بالمهتدي بالله، ثم قتل الأتراكُ الخليفةَ المعتمد بالله (٢٥٥هـ) بذات القتلة التي قتلها هو للخليفة السابق: المستعين بالله، بعد ثلاث سنوات مظلمة في الخلافة.

كان المهتدي بالله صالحاً زاهداً ورعاً، يُقارن بعمر بن عبد العزيز في بني أمية، وكان هو وأهله في ثيابهم ومنازلهم كأواسط الناس، ليس عندهم فوق ما يكفيهم، لكنه كان فارغاً من القوة والعصبة التي تنصره وتحميه، فالقوة العسكرية قد انفرد بها العسكر التركي، وقد ذهبت قوة العرب والفرس، فلما حاول أن يستعمل بعض القادة الأتراك ضد بعض، اتحدوا عليه جميعاً، فخلعوه وقتلوه (٢٥٦هـ) بعد عام واحد في الخلافة، ولم ينتفع الخليفة الصالح بتعاطف الناس معه حين فرغت يده من القوة، مثلما لم ينتفع بصلاحه وشجاعته في بلاطٍ أفسدته الدسائس والمؤامرات، وميراثٌ ثقیلٌ من ضعف الخلفاء وجرأة العسكر!

وفي خضم هذا كله كان طبيعياً أن يتراجع شأن الجهاد؛ إذ افتقد جيش الثغور رعاية الخلافة وإمدادها حتى قُتل قائدها الكبيران، وكانت فاجعة، وحاولت جهودٌ شعبية أن تسد الثغور بالأموال والرجال، ولكنها جهودٌ لا تستطيع تعويض الخراب الشامل الذي حل بالأوضاع جميعها.

وإزاء هذه الحوادث كلها وتبعاً لها انفجرت فيها التمردات في أنحاء الخلافة: في

الكوفة والجزيرة الفراتية والشام والحجاز وطبرستان والري وقزوين، بل لا تكاد منطقة قد خلت من تمرد، كذلك بدأت تنبثق المعارك القبلية في مناطق أخرى، بالإضافة إلى احتجاجات شعبية في مدن عديدة بما في ذلك عاصمتي الخلافة: بغداد وسامراء! وتفاوتت قدرة الخلافة على إنهاء هذه التمردات، فمنها ما كان بسيطاً وجاء في وقتٍ أمكن فيه توجيه جيش إليه، ومنها ما كان غير ذلك وطالت مدته، وكان الجيش الذي يخرج إلى منطقة ما يصير بعد قليل قوة مستقلة يتنافس عليها الخلفاء أو القادة في سامراء، فيحاولون كسبها إلى صفهم، لكثرة ما كان يقع من الانقسامات بين رجال الخلافة في أثناء خروج هذا الجيش. وقد استمرت بعض هذه التمردات عقوداً، وأنشأ بعضها دولا في مناطقها ظلت مستعصية على الخلافة نصف قرن أو يزيد^(١)، وبعضها كاد يهدد الخلافة ذاتها.

من أخطر هذه التمردات، ثورة الزنج، التي تسر لها من عوامل الزمان والمكان والقائد ما جعلها واحدة من أخطر الثورات في التاريخ العباسي، فلقد بزغ قائد موهوب ادّعى أن له



نسباً إلى العلويين، وتخبر لثورته فئات العبيد السود الذين كانوا قد كثروا في البصرة، التي كانت في ذلك الوقت مدينة تجارة عالمية بموقعها على رأس الخليج العربي وهو مفتاح التجارة مع الهند والصين، ولذلك سميت الثورة بثورة «الزنج». وقد رفع علي بن محمد - كما سُمّي نفسه - شعار رفع المظالم عن أولئك العبيد وعن المظلومين، ومزج في حركته بين

(١) إن شاء الله تعالى، سنفرّد الورقتين القادمتين لاستعراض هذه الدول المستقلة في المشرق والمغرب، كي لا ينفلت منا الآن سياق الحديث عن الخلافة العباسية ذاتها.

نزعتين؛ الأولى: النزعة العلوية الشيعية التي يكتسب منها تقديس الأتباع لشخصه، فقد اختلق بعض الحيل فجعلها معجزات، وادعى أنه وارث الأئمة بل متصل بالوحي، والثانية: النزعة الخارجية التي تسرف في القتل وسفك الدماء وتثير كوامن التوحش والتطرف، وتسبغ الشرعية على عمل اللصوص والمجرمين، لذلك وُجدت في حركته قطاعات من غير الزوج مثل قبائل كانت تمارس السلب والنهب، أو موالي هربوا من سادتهم. كانت الفوضى التي ضربت بأطناها في عاصمة الخلافة في مقدمة العوامل التي ساعدت على استشرائه وتفشي خطره، كذلك فقد اتخذ عاصمته في موقع محاط بالمستنقعات والأدغال يتعسر أن يصل إليها جيش نظامي، وتمثل موقعا دفاعيا ممتازا إذا هوجم.

ولما قُتل المهدي بالله، كان علي بن محمد، الذي سُمِعَ في التاريخ بلقب «صاحب الزنج»، على وشك اقتحام مدينة البصرة ذاتها.

صحة الخلافة

لئن كان الأتراك قد قتلوا المهدي بالله، فلقد كان من محاسن السنة اليتيمة التي حكمها أنها شهدت التخلص من أقوى القادة الأتراك، فلم يبق على رأس قيادتهم إلا اثنان هما موسى بن بُغا ومفلح، ولم يكن لهما من النفوذ في سامراء كالذي كان لهما من قبلهما من القادة. ومن غير شك أن كثرة التمردات وفراغ خزائن الخلافة من المال نبّه رجال الخلافة بمن فيهم أولئك القادة أنفسهم أنه من الضروري مواجهة التمردات التي تحيط بالخلافة في البصرة والكوفة والشام وفارس وطبرستان، فاستمرار هذه التمردات سيؤدي إلى مزيد من انقطاع الأموال بل إلى نهاية محتومة للدولة كلها، فمن ثَمَّ كان لا بد من القيام بعمل ما لإنهاء هذه التمردات. كذلك فقد ظهرت شخصية جديدة في بلاط الخلافة العباسية وهي: أبو أحمد بن المتوكل، وهو أخي الخليفة، وقد كان شخصية قوية، بل كان قائدا عسكريا،



قاد الجيوش بنفسه، فمن هاهنا أعاد
المهابة إلى رجال الخلافة، لا سيما
والعسكر غالباً لا يخضعون ولا
يهابون إلا من كان ذا مواهب
عسكرية!

طغت شخصية أبي أحمد، الذي
تلقب بالموفق بالله، على شخصية

ال خليفة نفسه، أحمد بن المتوكل الملقب بالمعتمد على الله، حتى صار الخليفة المعتمد
اسماً وصورة، وصار الموفق هو رجل الدولة على الحقيقة، وبدأ منذ تلك اللحظة عهد
جديد عُرف بصحوة الخلافة.

حاول الموفق تهدئة العلاقة مع بعض المتمردين ممن أمكن إعادتهم إلى طاعة الخلافة
بتوليّتهم على ما تحت أيديهم ونحو ذلك، وبدأ في توجيه الجيوش لمن كانت دعواه في
تمرده دينية كالعلويين والخوارج، أو يرى نفسه في موضع قوة ولم يقنع بما قُدّم له. وبدأت
هذه الجيوش في تحقيق بعض الانتصارات والمكاسب، لكن جبهة ثورة الزنج كانت تعاني
بشدة!

لقد استطاع صاحب الزنج أن ينشر الرعب في أنحاء البصرة والأهواز حتى استسلمت
له بعض البلاد دون قتال، وكان يرتكب المذابح بلا رحمة وربما أحرق البلد، وكان يقتل
العلويين ويسبي بناتهم، بل كانت الفتاة والمرأة تباع مع المناداة على اسمها ونسبها،
فكانت محنة شنيعة، ومهما استطاعت جيوش الخلافة أن تصيب من بعض فرقه أو تحقق
بعض النصر إلا أنها كانت تتلقى هزيمة حاسمة بعد غارة مفاجئة غير متوقعة. ثم تَوَجَّج
جرائمه بمذبحة البصرة الشهيرة (٢٥٧هـ) التي أباد فيها أهل البصرة ثم أحرقها، وارتكب
من الشنائع ما لا يكاد يُصدّق!!

أرسلت الخلافة الجيوش أرسالا، هُزِمَ بعضها وحقق بعضها الآخر انتصارات قوية ومبشرة، لكن المتمردين الخارجين في جهة فارس مثل محمد بن واصل ويعقوب بن الليث الصفار، طعنوا تلك الجيوش المنتصرة من الخلف، فأسفر هذا عن انقلاب الوضع العسكري، وأدى إلى سنوات جديدة من مذابح صاحب الزنج، فلما أن استطاعت الخلافة التفرغ لصاحب الزنج عند أواخر عام (٢٦٦هـ) حتى بدأت نهايته، واستمرت فصول النهاية أربع سنوات أخرى حافلة حتى قُضِيَ على هذا التمرد وقُتل صاحبه (٢٧٠هـ) بعد أن استطاع أن يسجل اسمه بجدارة في قائمة السفاحين الملاحين! كيف لا، وقد قُتل بسببه عبر خمسة عشر عاما ما لا يقل عن المليون ونصف المليون من المسلمين، وقيل: مليونين ونصف المليون^(١)! في ثورة «لم يعرف في تاريخ آسيا الغربية ثورة أرفع وأشدّ بليّة منها»^(٢).

في أثناء ثورة الزنج، وبينما كان الموفق بالله يحقق تقدماً في محاصرة صاحب الزنج اضطر أن ينصرف عنه إلى مقاتلة يعقوب بن الليث الصفار، الرجل الذي تحول سريعا من قاطع طريق إلى زعيم قوي استولى على سجستان ثم خراسان ثم بلاد فارس، ثم تقدم إلى العراق، ولم يقنع بالولاية على ما استولى عليه، ولكنه لقي هزيمة قوية على يد الموفق وجيش الخلافة العباسية، ثم ما لبث أن مات وضمحل أمره^(٣)، وهذا مما أطال في عُمر ثورة صاحب الزنج، وكان هذان (الصفار وصاحب الزنج) هما أخطر ما لقيته الخلافة في عهد المعتمد على الله! وأما بقية التمردات فمنها ما واجهته الخلافة فنجحت أو أخفقت أو وصلت إلى حلٍّ وسط، ومنها ما هادنته إلى حين، ومنها ما استقل بمنطقةٍ أسّس فيها

(١) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٤٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدرداش، ط ١ (مكة: مكتبة الباز، ٢٠٠٤م)، ص ٢٦٤.

(٢) فيليب حتي وآخران، تاريخ العرب المطول، (بيروت: دار الكشاف، ١٩٥٠م)، ٢/ ٥٦٢.

(٣) إن شاء الله سنعرض لهذا في الفصل القادم.

لدولةٍ تتبع الخلافة اسما، ومنها ما أهلك بعضها بعضا! وتتبع تفاصيل هذه الأمور مما لا يكاد يفيد في مقامنا هذا. وأما جبهة الروم، فقد تكفل بالتصدي لها أحمد بن طولون الذي استقل بمصر، فكان هذا من حسنات الدول المستقلة في فترة انشغال الخلافة بالفوضى الضاربة فيها وبالتمردات القريبة منها.

مات الموفق بالله (٢٧٨هـ) وهو في التاسعة والأربعين من عمره، وبكاه الشعراء في عصره والمؤرخون في كل عصر من بعده، وودَّ الجميع لو طال عمره لما ظهر منه من بطولة وبسالة وتجديد لشباب الخلافة، حتى قال فيه المؤرخ المحدث الفقيه ابن كثير: «حسام الاسلام وناصر دين الله... غزير العقل حسن التدبير يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم، وكان عالما بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جدا»^(١). وبعده بستة أشهر مات أخوه الخليفة المعتمد على الله، وتولى الخلافة ابنُ الموفق بالله: أبو العباس الذي تلقب بـ «المعتضد بالله»، وكان لا يزال في السادسة والثلاثين من عمره، إلا أن جهاده الكبير وبطولاته في جيش الخلافة منذ كان في الثامنة عشرة جعلته في مكانة مرموقة.

ومع أن الوضع الذي ورثه كان خيرا من الوضع الذي وجده أبوه، إلا أنه لم يكن وضعًا جيدا كذلك، لقد استطاع أبوه تأمين قلب الخلافة وكسر شوكة الجند الأتراك واجترائهم على الخلفاء ودفع الخطر القريب، وهذه الأمور رسخها المعتضد وزاد عليها بما أحدثه من إصلاحات وعمارة وسياسة حسنة سديدة مع دينٍ وصلاحٍ وخشية لله. لكن لا زالت ثلاث دول مستقلة على الأقل حوله: الصفاريون في فارس، الزيديون في طبرستان، الطولونيون في مصر، ثم بزغت دولة أخرى في اليمن (الدولة الزيدية)، وكذلك بزغت في عهده أخطر حركة باطنية سرية ستكون لها أقبح الآثار وأشنع الحوادث في التاريخ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط ١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ١١ / ٧٢، ٧٣.

الإسلامي، أولئك هم القرامطة والإسماعيلية.

استطاع المعتضد بمزيج من القوة والسياسة، وساعدته ظروف قدرية خارج إرادته أيضا، أن ينتهي الحال إلى زوال الدولة الصفارية والطولونية وانكماش الدولة الزيدية في طبرستان. وواجه هو بجيش الخلافة بقية التمردات القريبة في الجزيرة الفراتية والعراق، وكان إذا ظفر بمتنرد أوقع به عقابا يجعله نكالا وعبرة، مع أنه كان معروفا بالرفق برعيته. وبقيت معضلة القرامطة أشدَّ المعضلات!

وترجع قصة أولئك إلى سبب بعيد وسبب قريب، فأما القريب فهو عصر الفوضى الذي شهدته الخلافة العباسية وأنتج، ضمن ما أنتج، انبثاق الحركات المتمردة، ومنها هذه الحركة الباطنية، وأما السبب البعيد فهو الذي يمتزج فيه رافد التشيع والغلو فيه مع رافد الموروث الكفري الفارسي القديم، فكان كل متزندق كفور يجد في التشيع غطاء لأفكاره، ويجد في المتشيعين عناصر ورجالا لتنظيمه!

من هؤلاء عبد الله بن ميمون القداح، التصق بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبدأ يجمع الأنصار والأتباع لتكوين تنظيم يردد مظلومية آل البيت ويريد الثأر لمقاتلهم وإرجاع الإمامة لهم، ونسج القداح بناء فكريا يقول بأن للدين ظاهر وباطن، فالظاهر هو ما يعلمه الناس، والباطن هو ما اختُصَّ به الأئمة من آل البيت، فلا يعرفه سواهم، وأولئك هم الأئمة المستورون، وإلى جوار الإمام المستور إمام مستودع هو الذي يدعو إليه، وبهذا صار ابن ميمون القداح إماما مستودعا!!

بدأ ابن ميمون دعوته من قرية سلمية قرب اللاذقية في الشام، واستجاب لدعوته شخص خطير في الكوفة عرف باسم قرمط، وقد نشط هذا الأخير حتى صار له أتباع في العراق والأحساء واليمن، وحاول أن ينسج تحالفا مع صاحب الزنج لكنه أبى، فبدأ أتباع قرمط في الظهور (ولهذا سُمُّوا القرامطة) بعد انتهاء مقتل صاحب الزنج بست سنوات (٢٧٦هـ) من الكوفة، وكان ممن استجاب لهم شخصية خطيرة أخرى في منطقة الأحساء

اسمه أبو سعيد الجنابي، وهذا هو الذي حوّل الدعوة إلى تنظيم عسكري مسلح في ناحيته، ووضع لها نظاما وهيكلًا محكمًا، وبزغ أمره عام (٢٨٦هـ) باستيلائه على البحرين (شرقي الجزيرة العربية) والهفوف، وطمح في البصرة، وهزموا الفرق العسكرية التي أرسلتها الخلافة لهم هزائم منكرة. وبهذا صار لهؤلاء الإسماعيلية ثلاثة مراكز: مركز في الشام، ومركز في الكوفة، ومركز في الأحساء، وهذان الأخيران يُسمَّون «قرامطة» لأنهم تابعين لمركز الكوفة الذي أسسه قرمط.

استطاع المعتضد كسر مركز الكوفة ونشاطهم في سواد العراق، فكادت جيوشه تبيد هؤلاء، وكذلك سكن مركز الأحساء قليلا بعد انتصاراته فلم يتمدد، بينما بقي مركز الشام بعيدا عنه، واستفاد الإسماعيلية في الشام من أنهم جاؤوا في وقت ضعف الدولة الطولونية التي عجزت عنهم، فاستطاع الإسماعيلية هناك هزيمة الطولونيين، وهزيمة جيش كبير أرسله المعتضد، بل هاجموا دمشق ذاتها (٢٨٩هـ).

وفي هذه الأثناء مات المعتضد، وهو في التاسعة والأربعين من عمره، في مثل عمر أبيه، بعدما قضى في الخلافة تسع سنوات وتسعة أشهر، فكان «آخر خليفة عقد ناموس الخلافة، ثم من بعده أخذ أمر الخلفاء في إدبار»^(١)، وتولى الخلافة بعده ابنه عليّ وتلقب بالمكتفي بالله.

لم يكن للمكتفي أثر كبير في أيامه القصيرة، فقد حكم ست سنوات وستة أشهر، ومات وهو في الحادية والثلاثين من عمره، فقد كان مريضا^(٢)، ونرى في أيامه نفوذا قويا لوزير أبيه أبو القاسم عبيد الله بن سليمان، والوزير هو ممثل الجناح المدني في بلاط الخلافة مما يدل

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة: وزارة الثقافة، د. ت)، ١٢٨/٣.

(٢) كان المكتفي مصابا بتضخم الغدد الليمفاوية الذي يسمى في المصادر القديمة «داء الخنازير» لما يسببه من تضخم الرقبة.

على أن نفوذ العسكر الأتراك كان قد انتهى. وكان من حسن حظ المكتفي أن كفاه السامانيون -حُكام بلاد ما وراء النهر- مؤونة تأمين الأحوال في الجناح الشرقي للدولة الإسلامية، وتمتعت منطقة الثغور في ذلك الوقت بأبطال متميزين في الجهاد برا وبحرا استطاعوا أن يردُّوا على غارات الروم وتنفيذ هجمات في قلب مناطقهم حتى وصلت غزوة بحرية موفقة إلى مدينة تسالونيك اليونانية، فكان مشهد الثغور متوازنا إن لم يكن جيدا، ولولا نشاط القرامطة في الشام وانشغال الخلافة بهم لكان الوضع الجهادي أفضل كثيرا. لكن أولئك القرامطة في الشام مع كونهم أرهقوا الخلافة العباسية جدا، إلا أن ضرباتهم هي التي قضت على الدولة الطولونية التي كانت آخذة في الانهيار، فما هو إلا أن أرسلت الخلافة جيشا ليس بالكبير، ليستعيد مصر والشام إلى نفوذ الخلافة العباسية.

وأما حركة الإسماعيلية والقرامطة فقد تعرضت لانقسامات مؤثرة؛ كانت ثمة ثلاث مراكز للحركة؛ الأول: وهو أصل الدعوة الإسماعيلية في قرية سلمية قرب اللاذقية بقيادة عبيد الله بن ميمون القداح، ويتبعه المركز الثاني في العراق بقيادة قرمط ويتبع هذا المركز الثاني المركز الثالث في الأحساء بقيادة أبي سعيد الجنابي.

فأما القدّاح فقد انتهى به الحال أن رحل مع أتباعه عن الشام إلى المغرب، وبدؤوا من هناك رحلة جديدة في دعوتهم ستنتهي إلى أخطر النتائج بقيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في المغرب لتكون لها فصول هائلة، وهذه المجموعة عُرفت بالقداحيين وهم حملة وورثة الدعوة الإسماعيلية. وأما من بقي من مجموعات الشام والعراق فقد ورثها شخصية زعامية مجرمة خطيرة سرعان ما استطاع الإمساك بزمامها مرة أخرى، وإعادة إحياء نشاطها، وهذه هي شخصية زكرويه بن مهرويه الفارسي. وأما جبهة الأحساء، حيث المركز الثالث للقرامطة فقد تلقى هزيمة قوية (٢٩٠هـ) قُتل فيها الرجل الثاني بعد زعيمهم أبي سعيد الجنابي، وتوقف عمل هذه الجبهة لسنوات قادمة.

في ظل الضعف الذي أصاب القرامطة في العراق تحت الضربات القاتلة التي أنزلها بهم

المعتضد، تطلع زكرويه -ومركزه في العراق- إلى تركيز جهده على الشام الذي كان يعاني آنذاك من ضعف الدولة الطولونية، ووجّه أبناءه الثلاثة لقيادة القرامطة هناك، ومع أنهم استطاعوا تحقيق نتائج خطيرة وصلت إلى اقتحام دمشق (٢٩٠هـ)، ونفذوا مذابح شنيعة^(١) وانتصروا على جيوش للخلافة مرات، إلا أن النتائج الحاسمة كانت لجيش الخلافة الذي استطاع إنزال هزائم قاسية بهم قُتل فيها أبناء زكرويه الثلاثة، فاضطر زكرويه أن يظهر بنفسه في العراق، وحقق انتصارات كذلك على بعض جيوش الخلافة، وبدأ في نهب الحجاج وقوافلهم، فجهز المكتفي جيشاً كبيراً قضت عليهم وقُتل زكرويه في هذه المعركة.

انتكاسة الخلافة من جديد

ارتكب المكتفي ذات الخطأ الذي ارتكبه الواثق من قبل، إذ لم يُسمّ ولياً للعهد، فلما مات كانت حصيلة المنافسات بين رجال الحاشية قد ذهبت بالخلافة إلى أخيه الصغير جعفر، وكان قد بلغ الحلم، ليكون أول من تولى الخلافة في هذه السن الصغيرة، وليبدأ معه العهد الذي سينقض ما قد عُزل من بعد قوة أنكاثا! وإنما ذهب اختيارهم إليه لأنه جاهل بأحوال الناس، محتاجٌ في تصريف الأمور إلى هذه الحاشية، قال أحدهم: «لِمَ نأتِ برجل كامل يباشر الأمور بنفسه، غير محتاج إلينا»^(٢).

لقب جعفر بالمقتدر بالله، وفي مطلع خلافته حاول الوزير وبعض قادة الجيش خلع المقتدر، وتولية ابن عم أبيه عبد الله بن المعتز، الشاعر العاقل ذي التجربة والذي يقترب

(١) مع أن القرامطة أصحاب دعوة علوية تتعالن بحب آل البيت، إلا أن سيرتهم تدل على الكفر والزندقة، فإنهم كانوا يتقصّدون إذلال الهاشميين وانتهاك أعراض الهاشميات! مثلهم في هذا مثل صاحب الزنج من قبلهم.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٦/٤٣٨.

من الخمسين، لكن اضطرابهم وترددهم أفشل خطتهم، وبقي المقتدر خليفة مع أنه كان قد استسلم للخلع، وبخلاف هذه المحاولة فقد بقي المقتدر في الخلافة ربع قرن (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)، إذ كان لصغر سنه وضآلة تجربته موضع اتفاق لرجال الحاشية ليحكموا باسمه، لا سيما أمّه الجارية شغب التي بلغت نفوذاً عظيماً هي وجواربها، جراء تحكمهم في قرار الخليفة، ولهذا شهد عهد المقتدر كثرة التولية والعزل للوزراء والولاة، وكثرة المصادرات للوزراء المعزولين، وألقى هذا بآثاره على الناس الذين كثر فيهم اندلاع الاحتجاجات أو وقوع الاشتباكات الداخلية، كما ألقى بآثاره على حركات التمرد التي كثرت في أطراف العراق، فضلاً عما حولها من البلاد. لكن أخطر النتائج التي حققها المتمردون على العباسيين تمثلت في ثلاث دول:

١. استطاع جناح القرامطة الذي رحل من الشام إلى المغرب أن يؤسس الدولة العبيدية (الفاطمية) في المغرب (٢٩٧هـ)، وأن يقضي على الدول المغاربية التي كانت تابعة أو مهادنة للخلافة مثل الأغالبة والأدارسة والرسومية، وأعلنت أنها الخلافة الشرعية للمسلمين، وبالتالي فهي قد أعلنت طموحها في القضاء على الخلافة العباسية، وخرجت الجيوش العبيدية نحو مصر لتستولي عليها، وحاولوا ذلك ثلاث مرات (٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٦هـ) لولا أن تصدى لهم جيش الخلافة الذي يقوده مؤنس الخادم، حتى استطاع إجلاءهم عن مصر، وإفشال هذه المحاولات. وكانت هذه المرة الأولى التي تبزغ دولة وتترسخ وهي تعلن أنها خلافة منافسة، وينقسم العالم الإسلامي بين خلافتين.

٢. وبناء على هذا الوضع الخطير وغير المسبوق، أعلن عبد الرحمن الناصر، الأمير الأموي الذي يحكم الأندلس وأجزاء من المغرب الأقصى أنه خليفة للمسلمين، وكانت الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل مستقلة عن العباسيين ولكن أمراءها يكتفون بلقب الأمير ولا ينافسون الخلفاء، فلما كان هذا الزمن وتبين ضعف الدولة العباسية، ثم بزوغ الخلافة العبيدية (الفاطمية)، أعلن الناصر نفسه خليفة، فقد كانت الأندلس في ذلك الوقت

في أزهى عصور ازدهارها. كان الناصر عمليا ينافس العبيديين وينازعهم، فليس معقولا أنه طمح وهو في أقصى الغرب أن يكون خليفة على الحقيقة للمسلمين جميعا، لكن إعلانه الخلافة هو ضربة جديدة في صميم الخلافة العباسية ومكانتها، فذلك الإعلان يستند إلى أن الخليفة العباسي هو مجرد ألعوبة بين النساء وحاشية القصر.

٣. وكان التهديد الأخطر والأعنف هو تهديد القرامطة، وكان من عظيم صنائع المعتضد والمكتفي أن قضوا على مركزي القرامطة في العراق والشام، وإلا لكان القرامطة قد قضوا على الخلافة العباسية بسهولة في عهد المقتدر! لم يكن قد بقي من مراكز القرامطة في عهد المقتدر إلا مركز الأحساء بقيادة أبي سعيد الجنابي، وكان ساكنا بفعل مشكلات داخلية وضربات تلقاها في عهدي المعتضد والمكتفي، وما إن تولى المقتدر الخلافة حتى سعى وزيره الصالح علي بن عيسى في مراسلتهم يدعوهم إلى التوبة والطاعة، وما إن تحرك حامل الرسالة حتى وصله خبر اغتيال أبي سعيد الجنابي زعيم القرامطة على يد خادم له، ومع كل هذه الظروف إلا أن القرامطة توفر لهم أمران خطيران: اضطراب خلافة المقتدر، وزعيم صغير قوي جرئ شرس هو أبو طاهر القرمطي، لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، ذلك الذي انتزع زعامة القرامطة من أخيه الكبير، وشنَّ حروبا قوية مجرمة عنيفة (بين ٣١١ - ٣١٧هـ) هدد بها قلب الخلافة واقتحم البصرة والكوفة وجاس بها في أرجاء العراق حتى شماله، وأنزل في كل مكان طرقة مذبحة عظمى، وتلقت أمامه جيوش الخلافة هزائم قبيحة مع أنهم يبلغون عشرات أضعافهم في العدد والعدة، وانقطع الحج زمنا من العراق وما وراءها. وأعلن القرمطي بيعته للمهدي خليفة العبيديين (الفاطميّين) في المغرب (٣١٦هـ)، ثم ختم جرائمه بالجريمة العظمى غير المسبوقة ولا الملحوقه في تاريخ الإسلام، إذ اقتحم البيت الحرام في يوم التروية (٣١٧هـ) وذبح في جوفه عشرات آلاف الناس وخلع باب الكعبة ومزق أستارها ونزع الحجر الأسود من مكانه وأخذه إلى عاصمته هجر! في خبر تزلزلت له أركان الأمة كلها، حتى تبرأ

منه المهدي خليفة العبديين.

كان هذا العام (٣١٧هـ) أضعف عامٍ مرَّ على الخلافة منذ سبعين سنة، أي منذ عهد مقاتل الخلفاء، فقد جرى فيه انقلاب عسكري على المقتدر، لكنه فشل بفضل حرس القصر واختلاف الانقلابيين وترددهم، ولم يلبث الأمر إلا يوماً، ثم عاد المقتدر إلى مكانه وعفا عن الانقلابيين.

ولئن كان في عهد المقتدر شيئاً حسناً فهو أحوال الجهاد، لقد ورث المقتدر دولة قوية، وتبهاً لها قادة عسكريون أكفاء مثل مؤنس الخادم قائد الجيش، وثمان الخادم قائد قوات البحر، وتوفرت لهؤلاء فرصة نادرة باضطراب الأحوال داخل الإمبراطورية البيزنطية التي انشغلت بحروبها مع البلغار، والقارئ لأحوال هذه الفترة يتردد بين مشهدين: الحمد الجزيل لله تعالى على انشغال الروم بأمورهم فلقد كانت لديهم فرصة ذهبية في اجتياح الثغور الإسلامية، والحسرة الشديدة على افتقار الخلافة في ذلك الوقت لخليفة له همة الموفق أو قوة المعتضد أو حتى شخصية المكتفي، إذن لاستطاع المسلمون إنزال هزائم حاسمة وتحقيق نتائج فارقة في الحروب مع الروم. وحصيلة الموقف أن السنوات الأولى من عهد المقتدر شهدت تفوقاً إسلامياً قوياً (٢٩٦ - ٣١٢هـ)، فكان المسلمون يستطيعون اجتياح مدن الروم بسهولة غير مسبوقة منذ أيام فتوح الراشدين والأمويين ولن تأتي مرة أخرى إلا بعد أكثر من قرنين مع السلاجقة. ثم انتكست الأوضاع لثلاثة أعوام (٣١٣ - ٣١٦هـ) فكان الروم ينفذون غارات قوية على المسلمين، إذ كانت الخلافة مشغولة في تلك الفترة بالقرامطة، ولكن لم تخلُ صفحات تلك السنين من أخبار مقاومة شعبية بأسلة استطاعت إنزال هزائم قوية بجيش الروم (٣١٥هـ)، ثم عادت الانتصارات الإسلامية من جديد لبقية عهد المقتدر.

ثم بلغت أحوال الدسائس منتهاها، وتكاثرت النزاعات بين أجنحة الأقوياء في القصر: الوزير وقائد الجيش وقائد الشرطة وأم الخليفة وخاله والولاة الأقوياء وغيرهم، حتى

انتهى الأمر بانقلاب عسكري جديد، قُتل فيه المقتدر، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، بعد خلافة بلغت ربع القرن، وهي أطول خلافة في تاريخ العباسيين حتى ذلك الوقت، وكان هذا من العجائب كما يقول عريب بن سعد: «تحيّر الناس في أمر دولة المقتدر وطول أيامها، على وهي أصلها وضعف ابتائها»^(١). وجدّدت هذه الحادثة ذكرى مقاتل الخلفاء، وكانت إعلاناً على عودة نفوذ العسكر مرة أخرى فوق الخلفاء!

اضطرب القادة فيمن يختارون بعد المقتدر، فذهب بعضهم إلى تولية ابنه وذهب آخرون إلى تولية أخيه، وانتصر الرأي الأخير الذي أراد ألا تتكرر سيرة خليفة ضعيف تحكمه النساء، فتولى الخلافة محمد بن المعتضد، ولُقّب بالقاهر بالله، وقضى في الخلافة سنة ونصف السنة قضاها في محاولة القضاء على زعماء الانقلاب، وفي تعذيب أم المقتدر ورجاله لاستخلاص الأموال منهم، وأظهر طبعاً غادراً وشرساً، وما إن انتهى من خصومه حتى انقلب على حلفائه وأنصاره فقتل قائد الجيش الكبير وبطل هذا الوقت مؤنس الخادم، ثم الحاجب علي بن بليق وأبيه، وصاحب الشرطة، وكان مندفعاً في هذا التعقب الشرس حتى خاف منه رجاله الذين عاونوه في ذلك، فما لبثوا أن انقلبوا عليه، لكنهم لم يقتلوه، بل سَمَلُوا عينيه، فعَطَّلُوهُ بهذا عن أن يكون صالحاً للخلافة، وحبسوه، وظل بين حبس وإطلاق لعشرين سنة قادمة كان فيها يتسول الناس! فعادت عليه خلافة السنة ونصف السنة بعذابٍ وذلٍّ امتد لعشرين سنة!

غروب النفوذ التركي

ذهب الجند الأتراك بالخلافة إلى أبي العباس أحمد بن المقتدر، فتولاها وهو في الخامسة والعشرين من عمره (٣٢٢هـ)، وتلقب بالراضي بالله! خرج من زنزانة عمه

(١) عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري، ص ٢١.

القاهر إلى كرسي الخلافة في يوم وليلة! وتشكل في عهده وضعٌ جديد، إذ كان عهد المقتدر القصير قد قضى على رجال الحقبة السابقة، فُولدت أسماءٌ جديدة، وُولدت معها صراعاتٌ جديدة، ومنافسات لا تنقطع، وضربت الأزمة المالية قلب الخلافة، إذ صار كل أمير أو كل جناح يستعمل أموال ناحيته في تقوية نفسه وتمويل جنده والإنفاق على حروبه وضم المزيد من الأطراف والتحالفات إلى معسكره، والخليفة لا يملك من الأمر شيئاً، والوزير في بغداد لا يملك إلا مصادرة السابقين ليحاول استخلاص الأموال التي يدفع بها رواتب الجند وعطاياهم ممن يثيرون الشغب ويهددون بالانقلاب، ووصلت الأزمة إلى الناس فقد غلت الأسعار، ثم ازداد الحال سوءاً بتفشي المرض والطاعون، ولم يعد أمام الخلافة إلا اللجوء إلى أحد أجنحة الصراع، أي أحد أمراء هذه الحروب، ليتولى -بما معه من الجند والمال- تدبير الأمور في عاصمة الخلافة، ويبرز من الآن منصب «أمير الأمراء» الذي يجمع صاحبه بين تدبير الأمور المدنية والعسكرية معاً، فهو منصب فوق الوزير وقائد الجيش كليهما، ومن يتولاه صار صاحب الأمر بلا منافس!

ثم يدخل هذا القائد في صراع مع الآخرين، ويحاول بقية الأمراء الوصول إلى منصب «أمير الأمراء» ويتنافسون على هذا، وتتسع دائرة المعارك والتحالفات والمطامح، فيجد فيها البويهيون -وقد صاروا كتلة عسكرية قوية تسيطر على مساحة في فارس- فرصة ليدخلوا على خط الصراعات والتحالفات في العراق وعاصمة الخلافة.

شغلت هذه الصراعات عهد الخليفة الراضي الذي عاش سبع سنوات، حاول فيها ما استطاع أن ينفذ بين أجنحة المتخالفين فلم ينجح، وجاهد أن يضرب بعضهم ببعض فلم يفلح، حتى قال المسعودي عنه: «كان شديد التضريب بين أوليائه، لاستبدادهم بالأمور دونه، وقصور يده عن تغيير ذلك»^(١)، ومات وهو في الحادية والثلاثين من عمره

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، (القاهرة: دار الصاوي، د. ت)، ص ٣٣٧.

(٣٢٩هـ)، وقد فقدت الخلافة أملها في استعادة مكانتها التي ضاعت منذ عهد أبيه المقتدر. وستمّر قرونٌ يردد فيها المؤرخون أنه كان «آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجرياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه، وأموره كل ذلك يجرى على ترتيب المتقدمين من الخلفاء»^(١).

وتولى بعده أخوه إبراهيم، وتلقب بالمتقي لله، وكان تقيا حقا في شأن نفسه فكان كثير العبادة وقراءة القرآن ولم يشرب الخمر، ووجد نفسه أمام ذات الصراع الذي واجهه أخوه من قبله، وكان الصراع قد زاد شراسة وتقلب أحواله، حتى لقد اقتحّم على الخليفة داره ودار حريمه، وهرب من بغداد، وانحاز إلى الحمدانيين، أصحاب القوة في الموصل، وعاد إلى بغداد بسيفهم، ومع ذلك حملته أمواج الانقلابات والمعارك وفصولها إلى أن خلع وسُملت عيناه (٣٣٣هـ) على يد القائد التركي توزون الذي كان مسيطرا على بغداد آنذاك.

وخلال هذه العهود الثلاثة: عهد المقتدر وابنيه الراضي والمتقي، ساءت أحوال الثغور، وكانت فرصة للروم فنفذوا عدة اجتياحات خطيرة في مدن الثغور، فقتلوا فيها وأسروا وخرّبوا، ووصلوا حتى حلب! في أجراً توغل منذ زمن الفتوح! ولكن الله تفضل على عباده فشغل الروم زمانا بصراعاتهم الداخلية مع البلغار والأرمن، وإلا لكانت الحالة أسوأ كثيرا، ولهذا طلب الروم هدنة (٣٢٦هـ) استمرت لأربع سنوات، ثم تجددت غاراتهم. وفي عهد المتقي ظهر عدوٌ جديد، وهم الروس الذين أبادوا جيش المسلمين في أذربيجان، وقهروا فرقا عسكرية كثيرة، ثم تفضل الله على عباده فانتشر بينهم وباءٌ أضعفهم، ثم انتصر عليهم المسلمون.

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ١٤٣/٢.

وانتفش القرامطة أيضا في هذه العهود الثلاثة، لكن أقصى ما بلغوه منع الحج أو أخذ الإتاوة من الحجاج، ثم تفضل الله على المسلمين بالموت المبكر لزعيمهم أبي طاهر القرمطي (رمضان ٣٣٢هـ)، وأخذ حالهم بعدها في الخفوت.

بلغ ضعف الخلافة حداً مريعاً، لقد ترأس عبد الله بن المكتفي مع القائد التركي توزون، وطلب منه أن يبايعه بالخلافة نظير أموالٍ سيستخلصها من كنوز دار الخلافة، وهو ما كان، وبويع الخليفة وتلقب بالمستكفي (٣٣٣هـ)، وكان توليه دليلاً على الحال المزري الذي وصل إليه رجال البيت العباسي، إذ صاروا يتوسلون الخلافة من العسكر التركي.

وفي زمن هذا المستكفي، كانت الصراعات قد وصلت ذروتها، فالقادة المتشاكسون صاروا بين ميت بقدر الله أو مقتول على يد آخر، أو هارب على وجهه، فكانت الفرصة المثلى لاستيلاء البويهيين على العراق، ونجاح دولةٍ ما لأول مرة في التاريخ، في السيطرة على بغداد عاصمة الخلافة، والتحكم في الخليفة العباسي نفسه!

وقفة مع عصر النفوذ التركي

١. لئن كنا الآن نلقي النظر على بعض الملامح في عصر النفوذ التركي الذي تضععت فيه الخلافة، فلا بد أن نتذكر ما كان لهؤلاء العسكر الأتراك في أول عهدهم - مع المأمون والمعتصم وحتى المتوكل - من انتصارات وجهاد باسل، وأنهم كانوا الحل الموجود أمام الخلفاء حين بدا لهم الضعف أو عدم الثقة في الكتلتين العربية والفارسية. يجب ألا ننسى هذا الأمر - وقد ذكرناه سابقاً بنوع من التفصيل^(١) - ثم يجب أن نضيف إليه أيضاً ما أنجزه أولئك العسكر الأتراك في عصر نفوذهم هذا من جهاد الروم والبيديين

(١) راجع في هذا ما ذكرناه في الفصل السابق عن: الخلافة العباسية في عصر القوة

والروس، وهي نتائج حاسمة وفي غاية الأهمية على مسار التاريخ كله.

٢. مع سائر السلبيات التي ذكرناها، والتي يمكن ذكرها كذلك، عن السيطرة العسكرية التركية، إلا أن أولئك الأتراك كان لهم نصيب في بقاء الدولة العباسية، وكان لهم النصيب الأكبر في مواجهة التمردات التي خرجت عليهم، وستبدو الصورة مريعة ومرعبة إذا تصورنا نجاح بعض هذه الحركات المتمردة، وما قد يترتب على ذلك من انتهاء الخلافة السنية الجامعة، إن بعض الحركات الخطيرة التي كانت لها تمردات قوية كانت نوعاً من الإجرام لا أكثر، مثل ثورة صاحب الزنج، ومثل قاطع الطريق وقائد اللصوص يعقوب الصفار، فإذا تصوّرنا أن استطاع هؤلاء الانتصار على الخلافة العباسية، لوجدنا أماناً صورة سوداء قاتمة، ونتائج كارثية تعود على الأمة جميعاً.

لقد كان الجند الأتراك، رغم كل سلبياتهم، من أهم عوامل استقرار الدولة العباسية، وبالتالي استقرار الخلافة السنية الجامعة عبر القرون التالية، وهذا إنجاز لا يمكن التقليل من شأنه. وأقصى ما وصل إليه طبعهم العنيف واجتراؤهم الخشن أنهم قتلوا الخلفاء لكن لم يفكروا أبداً في إسقاط الخلافة أو صرفها إلى غير العباسيين أو الانضمام إلى أحد الخارجين. وبذلك أسسوا ورسخوا لمكانة الخلفاء العباسيين وتسامي مرجعية الخلافة فوق المعارك والمنازعات. وكان لهذا أثره الطيب والحاسم في استقرار الخلافة العباسية قروناً.

٣. المقاومة دائماً خير، فما من مقاومة حتى لو أخفقت في النتيجة النهائية إلا وقد صنعت من الخير بمقدار ما استطاعت، ومن أمثلة هذا: مقاومة الخلفاء الأوائل مثل المستعين والمعتز والمهتدي، فهم وإن هُزموا آخر الأمر إلا أنهم تخلصوا من القادة الأتراك الأقوياء، فَسَهَّلُوا بذلك المهمة لمن جاء بعدهم في زمن صحوة الخلافة مع الموفق والمعتضد والمكتفي، وما كان ذلك ليكون لو أن أولئك الخلفاء وجدوا أنفسهم في مواجهة أمثال بغا الكبير وابنه موسى ووصيف وابنه صالح وبغا الصغير. لقد كانت من

نتائج مقاومة الخلفاء الأوائل أن أزاحوا هؤلاء في خضم الصراع.

ومن المقاومة المثمرة كذلك ما أنجزه خلفاء صحوة الخلافة مع الزنج والصفاريين والقرامطة كان خيرا كبيرا، لولاه لانتهدت الخلافة العباسية مبكرا. إن ما أحدثه القرامطة من الفجور كان ثمرة فرع واحد من ثلاثة، بينما كان المعتضد والمكتفي قد استطاعا القضاء على الفرعين الآخرين في العراق والشام، وهو القضاء الذي رآه بعض المؤرخين «آخر الانتصارات الكبرى للإمبراطورية (العباسية)»^(١). إن مجرد التخيل ماذا قد يكون المصير لو كان هذان الفرعان جاءا في زمن الضعف لهو تخيل مرعب!!

٤. تواجهنا كثيرا في التاريخ وفي الواقع معضلة الشخص القوي الذي لم ينشئ بعده نظاما قويا، وتلك إحدى الخصائص الفارقة التي تميز القائد المؤسس والمجدد عن غيره من القادة الأقوياء، إن خلفاء زمن صحوة الخلافة كانوا أقوياء في أنفسهم لكنهم لم يغيروا التوازن بين عناصر القوة، فظلت القوة العسكرية يحتكرها الأتراك تقريبا، ولم يحصل أن حاولوا إعادة القوة إلى الكتلة العربية أو إلى الكتلة الفارسية المخلصة للخلافة، ولما لم يعتدل ميزان القوى، ولم يتحول الإصلاح إلى نظام مسنود بقوى اجتماعية وعسكرية وعلمية، ذهبت القوة والإصلاح بذهاب القائد القوي، ومن هنا نرى أنه لما ذهب الأقوياء عادت الحال بعدهم كما كانت، بل أسوأ، فاستطاع النظام الانتصار على الخليفة القوي، واحتواء إرثه وامتصاص أثره!

٥. إن إصلاح الدولة العسكرية واحدٌ من أصعب الأمور، ذلك أن انفراد العسكر بالسلطة يجمع في أيديهم السلاح وسلطة الشرعية (التي ينتزعونها بالسلاح نفسه)، فيتسبب هذا في ضربة قاصمة للقوى الاجتماعية والعلمية ثم الاقتصادية، أو على الأقل

(١) مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية، ترجمة: أسامة غاوجي، ط ١ (بيروت:

الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٢١م)، ١/ ٧٨٤.

تعطلها وعجزها عن موازنة هذه القوة العسكرية التي اجتمعت لها سلطة السياسة والحرب، فتصرفت في السياسة ومع الرعية كما تتصرف في الحرب بطابعها العسكري العنيف وعقلها الأمني الاستثنائي. ولذلك ندر أن تزول دولة عسكرية إلا على يد احتلال أجنبي، وندر أن ينصرف حاكم عسكري عن السلطة إلا بانقلاب عسكري عليه يحبسه أو يقتله! وفي هذه الفترة التي ناقشها ظهر أن هذه المجموعات العسكرية «لم تكن تحمل حسا بالمسؤولية يوازي حتى ما يحمله حُكّام الولايات البعيدة في الشرق والغرب»^(١).

لا شك أن ترسخ سلطة الخلافة العباسية، وطبيعة النظام الإسلامي الذي يمنع السلطة من الانفراد بالقوة، قد ساهم في تخفيف سطوة الحكم العسكري التركي في العهود الإسلامية، لكن هذا لا يغير من حقيقة أن الحكم العسكري شرٌّ غالبا! وله آثاره الخطيرة البالغة الضرر.



(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ٧٨٨.

عصر النفوذ البويهى

أصل البويهيين ونشأتهم

من بين النتائج الخطيرة التي ترتبت على ضعف شأن الخلافة في عصر النفوذ التركي، أن كثرت محاولات الاستقلال في الجناح الشرقي من الدولة الإسلامية، فنشأت في مناطق فارس وما وراءها دول عديدة كالطاهرية والسامانية والصفارية والزيدية وغيرها^(١)، وتعددت في ذلك كله موجات الصعود والهبوط، ونشبت المعارك والتحالفات، وظهر كثير من الرجال الطموحين والأمرء والقادة الذين فكّروا في تأسيس دول لهم أو حتى في وراثة دول غاربة، أو على الأقل فكّروا في إيجاد موقع لهم بين هذه الأجنحة المختلفة والمتصارعة. ومن بين هذه الساحة الحافلة المتواردة بالرجال والمحاولات كانت الدولة الزيدية في إبان غروبها، وظهر في المشرق أمير طامح هو مرداويج بن زيار يريد أن يستولي لنفسه على فارس وما جاورها، وبينما هو في توسعه وصعوده انحاز إليه جنود كانوا في ولاء الدولة الزيدية، ومن هؤلاء الجنود ثلاثة إخوة: علي والحسن وأحمد، وهم أبناء

(١) سنأتي للحديث عن ذلك في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

صِيَادٍ دَيْلَمِيٍّ فَقِيرٍ يَسْمَى بُوَيَّه.

تولى علي بن بويه على الكرج^(١) وبرزت فيها مواهبه القيادية والسياسية، وداعبه الطموح حتى نافس أميره السابق مرداويج، وتوسع فاستولى على أصفهان وهزم والي الخلافة عليها، ثم هزم جيشا لمرداويج نفسه، ثم استولى على شيراز، وصار أمراً واقعا، فأرسل إلى الخلافة أن توليه على ما تحت يده مقابل مليون درهم، وما كانت الخلافة في عهد الراضي تملك أن تفعل غير ذلك، فأعطته الولاية ولم يُعْطها المال! وما لبث أن اغتال بعضُ الجند زعيمهم مرداويج الرجل الأقوى في منطقة فارس وطبرستان، فانفرد علي بن بويه بالنفوذ في تلك الأنحاء.

تلقب علي بن بويه بـ «عماد الدولة»، وكان معه أخواه: الحسن (ركن الدولة) وأحمد (معز الدولة)، وقد قال عماد الدولة عنهما: «أخوأي بالنسب، وابناي بالتربية، وصنيعتاي بالولاية»^(٢). فهو زعيم البويهيين، وأخواه أتباع له.

البويهيون في بغداد

وفرت الصراعات في العراق فرصة ممتازة لأحمد بن بويه (معز الدولة)، الذي كان أقرب البويهيين إلى العراق، أن يدخل على خط هذه الصراعات، وأن يطمع في الاستئثار بمنصب أمير الأمراء في بغداد، وقد استطاع ذلك بالفعل بعد جهد (٣٣٤هـ)، ثم استطاع بعد جهد أكبر وعبر معارك متتالية أن يقضي على سائر مراكز القوى أو يتصالح معها، وبه بدأ العصر البويهي، وكان من أوائل من تخلص منه: الخليفة المستكفي نفسه بعد شهر واحد، إذ اتهمه بالسعي للانقلاب عليه، فخلعوه وسملوا عينيه، وذهبوا بالخلافة لغريمه

(١) تقع وسط شمالي إيران الآن.

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ٦ / ١٤٤.

الفضل بن المقتدر الذي تلقب بالمطيع لله.

أول ما طُرح من المسائل الكبرى: ماذا ينبغي أن يفعل البويهيون مع الخلفاء العباسيين، فالبويهيون شيعة على المذهب الزيدي^(١)، وهو مذهب الدولة التي نشؤوا في ظلها، وينبغي أن يكون ولاء هؤلاء للعلويين، فإما أن ينصبوا خليفة علويًا أو أن يبايعوا للخليفة المنتسب للعلويين، وهو الخليفة العبيدي الفاطمي في المغرب. إلا أنهم لم يفعلوا؛ فلم يكن خلع العباسيين أمرًا سهلاً في أرض وبين شعب استقرت فيها وفيهم شرعية العباسيين لقرنين من الزمن، لكن الأهم من هذا أن خليفة عباسيا ضعيفا يرى جنود البويهيين أنه بلا شرعية هو أحسن للأمير البويهي من خليفة يراه الجنود واجب الطاعة، فإن هذا الخليفة العلوي لو أمر الجند بقتل الملك البويهي نفسه لقتلوه! وفوق ذلك كله فإن شهوة السلطان وحب التفرد به أقوى من وازع الدين إلا عند أفذاذ الناس وخلصائهم. لهذا أبقى البويهيون على خلافة العباسيين.

قضى معز الدولة البويهي في الحكم اثنين وعشرين سنة يقضي على تمردات الأمراء الأقوياء في العراق: الحمدانيين في الموصل وعمران بن شاهين في البصرة فضلا عن القرامطة في الجنوب وغيرهم، وقد نجح بعد مشقة وعنت وحروب في إخضاعهم دون القضاء عليهم، عبر حلول وسط واتفاقيات بأداء أموال سنوية. ومع أنه ديلمّي إلا أنه أثر الجند الأتراك بالمكانة في جيشه إذ قد عانى من تمرد للجنود الديلم فقد استنكف بعض

(١) يفسر بعض المؤرخين انتقالهم من المذهب الزيدي إلى المذهب الإمامي الاثنا عشري بأن ذلك أنسب لطموحاتهم السياسية، إذ المذهب الزيدي يلزمهم بتولية أحد أئمة الزيدية، بينما الاثنا عشري إمامه محجوب وغائب في السرداب فلا يمنعه من الحكم بأنفسهم! وبعضهم يعرض هذا بلهجة المؤامرة!

ينظر: كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه إلى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة: حسين جواد قبيسي، ط ١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مايو ٢٠١٠م)، ص ٣٥٨؛ برنارد لويس، العرب في التاريخ، ترجمة: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، ط ١ (بيروت: دار العلم للملايين، مارس ١٩٥٤م)، ص ٢٠٧.

قادتهم أن ينفرد دونهم بهذا المنصب.

لكن أبرز ما أسفر عنه حكمه هو تأسيسه للفتن المذهبية في العراق، لقد ظهر معه أن البويهيين أميل إلى الرفض منهم إلى مذهب الزيدية، إذ هم يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة، فكان هذا العهد هو تدشين الصراعات المتجددة بين السنة والشيعة في العراق، إذ بدأ معز الدولة بكتابة لعن الصحابة في المساجد، وألزم الناس الاحتفال بذكرى قتل الحسين، وعيد غدير خم، ونحوها من الأيام التي أصبحت مواسم فتنه ومعارك.

ولم يكفه ذلك حتى أسس لفسادٍ جديد في شؤون الدنيا، فقد فتح باب تولي المناصب بالرشاوى، حتى منصب القاضي صار يُباع بالمال، فضلا عن غيره من المناصب كالمحتسب وصاحب الشرطة وغيرها، وهو ما أسس لفساد عريض وخراب شامل؛ فالمال الذي يُجتبى لتحصيل المناصب يُفضي بصاحبه لأنواع من المفساد لتحصيل مال فوق الذي بذله، وهو ما يفتح باب المنافسات، ثم باب المصادرات، ولذلك تأسس في هذا العهد نظام الإقطاع، إذ لم يجد معز الدولة وسيلة لإسكات القادة وإرضائهم سوى منحهم البلاد والولايات على هيئة الإقطاع، وهو ما كان له أسوأ الأثر على مالية الخلافة، وزاد في فساد الأحوال فسادًا جديدًا!

مات معز الدولة (٣٥٦هـ) بعد اثنين وعشرين عاما في الحكم، ومهد الأمر من بعده لابنه بختيار، الذي تلقب بعز الدولة، والذي كان عسوفا ظلوما مسرفا، فانبثقت عليه التمردات من الجند الأتراك ومن الجند الديالمة، ومن أمراء العراق الذين أسكتهم وأخضعهم أبوه حتى حين، ثم زاد على ذلك أن اجتاحت الروم ديار المسلمين حتى حلب ونصيبين، وزاد عليه استيلاء العبيديين (الفاطمين) على مصر ثم على الشام والحجاز فتوسعت دولتهم توسعا يشبه الانفجار حجما وقوة، ومع كل ذلك فلم يفعل عز الدولة شيئا، فإذا وقع هذا كله على مجتمع يعاني من الفتن المذهبية ومن قلة المال وفساد الإدارة، فقد انتهى هذا الوضع إلى تمرد واسع على عز الدولة، من الأمراء ومن الجند

الأتراك، حتى اندلعت الحرب التي لم ينقذه من الخسارة فيها إلا النجدة الواردة إليه من عمه ركن الدولة الحسن بن بويه، وابن عمه عضد الدولة.

ذروة البويهيين: عضد الدولة

كان عضد الدولة قد انتهى إليه حُكم البويهيين، فزعيم البويهيين عمادُ الدولة عليّ توفي ولم ينبج ذكراً فعهد بالحكم من بعده لعضد الدولة وهو ابن أخيه ركن الدولة الحسن، ثم لما مات ركن الدولة الحسن كان ابنه وريثه، فجمع عضدُ الدولة إرث أبيه وعمه، وكان قد تطلع قبل ذلك لانتزاع العراق من ابن عمه في بغداد عز الدولة بختيار، وهو ما كان بالفعل (٣٦٧هـ)! فصار بذلك زعيم الدولة البويهية.

وقبل أن يُخلع عزُ الدولة ويُقتل، كان الخليفة المطيع لله قد أصابه الفالج (الشلل النصفي) فتنازل عن الخلافة لابنه الطائع (٣٦٣هـ) بعد نحو ثلاثين سنة في الخلافة.

يعد عضد الدولة البويهي ذروة دولته، وقد استطاع -في خمس سنوات فحسب- القضاء على خصومه في العراق وفارس، وأزال الدولة الحمدانية من الموصل، وعاشت بغداد لأول مرة منذ نصف قرن، أي منذ زمن الخليفة المقتدر بالله، عصراً هادئاً آمناً وادعاً، فقد شرع عضد الدولة في عمارة البلاد وإصلاح الإدارة وتنمية الزراعة وحفر الأنهار والإنفاق على أهل العلم، وكان محباً للعلم والأدب والشعر فازدهر ذلك في عهده، وبنى المستشفى العضدي الذي هو من أهم البيمارستانات في تاريخ الحضارة الإسلامية، بل ظل أهم مستشفى في البلاد الإسلامية حتى لقرنين على الأقل إلى أن بنى نور الدين زنكي البيمارستان النوري في دمشق! وذلك أن العمل والخدمة والطب فيه كان أرقى ما وصل إليه في أنحاء العالم. ومع أنه شيعي فقد حرص على وأد الفتن بين السنة والشيعة.

إلا أنه كان سريعاً إلى العقوبة والقتل، جائراً في بعض الضرائب اخترعها وفي مصادرة المال من غير وجهه المشروع، كما أنه شغف باتخاذ الرسوم السلطانية فلقب نفسه «ملك

الملوك»، وصارت الطبول تضرب أمام قصره كما تضرب أمام قصر الخليفة، ولم تكن تُضرب قبل ذلك إلا للخليفة. بل لقد خرج الخليفة بنفسه لاستقبال عضد الدولة حين رجع إلى بغداد من بعض حروبه. ورغب عضد الدولة أن يتزوج الخليفة من ابنته، يرجو بذلك أن تلد ولدًا فيجعله وليًا للعهد، فيكون خليفةً أخواله هم البويهيون.

وبينما هو في ذروة مجده وقد بدا أن الدنيا صفت له، إذ به يمرض ثم يموت (٣٧٢هـ)، بعد خمس سنوات فحسب من الحكم، ولا يزال في أواخر الأربعينات من عمره، وما من ريب في أنه أقوى ملوك البويهيين ومن أكفأ الحكام في تاريخ العراق والدولة العباسية.

غروب البويهيين

ما إن مات عضد الدولة حتى اندلعت المعارك بين أبنائه على وراثته حكمه، فلم يستطع ابنه المرزبان الملقب بـ «صمصام»^(١) الدولة أن يحتفظ بالحكم أكثر من أربع سنوات حتى انتزعه منه أخوه شرزيل الملقب بـ «شرف الدولة» (٢٧٦هـ) وقد كان قبلها يحكم منطقة كرمان، في أقصى جنوب شرقي الدولة البويهية. لكن لم يمض العامان إلا ونزل الموت بشرف الدولة ولم يزل في الثامنة والعشرين من عمره. وأفضت المعارك التي اشتعلت بين الإخوة الأربعة إلى موتهم أو حبسهم، حتى وصل الحكم إلى أخيهما الصغير الذي لم يبلغ العشرين بعد: بهاء الدولة الذي لم يقاتل على الحكم ولم يسع إليه! وإن في ذلك لعة!

وكانت هذه الفوضى والمعارك، بما حملته من محاولات تحالف وشرارات وإغراءات، قد فجّرت من جديد الخلافات بين جناحي الجيش: الديلمي والبويهي، وعمل المتصارعون على اجتذاب بعض القادة أو الأجنحة، حتى صارت الفرق والكتائب في حالٍ أقرب إلى فرق المرتزقة، فاستهل عهد بهاء الدولة بمعارك عنيفة بين الأتراك

(١) الصمصام: من أسماء السيف.

والديلم، ثم بدأ عمل الجند في الحروب المتصلة بين بهاء الدولة ومنافسيه في العراق وفارس، من البويهيين ومن غيرهم، وقد خسر بهاء الدولة فارس وخسر الموصل، واشتد عليه الحال مع قلة الأموال، فلم يجد لترضية جنده إلا أن يخلع الخليفة الطائع لله وينهب داره وكنوزه رجاء أن يجد فيها ما يُسكِّت به شغب الجنود، فخلع الخليفة مهانا (٣٨١هـ) بعد سبع عشرة عاما في الخلافة، وقد بلغ الرابعة والستين من عمره، على يد بهاء الدولة ذي الواحد والعشرين عاما!

طال الزمن ببهاء الدولة كما طال بأبيه وأعمامه، على عكس قصر الزمن بإخوته، فقد حكم نحو ربع قرن حتى توفي (٤٠٣هـ)، لكنه خرج من بغداد ليجعل عاصمة حكمه مدينة شيراز الفارسية، وهي معقل البويهيين الأولى التي اتخذها عم أبيه وزعيم البويهيين عماد الدولة عليّ، وصار حكم بغداد لأحد ولاته وأتباعه يُلقب بعميد العراق أو عميد الجيوش، وهذه المرة الأولى التي تُحكم فيها بغداد من خارجها منذ أن ظهرت إلى الوجود قبل قرنين ونصف القرن تقريبا. وقد ساعدت الظروف بهاء الدولة باضطرابات في معسكرات خصومه، وبوزراء أكفاء في جانبه، حققوا له انتصارات غالية في جبهات العراق وفارس، لكنه لم يهنأ بهم كثيرا، بل قتلهم دفعا لتمرّدات الجند وطلبهم للأموال، وكان كثير التولية والعزل حتى قال الوزير المؤرخ أبو شجاع في هذا: «صار الأمر عجبا والجد لعبا، على أن الحياة الدنيا لعب ولهو ولكن في اللعب مستقيم ومختل، وهذا من المختل الذي تخالفت أعجازه وبواديه، وتناقضت أواخره ومباده، فهل ترى في جميع ما شرد من أخبار الدولة البهائية نظاما مستقيما تحمد سلوك مذهبها وتديرا جيدا ينتفع بمعرفة تجاربه؟ كلا، فجميعه واهي الأسباب وما يجري فيه من صواب فإنما هو بالاتفاق»^(١).

وهذا الصواب الذي وقع بالاتفاق، أي بحسن الحظ، هو الذي يوصل إلى الخلاصة

(١) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ٧/ ٣٠٢.

الأخيرة لعهد بهاء الدولة، وهي أنه استطاع أن يحافظ على دولة البويهيين في أقصى اتساع لها كما كان في زمن أبيه عضد الدولة، وإن عجز أن يجعلها في نفس قوتها أو استقرارها. بل لقد زادت الفتن المذهبية في العراق على عهده، واخترع جُهل أهل السنة أعيادا لهم ابتدعوها في مقابل بدع الشيعة، فاتخذوا يوما في ذي الحجة ذكروا بأنه يوم دخول النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار، واتخذوا يوم مقتل مصعب بن الزبير ذكرى كذلك، وتكررت الفتن والمعارك بين السنة والشيعة، ودخل على خطها الجيش، فالأترك السنة والديلم شيعة، فاجتمع في معاركهما السبب العرقي والنفوذ السياسي والمذهب الديني! بل وقعت بعض الفتن مع النصارى كذلك.

بعد وفاة بهاء الدولة قضى ابنه سلطان الدولة ومشرف الدولة عشر سنوات حافلة من الحروب والصراع والاتفاقيات والمؤامرات، كلُّ منهما يريد الانفراد بالمملكة لنفسه، ثم انقسمت المملكة بينهم، سلطان الدولة يحكم فارس وكرمان من شيراز، ومشرف الدولة يحكم العراق من بغداد، وما إن سكنت الحرب بينهما حتى توفيا معا في تقريبا: سلطان الدولة (٤١٥هـ) وهو لا يزال في الثانية والثلاثين من عمره، ومشرف الدولة (٤١٦هـ) وهو في الثالثة والعشرين من عمره! وألقى هذا الصراع بآثاره على مناطق العراق التي يزداد فيها استقلال بعض الأمراء بمزيد من الأنحاء، وعلى اشتعال الفتن المذهبية والدينية، وعلى انقطاع الحج إذ صار الحجاج يتعرضون لنهب الأعراب في كل عام.

استقر الأمر بعد حروب وتردد ومنافسات على أن يتولى بغداد جلال الدولة بن مشرف الدولة، ويمكن أن نسمي هذا العهد منذ الآن وحتى نهاية العصر البويهي بعصر الصغار، فما من قوة تستطيع أن تحسم لنفسها الأمر، لا الجند الأتراك فيهم زعيم قوي ينتزع الحكم من البويهيين، ولا هم يسكتون ويخضعون ويصبرون على تأخر رواتبهم، ولا البويهيون فيهم من يستطيع القيام بأمر الحكم، ولا تدبير الأموال، ولا الخليفة من ناحيته يملك -بعد العهد الطويل من الضعف- أن يستعيد زمام القوة مرة أخرى، فحصل ما يُسمَّى «توازن

الضعف»، وإذ بالحدث البسيط في المكان البعيد -كانقسام أو انقلاب أو اغتيال في عائلة تستقل بناحية من العراق- يؤثر على موازين القوى بين قسمي البويهيين في شيراز وبغداد، ثم ما يلبث حدث آخر في مكان آخر أن يطلق سلسلة من التفاعلات فيعيد الوضع إلى ما كان! ومن نافلة القول أن هذا كله قد وفر أجواء مزهرة للفتن الدينية والمذهبية والانفلات الأمني في بغداد وخارجها.

وكان من حسنات هذا الوضع عودة بعض القدر لمقام الخليفة القادر بالله، فإن انشغال البويهيين بصراعاتهم مع أنفسهم ومع الجند الأتراك جعله مقصودا ليقوم بدور الوسيط أو الشفيع أحيانا، كما أن أحدا منهم لن يخاطر بنهبه وسلبه فيزيد على نفسه المشكلات، فاستطاع الخليفة استثمار ما بيده من الأموال في الإنفاق على الفقراء والضعفاء ومثل هذا يزيد من قدر الخليفة لا سيما في أزمان الضعف والفتن والحاجة، كذلك فقد كان الخليفة من أهل العلم في وقت كان أمراء البويهيين فيه لا يحفلون بالعلم ولا انشغال لهم به، وسمحت له هذه الظروف أن يخرج بنفسه متنكرا فيطرق المساجد ويتلمس أحوال الناس. وأخيرا فقد ظهر في المشرق سلطان قوي على دولة عظيمة، ذلك هو محمود بن سبكتكين الغزنوي سلطان الدولة الغزنوية وفتح الهند، فقد كان هذا السلطان يرسل الخليفة معلنا بالطاعة، ويكتب إليه بأخبار الفتوح، وييدي له الخضوع التام والإجلال الكبير، ويتعامل مع رسل العبيدين (الفاطمين) بازدراء واستهانة، وقد استطاع محمود بن سبكتكين في تمدده الكبير أن يستولي على بعض الأملاك البويهية في منطقة الري والجبال^(١). لكل هذا بدأ اسم الخليفة يتردد في هذا العصر في بعض شؤون السياسة والإدارة، كالعزل والتولية والتشفيع، وأصدر الخليفة وثيقتين مهمتين؛ الأولى: بيان كذب نسب العبيدين (الفاطمين) وانتحالهم النسبة إلى علي وفاطمة، ووقع عليه فقهاء بغداد

(١) تقع الآن في شمال إيران.

بمن فيهم فقيه الشيعة. والثانية: الوثيقة التي عرفت بالاعتقاد القادري حيث سُردت فيها عقيدة أهل السنة والجماعة، وكانت تلك محاولة لحسم وإنهاء الفتن المذهبية في العراق. ثم مات الخليفة (٤٢٢هـ) بعد واحد وأربعين سنة في الخلافة، وكان قد بلغ السادسة والثمانين، ولم يعيش قبله خليفة إلى هذا العمر، ولا قضى أحدهم في الخلافة كل هذا الوقت.

وتولى بعده ابنه القائم بالله، واستمر عصر الصغار في أيامه، واستولى العجز على أطراف السلطة، فإذا وقعت الفتن لم يجد أحد الأطراف الثلاثة في السلطة (الخليفة، جلال الدولة البويهى، الجند الأتراك) إلا أن يهدد بترك موقعه والرحيل عن بغداد، فيلجؤون إلى الحلول الوقتية التسكينية التي ما تلبث بدورها أن تنهار! وفي ظل هذا كله تشتد الفتن المذهبية والدينية، وتقل الأقوات ويتشر الجوع والمرض، وينعدم الأمن ويعم النهب واللصوصية، ويكثر استقلال الأمراء بالأطراف، وتندلع بينهم المنافسات والمنازعات والحروب.

وهكذا بقيت الدولة البويهية كالمريض الذي ينتظر الموت، أو كالميت الذي ينتظر الدفن، حتى جاءت العاصفة السلجوقية من الشرق، فأماتها أو دفتتها (٤٤٧هـ)، لتطوى صفحةً مريرة في تاريخ الخلافة العباسية وتايخ العراق وفارس على يد طغرلبيك، مؤسس دولة السلاجقة، والذي بدا وكأنه الحل الحاسم لمشكلات الخلافة العويصة!

وقفه مع العصر البويهى

١. ظهر في هذا العصر البويهى نتائج حُكم العجم الذي بُذرت بذوره في العصر

العباسي الأول^(١) على يد المعتصم والوائق، ففرغت الكتلة العربية من عوامل القوة وانفرد العسكر الأتراك باحتكار القوة العسكرية، ثم زاد على ذلك أنهم حين ضعفوا وذهب أقوياءهم لم يكن المجتمع قادرا على إفراز بديل لهم من نفسه، بل كان المصير متعلقا بأحداث الخارج التي أسفرت في النهاية عن حكم أعجمي آخر أشد وطأة وأكثر شراً، وهو الحكم العسكري الشيعي البويهى، الذي وجد فرصة متاحة ليتمدد ويهيمن على الخلافة وعاصمتها من بعد ما انتشرت المنازعات والمنافسات بين الجند الأتراك، وأدى هذا إلى مزيد من المتمردين والمستقلين في أطراف العراق. وكان حكم العجم مسيطرا على سائر الأمة شرقا وغربا، فيما عدا الدولة الحمدانية في شمالي الشام والعراق، والأندلس التي كانت يحكمها الأمويون من نسل عبد الرحمن الداخل الذي فرَّ من وجه العباسيين في مطلع دولتهم. وتسببت هذه السيطرة العامة في انزعاج الضمير الجمعي للأمة، لا سيما العرب، وهو ما يتردد بكثرة في شعر المتنبي^(٢)، ولكنه كان تجسيدا لسنة الله تبارك وتعالى في الاستبدال! وفي التداول! فهؤلاء العرب حين لم ينهضوا بواجبهم استبدلوا بغيرهم، ودالت الأيام

(١) من الضروري هنا مراجعة ما كتبناه تحت عنوان الإخفاقات وأسباب السقوط في الفصل السابق: الدولة العباسية -

عصر القوة

(٢) من أشهر ما قاله المتنبي في هذا المعنى، قوله:

وسادة المسلمين الأعباء القزم

سادات كل أناس من نفوسهم

وقوله:

تُفلح عربٌ ملوكها عجم

وإنما الناس بالملوك وما

ولا عهد لهم ولا ذمهم

لا أدب عندهم ولا حسب

عليهم، وتحكم فيهم من كانوا عبيدا لهم حتى حبسوا الخلفاء في قصورهم وقتلوهم.
٢. من هنا فإن أول ما يلفت النظر في العصر البويهي هو الغياب التام للخليفة،
ولذلك طالت أعمار الخلفاء بلا أثر ولا قيمة، فلم يشهد هذا العصر الذي استمر مائة
وأربعة عشر عاما سوى أربعة خلفاء فحسب: المطيع لله (قضى في الخلافة ثلاثين
سنة)، والطائع لله (سبع عشرة سنة)، والقادر بالله (واحد وأربعين سنة)، والقائم بأمر
الله (خمسة وأربعون عاما، منها خمسة وعشرون في العصر البويهي).

ولقد كان الخليفة في العصر التركي في أدنى حالات تأثيره يُدخل عليه ويُستأذن
منه وله وزير، حفاظا على شكل الخلفاء ورسومهم، وكان الخليفة في العصر التركي
ربما داعبه الطموح ليستعيد مكانته، أو على الأقل ليكون طرفا في معسكر
المتصارعين من أجنحة الدولة، فأما في العصر البويهي فغاية ما كان يرجوه الخليفة في
عصر ضعف البويهيين أن ينجو من إهانتهم، وغاية ما كان يستطيع التهديد به أن
يخرج من بغداد ويترك الحكم كله، وغاية من كان عنده كاتب يكتب له، وراتب
يُرسل إليه وربما نقص أو انقطع!

ونقش الملك البويهي اسمه لأول مرة مع اسم الخليفة على العملة^(١)، كذلك فلم
يكن البويهي يحتاج إلى عذر أو صراع ليعزل الخليفة أو يقتله بل يفعل هذا لمجرد
أن تكون مصلحته -ولو القصيرة والعاجلة- تقتضيه، كان الفارق الوحيد أنه يتظاهر
باحترامه وتعظيمه ويؤدي له سائر المظاهر السلطانية!

(١) الفلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار فراج، ط ٢ (الكويت: مطبعة حكومة الكويت،

ويزداد انطماس شأن الخليفة العباسي الحبيس في بغداد إذا قورن بشأن الخليفة العبيدي (الفاطمي) المتألق في القاهرة، وهو في عنفوان دولته، أو بالخليفة الأموي في الأندلس التي كانت في ذروة قوتها إلى آخر القرن الرابع الهجري!

٣. عُرِفَ هذا القرن الرابع الهجري بأنه عصر سيطرة الشيعة، فالبويهون في قلب عاصمة الخلافة ويحكمون العراق وفارس وطبرستان، والقرامطة في شرق الجزيرة العربية ويسيطون نفوذهم على الحجاز، والعبيديون (الفاطميون) في الشمال الإفريقي ثم أضافوا إلى أنفسهم مصر والشام والحجاز، والحمدانيون في شمالي الشام والعراق، ولهذا قال ابن كثير عن تلك الحقبة: «امتألت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطمين، وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة»^(١). وشُغِلَت الأمة بمعاركها الداخلية حيث تعددت مواسم الفتنة كعاشوراء وعيد الغدير، وتعددت مواطن الفتنة حين عمل البويهيون على تشييد الأضرحة والمشاهد في الأماكن التي يزعمون أنها مرقد آل البيت!

٤. ومن هنا ربط العلماء بين هذا الوضع وبين انهيار البلاد الإسلامية أمام الروم، قال ابن تيمية: «وفي دولة بني بويه ونحوهم ... كان فيهم أصناف المذاهب المذمومة؛ قوم منهم زنادقة وفيهم قرامطة كثيرة ومتفلسفة ومعتزلة ورافضة وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبية عليهم؛ فحصل في أهل الإسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف حتى استولى النصارى على ثغور الإسلام وانتشرت القرامطة في أرض

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ / ٢٦٤.

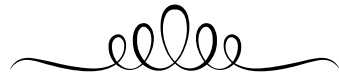
مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك»^(١)، ومثله قال الذهبي: «ضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه، وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد، وهاجت نصارى الروم، وأخذوا المدائن، وقتلوا وسبوا»^(٢).

إن سائر من حكموا العراق منذ الفتح الإسلامي تولوا جهاد العدو ودفعه، وكانت لهم مع الروم فتوح ومعارك، كذلك فعل الأمويون والعباسيون والجند الأتراك في عصر النفوذ التركي، وأما البويهيون فقد كانوا هم الاستثناء الوحيد، فلم يجاهدوا عدو الأمة أبداً، مع توفر الداعي وزوال المانع، وذلك أن الروم نفذوا عدداً من الاختراقات الخطيرة غير المسبوقة في الشام والجزيرة الفراتية، فقتلوا وسبوا عشرات الآلاف، ووصل الفارون إلى بغداد عند الخليفة، ومع هذا فلم ينهض معز الدولة لحربهم، ولم ينهض من بعده أحد. ولولا بعض الدفع الذي قام به الحمدانيون شمال الشام، وأحيانا كافور الإخشيدي، لكانت النتائج ستكون أكثر فداحة وكارثية.



(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٩٩٥م)، ٢٢/٤.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرنؤوط، ط ٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ٢٣٢/١٦.



الفصل التاسع: مدخل إلى ظاهرة الدول المستقلة



كانت الدولة الأموية هي آخر دولة حافظت على وحدة الأمة من شرقها إلى غربها، وكان خليفة الأمويين في دمشق يولي ويعزل في كل المساحة الشاسعة الممتدة بين الصين وفرنسا، ولما جاء العباسيون لم يكن باستطاعتهم تحقيق هذه الوحدة، فكانت الأندلس أول ما انفصل عن جسد الخلافة، إذ استقل بها الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل الذي استطاع النجاة من انتقام العباسيين، ومن ذلك الوقت خطّت الأندلس تاريخها المستقل، والذي سنفرده في فصل مستقل إن شاء الله.

ورويدا رويدا بدأت بعض الدول في الأطراف تذهب إلى الاستقلال التام، فإن لم يكن فهو الاستقلال العملي الذي نعبر عنه في مصطلحاتنا المعاصرة بلفظ «الحكم الذاتي»، وبدأ هذا أول ما بدأ في المغرب، وفي مناطقه القصية، التي لا تكاد تصل إليها سلطة الخلافة العباسية في بغداد. فظهرت تباعا دولة بني مدرار، والدولة الرستمية، ودولة الأدارسة، ودولة الأغالبة. وسائر هذه الدول ظهرت في العصر العباسي الأول الذي تمتعت فيه الخلافة العباسية بالقوة، بل إن بعضها ساهمت السياسة العباسية نفسها في ظهوره كنوع من الحل في حكم هذه المناطق البعيدة، كما سنرى في حالة دولة الأغالبة.

فلما جاء العصر العباسي الثاني، حيث عانت الخلافة العباسية من تسلط العسكر الأتراك ثم العسكر البويهيين، زادت وتيرة الدول المستقلة، وكثر الطامحون لتأسيس حكم وراثي فيهم وفي أبنائهم، فبدأ ظهور الدولة الطولونية في الشام ومصر، ثم الدولة الإخشيدية.

كذلك تسببت عوامل أخرى، أهمها البُعد الجغرافي ووعورة التضاريس في أن تستقل مناطق أخرى بصناعة تاريخها وأحداثها، وأهم هذه المناطق هي اليمن، تلك البقعة الخصيبة الرابضة في أقصى جنوب غربي الجزيرة العربية، والتي تحصن بالبحر من جنوبها وبالجبال في شمالها، فيحدّ هذا من تأثير الأحداث خارجها عليها، وفيها بدأت تظهر فيها الدول المستقلة مثل الدولة الزيادية والدولة اليعفرية، ومن تلك اللحظة صار تاريخ اليمن

تاريخا مستقلا عن بقية التاريخ الإسلامي، وصار القارئ والكاتب يحتاج إلى وقفة خاصة للإشارة إليه.

ومع استمرار الضعف وطول زمانه، ظهرت الدول المعادية للخلافة العباسية والساعية في هدمها، مثل دولة القرامطة التي اتخذت مراكزها الأولى في الشام والعراق لكنها حققت أفضل النتائج في شرقي الجزيرة العربية، ثم ظهرت الدولة العبيدية (الفاطمية) فانبثقت في إفريقية (تونس) ثم تمددت وتوسعت في المغرب وفي مصر والشام والحجاز، وحاولت جردها إزالة الخلافة العباسية، فكادت تصل إلى العراق في أكثر من مرة.

هذا المسار التاريخي صار من المستحيل معه الحديث السردى عن تاريخ واحد، له مركز واحد، بل صارت العديد من المناطق تسجل تاريخها الخاص، وهو تاريخ يتداخل أحيانا مع بعضه البعض، لا سيما في مناطق الاحتكاك وأزمة التنازع.

وحيث أن هذه «الخلاصة» التي نكتبها، يُقصد منها وقوف العامل لهذا الدين على صورة عامة للتاريخ الإسلامي، فكان لا بد من التوقف الآن لنلقي نظرة عامة على ظاهرة الدول المستقلة، وهي وقفة عابرة ومختصرة، ولا شك أنها مختزلة لا تفى بالحد الكافي لإدراك طبيعة المسارات التاريخية والتفاعلات الاجتماعية لهذه المناطق، إلا أننا اجتهدنا أن تحقق المقصود الكبير: اتضاح شكل الصورة العامة للتاريخ الإسلامي.



معالم أولية في ظاهرة الدول المستقلة

منهج تناول الدول المستقلة

سرنا في هذا الموضوع، موضوع الدول المستقلة، وفق منهج هذه أبرز ملامحه:

أولاً: من يستعرض التاريخ الإسلامي يكون منطلقاً بطبيعة الحال من رؤية العاصمة الإسلامية، فهو في المدينة المنورة ثم في دمشق ثم في بغداد، وحيث أننا لا نزال في زمن الخلافة العباسية ومركزها بغداد، فقد اعتمدنا بغداد معياراً في قسمة البلاد إلى مشرق ومغرب، فما كان إلى الشرق من بغداد فهو مشرق، وما كان إلى الغرب منها فهو مغرب؛ فالدول المستقلة التي نشأت في فارس وخراسان وما وراء النهر هي دول المشرق، وأما التي نشأت في الشام ومصر واليمن والشمال الإفريقي فهي دول المغرب.

واستثنينا من هذا حالة واحدة فحسب، وهي الدولة الحمدانية التي كان مركزها في الموصل وحلب، فهي وفق تصنيفنا تقع في دول المغرب، لكننا أدرجناها في دول المشرق لشدة ارتباطها بالأحداث في العراق وبغداد. وتلك هي القسمة التي اعتمدها الخلافة العباسية في طورها الثاني.

ثانياً: سنبدأ بالكلام في الدول المستقلة بتلك الدول التي ظهرت في المغرب العربي،

وهذا في الفصل القادم إن شاء الله، ثم نواصل في الفصل الذي بعده -إن شاء الله- الحديث عن دول المشرق الإسلامي، وقد كانت البداية من دول المغرب تبعا للزمن، إذ دول المغرب المستقلة أسبق في الظهور من دول المشرق، وذلك -كما ذكرنا- لبعدها عن يد العباسيين الذين كانت عاصمتهم بغداد أقرب إلى المشرق منها إلى المغرب.

غير أننا استثنينا من دول المغرب دولتين، هما دولة الأندلس، والدولة العبيدية الفاطمية، وذلك أن كلا هاتين الدولتين وتاريخهما يبلغ من الضخامة والأهمية ما ينبغي أن يُفرد في فصل مستقل، نسأل الله التيسير والإعانة. وكذلك فعلنا في دول اليمن: الزيدية واليعفرية والعلوية، فإنها إن شاء الله ستكون ضمن فصل مستقل للحديث عن تاريخ اليمن.

ثالثا: حددنا الزمن الذي نتناوله بالدراسة حتى القرن الرابع الهجري، وذلك أن بغداد كانت مركز العالم الإسلامي ومعقل قوته الأبرز حتى ذلك الوقت، رغم ما حلّ بالخلافة من الضعف، وأما في القرن الخامس فسنكون أمام خريطة جديدة تماما، تنتقل فيها مراكز القوة بين الري والقاهرة، حيث دولتي السلاجقة والعبديين، ثم يتغير الحال مرة أخرى في القرون التالية مع بزوغ الدول الزنكية والأيوبيّة ثم المملوكية. فلهذا سيكون اقتصارنا على ظاهرة الدول المستقلة التي بزغت حتى القرن الرابع.

رابعا: كلما كانت الدولة المستقلة قريبة من الخلافة في بغداد ومشبكة مع أحوالها أطلنا النَّفس قليلا في سرد أخبارها، وكلما كانت أبعد كان كلامنا عنها أخصر وأوجز، وتقديرنا أن هذا هو الأكثر فائدة لدى قارئ هذه «الخلاصة» في تصور طبيعة الدول المستقلة وعلاقتها بالخلافة، وما ترتب على استقلالها من مفاسد أو مصالح. وأما الدول الأخرى التي كانت علاقتها بالخلافة ضعيفة أو استقلت بعيدا عنها فنحن نُعرِّفُ بها تعريفا سريعا عابرا، إذ ما من فائدة ذات اعتبار قد يهتم لها القارئ المعاصر غير المتخصص مما يحملنا على التوسع فيها، فما كان في تاريخ هذه الدول من العَبَر المهمة فثمة نظائر لها في الدول التي توسعنا في تناولها، وإذا احتجنا

أن نتوقف عند أمرٍ بعينه نرى أنه يحتاج إلى توفية توقفنا.

خامسا: بعض ما يُمكن أن يُطلق عليه دُوْلٌ لم نفرده بالحديث لوجود اعتبارٍ ما، فربما نكون قد تناولناها في خضم سردنا لحال الخلافة العباسية في عصر النفوذ التركي والبويهى لشدة الاشتباك والارتباط بين التاريخين، وإما أن هذه الدولة وُصِفَتْ بهذا الوصف على سبيل المجاز أو المبالغة، بينما لم يكن في سيرتها من معالم الدولة أو حضارتها شيء. والمثال الأبرز على ما لم نتناوله هو: ثورة الزنج في البصرة، وحركة القرامطة في شرقي الجزيرة العربية. هذا فضلا عن أنهما حركتان مفسدتان، للدين والدنيا معًا، وهما أقرب إلى الجيوب الإجرامية، فإننا نجد أن للدول المستقلة حسنات، أما هاتان الحركتان فلا نكاد نعثر على شيء من هذه الحسنات في تاريخها!

سادسا: لطبيعة هذه «الخلاصة» الموجزة، فقد اقتصرنا على أبرز الدول المستقلة، والتي كان لها أثر بارز في التاريخ الإسلامي في وقتها، ولم نتبع كل ظاهرة استقلال، فإن هذا كثيرٌ، واستقصاؤه فوق الطاقة، ثم إنه غير مفيد في ظل المقصد المرجو من هذه «الخلاصة»، والغاية من التاريخ ليس استقصاء تفاصيله، وإنما فهم مساره وسننه واستيعاب مجراه العام.

معنى الدولة

ينتج كثير من الإشكال والتشويش لدى القارئ المعاصر من اختلاف تصوره لمعنى الدولة نفسه، ثم لصورة الدولة في التاريخ وفي واقعها الحالي. وكثير من هذا الإشكال ناتجٌ من أن هذا اللفظ «الدولة» هو موضع اشتباك فكري وثقافي بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

فلفظ الدولة في كلام العرب يعني الغلبة، ولكنه على معنى الجَوْلَة والدَّوْرَة والأمر

الذي لا يستقر والانتقال من حال إلى حال^(١)، ولهذا تقول العرب: الأيام دُول، وتقول: الدوائر تدور والدوائر تدول^(٢)، وهو بهذا يفيد التقلب والتغير، ومن هنا استعمله العرب بمعنى الحقبة والزمن والعصر والأيام كما قالوا دولة بني أمية أو دولة بني العباس فهو في اصطلاحهم يعني عصر بني أمية وزمانهم وأيامهم. واستُعملت الكلمة نادرا بمعنى «نظام الحكم»^(٣)، ولندرة هذا الاستعمال فلم تسجله معاجم اللغة، حتى الكبير منها، كلسان العرب وتهذيب اللغة وتاج العروس.

بينما الدولة في المصطلح الغربي (state) تعني مجتمعا مقيما في بقعة جغرافية له حكومة وقانون ومستقل سياسيا، والدولة شخصية معنوية اعتبارية، تتمتع بالسيادة أي بالسلطة الإلزامية العليا لسائر عناصر المجتمع، ويمثلها النظام أو السلطة الحاكمة، ولهذا قد تُطلق الدولة على النظام أو السلطة والعكس^(٤)، وهذا المعنى دخل المعاجم

(١) ابن منظور، لسان العرب، ط ١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م)، ١١/٢٥٢؛ الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط ١ (بيروت: دار إحياء التراث العربى، ٢٠٠١م)، ١٤/١٢٤؛ المعجم الوسيط، (القاهرة: دار الدعوة، ١٩٨٩م)، ١/٣٠٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ط ٤/٢٩٥؛ الأزهرى، تهذيب اللغة، ١٤/١٠٨؛ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة، (الكويت: دار الهداية، ١٩٦٥م)، ١١/٣٣٤.

(٣) يُنظر: معجم الدوحة التاريخي، مادة (دول)، مع ملاحظة أن عددا من المواضع التي فسّروا فيها كلمة «دولة» بأنها السلطة أو الحكم، يمكن حملها على معنى الزمن والعصر والغلبة. <<https://www.dohadictionary.org>>

(٤) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ط ٢ (بيروت - باريس: منشورات عويدات، ٢٠٠١م)، ١/٣٦٩؛ هارولد لاسكي، الدولة نظريا وعمليا، ط ٢ (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٢م)، ص ١٧، ١٨، ٢٢ وما بعدها؛ تد هوندرتش (تحرير)، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة: نجيب الحصادي، (طرابلس: المكتب الوطني للبحث والتطوير، ٢٠٠٣م)، ص ٣٦٠؛ Britannica: Concise Encyclopedia, (Britannica, 2006), p. 1814; Durkheim, professional ethics and civic morals, trans: Cornelia Brookfield, (Illinois: The Free Press, 1958), p. 48.

والقواميس والموسوعات اللغوية والسياسية العربية في العصر الحديث^(١).

وبينما يفيد اللفظ دلالة التغير والتقلب في المعجم العربي، فإنه يفيد في المعجم الغربي دلالة الثبات والبقاء. كذلك فبينما فهم المسلمون معنى الدولة كأداة تنفيذ للشرع وحارسٍ له^(٢)، فإن فهم كلمة الدولة في استعمالها اللاتيني ارتبط بمفهوم السيادة المطلقة^(٣). وفي ظل هذا الاضطراب، فكثيراً ما يتسبب اختلاف دلالة اللفظ في غموض المقصود^(٤)، وفي اشتجار الخلاف بين المتساجلين.

ويزيد في هذا الاشتجار والاشتعال أن المفهوم الغربي للدولة تكوّن في سياق التاريخ الغربي أثناء رحلته نحو العلمانية، فكان مفهوم الدولة متميزاً عن مفهوم الدين، ثم صار مقابلاً له وعلى الضد منه. وهو الأمر الذي يناقض السياق الإسلامي كله، فالإسلام قد أقام نظام حُكمٍ منذ الهجرة النبوية إلى المدينة، واستمر نظام الخلافة قائماً حتى أقل من مائة عام ماضية، فاندمج في نظام الخلافة معنى الدين ومعنى الدولة. ولما استقر التحول

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٣٠٤؛ عبد الغني أبو العزم، معجم الغني الزاهر؛ وهو المعنى السائد عند: محمد رواس قلعه جي في «معجم لغة الفقهاء»، ينظر مثلاً: ص ٤٧، ٥٥، ٦٤، ٩٠؛ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م)، ١/ ٥٦٨؛ أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٢م)، ص ٤٠٨؛ مجموعة، معجم مصطلحات العلوم الشرعية، ط ٢ (الرياض: مدينة الملك عبد العزيز للعلوم، ٢٠١٩م)، ٢/ ٧٩٢، ٧٩٣؛ عبد الوهاب الكيالي (تحرير)، الموسوعة السياسية، ط ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥م)، ٢/ ٧٠٢ وما بعدها.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، (القاهرة: دار الحديث، د. ت)، ص ١٥؛ الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة، د. ت)، ١/ ١٧.

(٣) المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط ١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م)، ٢/ ٧٢.

(٤) من أمثلة ذلك ما وقع للمستشرق الهولندي الشهير دوزي، فقد اختلط لديه المعنى اللغوي لكلمة دال، دولة بالمعنى التاريخي، ففسّر معنى الغلبة على أنه ملك واجتهد في إقامة أسرة على العرش. وهو ما علّق عليه مترجم الكتاب بأن الذي ذهب إليه دوزي لا يوجد في كتب اللغة. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: د. محمد سليم النعيمي، (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١م)، ٤/ ٤٤٧.

إلى العلمانية في الغرب وبدؤوا في احتلال البلاد الإسلامية، قاوم المسلمون فرض العلمانية عليهم مقاومة شاملة، وانبثق في هذه المقاومة شعار «الإسلام دين ودولة»، بمعنى أنه شعائر تعبدية ونظام حكم معًا.

لهذا ولغيره، اختلط في السجل الفكري المعاصر عددٌ من المعاني الذي يُراد بلفظ «الدولة»، فهو يعبر أحياناً عن الزمن والعصر والحقبة، أو حتى عن المجال السياسي المحدود، كما في الاستعمال التراثي التاريخي، ويعبر أحياناً عن نظام الحكم كما في الاستعمال الفكري الإسلامي المعاصر، ويعبر أحياناً عن قطعة من الأرض يسكنها شعب وتحكمها سلطة تتمتع بالسيادة عبر قانون وضعي كما هو في المفهوم الغربي. وحتى لحظة كتابة هذه السطور، ورغم كل المحاولات المبذولة في تحرير معنى لفظ الدولة أو إيجاد البدائل له، فالواقع أنه ليس يمكن التمييز بين هذه المعاني إلا من خلال السياق اللغوي، ومجمل مواقف الكاتب واتجاهه الفكري.

وهذا الشكل المعاصر الذي نحياه الآن من الوضع السياسي ونظام الحكم، قد اصطُِّلِح على تسميته بـ «الدولة الحديثة»، وبعض المفكرين يُصِرُّون على أن لفظ «الدولة» يعبر عن ذات المضمون الذي يعبر عنه لفظ «الدولة الحديثة»^(١)، وفي رأيهم وجهة. وأصل الإشكال أن الوضع المعاصر قد أنتجه الغرب في سياقه التاريخي أولاً، ثم فرضه على البلاد المستعمرة، ورسَّخه من خلال النظام العالمي في مرحلة انفراده بالهيمنة على العالم. فالتداخل قائم بالفعل بين مفهوم «الدولة» ومفهوم «الدولة الحديثة»، إلا أن مفهوم «الدولة الحديثة» أكثر وضوحاً وصراحة في التعبير عن الوضع السياسي القائم الذي من أهم خصائصه: العلمانية، التضخم الإداري والتقني، القسمة العرقية أو القطرية؛ فالدولة

(١) ينظر: وائل حلاق، الدولة المستحيلة: الإسلام السياسي ومآزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة: عمرو عثمان، ط ١

(الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ٢٠١٤م)، ص ٥٨ وما بعدها.

الحديثة هي التي يتشكل الوضع فيها على أساس أن الدولة هي صاحبة السيادة، فهي المرجعية العليا والسلطة النهائية داخل قطعة محددة ومُعَيَّنة من الأرض، وهي تشرف وتراقب وتتحكم في سائر الأنشطة التي تحدث على هذه القطعة المحددة عبر جهاز إداري متضخم وتقني تحتوي أوراقه وملفاته على سائر التفاصيل المتعلقة بالأفراد وتحركاتهم، والدولة هي التي تعبر عن الناس القاطنين في هذه الأرض وتحتكر تمثيلهم، ومهما كان بين الناس من التمايز فهم قد صاروا - بفعل الدولة^(١) - يمثلون أُمَّةً من دون الناس^(٢).

والدولة هي الوحدة المُعْتَرَف بها سياسيا ضمن شبكة النظام العالمي ومؤسساته المختلفة، فالنظام العالمي هو من يمنحها الشرعية والاعتراف بالوجود، تماما مثلما تمنح الدولة لأفرادها الأوراق التي تعترف بوجودهم وأنشطتهم كشهادة الميلاد وبطاقة الهوية والشهادات الدراسية. وبهذا صارت «الدولة» موضوعا في العلاقات الدولية، وجزءا من نظام عالمي، وليست مجرد إفراز طبيعي لمجتمعها، ولا هي تعبير عن إرادة المجتمع وحده.

والذي يهمنا التركيز عليه الآن أن الدولة التي نقصدها حين نتحدث عن التاريخ الإسلامي، هي تلك السلطة محدودة الصلاحيات التي تتولى شأن الأمن والدفاع وما يتعلق بهما، وليس لها تغول في أبواب الاقتصاد والثقافة والتعليم وأعراف الناس، فهي سلطة محدودة على قطعة من الأرض، لا تنظم حياة الناس بل تؤمنها، ولا تشرف عليها

(١) لعالم الاجتماع الأمريكي بندكت أندرسون دراسة مهمة في قدرة الدولة على صناعة جماعة ليس لها وجود طبيعي، بفعل أدوات الدولة كالإعلام والإحصاء والمتحف وغيرها، وذلك في كتابه «الجماعات المُتَخَيَّلَة».

(٢) هارولد لاسكي، الدولة نظريا وعمليا، ص ١٨ وما بعدها؛ عبد الوهاب الكيالي (تحرير)، الموسوعة السياسية، ٢/ ٧٠٢ وما بعدها؛ خلدون النقيب، الدولة السلطوية في المشرق العربي: دراسة بنائية مقارنة، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير ١٩٩٦م)، ص ٢٢، ٢٣؛ المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ٣٠٨ وما بعدها.

بل تتدخل حين تقع المظلمة أو الأزمة.

ولهذا فإن هذه الدول وإن عبّرت عن انقسام سياسي أو تنازع على النفوذ والحكم، إلا أنها لم تؤدّ أبداً إلى انقسام ديني أو ثقافي، ولم تتصور أن تصنع لنفسها هوية مستقلة أو خاصة عن هوية الأمة، ولم يكن وجود دُولٍ يقطع تواصل الأمة وانتقال أفرادها من بلد إلى آخر سواء للتجارة أو لطلب العلم أو حتى للسكنى.

لقد «كانت الإمبراطورية كيانا أخلاقيا معنوياً وثقافياً»^(١)، فكان المسلم يملك أن يتنقل من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، فيجد نفسه في ظل الشريعة التي تمثل الوحدة الاجتماعية والقانونية للديار المسلمة، وفي ظل الأخوة الإسلامية، وينزل الخانات التي تنفق عليها الأوقاف، وهذا رحالة المغرب ابن بطوطة يجوب العالم الإسلامي كله ولا ينفق على ذلك مالا من عند نفسه^(٢)، ثم إنه وهو ابن المغرب صار قاضياً وسفيراً في أقصى بلاد الهند! وهذه صورة لا يكاد يتصورها المعاصر في زماننا هذا.

إن هذه الدول مجرد تعبير عن مناطق نفوذ سياسي وعسكري لا أكثر، بينما بقيت حركة الأمة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وغيرها تعمل كأنها تقريبا في دولة واحدة^(٣)! وكم يبدو التأسف في قول المؤرخ الغربي إذا قرر هذه الحقيقة، إذ لم يكن مثلها في

(١) إيرا م. لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة: فاضل جتكر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١م)، ٣٣٤/١.

(٢) حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته: تحقيق ودراسة وتحليل، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م)، ص ٨، ٩.

(٣) ينظر مثلاً: ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة: أسعد صقر، ط ١ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ص ٧٦ وما بعدها؛ كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه إلى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة: حسين جواد قبيسي، ط ١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مايو ٢٠١٠م)، ص ٣٢٥.

الموازنة بين الأمويين والعباسيين

دائما ما يُطرح السؤال: هل كان ممكنا في ظل ظروف ذلك العصر أن تستمر وحدة الأمة تحت خليفة واحد، يحكمها من أقصاها شرقا إلى أقصاها غربا؟ أم أن هذا التقسم وهذه الظاهرة، ظاهرة الدول المستقلة، كانت نتيجة حتمية في ظل تلك الظروف؟

وهذه الأسئلة الافتراضية بطبيعتها تختلف فيها الأنظار والآراء، وبحسب قوة العلم بتاريخ وتفاصيل هذه الفترة ثم بحسب قوة الذكاء في التحليل والاستنباط والتصور يكون الرأي، والأزمة أن أحدا لا يستطيع أن يثبت رأيه بأدلة لا شك فيها، فالتاريخ قد حصل وانقضى، وليس هو كالتجربة في المعمل التي يمكن إعادتها أكثر من مرة مع إيقاف بعض العوامل المؤثرة على النتيجة لضبط قدر التأثير لكل عامل في صناعة النتيجة النهائية.

ومع ذلك، فمن المفيد أحيانا نقاش مثل هذه الأسئلة، ليس بغرض فحص الماضي لذاته بل هو غرض النظر في المستقبل، فإن هذه الأسئلة تثير النقاش حول العوامل المؤدية إلى النتائج النهائية، وهو نقاش ضروري.

ما من شك في أن وحدة الديار الإسلامية تحت خليفة واحد لا بد لها من شخصية قوية في موقع الخليفة، ومن ظروف مناسبة تجعل الوحدة مطلبا عاما وقضية أساسية كما تجعل التفرق أو الانشقاق عملا منبوذا ومستهجنا، فتقل عوامل الطمع في الاستقلال، وتنخفض النزعات نحو الانشقاق والاختلاف إلى حدّها الأدنى. وفي هذا السياق، فما من شكّ أبدا في أن شخصية النبي ثم شخصية الخلفاء الراشدين من بعده كانت فوق جميع من جاءوا

(١) ينظر مثلا: آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، ط ٥

(بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت)، ٢٢/١.

من بعدهم: قوة وكفاءة! ثم نصل إلى بيت القصيد: هل كان خلفاء الدولة الأموية أقوى في عمومهم من خلفاء الدولة العباسية، فنجح الأولون في تحقيق الوحدة وأخفق فيها الآخرون؟ فلو قُدِّرَ وبُعِثَ أبو العباس والمنصور والمهدي والرشيد والمأمون قبل زمانهم بقرن: أكانوا يستطيعون تحقيق الوحدة كالتى حققها عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز؟ والعكس أيضا: ترى لو بُعِثَ خلفاء الأمويين بعد زمانهم بقرن هل كانوا يستطيعون أن يعيدوا بقوة شخصيتهم وحدة الأمة من جديد؟!

الذي يمكن تأكيده هنا أن الدولة الأموية توفرت لها عوامل عظيمة فوق قوة شخصيات خلفائها، فإنهم كانوا في موجة الإسلام الأولى، حيث لا زال الدين غضا طرياً فعّالاً في نفوس الناس، وحيث لا زالت الدولة عربية خالصة في مصادرها وطبيعتها، والمجاهدون في زمن الدولة الأموية هم خير الناس: الصحابة والتابعون وتابعوهم. وأولئك كان أثرهم في الجهاد وفي الدعوة وفي تعليم الناس أثراً عظيماً.

ثم إن الناس كانوا في زمن الأمويين أقل مما كانوا في زمن العباسيين، فالمدينة التي كانت تحتاج في فتحها إلى جيش من ألف أو خمسة آلاف صارت بعد قرن من الزمان تحتاج أضعاف هذا العدد! كما أن إدارتها في حال السلم تحتاج إلى أضعاف الهم والطاقة والتدبير، فكلما زادت أعداد الناس زادت أفضيتهم وحاجاتهم ومشكلاتهم كذلك.

وكذلك العدو، لقد كان أعداء الأمة المسلمة في صدمتهم الأولى، وفي روعة المفاجأة الرهيبة، وقد اكتسحوا فيما يشبه غمضة العين. وأما بعد قرن، فقد استردوا بعض أنفاسهم ومنحتهم المشكلات التي وقعت بين المسلمين وقتاً وفرصة يعيدون فيها ترتيب صفوفهم وتدبير أمورهم من جديد. ولئن كان عمر بن الخطاب أوقف الفتوح بعد جلولا، وتردد في فتح مصر ومنع من الغزو في البحر وتوقفت جيوشه عند إفريقية (تونس)، كلُّ هذا لأنه يخشى على المسلمين، ثم إذا كان عمر بن عبد العزيز عزم على وقف الفتوح إذ رأى جيش المسلمين يتطايرون بين الصين والأندلس، يخشى عليهم الضيعة والذوبان في الأمم.

إن كان رجالان على هذا القدر من العظمة والكفاءة يخشيان هذا، فكيف نتصور أن يفعل خلفاء الدولة العباسية وقد ورثوا دولة تتمدد من الصين إلى فرنسا وفي ظروف اختلفت وصارت أصعب على المسلمين؟! إن إيقاف الفتوحات يكاد يكون اضطرارا إن لم يكن قرارا واختيارا؟!!

لهذا يجب أن يتحير المرء وهو ينظر في أوضاع العباسيين، وأن يتردد كثيرا قبل أن يطالبهم بالمزيد من الفتوح، في وقت وظرف بدا فيه أن المسلمين قد استنفدوا طاقة توسعهم، أو على الأقل: لا بد من استراحة لترتيب الأوضاع وتدبير الأمور في هذه الإمبراطورية الشاسعة! إن التاريخ لم يعرف أمة لا تكف عن الغزو والتوسع، فلأمم طاقة كما للإنسان، والمسلمون ليسوا بدعا من الأمم ولا بشرا فوق البشر. لقد كان التوقف عن التوسع آتيا لا ريب فيه، حتى لو استمر الأمويون أكثر من ذلك وطال عهدهم.

وحين يتوقف التوسع، ويأتي سؤال التدبير والترتيب والإدارة، فسيبدو طبعيا أن ينشأ معه سؤال الكفاءة والقدرة، وكيف للخليفة في بغداد أن يتابع ويأمر وينهي ويؤتي ويعزل في أقصى أطراف هذه الأرض، وينفذ كلامه في كل هذه المناطق وأهاليها بلا معقب؟!!

ونكرر أيضا: لم يعرف التاريخ أمة لم تصل إلى حد أقصى في توسعها لتبدأ بعدها في التوزع والانقسام، فإن نشأة ظاهرة استقلال الأطراف هي نشأة مصاحبة لكل إمبراطورية انتهت في حدود توسعها، وإن لجوء السلطان أو الإمبراطور إلى إقرار قائد قوي في مكان نفوذه كان دائما حلًا متاحًا وقائما وواقعا في سيرة الممالك. ويعد من الجرأة على التاريخ ورجاله الكبار أن يستخف كاتبٌ ومؤرخ - غاية ما يفعله أنه يداعب أوراقه - بقرار يُقدم عليه رجل مثل المنصور أو المهدي أو الرشيد، وهم من هم في القوة والكفاءة وحسن السياسة؟!!

وفي زماننا المعاصر الآن، ومع التقدم الهائل في وسائل الاتصال والمواصلات والتقنيات الحديثة، لم تتمكن إمبراطوريات ضخمة تتمتع بهذه الأدوات من السيطرة على

أطراف الإمبراطورية بغير إقرار لظاهرة الدول المستقلة، فالإمبراطوريتان: البريطانية والفرنسية، ثم الإمبراطوريتان الأضخم: الاتحاد السوفيتي والأمريكان، هذه الإمبراطوريات في أوج قوتها وسطوتها ومع ضخامة جيوشها وأساطيلها وأسلحتها وأقمارها الصناعية لم تحكم سائر أطرافها إلا من خلال حكومات شبه مستقلة تتمتع بكثير من الصلاحيات والحكم الذاتي، وأكثر هذه الحكومات تشكلت من أهل البلد المُحتَلّ أنفسهم، فرضيت منهم هذه الإمبراطوريات بحفظ مصالحها والدوران في فلك سياساتها، وتركت لهم تسيير شؤون الحكم وفق ما يرون ويقدرّون. وهذه الظاهرة التي نعاني منها في عصرنا الآن ونسميها «الاحتلال بالوكالة» هي في واقع الأمر قريبة جداً إن لم تكن متطابقة مع ظاهرة «الدول المستقلة» من زاوية تفويض مركز القوة الإمبراطوري لعائلة أو لطائفة أو لطبقة بمهام إدارة شؤون البلد، والاكتفاء منها في مقابل ذلك بتدقيق الأموال وحراسة المصالح وخدمة السياسات الإمبراطورية. فإن كان هذا الأسلوب قد لجأت إليه الإمبراطوريات في ذروة تملكها أدوات التقنية والحرب والسيطرة وفي زمن سرعة الاتصالات والمواصلات، فمن العسير أن نلوم من لجأ إلى هذا في زمنٍ كانت أسرع وسائل الاتصال فيه: الخيول والحمام الزاجل!!

وخلاصة الأمر أن الأمويين وإن كانوا بآثارهم خيرًا من العباسيين وأقوى وأحسن عملاً، بل يكاد يكون لا مقارنة، إلا أن الأمويين توفر لهم من الظروف والعوامل ما لم يتوفر للعباسيين، وأبرز هذه الظروف: الزمن والرجال، فأما الزمن فكما قال أبو مسلم الخراساني حين سُئل: من أشجع الناس؟ فأجاب: كل قوم في إقبال دولتهم^(١). وأما الرجال فأَي دولة تلك التي كان مجاهدوها من الصحابة والتابعين؟!

كذلك فإن الدولة الأموية بدأت بتنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١٤٨/٣.

لمعاوية بن أبي سفيان، وهذه منقبة الحسن العظمى التي مدحها النبي صلى الله عليه وسلم، مما وفرَّ على الأمويين طاقة هائلة صرفوها في توحيد الأمة واستئناف الفتوح طوال عشرين عاما هي عهد معاوية، وهي العشرين التي رسخت لشرعيتهم ومحبة الناس لهم، بينما انتزع العباسيون الحكم انتزاعاً من الأمويين فصرفوا طاقتهم الأولى في تعقب الأمويين وفي إقرار الحُكْم لأنفسهم، وما وجدوا مثل هذه العشرين سنة تصفو لهم!

يجب أن نتذكر دائماً أنه «لم تتفكك الإمبراطورية نتيجة صدمات خارجية، بل بسبب التطور الداخلي لمؤسساتها الداخلية»^(١)، وهذه الحقيقة تشير إلى أن ظاهرة الدول المستقلة لم تكن نتيجة ضعفٍ مفاجئٍ أصاب العباسيين، بل هي لحظة الجزر التي لا بد منها بعد بلوغ موجة المدِّ منتهاها!



(١) لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ٣٣٦.

خطورة التفرق وأضراره

حدّد عمر بن الخطاب أول أمرٍ انحلال الدين بقوله: «تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»^(١)، وهذه الكلمة هي من أصول الكلام في ضرورة التاريخ وأهميته، فإن الأمة التي تفقد تاريخها كالإنسان الذي يفقد ذاكرته، فإنه يعود طفلاً في سائر تصوراته، لا يعرف الصواب من الخطأ، ولا الممكن من المستحيل، ولا يدري ما موقعه ولا دوره في هذه الحياة. ومن هنا فإن من تمام فهم الإسلام والتعلق به: معرفة الجاهلية وطبيعة ما كان فيها.

ونظير ذلك، فلن يمكننا فهم ضرورة الوحدة بين الأمة الإسلامية ولا تحقيق التشوق إلى هذه الوحدة ومعرفة فضلها، إلا إذا تذوقنا ضرر التفرق وشر التمزق ومرارة التشرذم. لئن تحدثنا سابقاً عن طبيعة التاريخ وسنته التي تأخذ الدول من القوة إلى الضعف، ولئن تقرر من سيرة الأمم أن ظاهرة الدول المستقلة في الأطراف هي ظاهرة بشرية طبيعية ومؤكدة تظهر في كل التجارب، فلا يعارض هذا الواجب الذي فرضه الله على المسلمين

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة

المصحف، ١٩٩٥م)، ٣٠١/١٠.

بالوحدة والحرص عليها وتمتين عواملها ودفع أسباب التفرق والتمزق والشقاق والخلاف. ذلك أن المسلم مكلف بمدافعة الشر، وتأجيله وتقليله، ثم مقاومته ورفعته. وبهذا العمل الإنساني في دفع أسباب السقوط يتأجل السقوط ويتباطأ الانحدار وتقل الأضرار، وهذه هي مدافعة السنن بعضها ببعض، فنحن نتمسك ما استطعنا بعوامل الوحدة ليتأجل ما استطعنا وقوع الفرقة، فإن وقعت عملنا ما استطعنا على أن تكون في أقل الحدود.

وتعد ظاهرة الدول المستقلة وتاريخها تجسيدا على ضرورة الوحدة وخطورة الفرقة، ومن يقرأ هذا التاريخ تصيبه الحسرة ولا بد على ما آلت إليه أحوال الأمة والخلافة^(١). سنحاول في هذه السطور أن نُجمل بأوجز ما نستطيع صورة الخطر والضرر الذي يمثله التفرق على أحوال الأمة، وذلك من ناحية النظر التاريخي لا الشرعي:

١. انبثاق الصراعات

إن استقلال دولة ما عن جسد الأمة الإسلامية يُنشئ في الحال عددا من المشكلات والصراعات بين هذه الدولة الناشئة وبين مركز الخلافة، من أهمها:

أولا: صراع على الحدود، فلا بد لكل دولة من حدود تتمثل فيها سيادتها ونفوذها،

(١) من الخطأ والخطير ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن ظاهرة الدول المستقلة كانت نوعا من سماحة الإسلام ومرونة الدولة الإسلامية وتحفيزها الشعوب المغلوبة على تنمية نفسها بالطريقة التي تراها، وزعموا أن هذه القوميات المستقلة كانت يسودها التعاون والحرص على الوحدة!! وهذه النظرة متأثرة بالاستشراق والتاريخ الأوروبي! انظر مثلا: حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط ٥ (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ت)، ص ٢٩٤ وما بعدها؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، ١/ ١٢ (مقدمة المترجم).

وكان يمكن أن نضرب صفحا عن ذكر هذه الملاحظة لولا أن بعض الأفكار المعاصرة تحاول ترسيخ انقسام الدول الإسلامية بأفكار من هذا القبيل، وهذا تصور خطير وضرره بالغ.

ويكون الأمر أقلَّ خطورة وضرراً إذا كان للجغرافيا حكمٌ في هذه الحدود، فإذا تمتعت الدولة المستقلة بحدود جغرافية كالنهر أو البحر أو الجبل المنيع أو الصحراء الواسعة، فإنها تتخذ حدوداً واضحة، يُعرف بها إلى أين تنتهي، وتحتمي بهذه الجغرافيا من جيوش الخلافة التي تريد استعادة الدولة المستقلة إلى الوحدة من جديد. فأما إذا لم تحسم الجغرافيا مسألة الحدود، فإن الأمر يكون أصعب وأكثر غموضاً، فما من قطعة أرض إلا وهي تُغري بالتوسع لاكتساب المزيد، والحرب وحدها هي التي تحسم ما لم تحسمه الجغرافيا، فترسم الحدود حيث تنتهي طاقة الجيوش!

ثانياً: صراع النفوذ في مناطق الحدود، وهو الصراع الذي يبدأ مع نهاية استقرار الحدود، إذ يسعى كل طرف إلى اجتذاب القوى الاجتماعية والقبلية المقيمة في هذه المناطق، كلُّ طرف يرجو أن تكون هذه القوى إلى جانبه، وأن تكون خطأ أمامياً له في هذا الصراع، مما يعرض هذه المناطق لتوتر مستمر قد يطول، ويجبرهم على الدخول في تحالفات ينشأ عنها مزيد من الصراعات، ويعرضهم لمزيد من الخسائر والانتقام حين تتبدل موازين القوى أو حين يصل المتصارعون إلى اتفاق. فإن كانت الدولة المستقلة على مذهب مخالف لمذهب الخلافة كأن تكون شيعية أو خارجية، فإن هذا الصراع على النفوذ يفرض بدوره صراعا مذهبياً، فتزداد بذلك محنة المسلمين في هذه الأنحاء. وكثيراً ما يشعر أهل منطقة النفوذ هذه إذا تعادلت القوى واحتاج إليهم الطرفان أنه يمكنهم أن يعيشوا نوعاً من الحياد بل من الاستقلال، فلا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فيبدأ بهذا صراع جديد يحاولون به تمكين استقلالهم أيضاً، وهكذا ينشأ عدد من الصراعات بقدر ما تسمح بذلك طبيعة الظروف وعدد الزعماء الطامحين.

ثالثاً: صراع الموارد، فكل دولة تحتاج إلى الموارد، لا سيما الموارد التي تنفقها على الجيش وتقوية العسكر، إذ الجيش وجنوده هم أهم عناصر الدولة الوليدة، فهم صانعو هذا الاستقلال وهم حماؤه. والظاهرة المتكررة في التاريخ أن حاجة الدولة إلى الاستقلال

تُلمزها بتقوية الجيش، وتقوية الجيش تُلمزها بالمزيد من الموارد للإنفاق منها على الجيش، والمزيد من الموارد يحتاج توسعا جديداً للحصول عليها، وهذا التوسع الجديد لا يُحمى ولا يُحفظ إلا بالمزيد من الجيش... وهكذا تتوسع كل دولة حتى تصل إلى أقصى طاقتها في التوسع لتحقيق أقصى طاقتها في الحصول على الموارد. إلا أن تنشأ الدولة في إقليم خصب ثري فحينئذ لا تكون مضطرة إلى التوسع لتغطية نفقات الجيش بل يكفيها أن تحسن إدارة الإقليم الخصب ليكثر المال. إلا أن هذه الحالة تُغري صاحب الدولة بالتوسع أيضاً، لا تحت ضغط الحاجة والضرورة بل تحت إلحاح القوة والكثرة. والخلاصة: أن هذا الصراع على الموارد بين الدولة المستقلة وبين مركز الخلافة لا يُحلّ أيضاً إلا بحروب تنتهي بعد فصول وفصول إلى اتفاقيات ومعاهدات، ثم ما تلبث موازين القوى أن تتغير فتتبخر المعاهدات، ونبدأ من جديد!

رابعاً: صراع المصالح، فما من دولة مستقلة إلا وصار لها تصور مستقل أيضاً للمصالح والمفاسد، والفرص والتهديدات، وترتيب الأولويات في المحالفات والعداوات، وأي دولة استقلت في مشرق العالم الإسلامي أو مغربه سيكون لها من التقديرات والأولويات ما يختلف بالضرورة مع التقديرات والأولويات التي يراها مركز الخلافة في بغداد^(١). وهذا الاختلاف في تصور المصالح والتهديدات يؤدي غالباً إلى محالفة هذه الدولة لعدو للخلافة، أو معاداة صديق لها، أو تأخر منها في موضع تحتاج فيه

(١) يمكن للقارئ أن يستوعب هذا المعنى، إذا تصوّر ماذا يمكن أن يحدث في عالمنا المعاصر إذا اندمجت دولتان إسلاميتان: مصر والسودان مثلاً، أو الجزائر والمغرب مثلاً. كيف سيؤدي هذا الاندماج إلى تحول واسع في تقدير المصالح والتهديدات. أو ليتصور ماذا يحدث إذا انقسمت دولة واحدة إلى دولتين أو أكثر: العراق أو تركيا مثلاً، وكيف سينشأ عن هذا الانقسام تصور مختلف في كل بلد للمصالح والأولويات والتهديدات. وقد يظهر الأمر بشكل أفضل إذا تصورنا أن الولايات المتحدة الأمريكية، القوة العظمى العالمية، تفرقت ولاياتها فصارت ٥٢ دولة! هل يمكن أن تبقى قوة عالمية؟!

الخلافة للعون والمساعدة، أو تقدم نحو الخيانة في وضع عصيب لا يحتمل!... وهكذا، تفرض تصورات المصالح سياسات مختلفة، وغالبا متناقضة ومتضاربة. ومن أجل هذا يجد العدو دائما فرصة ممتازة في الدخول على خط الصراعات الداخلية بين الأمة، وتكون فرصته لإنشاء تحالفات وبناء أطماع ما كان له أن يفكر فيها قبل أن يحصل هذا التفرق.

هذه هي بعض الصراعات التي تنشأ تلقائيا عند استقلال دولة ما عن جسد الدولة الكبيرة، وهي صراعات بديهية، فإن أمكن الاحتراز من بعضها، لم يمكن الاحتراز من أغلبها. وسائر هذه الصراعات لا يحل بغير الحروب إلا فيما ندر! فالمُلك يُتزع ولا أحد يفرط فيه، وشد في التاريخ من زهد في الملك أو تنازل عنه، كذا وصف الله شأن الملك ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ومن هنا فإن استقلال دولة يساوي دائما هلاك طاقة الأمة ومواردها ورجالها في حروب داخلية عديدة.

٢. انفراط العقد

يؤدي استقلال دولة عن مركز الخلافة تلقائيا إلى تحرك المطامع لدى آخرين لتنفيذ استقلال مماثل، ذلك أن الرئاسة تنتهي اللذائذ والغرائز، أو كما يقول ابن خلدون: «الملك منصب شريف ملذوذ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشّهوات البدنية والملاذّ النفسانية»^(١)، فالزعيم الطامح يسعى إلى المُلك حتى في زمن قوة الدولة، فيعرض نفسه وقومه لحرب لا طاقة له بها، فكيف إذا بدا له أن الدولة في ضعف، وأن ثمة من استقل بأمره؟!

ومن هنا فيندر أن تستقل دولة عن مركز الخلافة إلا ويكون استقلالها بداية سلسلة استقلالات أخرى أو محاولات استقلال أخرى، ومع كل حركة استقلال جديدة تتكرر

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ١/ ١٩٣.

المشكلات والصراعات التي أشرنا إليها آنفا من صراع الحدود والنفوذ والموارد والمصالح. «وهكذا فإن تفكك الإمبراطورية العباسية كان تحولا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا دفعة واحدة، تمخض عن إحلال سلسلة من الدول الصغرى محل إمبراطورية واحدة موحدة»^(١).

وأحيانا تندلع هذه الطموحات داخل الدولة المستقلة ذاتها، إذ إن النجاح الذي حققه هذا الزعيم الطامح، يداعب بدوره واحدا من قادته ورجاله، فربما انقلب عليه ليرث الأمر كله، وربما استقل عنه بناحية، فيكون انشقاقا داخل الانشقاق، ولا تزال الدولة المستقلة في أول أمرها، ويكثر هذا الأمر حين لا يكون الزعيم المؤسس ذا نسب رفيع أو ذا شرعية قديمة، وقد حصل مثل هذا مع يعقوب الصفار إذ انقلب عليه تابعه الخُجستاني، وحصل مع أحمد بن طولون إذ حاول ابنه العباس وواليه لؤلؤ الانقلاب عليه أيضا، وحصل مع رجال الزيديين: ماكان بن كالي ومرداويج بن زيار وعلي بن بويه.. وهكذا!

وتزداد هذه الظاهرة عند غياب الزعيم القوي إذا لم يكن وارثه مثله في النسب أو الشرعية، إذ ينهض الأمراء والقادة الأقوياء ليرثوا الأمر لأنفسهم.

٣. ذهاب الريح

إن استقلال دولة عن الخلافة هو طعن في هيبتها وقوتها وقدرتها قبل أن يكون انتزاع قطعة أرضٍ منها، وهو يشهد عليها بالضعف والتراجع، ويشير إلى انفلات زمام الحكم منها.

بل إن انتزاع العدو قطعة أرض من الخلافة هو أقل ضررا وأهون شأنا من انتزاع أحد الزعماء الطامحين لقطعة الأرض تلك؛ فإن العدو عدو لا يستغرب منه التعدي، والعدو ندٌّ وقرينٌ ونظيرٌ، وأما التابع فعصيانه اجترأ على ما هو أصل، واقتحام لما هو محظور، وخروج من وضع التبعية إلى وضع الند والقرين والخصم المنافس، وهذا كسرٌ لنظام

(١) لايبديس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ٢٢١.

العلاقة بين الخليفة والأمراء، وبين مركز الخلافة وبلدان الأطراف.

ولهذا تخسر الخلافة ثلاث مرات؛ الأولى: ما تخسره من الموارد والأموال التي صارت ممنوعة عنها وهو ما يربك اقتصادها ونظامها المالي ويشير أزمات جديدة في البحث عن حلول بديلة، وهذه هي أهون الخسائر. والثانية: ما تخسره من الموارد والأرواح في سبيل استعادة الوضع إلى ما كان عليه وهو ما يربك سياستها ونظامها العسكري ويحملها على ترك أمور وتأجيل أمور أخرى. والثالثة: ما تخسره من هيبتها ومكانتها ونفوذها، وهذا أخطر الخسائر، لأنه يُجرئ عليها أعداء ساكنين كان سكونهم ثمرة من خوفهم وارتداعهم، فيدخل إلى ساحة الخطر وإلى خريطة الأعداء آخرين لم يكونوا فيها، وهؤلاء هم (الآخرين) الذين أخبر الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٤. البأس الشديد

كل ما سبق من النتائج يكون معروفا بالبديهة لجميع الأطراف، ومن أجل هذا تكون الحروب هي كلمة الفصل بينهم، وفي هذه الحروب تُستهلك طاقة الأمة ومواردها من المال والرجال، فإن كانت هذه الدولة قد انشقت وفق نزعة مذهبية فيُضاف إلى ذلك طاقة الأمة العقلية والروحية، فإن هذا الانشقاق لا بد له أن يشرعن نفسه بخطاب شرعي ديني، وهو ما يستدعي أن يُردَّ عليه بخطاب شرعي ديني كذلك، فتنتفج على الأمة موجة من الشبهات والفتن والحيرة بين الردود المتبادلة، وتنسل من هذه الحالة الفكرية المتصارعة مذاهب أخرى أكثر توسطا أو أشد تطرفا.

هذه النتائج الأربعة هي محاولة تقريب وإيجاز لضرر التفرق وخطره، في حالة انشقاق دولة واحدة فحسب، ولنا أن نتصور كيف يكون الضرر مضاعفا حين يكثُر المنشقون ويتعددون، وكيف يكون حجم ما يتولد من صراعات الحدود والمصالح والموارد

والنفوذ، وحجم ما يُسكب من الدماء والأموال وما يضل من العقول والقلوب في هذه الصراعات.. فهذا كله مما تخسره الأمة، وأغلب هذه الخسارة لا يكاد يعوض!

وكثيرا ما كان الضرر يتضاعف لا من جانب عدد الدول المنشقة فحسب، بل من جهة التوقيت، فإن انشغال الخلافة بحرب دولة ما يكون فرصة ذهبية تستغلها دولة أخرى في توسيع نفوذها أو الهجوم على الخلافة من جبهة أخرى، فتضطر الخلافة إلى تقسيم جيوشها والمخاطرة بالهزيمة على الجبهتين، أو تحاول إيقاف جبهة ما وتسكينها بما أمكنها من بذل مال أو التنازل عن ولايات أو إسباغ الشرعية على الولايات التي انتزعت منها، وذلك كي تتفرغ للجبهة الأكثر ضررا وخطورة. وبذلك تكون كل محاولة استقلال قد دعمت المحاولة الأخرى وزادت من استفحالها وخطورها. ويمكن ضرب المثال على هذا بسيرة الخلافة العباسية في العقد السابع من القرن الثالث الهجري (٢٦٠ - ٢٧٠هـ)، حيث اضطرت الخلافة إلى المحاربة في ثلاث جبهات في وقت واحد: ثورة الزنج في البصرة، والصفاريين في فارس، والطولونيين في مصر والشام. وكثيرا ما كادت جهود السنين وتضحيات المجاهدين العظيمة في مهب الريح جرّاء جبهة أخرى فُتحت على الخلافة قبل أن تستكمل النصر في الجبهة الساخنة القائمة بالفعل!

لأجل هذا كله يجب على المسلمين التمسك بكل ما يعضد وحدتهم ويمتنها، وبكل ما يقلل أسباب الشقاق والتفرق، وأن يفهم العامل لهذا الدين أن ضرر التفرق والانشقاق لا يكاد يمكن تعويضه أبدا. ولا زال المسلمون حتى هذه اللحظة يدفعون أثمًا فادحة جرّاء الانشقاق الأول الذي هو التمرد على سيدنا عثمان بن عفان، ثم ما وقع في الفتنة على عهد سيدنا علي، رضي الله عن الصحابة أجمعين.



من حسنات الدول المستقلة

مثل سائر الظواهر الإنسانية التي لا تكون شرًّا محضًا ولا خيرًا محضًا، فإن ظهور الدول المستقلة كانت له حسنات أيضًا، والعاقل يجتهد دائمًا ألا يقع الشر والضرر وأن يدفعه بما استطاع، فإذا وقع كان من واجبه ساعته أن ينظر كيف يستثمر ما في هذا الشر من الخير، وما في هذا الضرر من النفع، ليستفيد منه. فليس الحديث عن حسنات الدول المستقلة هو من باب المدح لها أو الإقرار بفضائلها، بل هو باب النظر والتأمل والاعتبار، والاستفادة من السنن باستعمال بعضها على بعض.

من هذه الزاوية، يشعر الناظر في تاريخ هذه الدول المستقلة أحيانًا أنها كانت إنجازًا كبيرًا، وأن وجود هذه الدول المستقلة في الأطراف قد حمى مركز الخلافة في بغداد من أخطار ما كان له أن يتصدى لها في حالة ضعفه. كذلك لو تصورنا أن حالة ضعف الخلفاء في بغداد، لم تنشأ عنها هذه الظاهرة، فإن الضعف كان سيعم الأمة جميعها. ولكن هذه الدول المستقلة قامت بأدوار خطيرة ومهمة في الحفاظ على الأمة والخلافة، ومن أهم هذه الأدوار:

١. مواصلة الجهاد والفتح

وذلك أن كثيرا من الدول التي استقلت في الأطراف، لا سيما ما كان منها على سبيل التفويض من الخلافة لا على سبيل الانشقاق عليها، قد واصلت فتح المناطق الموالية لها من بلاد الكفار، وذلك في وقت كانت الخلافة فيه أضعف من أن تسير جيوشا إلى تلك الأطراف.

وفي الوقت الذي لم يفتح العباسيون فيه شيئا يزيدون فيه على الأمويين، فإن رقعة دولة الإسلام في زمانهم تمددت بالفعل في بلاد الترك والهند وأوروبا وإفريقيا، وحمل راية الفتح دول في الأطراف كانت أقوى من خلافة بغداد كالأمويين في الأندلس والسامانيين والقاراخانيين فيما وراء النهر، والغزنويين في الهند، والزيديين في طبرستان، والأغلبة في جنوب أوروبا، ودول المغرب في جنوب الصحراء الكبرى!

وترافق في عمل هؤلاء الجمع بين الدعوة والفتح، وكان تفوقهم السياسي والعسكري وكذلك العلمي والحضاري والأخلاقي جاذبا لمن والاهم من الشعوب، فدخل الناس في دين الله أفواجا، ونشأت نُسخٌ متعددة من الحضارة الإسلامية، وانتشرت علوم المسلمين وأيديهم البيضاء في سائر الأنحاء.

ولا يخفي بعض المؤرخين اندهاشه من ظاهرة أن الدول المستقلة هي التي ترافق معها رسوخ الإسلام وانتصاره النهائي على الديانات الأخرى^(١)!

بل إن بعض المنشقين على الخلافة أراد أن يصطنع لنفسه يدا عند الخلافة وعند المسلمين ليحسن صورته ويشرعن انفراده بالحكم من خلال القيام بهذا الغزو والفتح، كما فعل يعقوب الصفار ضد الوثنيين في أنحاء أفغانستان، وذلك قبل أن ينقلب لمواجهة الخلافة.

(١) كلود كاهن، الإسلام، ص ٣٤٢، ٣٥٢؛ جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩١م)، ص ٦٢.

وفي بعض الأحيان تولَّت بعضُ الدول عبءَ الدفاع عن الأرض الإسلامية ومواجهة الهجمات عليها حين كانت الخلافة ضعيفة أو منشغلة بأخطار قريبة، مثل الطولونيين في مصر والشام، والحمدانيين في الشام، والأمويين في الأندلس، فقد قام هؤلاء بدورهم في هذا السبيل على قدر ما استطاعوا، وحقق بعضهم نتائج خطيرة في أوقات فاصلة، وإذا تصوّرنا خلوّ الأمة الإسلامية من دولة قوية في بعض هذه الأنحاء لكانت النتائج تكون مروعة وكارثية.



خريطة انتشار الإسلام، لاحظ المناطق المفتوحة في العصر العباسي.

حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ٣٠، ٣١.

٢. تولى التصدي لحركات التمرد والدول المستقلة

لقد حملت هذه الدول عن الخلافة عبء التصدي لحركات تمرد متعددة في مناطقها،

سواءً أكانت هذه التمردات بدوافع قَبَلية أو مذهبية، وهذا كثيرٌ جداً فوق الاستقصاء، ومنه ما قام به الطاهريون في مناطق الشرق الزاخرة بالتمردات من الحركات الشعبية والمذهبية العلوية والخارجية ومن تمردات قبلية، وكذلك ما فعله الحمدانيون مع الأعراب والأكراد والخوارج، وكذلك الطولونيون والإخشيديون في مناطق الشام مع الأعراب والقرامطة والعبّديين (الفاطميّين)، وغيرهم. ولئن ساهمت الخلافة أحياناً بجيوشها دعماً لحلفائها، فإن هذا لا يقلل من أن العبء الأساسي كان واقعاً على هذه الدول المستقلة، وهذا إنجاز لا يمكن التقليل منه.

وأكبر من التصدي لحركات التمرد، ما قامت به هذه الدول المستقلة بالتصدي لبعضها، وهي المهمة التي قام بها في الغالب الدول التي استقلت عن الخلافة بنوع من التفويض والرضا، ضد الدول التي استقلت عن الخلافة انشقاقاً وانتزاعاً، كما فعل السامانيون مع الزيديّين والصفاريّين، والغزنويّون مع الزيديّين والبويهيين، والإخشيديون مع العبّديّين (الفاطميّين)، والخوارج الإباضية مع الخوارج الصفرية في المغرب، والخوارج مع العبّديّين (الفاطميّين)، والأغلبة مع الأدارسة، والأمويّون في الأندلس مع الأدارسة ومع العبّديّين (الفاطميّين)، وغيرهم.

وأحياناً تضاربت المصالح بين الدول المستقلة انشقاقاً وانتزاعاً، فتحاربت الواحدة مع الأخرى إما لضرورة داخلية أو محاولة لشراء شرعية الخلافة بحرب عدوها، كما فعل الصفاريّون مع الزيديّين والقرامطة، وكما فعل الخوارج والأدارسة بعضهم ببعض في بلاد المغرب، وكما فعل اليعفريّون والزياديّون والعلويّون والقرامطة بعضهم ببعض في اليمن. وأحياناً استطاعت هذه الدول تأجيل تمدد هذه التمردات الخطيرة وقتاً ثميناً، إذ أوقف الإخشيديون تمدد الدولة العبّدية (الفاطمية) لنصف قرن أن تدخل إلى مصر والشام والحجاز.

وكانت هذه المواجهات شاملة، إذ لم تكن حروباً فقط، بل عملت السياسة ودهاليزها

ومناوراتها أيضاً، فكم استطاعت دولة أن تشتري ولاء قائد عسكري أو داعية أو وزير، أو استطاعت أن تدس في بلاط الآخرين من ينفذ اغتيالاً أو يثير شقاقاً، وكانت الدول المستقلة في أنحائها أكثر خبرة وقدرة من الخلافة ورجالها في مركز الدولة، على توظيف التناقضات الممكنة في بلاط الدولة المستهدفة.

لقد كان في هذا التنافس والتنازع بين الدول المستقلة فرصاً ثمينة ووقتا عزيزا كسبته الخلافة، وانكفَّ به بعض الشر عن المسلمين، ولا يمكن تقدير هذا الإنجاز إلا إذا تخيلنا ماذا كان يمكن أن يحدث لو تواطأ الجميع على الخلافة، ولم يصطدم بعضهم ببعض!

٣. التنافس في وجوه الخير والفضل

ومما يُحسب كذلك في باب الإنجازات والحسنات لهذه الدول المستقلة أن تنافسها فيما بينها أو فيما بينها وبين الخلافة أطلق فيها سباق التنافس في الفضل والخير، على نحو ما يقول ابن خلدون: «من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة»^(١)، وذلك أن تعدد القصور جعل كل واحدٍ منهم يستكثر في بلاطه من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، فراجت سوق العلم والأدب، فلا يكاد يوجد ملك في دولته إلا وأحب أن يمتاز على غيره من الملوك بكثرة الفضلاء في حاشيته، وأن يمتاز عليهم بسعة ملكه وعظيم عمائره، فزاد ذلك في ازدهار العلوم والفنون.

وبعض الملوك كان ينعم على العلماء ويغدق عليهم حتى إذا لم يكونوا في بلاطه ولا حاشيته، بل سجّل التاريخ أن الحكم المستنصر بالله الأموي أرسل من الأندلس من يشتري نسخة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي يقيم في بغداد ليضمه إلى المكتبة الأموية في قرطبة! وهذه المكتبة نافست بيت الحكمة في بغداد العباسية، كما

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ١٧٨.

نافست دار الحكمة في القاهرة العبيدية (الفاطمية)، فكان الاستكثار من الكتب والحرص عليها من علامات ازدهار العلم والأدب وارتفاع شأن العلماء والأدباء.

وقد منح هذا التنوع في البلاد وقضاياها ونوازلها ثراء للفقه والأدب وسائر العلوم، ولئن كانت الخلافة العباسية قد اعتمدت لنفسها المذهب الحنفي، فما كان ممكناً أن يزدهر مذهب مالك لولا أن اعتمده أمراء المغرب والأندلس، وما كان ممكناً لمذهب الشافعي أن يزدهر لولا أن اعتمدته فيما بعد الدول التركية والكردية كالسلاجقة والزنكيين والأيوبيين.

وكثيراً ما نبغ الشامي والعراقي في الأندلس، فهناك في أقصى المغرب وجد الفرصة الملائمة لبزوغه وتألقه، وقد وجد شاعر مثل المتنبي الفرصة لينتقل بين ثلاث عواصم: بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، وكافور الإخشيدي في مصر، وعضد الدولة البويهية في شيراز، فضلاً عن غيرهم من الأمراء الأقل شأنًا.

وهذا التنافس بين الملوك هو الذي ازدهرت معه العواصم الحضارية خارج عاصمة الخلافة، مثل قرطبة وفاس والقيروان والقطائع ونيسابور وبخارى، فإذا بحضارة الإسلام تنتشر مع أن قوة الدولة السياسية تضعف وتأخذ في الانحدار^(١)، وبهذا بزغت قاعدة تبدو عجيبة لأول وهلة، فإنه «على الرغم من الاضطراب السياسي، فإن الدين الإسلامي كان يزدد مضاء»^(٢).

(١) يمكن تقريب هذه الصورة في واقعنا المعاصر بالنظر إلى حالة دول الخليج على سبيل المثال، إنها دول صغيرة وضعيفة سياسياً، وانقسامها يتيح مزيداً من الضعف السياسي، لكن ثراءها المالي جعلها تتنافس على اجتذاب الطاقات والكوادر، وتتنافس كذلك في إنشاء المسابقات -الهادفة والتافهة- فصارت عواصمها مزدهرة عمرانياً ومالياً مع أنها ضعيفة سياسياً، ومعرضة للانحيار مع أي اهتزاز عالمي.

(٢) كارين أرمسترونج، موجز تاريخ الإسلام، ترجمة: أسامة شفيق السيد، ط ١ (الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، ٢٠٢٠م)، ص ٩٨؛ وينظر: لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ١/ ٢٢٣.

كذلك فإن اهتمام كل أمير بدولته الصغيرة المستقلة جعله يحرص على إحسان إدارتها وتنميتها ماليا وعمرانيا بقدر لم تكن معه الخلافة المركزية في أوقات ضعفها قادرة على أن تفعل مثل ذلك، وبعض أولئك الزعماء الذين حصلوا على استقلالهم بتفويض من الخلافة مقابل مبلغ مالي كانوا مضطرين إلى تدبير الموارد والمصادر التي يستخرجون بها هذا المال المطلوب لصالح الخلافة، فوق المال المطلوب لإعمار دولتهم.

وهذا المال الذي تأخذه الخلافة كل سنة، ساهم من وجه آخر في تحسين أحوال الخلافة، إذ حافظ هذا التدفق المالي على بقاء عاصمة الخلافة ومركزها على قدر من الثراء والغنى، وبه استطاعت الخلافة حلّ كثير من المشكلات المتعلقة برواتب الجند وتجنب شغبهم، وتوفية مصاريف الجهاز الإداري الذي يتولى الإنفاق على القضاة والمحاسبين وديوان المظالم وشبكة البريد، وكذلك الإنفاق على ما هو من واجبات الخلافة كعمارة الحرمين ورعاية الحجاج وخدمة طريق الحج وتحصين الثغور التي تتولاها مباشرة. ويبدو هذا الأمر واضحاً حين يقل هذا المال فتضطرب الأحوال في قلب عاصمة الخلافة، ويتشاغب الجند وينخرطون في المؤامرات والمنافسات بين الوزراء والقادة الطامحين، ولا يصير من الممكن الحصول على المال إلا بزيادة الضرائب على الناس، مما تكون له آثار اجتماعية خطيرة.

كذلك مثّلت الدول المستقلة وعواصمها مراكز آمنة، إذ تولت كل دولة مستقلة إقرار الأمن في عاصمتها، وفي الطرق المسلوكة من العاصمة إلى الأنحاء، وفي مقاتلة قطاع الطرق واللصوص في أنحائها، ومجموع ما بذلته السلطات في الدول المستقلة يفوق قطعاً ما كانت الخلافة العباسية تستطيع أن تنجزه عبر ولايتها، فإن الوالي الذي يخشى العزل بعد مدة تطول وتقصّر، لا يمكن أن يعمل لصالح عمارة البلاد وتأمينها مثل الذي استقل بالدولة فهو يمهدا ويوطئها له ولأبنائه من بعده.

٤. ملجأ للمظلومين والمعارضين

وهذا أمرٌ يحسب في الحسنات كما يُحسب في السيئات، بحسب كل حالة، فمتى ما كان الفارّ اللاجئ مظلوماً أو ذا موهبة لم يجد من يقدرها في عاصمة الخلافة عُدَّ ذلك من حسنات الدول المستقلة، ومتى كان الفارّ اللاجئ معارضا أو منشقا أو ذا مطمع لم يدرك طلبته في بلاد الخلافة فسعى لأن يدركها في دولة مستقلة عُدَّ هذا من سيئات الدول المستقلة وعواقب تفرقها. وهكذا الظاهرة قد يجتمع فيها الخير والشرُّ معاً.

لقد وفرت هذه الدول ملجأً آمناً لبعض من فرّوا من مظالم الخلافة أو من مظالم بعض الدول، من العلماء والفقهاء وذوي المكانة، فإن أولئك وجدوا في تعدد مناطق النفوذ مساحةً أرحب ليعيشوا آمنين، وكانوا من جهتهم إضافة لهذه الدولة. وأحيانا كان أولئك الفارين جماعات كبيرة، مثل ثوار الربض الذين هُزموا أمام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في الأندلس، فنزل عدد كبير منهم إلى المغرب فكانوا إضافة قوية لدولة الأدارسة، وأنشؤوا فيها ما عُرف فيما بعد باسم «عدوة الأندلسيين».

واجتذبت هذه الدول المعارضين للخلافة العباسية، فقد هاجر كثير من العلويين إلى الدولة الزيدية في طبرستان بالمشرق، أو إلى دولة الأدارسة في المغرب، ففي كلا الدولتين إمام علوي استطاع تأسيس دولة، وبقدر ما كانوا هم في حاجته للنجاة من المظالم أو لتحقيق الآمال والمطامح كان هذا الإمام في حاجتهم ليتقوى بأهله وعصبته وتزداد شوكرته وعترته، وليجد فيهم من كوادر الدولة: الوزراء والفرسان والعلماء والقضاة من يعينونه في تشييد بنائها. وقد لجأ إلى الدول العلوية عربٌ من غير العلويين، بل نرى غير العرب أيضاً، فقد لجأ بعض الفرس إلى دولة الأدارسة في أقصى المغرب^(١)!

(١) ينظر مثلاً: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٣، ١٩.

وكذلك دول الخوارج، مثل الدولة الرستمية والدولة المدثرية، نرى في أخبارها وفود الناس عليها من الفارّين والمعارضين لبني العباس، ومن ذوي المواهب الذين لم يجدوا فسحة لهم في بلاد الخلافة، وبهؤلاء صارت العواصم مثل تاهرت وسجلماسة وغيرهما غاصّة بذوي الأصول البعيدة، وكان لهؤلاء سهم في عمارة البلاد وإنماء تجارتها وأموالها^(١).

هذه الإنجازات لا يمكن التقليل من نتائجها الكبيرة والمؤثرة في مسار التاريخ الإسلامي، وهي من الخير الذي انبثق من رحم الشر.



(١) ينظر مثلاً: الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية (القسم الثاني)، (الطبعة القديمة: بدون بيانات)، ص ٤٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٣ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١م)، ص ٢٣١؛ ابن حوقل، صورة الأرض، (بيروت: دار صادر، ١٩٨٣م)، ١ / ٩١.

ملاحظات عامة في ظاهرة الدول المستقلة

يتأثر عُمر الدولة يتأثر بكثير من الظروف المتشابكة التي تعود إلى طبيعة رجالها، واتساع مواردها، وقوة جيشها، ومكانها بين القوى المحيطة بها، بل لا يمكن حتى إغفال ظروفها المناخية والجغرافية، فكم استطاعت هذه الظروف إطالة عمر الدولة أو تقصيرها بما عرقلته من الجيوش الغازية، أو ما وفّرت من الملاجئ الحصينة، أو عكس ذلك.

مع الإقرار التام بهذا، وتداخل الظروف وتعقدها، إلا أن ثمة عوامل أخرى يمكن ملاحظتها، تؤثر على عمر الدولة من جهة العقيدة والاجتماع والسياسة ينبغي الإشارة إليها، إذ هي مما تمكن الاستفادة منه، ويجب أن يستوعبها العامل لهذا الدين.

١. القائد المؤسس

لا تنشأ الدولة بغير الزعيم القوي، إن القائد شرط في انبثاق الدولة، إذ هو الذي يثير في قومه مكامن قوتهم، ويلتقط الفرص المتاحة التي تسمح بالاستقلال، كأن تضعف قبضة السلطة العليا، أو أن يكون في موضع بين قوتين يسمح توازن قوتهما أو توازن ضعفهما بأن تكون له هو قوة ثالثة.

وقد نشأ الخلاف بين المؤرخين وعلماء الاجتماع في مسألة: هل تصنع الظروف

المواتية قائداً وتُخرج الأمة زعيمها إذا اشتدت حاجتها أو تكاملت لها ظروف الظهور، أم أن القائد هو من يصنع الظروف المواتية أو يستثمرها؟

والظاهر الأرجح أن القائد هو الشرط الأساسي والأكبر، وأنه أقدر بموهبته وزعامته على صناعة الظروف المواتية أو استثمارها، من العكس، فكم وُجد في التاريخ لحظات تنادي على القائد ولا تجده، وأمة كان يمكنها أن تستقل وتخرج إلى مسرح السياسة ولكن لم تجد من يفعلها. وفي المقابل وُجدت دول لم يكن ولا يتوقع أن تبزغ كأمة لولا أن رُزفت بالشخصية التي استطاعت أن توحد فرقته وتجمع شعثها، أو حتى كانت هذه الشخصية من علو القدر وارتفاع المكانة بحيث علت على العصبيات المتشاكسة المتفرقة فخضعت له حبا وطوعا.

ومن أهم الدلائل على ذلك أن دولا كثيرا دخلت في الانحدار بعد أن فقدت زعيمها وقائدها، أو حين اختفى من قيادتها الشخص القوي وظل مكانه خاليا، أو تنازع عليه أكثر من واحد. إن هذا التغير المفاجئ المرتبط بالقيادة دليلٌ على أن القائد أهم في شروط الدولة من مسألة الظروف المواتية.

ومن أهم الدلائل على ذلك، بل هو أهمها، أن الله تبارك وتعالى بعث للأمم رُسُلًا وأنبياء، أي أشخاصا قادة وزعماء، فكان ذلك العنصر الفعّال في انبثاق هذه الأمم، ولو كانت الظروف أقوى في إحداث التغيير من شخصية القائد لكان الأليق والأوفق هو تغيير الظروف!

والقيادة موهبة في المقام الأول، ثم تُصقل بالتجربة والخبرة والممارسة، وقد يوجد من ينطوي على موهبة القيادة وزعامتها لكن لا تسمح الظروف السائدة بأن يتولى المكان اللائق به، وقد حفل التاريخ بقيادة جاءوا إلى مواقعهم عن غير تدبير، فظهرت منهم تلك المواهب وهم في موقع القيادة، وقد قصَّ الله علينا قصة طالوت، وكيف أنه كان متمتعا بمواهب القيادة لكن الأفكار والظروف السائدة في بني إسرائيل منعتهم من الالتفات إليه،

بل ومنعته هو من أن يبصر موهبته في نفسه أو يسعى لانتزاع القيادة في قومه، فكانت الأمة مهزومة مطرودة مع أن القائد في صفوفها! وكان طريق انتصارها انتزاع القيادة له. والأمثلة عديدة.

فحيثئذ يكون من أهم الواجبات علينا، ونحن أمة مهزومة مستضعفة، أن نجتهد لاستكشاف الذين يتمتعون بمواهب القيادة، والعمل على إفساح الطريق لهم، ووضعهم في المكان الملائم واللائق بهم.

والخلاصة المقصودة الآن، أنه بقدر ما كانت شخصية المؤسس قوية، وبقدر ما كانت شخصيته تعلو على العصبية طال عمر الدولة، ومن أمثلة ذلك: عبد الرحمن الداخل مؤسس الإمارة الأموية في الأندلس، وإدريس بن عبد الله العلوي مؤسس دولة الأدارسة. كذلك بقدر ما طال عمر المؤسس بعد التأسيس رسخت شرعيته وطال عمر الدولة وقلّت الثورات على خلفائه.

٢. الدولة والفكرة

ما من دولة قامت إلا وكانت منبثقة عن فكرة، وأدنى الأحوال أن تكون هذه الفكرة هي دفع الظلم والجور أو تصحيح الأوضاع الخاطئة القائمة، فأما أعلى الأحوال فأن تكون الفكرة فكرة دينية ورسالة يرى أصحاب الدولة أنهم مكلفون ديناً بإقامة هذه الفكرة ونشرها.

وقد ذكرنا سابقاً^(١) ونقلنا عن عدد من المؤرخين وفلاسفة الحضارة أن: الحضارات الكبرى هي ثمرة الديانات الكبرى، وجميع بناء الإمبراطوريات كانوا جذريين في معاركهم

(١) راجع الفصل الأول من هذه «الخلاصة».

يرون أنفسهم أصحاب الحق بلا جدال، ويرون أعداءهم رؤوسا للفساد وأسبابا في الظلم والخراب^(١).

لهذا، فبقدر ما حملت الدولة فكرةً رسالية بقدر ما عاشت عُمرًا أطول، فإن هذه الرسالة تثير أقصى طاقة المؤمنين بها، وتذيب ما بينهم من حزازات ومنافسات، وتعلو على ما بينهم من فروق وانقسام وعصبيات، وتجعل قتالهم جذريا ضد خصومهم^(٢). فإن خلت الدولة من فكرة رسالية فإن الفكرة التي تبعث استقلالها تكون نوعا من الاعتراض الإجرائي والجزئي على المظالم، أو تكون نوعا من النزوع إلى التوسع والسلطان.

ومن هنا نتبين كيف عاشت الدول المستقلة التي اعتنقت مذهب الخوارج أو الشيعة عمرا أطول من الدول المستقلة التي لم تعتنق فكرة كهذه، في الظروف المشابهة والمقاربة. ولا علاقة هنا بين أن تكون الفكرة في ذاتها حقا أو باطلا، فالمعيار هنا هو شدة إيمان أصحاب هذه العقيدة بها، ومدى ما يبعثه فيهم هذا الإيمان من الحماسة والعمل لها.

ومن فوائد فهم هذه السنّة، في واقعنا المعاصر، أن يفهم العامل للدين خطورة تمييع الفوارق وتقريب المسافات بين الإسلام وبين خصومه، فإن هذا يعود بالضرر على أهل الدعوة والحركة أنفسهم، فهو ينزع من نفوسهم حرارة الإيمان بفكرتهم، ويخضع في قلوبهم الحماسة لنشرها، ويخفض مستوى العداوة إلى مستوى الخصومة أو إلى مستوى

(١) انظر مثلا: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/١٥٧؛ ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (الرياض: الحرس الوطني السعودي، ١٩٨٣م)، ص ٢٥٠؛ جوستاف لوبون، روح الاجتماع، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، (القاهرة: مطبعة الشعب، ١٩٠٩م)، ص ٩، ١٠؛ وانظر: توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م)، ١/٥؛ إيان بوروما ومرجليت أفيشاي، الاستغراب: موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب، ترجمة: ثائر ديب، (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٨م)، ص ٤٩؛ Christopher Dawson, The Dynamics Of World History, (Sheed And Ward, 1965), p. 128

(٢) لمزيد من التفصيل، انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/١٩٨.

الخلاف السائغ المقبول، فإذا اعتنق العامل لدين الله أن الخلاف بينه وبين النظام القائم في بلده، أو بينه وبين النظام العالمي، إنما هو من الخلاف السياسي بين شركاء الوطن، أو من الخلاف الحضاري الذي يُمكن أن يُحلّ بالحوار، فإن هذا الفهم يودي به في مهاوى الهلاك! وينقله من معسكر العاملين لهذا الدين إلى معسكر الأعداء والخصوم.

كذلك فإن الدولة ذات الفكرة يقل فيها انقلاب القادة والأمراء على زعيمها، فالغالب في هذه الدول أن زعيمها يتمتع بالزعامة السياسية والدينية معا، كأن يكون علويا في دولة شيعية، أو عالما من علماء الخوارج في دولة خارجية، أو أن يكون رفيع النسب يعلو على العصبيات التي هي شوكة دولته. فهذه الأمور كلها تعطل وتعرقل طموحات القادة العسكريين الأقوياء في أن يطمحوا إلى انتزاع الأمر لأنفسهم أو الانشقاق بشطر من القوة أو بناحية من الأرض، وتبرز المقارنة واضحة حين نعقدها بين دولة ليست بذات فكرة وليس زعيمها رفيع النسب أو متمتعاً بشرعية خاصة مثل الدولة الصفارية أو الدولة الزيارية أو الدولة الحمدانية أو الدولة الطولونية في المشرق، إذ ظلت تعاني من محاولات الانقلاب الداخلية، وبين دولة مثل الأموية الأندلسية والأدارسة أو المدرارية أو الرستمية حيث انسجمت القبائل تحت زعيمهم وشيخهم وعمل النسب الرفيع أو المكانة الدينية على رسوخ أمره ودولته فيه ثم في نسله من بعده.

وهذه من الأمور التي ينبغي أن تكون في بال العاملين للدين، إذ هي من أسباب التماسك والاستمرار في تجربتهم الخاصة التي هي التجربة التنظيمية الداخلية للحركة، وهي كذلك أيضا في تصورهم لطريقة الإصلاح الموافق لمجتمعهم وطبيعة الرموز التي ينبغي تقديمها أو دعمها في موقع الزعامة والقيادة.

٣. الدولة إذا ذهبت لا تعود

من السنن الظاهرة في حياة الدول أن الدولة حين تسقط وتنهار لا يكون ممكنا أن تعود

مرة أخرى، بل تصير المحاولات التالية مثل ارتعاشات الجسد الأخيرة، مجرد نبضات ضعيفة سرعان ما تخفق وتخمد.

ولكن هاهنا ملاحظتان لضبط الفهم في هذا الأمر:

الأولى: المقصود بالسقوط والانهيار هنا هو زوال الدولة باجتياح عاصمتها، ودخول هذه العاصمة في حكم جديد غير البيت الذي انتهت إليه رئاسة هذه الدولة، فأما إذا لم يحصل هذا التحول، ودخل البيت الحاكم للدولة القديمة في حكم الدولة الجديدة وطاعتها، وقبل أن يحكم باسمها، ورضيت الدولة الجديدة منه بهذا، فهذا هو من نوع الحلول الوسط، التي قد تمنح مزيدا من الوقت للدولة قبل سقوطها، لكنها كذلك لا تعود مجددا لعصر نهوضها الغابر.

والثانية: أن غاية ما يتحقق من تجدد الدولة بعد سقوطها يكون في ناحية أبعد، وعلى رقعة أصغر؛ إذ يستطيع زعيم من فرع لهذه الدولة المنقرضة أن يجد لنفسه متسعا بين الظروف السياسية والقوى القائمة، أو أن يجد منطقة جغرافية يتحصن بها، أو أن يجد قوما من بقايا عصبية الدولة لا زالوا على الإخلاص لها. ومع ذلك فإن هذا التجدد الأصغر لا يمكنه أن يعيد الدولة إلى ما كانت عليه قبل ذلك، فيعجز عن أن يستمر في توسيع رقعته أو تجديد شوكته وقوته أو تحشيد عترته وعصبته.

وأقصى ما يمكن أن يُضرب كمثال على تجديد الدولة بعد انهيارها هي الإمارة الأموية في الأندلس، ولكن الداخل مع قوة شخصيته وما توفر له من ظروف مواتية لم يستطع إلا أن يحتفظ بالأندلس، وأين رقعة الأندلس المحدودة من رقعة الدولة الأموية العظمى؟! كذلك يمكن أن يُضرب المثال بدولة بني حمود في عصر ملوك الطوائف الأندلسية كوريث لدولة الأدراسة، ويبقى السؤال نفسه: أين رقعة بني حمود وقوتهم من دولة الأدراسة القوية؟! الأدراسة القوية؟!

والذي نستفيده من فهم هذه السنة هو إدراك ما في واقعنا من الفرص، فإن من الضرورة للعاملين للدين أن ينظروا أين يضعون طاقتهم، وأن يكون لهم ميزان وبصر وتأمل، يعرفون به القوى الآفلة فلا يهلكون طاقتهم في محاولة مستحيل تشبه محاولة إيقاف غروب الشمس أو محاولة إرجاع الشيخ إلى صباه. وبهذا الميزان والبصر والتأمل يستطلعون القوى الوليدة والطلائع القادمة فيضعون طاقتهم في محاولة يؤمل منها النجاح والفلاح، محاولة تساعد السنين وطبائع الأيام.

وهذه القوى الآفلة والطالعة تكون دولا، وتكون أيضا حركات وأحزابا وجماعات، بل وتكون أحيانا مشايخ وعلماء أفراد^(١).

٤. الدول وشرعية الخلافة

تدور معاني «الشرعية» في باب السياسة حول معنى أن هذه الخلافة، أو الحكومة أو السلطة، مقبولة ومرضية لدى رعيتهما، وهو أمر لا غنى للسلطة عنه مهما كانت جبارة وقاهرة، ويسعى إليه كل حاكم مهما استكمل أسباب الطغيان والسطوة، حتى إن أطفى طغاة التاريخ وهو فرعون، أشار إلى شرعية حكمه قائلا: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، وجعل نفسه حارس الدين فقال عن موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. وهذا القبول والرضا العام من الرعية يرتفع حتى يصل في ذروته إلى رتبة

(١) من التجارب المفيدة في حسن التقدير والانتقال بين القوى الآفلة والقوى الطالعة تجربة الحركة الصهيونية في إقامتها للدولة اليهودية، وانتقالها بين القوى الكبرى، وذلك منذ زمن مؤسس الحركة هرتزل ثم وريث الحركة حاييم وايزمان، فقد حاولوا بداية الأمر مع العثمانيين، ومع تقديرهم لغروب العثمانيين ألقوا بثقلهم عند الإنجليز ووضعوا أنفسهم في خدمة المشروع الإنجليزي، حتى إذا استوفوا من الإنجليز أغراضهم وبدا أنهم في غروب، نقلوا مقر حركتهم في خضم الحرب العالمية الثانية إلى أمريكا. ومن المفيد في هذا السياق قراءة مذكرات هرتزل وجولدا مائير، وكتاب «سلام ما بعده سلام» لديفيد فورماكين.

التقديس والولاء والتفاني، وينخفض حتى يكون حده الأدنى تجنب الخروج على هذه السلطة، والشعور بالحرَج والخجل من التورط في العمل ضدها. وطولُ الزمن يزيد من شرعية السلطة فتصير طاعتها طبعاً مثلما يصير الخروج عليها مخاطرة!

من هنا فإن سلاح الشرعية الذي كان بيد الخلافة كان ذا أثر كبير على محاولات الاستقلال عنها، فمن الدول من كان استقلاله نوعاً من تفويض الخلافة، فهي تسبغ عليها شرعيتها، مثلما هو الحال في الدولة الطاهرية والسامانية والأغلبية والإخشيدية والطولونية في طورها الأخير. ومن الدول من كان استقلاله قسراً وكسراً لهذه الشرعية، فمن ثمَّ سعى إلى بناء شرعيته الخاصة كما هو الحال في دول المذاهب الشيعية والخارجية، أو إلى اكتسابها من الخلافة بنوع من الضغط والإكراه كما هو الحال في الدولة الصفارية والحمدانية والطولونية في طورها الأول.

وهذه الحالة الثانية، التي هي كسرٌ للشرعية وخروج على الخلافة، تضطر الدولة المستقلة فيها لمواجهة كثرة من الخارجين عليها، وهؤلاء الخارجون إما خرجوا بتحريض الخلافة ودعمها، أو خرجوا تعاطفاً مع الخلافة ورفضاً للتمرد عليها. ولذلك يبذل الزعيم الذي يريد الاستقلال بدولة ما استطاع ليحصل على الشرعية من قبل الخلافة، وإلا خاف على نفسه من جنوده ومن القوى المحيطة به، وكثيراً ما استطاع سلاح الشرعية هذا أن يكون السلاح الأصلب والأغلب في صناعة النصر والهزيمة، ويعد مثال يعقوب بن الليث الصفار مثلاً نموذجياً للزعيم القوي الذي أنجز كثيراً مما عجزت عنه الخلافة، فلما تواجه مع جيش الخلافة انفض عنه جنده، ولقي الهزيمة الأولى والأخيرة في مسيرته، كما سنرى ذلك حين نأتي للحديث عنه!

وفي حالة الدول المستقلة المبكرة في العصر العباسي، نستطيع القول إن الدول التي حظيت بشرعية الخلافة كانت أطول عمراً وأوسع مساحة وأكثر استقراراً من الدول التي لم تحظ بهذه الشرعية.

وفهمُ هذه السنة والطبيعة السياسية الاجتماعية أمرٌ في غاية الأهمية للعاملين لهذا الدين، ولفهمها آثارٌ فقهية وسياسية وحركية بالغة الأثر والخطر، فإن كل مجتمع وكل زمن له من الثوابت العميقة في الوجدان العام ما يحدد معنى الرضا والقبول بالسلطة، وهي أمور تجب

مراعاتها وتدبير الاستفادة منها.

مثلاً: في زماننا هذا تعد مسألة الانتخابات رُكنًا يُبنى عليها القبول العام بالسلطة، ولذلك تُضطرُّ أقصى الديكتاتوريات أن تنظم انتخابات شكلية لتحقيق صورة الشرعية، وتستكمل هذه الصورة بانتخابات برلمانية وبلدية، فهي مهما كانت بقوتها وسلاحها في غنى عن هذه الشكليات، إلا أنها تنفق في ذلك الأموال والمجهود لتبني شرعيتها، وتتخذ ما تتكئ عليه لتصحح وضعها، وتصنع ما تجادل به عن نفسها^(١). وحتى في الدول الملكية، ثمة أمور من الأعراف القبلية والتوازنات الاجتماعية تحرص عليها السلطة مهما كانت بقوتها مستغنية عن ذلك، ففي مراعاتها تحقيق الرضا والقبول بها.

٥. الدول وبركة الجهاد

غالباً ما حظيت الدول المستقلة في الأطراف برضا الخلافة وتفويضها وإسباغ الشرعية عليها، وقد قامت هذه الدول -كما ذكرنا آنفاً- باستئناف الجهاد في أنحائها، ومما يلاحظ أن الدول التي جاهدت الكفار كانت أطول عمراً من الدول التي كان مجال توسعها على حساب أراض إسلامية أخرى. ولعل هذا من بركات الجهاد.

(١) ولهذا أميل جداً إلى ضرورة خوض الحركة الإسلامية للانتخابات في أي ظرف يتيح لها ذلك، وتدل التجربة على أن ما استفادته الحركة الإسلامية من فوزها بالانتخابات كان عظيماً، بل بلغ بها هذا الفوز ما لم تكن لتبلغه بدون ذلك في سنين، حتى لو كان ذلك على مستوى الفكر والتصور والآمال والطموحات. ولا يتسع المقام للتفصيل في ذلك، لكن الخلاصة المقصودة أن مسألة الانتخابات في زماننا هذا يجب مراعاة النظر إليها من هذا الباب، فهي لم تعد مسألة فقهية فروعية، كما أن الذين يحرمونها جملة باعتبارها من وسائل التشريع، وبالتالي من مداخل الشرك بالله، أولئك يشنتون في تكييفها ويذهبون بها بعيداً. وإذا كان الطغاة القاهرون مع قوتهم ودعم النظام العالمي لهم يحرصون عليها، فكيف يسوغ للضعفاء الذين لا يملكون تغييراً بالقوة أن يتخلوا عن فرص تتاح من خلالها. ومن نافلة القول أن الحديث هنا حديث عام، وتبقى لكل حادثة ظروفها الخاصة التي تكتنفها ويجب مراعاتها، فلربما كان الأحسن في بعض الحالات مقاطعة الانتخابات ورفضها. فهي في النهاية من أحكام الوسائل.

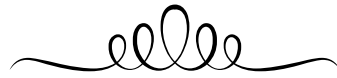
٦. العمق الاستراتيجي

وهذه الملاحظة السابقة تفتح أخرى حول ما بات يعرف بـ «العمق الاستراتيجي»، ومعناه المناطق التي تأمن الدولة أن تؤتى منه، هذا إن لم تكن تأمل أن تحصل منه على المدد والمعونة فيما تواجهه. فالدول ذات الحظ السعيد هي التي تتمتع بهذا العمق الاستراتيجي والحماية الطبيعية من محيطها البشري، وثمة دول تحيط بها العداوات من كل اتجاه.

فلقد تمتعت الدول التي كانت على الأطراف واستأنفت الجهاد غالبا بعمق استراتيجي، لا يقتصر على الشرعية التي أسبغتها الخلافة، بل يمتد كذلك للمجهود الإسلامي الشعبي الذي تطوع لقتال الكفار، وهذه الظاهرة ممتدة من السامانيين الذين يواجهون الترك في أقصى الشرق، وحتى الأمويين في الأندلس الذين يواجهون الجلالقة في أقصى الغرب. ولم يخل الأمر من حركات شعبية استطاعت أن تنتج ما يمكن أن يُسمّى دُولًا مثل الربضيين المنفيين من الأندلس بعد إخماد ثورتهم، فقد مضى قسم من هؤلاء حتى فتحوا جزيرة كريت واستقروا فيها، وصارت بهم منطقة إسلامية دون أن تدعمهم دولة أو خلافة في مسعاهم هذا.

ويتبين بوضوح خطورة العمق الاستراتيجي في البلاد التي لم يكن لها حظ في الجهاد، إذ ما تلبث أن تتوسع وتحتك بالدول الإسلامية، وهو ما يثير أزمة في العمق الاستراتيجي، فوق ما يثيره اضطرابها مع الخلافة، وتستهلك في تأمين نفسها من الموارد البشرية والمالية ما تكون خسارته في النهاية خسارة للأمة كلها. فإذا تغيرت موازين القوى بفعل الزمن وغياب الزعماء الأقوياء ونشوء قوى جديدة، فإن هذه المساحة تأخذ في التقلص. ويندر أن تستطيع دولة الحياة بين قوتين أضخم منها، إلا أن تكون في نقطة التعادل حيث تنتهي قوة كلا الدولتين من حولها، فهذا مما يطيل في عمرها أمدًا، إلا أنها لا بد أن تنتهي يوما أن تكون داخلة في ولاء إحداهما، فإما إلى هذه وإما إلى تلك، ثم إنها تنتهي على يد واحدة منهما أيضا.





الفصل العاشر:
الدول المستقلة في المغرب الإسلامي حتى
القرن الرابع



مع أن فتح المغرب استغرق وقتا طويلا من الفاتحين، إلا أن الثمرة النهائية كانت تستحق، فلقد أخلص المغرب للفتح الإسلامي في النهاية إخلاصا بعيدا، ودخلت قبائله في الإسلام حتى لم يكذب يبق في أقليات غير مسلمة، وتعربت شعوبه حتى صار لسانها عربيا صميما كادت معه تهجر وتنسى لغاتها السابقة على الإسلام، وصارت العربية لغة الثقافة التي اتخذها أهل المغرب لأنفسهم، ثم حمل المغاربة عبء فتح المناطق التالية كالأندلس وأنحاء إفريقيا الغربية والجنوبية.

ومع تباعد الديار بين المشرق والمغرب في ذلك الزمن البعيد، ثم مع انزياح عاصمة الخلافة شرقا إلى بغداد من بعد ما كانت في دمشق، بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة، خطّت منطقة المغرب تاريخها المستقل، وظهرت فيها الدول المستقلة المبكرة قبل أن تظهر في الشرق الذي كانت قبضة الخلافة فيه قوية ونفوذها حاضرا.

في هذا الفصل نتناول بالتعريف المختصر الموجيز أبرز الدول المستقلة التي ظهرت في المغرب، باستثناء الإمارة الأندلسية إذ ستكون جزءا -إن شاء الله تعالى- من فصل خاص بتاريخ الأندلس، وسنمضي على منهجنا الذي سبق بيانه^(١) في إيجاز الحديث عن الدولة طالما لم يكن لها ارتباط قوي بالخلافة، ولهذا ستحظى الدولة الطولونية بتفصيل أكثر من غيرها.



(١) راجع الفصل التاسع: مدخل إلى ظاهرة الدول المستقلة.

ملاحم الدول المغربية المستقلة

بالنظر العام إلى تاريخ الدول المستقلة في الغرب الإسلامي، نستطيع أن نستخرج أربعة ملاحم أساسية، على هذا النحو الآتي:

١. امتزاج إسلامي فريد!

يشهد تاريخ المغاربة في الإسلام على ضد ما يروج في زماننا المعاصر من نعرات قومية بين العرب والأمازيغ، أو نعرات جاهلية تريد إحياء الوثنيات القديمة التي كانت قبل الإسلام، وهذا الصراع من موروثات الاحتلال الغربي لبلادنا، ومن آثار القراءة الاستشراقية التي لم تستطع أن تتخلص من صبغتها الغربية القومية الضيقة، فكانت هذه القراءة نزاعةً إلى تفسير أدنى اختلاف بين المغرب والمشرق أو بين العرب والأمازيغ على أنه تعبير عن رفض عميق عنيد، قديم مقيم!

إن نظرة عابرة في تاريخ المغرب بعد الإسلام تؤكد على:

١. قوة التمسك بالإسلام، فحتى الثورات التي خرجت على الأمويين والعباسيين، خرجت وهي ترفع شعار الإسلام وتنادي بحقيقته وتؤكد على تطبيقه، فلم تكن تمردا على الإسلام أو على العرب، بل رفضا واستنكارا لما اعتبرته مخالفة للإسلام، ومن هنا كانت حروبهم مع جيوش الخلافة حروبا على قاعدة الدين نفسه وليس خروجا عليه.

٢. قوة الامتزاج مع العرب، لقد أسفرت الدول المستقلة التي قامت في المغرب في العصر

العباسي، عن امتزاج فريد بين الأمازيغ والعرب، بل كم سلّمت القبائل الأمازيغية زمام قيادتها للعرب وجعلت نفسها أنصاراً لهم، كذلك كانت الدول الأمازيغية تتخذ اللسان العربي ديناً وثقافة، وانطوت جيوشها على العرب الذين فارقوا دولةً يقودها عربيٌّ وانحازوا لدولة يقودها أمازيغي يروونه أحسن تديناً وتعبيراً عن الإسلام.

وهذا الأمر هو ملمحٌ مهم ينبغي التركيز عليه في خضم الأزمة المعاصرة التي تستهدف تفجير العلاقة بين العرب والأمازيغ، وتلبس هذا الصراع العرقي لباساً دينياً، كأن العرب هم المسلمون المنتصرون السفاحون، وكأن الأمازيغ هم الوثنيون الذين يريدون استبعاد أمجاد حضارتهم الجاهلية الغابرة!!

٢. الظهور المبكر

ظهرت الدول المغربية مبكراً لبُعدها عن قلب الخلافة العباسية، فإذا كانت أنحاء المغرب قد أرهقت الخلفاء الأمويين وهم في دمشق، فكيف إذا ذهبت العاصمة وأهلها مزيداً في اتجاه الشرق، وصارت في بغداد؟!

كانت أول الدول ظهوراً هي الإمارة الأموية في الأندلس، التي أسسها الشاب الأموي الفارُّ من انتقام العباسيين: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، المعروف بعبد الرحمن الداخل، ومع أنه التزم لقب الأمير لنفسه ولقب الإمارة لمملكته، إلا أن إخفاق العباسيين في استرجاع الأندلس إلى خلافتهم، جعل التفكير في الاستقلال عنهم حاضراً في أذهان الزعماء الطامحين في دول المغرب: الأقصى والأوسط والأدنى.

وحيث لم تكن يد العباسيين قادرة دائماً على إرسال الجيوش حتى أقصى المغرب، فقد تمتعت الدول المغربية بقدر كبير من الاستقلال حتى لو أنها كانت تعترف بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية.

وهذا الظهور المبكر يخبرنا بحقيقة أخرى ينطوي عليها، تلك هي ترسخ الإسلام في قلوب أهل المغرب سريعاً، فلو أن الفتوح الإسلامية كانت موجة احتلال مرفوضة، لكان ضعف مركز

الخلافة مُفضيًّا إلى «تحرر» المغرب من هذا «الاحتلال» الذي ضعفت قبضته وانحسرت هيمنته وشغلته الخلافات الداخلية في المشرق. ولكن أهل المغرب جددوا دولا إسلامية في أنحائهم، ظلت مخلصه للإسلام ومدافعة عنه ومجاهدة في سبيله قرونا طويلة.

٣. النزعة الخارجية^(١)

(١) مما يجدر قوله هنا، ولا يتسع له المقام لمناقشته، الإشارةُ إلى أن ما نشأ في المغرب من اتجاهات خارجية وشيعية يكتنفه كثير من الإشكال. نعم، قد تكون هذه الألفاظ «الخوارج، الشيعة» هي الألفاظ التي يتمكن بها العالم أو المؤرخ - لا سيما المشرقي - في ذلك الزمن من تقديم صورة لأحوال المغرب إلى قرائه وتلاميذه، أما هل كان هذا هو الوصف الحقيقي المعبر عن واقع الحال في المغرب، فهنا الإشكال، إذ أنه من المتعذر للغاية الإقرار بأن المغاربة في ذلك الزمن على وعي بأن اختياراتهم هذه هي اختيارات مخالفة لمذهب أهل السنة الذي هو عموم الأمة، ففي ذلك الوقت لم يكن الإسلام قد استقر وانتشر بالمغرب، ولم تكن اللغة العربية قد سادت، وهذه عوائق قوية تمنع أن يُقال: اعتنقوا مذهب الخوارج أو مذهب الشيعة، ويكون الأوفق والأليق أن يُقال: إن عددا من الظروف الذاتية والموضوعية (أي التي تتعلق بهم وتتعلق بالأحوال التي اكتنفتهم) هي التي شكلت تصورهم عن الإسلام، بما في ذلك طبيعتهم القبلية وأنفَتهم الذاتية، وطبيعة الدعاة الذين استطاعوا اجتذابهم ونشر تصورهم عن الإسلام بينهم، وما وقع عليهم من مظالم بعض الولاة الأمويين والعباسيين، وغير ذلك من الظروف؛ لقد عمل هذا كله على أن يفهموا الإسلام على هذه الصورة التي تمنعهم من قبول «احتكار» القرشيين للولاية، ورفعهم السيف على الولاة، وهي المظاهر التي يفسرها المؤرخ والفقيه على أنها اعتناق للخارجية. أو أن يفهموا الإسلام باعتباره التسليم بزعامة آل البيت وتقديهم على كل أحد حتى لو كان جنينا في بطن أمه، فيفسرها المؤرخ والفقيه على أنها اعتناق للتشيع. وتبدو في عبارات بعض أئمتنا ومؤرخينا إichاءات توافق ما أقول، كقول ابن الأثير «أظهروا مقالة الخوارج» وكقول ابن خلدون «لَقْنُوهَا من العرب الناقلة ممن سمعها»، فتأمل في هذه العبارات ترى فيها تحرجا وتشككا من نسبتهم الصريحة إلى مذهب الخروج أو التشيع.

انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٤/٤١٦؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط ٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ٦/١٤٤. بل رأيت مثل ذلك لدى بعض المستشرقين أيضا، ينظر مثلا: كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه إلى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة: حسين جواد قبيسي، ط ١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مايو ٢٠١٠م)، ص ٣٢٨.

=

إذا ذهبنا نتبع خريطة الاتجاهات الفكرية المُعارضة للسلطة في عالم الإسلام، فسنرى حقيقة واضحة، فلئن كانت أرض العراق وفارس في المشرق قد مالت شيئاً ما نحو التشيع لما رسخ فيها من التراث الساساني، فإن أرض المغرب قد مالت شيئاً نحو الخوارج لما رسخ فيها من الأنفة والاستقلال، وذلك أن بلاد المغرب حافلة بالقبائل، وهم كما يقول ابن خلدون «كلهم بادية وأهل عصابات وعشائر»^(١).

وفُسِّر بروز النزعة الخارجية في دول المغرب بأنها كانت الأليق بأوضاع القبائل هناك، إذ ثمة تَوَقُّع عام إلى الوحدة الذي ترنو إليه كل مجموعات قبلية مفككة، وثمة عصبية قبلية تمنع كل واحدة منهم أن ترضى وتُسَلِّم بالزعامة لغيرها، ومثل هذا الوضع يناسبه أن يكون التسليم والرضا لزعامة الأتقى دينا والأجدر بالحكم مع الاحتفاظ بالقدرة على خلعه ونبذه، وهذه الفكرة بدت عند الخوارج كأوضح ما يكون، أو بالأحرى: بأكثر ما يكون تطرفاً، ومن ثَمَّ انتشرت وسادت^(٢).

ويبدو هذا التفسير وجيهاً، لأنه يستطيع أن يفسر ظاهرتين متعارضتين في الوقت نفسه، فتلك البلاد التي انتشرت فيها نزعة الخوارج هي ذاتها التي احتضنت العلويين وأخلصت لهم إخلاصاً عجيباً تشهد عليه سيرة دولة الأدارسة ودولة العبيديين (الفاطميّين)، فكأنهم حين ظهر فيهم زعيم يعلو على العصبية بنسبه الرفيع الممتد إلى النبي، انحلت

=

أريد أن أقول بوضوح: إن ما قيل بأن المغاربة تشيعوا أو كانوا خوارج ليس أمراً مسلماً به بل هو أمر يكتنفه الغموض ومثير للجدل، ومع ذلك، فقد سرت في هذا الفصل على التسليم بما قاله المؤرخون والفقهاء من هذه الأوصاف.

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/٢٠٦؛ ينظر أيضاً: عبد الرحمن بدوي، سيرة حياتي، ط ١ (بيروت: المؤسسة العربية للنشر، ٢٠٠٠م)، ٢/١٢١.

(٢) ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ص ٧٢.

مشكلتهم العميقة فسارعوا بالتسليم له! كذلك، فإن هذا القول يُفسَّر أيضا لماذا كان انتشار النزعة الخارجية في صيغتها الأقل تطرفا: الإباضية والصفورية، فإن هذا الاعتدال أليق بالمتطلعين إلى تحقيق الجماعة والنظام والحُكم، بخلاف النزعة المتطرفة - كالأزارقة مثلا - والتي هي احتجاجية هدمية ثورية تشغل بالها بهدم السلطة القائمة بأكثر مما تفكر في بناء البديل الأجدر! ومن هنا نستطيع أن نفسر لماذا تخلت دول المغرب التي تنتمي للخوارج عن واحدة من أهم ثوابت مذهب الخوارج، وهو: قبول التوارث في الحكم.

لقد كان لخوارج المغرب خصوصية ظاهرة، فإنه «إذا كان الخوارج في المشرق يُمثلون أقلية متطرفة تنزع إلى الخشونة والعنف، فإنهم كانوا في المغرب أقرب إلى الحركة الجماهيرية، وبالتالي أكثر اعتدالا»^(١).

(١) كليفورد بوزورث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ترجمة: عمرو الملاح، ط ١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٣م)، ص ٥٧؛ وينظر أيضا: كلود كاهن، الإسلام، ص ٣٢٧.

وهذه الملحوظة الدقيقة تفتح موضوعا لا بد للعامل لهذا الدين من فهمه واستيعابه، وإن كان المقام هنا لا يسمح إلا بذكر عابر له، وهو موضوع الحاضنة الجماهيرية أو الظهير الشعبي، وهذا الموضوع تُعبر عنه الدراسات الأمنية المعاصرة بالتفريق بين نوعين من المعارضة أو المقاومة: «الإرهاب» و«التمرد». فالإرهاب هو الحركة التي أخفقت في إنشاء ظهير شعبي وحاضنة جماهيرية لها، فهي عمليا معزولة عن المدد، وهي من ثَمَّ أسهل في القضاء عليها لأن ضرباته تصير عشوائية وتستهدف الجماهير أيضا، وقيادات الحركة «الإرهابية» يغلب عليهم التشدد الذي فيه اندفاع ونزق.

وأما «التمرد» فهو الحركة التي تتمتع بظهير شعبي وحاضنة جماهيرية، وهي بالتالي قادرة على تجديد صفوفها من الرجال وتجديد مواردها من الأموال بفعل تمثيلها لهذه الحاضنة والظهير الشعبي، ثم إن ضرباتها موجهة إلى رجال السلطة السياسية وعناصرها الأمنية والعسكرية ومصالحها الاقتصادية، وتجدر هذه الضربات قبولا عاما من حاضنتها الجماهيرية، وقيادات حركة «التمرد» ربما يكونون زعامات شعبية، وهم أقرب إلى الاعتدال، ومن ثَمَّ فالقضاء على التمرد أصعب من القضاء على الإرهاب، ولا يمكن القضاء عليه بالحلول الأمنية وحدها، بل لا بد من تضافر الخطط الأمنية مع الخطوات الاقتصادية والإعلامية والفكرية والإصلاحات الإدارية.

لم يكن ذلك الميل إلى الخوارج لدى قبائل المغرب نوعاً من التمرد على العرب كما يظن بعض المستشرقين والمتأثرين بهم^(١)، فإن قادة الحركة الخارجية كانوا من العرب ومن المشاركة، أو بالأحرى فإن هؤلاء المغاربة هم الذين اتخذوا العرب قادة لهم، فلقد كان زعماء الممالك الكبرى الثلاثة: الأغالبة والرستمية والأدارسة من المشرق، مع أن الأولى سنية والثانية خارجية والثالثة شيعية!

ولو صدق هذا الزعم لكان المغرب كله خارجياً، لكن هذا لم يكن، بل كانت دولة الأدارسة من أوسع ممالكه، وهي أقرب إلى التشيع، ويُعدُّ تاريخها فصلاً فريداً عجيباً في حب الأمازيغ للعرب وإخلاصهم لهم، وأقوى الدول التي ظهرت في المغرب قاطبة هي الدولة العبيدية (الفاطمية) التي تنتسب إلى العرب، فلو صدق زعمهم أن قبائل المغرب اتخذت من النزعة الخارجية وسيلة لرفض العرب ومحاربتهم لما كانت أقوى دول المغرب وأوسعها هي الأدارسة والعبيدية الفاطمية!

لقد كان خضوع المغاربة للأدارسة والرستميين أكبر بكثير من خضوعهم للأغالبة مع أن الأغالبة كانوا أكثر هذه الدول في عدد العرب ضمن الطبقة الحاكمة، حتى قال مؤرخ

=

وطبقاً لهذه الخلاصة فإن كل حركة «إرهابية» تسعى لأن تصل إلى مرحلة «التمرد» ليكون لها ظهور شعبي ومدد من الرجال والمال ومنطقة أوسع من النفوذ، كما أن كل سلطة سياسية تعمل على تحويل كل ظاهرة «تمرد» إلى حركة «إرهابية» بسحب وتفتيت الحاضنة الشعبية الذي يؤدي إلى منع الحركة من مدد المال والرجال، وتقدم السلطة نفسها إلى حاضنة التمرد باعتبارها سلطة عادلة وساعية إلى مصلحتهم وحريصة على إصلاح أحوالهم. وهذا فرع دراسي كبير في العلوم الأمنية يعرف باسم «علم مكافحة التمرد»، وللغربيين فيه -لاسيما الأمريكان- إصدارات كثيرة مهمة.

(١) ينظر مثلاً: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط ٥ (بيروت: دار العلم للملايين، تموز ١٩٨٦م) ص ٢٤٨، ٣١٦؛ فيليب حتي وآخران، تاريخ العرب المطول، (بيروت: دار الكشاف، ١٩٥٠م)، ٢/٥٤١.

إنجليزي: «يخامر المرء شعورٌ بأنه لا بد وأنهم (الأغلبية) كانوا يغبطون الأدارسة والرسامين الذين كان يبدو أنهم يقومون بهذه المهمة (الحكم) بنجاح لا بأس به دون أن يزعجهم تابعون لا ينصاعون لنظام»^(١)، فلو أن المسألة عرقية لكان العكس هو الصحيح. وعلى كل حال، فلقد أخلصت جميع دار الإسلام في النهاية للحق، ولمذهب أهل السنة والجماعة! ويظهر هذا لأول وهلة في قراءة أحوال الدول المغاربية.

ويرجع الفضل في استقرار السنة والجماعة شرقا وغربا إلى المجهود العظيم الذي بذله الخلفاء الأمويون، والخلفاء العباسيون في عصر القوة، ثم إلى أمراء الإمارة الأموية في الأندلس، وخلفهم موكب طويل لا نعرف أكثره من العلماء والفقهاء والدعاة الذين فتح الله بهم القلوب والعقول.

ولئن كان من الضلال البعيد: القول بأن اعتناق مذهب الخوارج هو تمرّدٌ على العرب، فأفضلُ منه وأبعد وأشرد زعمُ بعض الزاعمين أن ذلك كان تمرّدًا على الإسلام! إذ كيف يكون التمرد على الدين باعتناق المذهب المتشدد فيه؟! فإن وافقنا جدلا على هذا، فكيف نفسّر أن كل دول المغرب: السنية والخارجية والشيعة كانت دينية، وعملت كل واحدة منها «على انفراد، بالعمل على نشر الإسلام وترسيخه ببلاد البربر»^(٢)؟!

٤. إرهابات عاصمة بديلة للخلافة

لما كانت عاصمة الإسلام في المدينة المنورة، أظهر عصرُ الفتنة بين الصحابة مدينتين

(١) ج. ف. ب. هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، (ليبيا - تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م)، ص ١٣٨.

(٢) جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل، (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩١م)، ص ٦٣.

يمكن أن تكونا عاصمة بديلة: الكوفة ودمشق، فالأولى فيها عصبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والثانية فيها عصبة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ولم ينجل عصر الخلافة الراشدة إلا وكانت العاصمة قد انتقلت إلى الكوفة فعلا، ثم ختم العصر الراشدي بتنازل الحسن بن علي، وانتقلت عاصمة الإسلام إلى دمشق. وبالرغم من استقرار سلطة الأمويين في عاصمتهم دمشق، إلا أن قوة العلويين وكثرة أنصارهم في الكوفة جعل هذه المدينة هي العاصمة المرتقبة لأي حراك يطلقه آل البيت ضد الأمويين؛ فلقد كانت الكوفة عاصمة لسلسلة الثورات العلوية منذ الحسين بن علي رضي الله عنهما، وحتى اللحظة الأخيرة في عمر الأمويين، حيث اتخذها العباسيون عاصمة لدولتهم الجديدة.

ثم بنى العباسيون بغداد واتخذوها عاصمتهم، فلم تستطع مدينة أخرى أن تمثل بديلا لها، لا دمشق ولا المدينة ولا مكة، وكان ثمة محاولة وحيدة خجولة في عهد المأمون الذي حسب أنه يمكن أن يحكم الخلافة من مرو، فانتفض عليه العراق وفي طليعتهم أهل بيته العباسيون، فعاد عن هذه الفكرة سريعا، ورجع إلى بغداد فاستقام له الأمر.

فلما دخلت الخلافة العباسية في عصر الضعف، ونبتت ظاهرة الدول المستقلة، أسفر الجناح الغربي عن المدينة التي قد تنافس بغداد وتكون بديلا لها، تلك هي العاصمة المصرية، وذلك أن تجربة الدولتين المستقلتين اللتين نشأتا في مصر: الطولونية والإخشيدية، قد أثمرت عن أن هذا الإقليم الخصب قادر إذا أحسنت إدارته على أن يمثل مركزا غنيا وقويا، واستطاع جيشا الطولونيين والإخشيديين أن يسيطر على مصر وعلى الشام وأن يساهم في دفع الروم وأن يتولى عبء الجهاد والثغور، والأهم من ذلك أن كلا الرجلين: ابن طولون والإخشيد دخل على خط الصراعات في بغداد عاصمة الخلافة، وحاول كلاهما نقل الخليفة إلى عاصمته في مصر، وكلاهما كاد أن ينجح! ولو نجح أحدهما في هذا المسعى لتغير مسار التاريخ بغير شك!

وستصدق الأيام هذه الإرهاصات، إذ ستسبق الدولة العبيدية (الفاطمية) إلى مصر،

وتنشئ فيها القاهرة لتكون عاصمة خلافتها، وهو ما سيمدّ في عمرها أمدا طويلا، لتبقى حية في مصر والشام من بعد ما انقرضت في تونس التي هي أصل منبتها. ثم سيأتي المغول فيزيلون خلافة العباسيين من بغداد، فلا يجد المسلمون إلا القاهرة لتكون عاصمة الخلافة الإسلامية لثلاثة قرون قادمة، قبل أن تسفر التجربة العثمانية عن البديل الجديد والأخير من عواصم الخلافة: اسطنبول.

أذكر هذه الملاحظة هنا، لكي أؤكد من جديد على ما سبق أن ذكرناه في هذه «الخلاصة»^(١) حول أهمية العواصم، وضرورة أن تُركِّز الجهود العاملة للدين على انتقاء المدن والعواصم الأكثر أهمية والمرشحة للصعود في المرحلة المقبلة، فإن طاقة العاملين أقل وأضعف من أن تشتمل العمل في سائر مناطق الأمة في وقت واحد، فوجب الاختيار والترجيح إذا تعذر الجمع كما هي القاعدة الأصولية المعروفة.

ومن الجدير بالذكر هنا أيضا أن عاصمة مصر وإن كانت قد مثّلت إرھاصا لبديل لعاصمة الخلافة، فإن بقية العواصم الأخرى: القيروان وتاهرت وفاس وسلجماسة عرفت طريقها لنهوض متزامن، فقد كان من حسنات الدول المستقلة^(٢) أن اشتعل التنافس بينها في التقدم والعمران، وإليها قدم الناس من الأنحاء المختلفة: تجارا ولاجئين وذوي مواهب أخرى، فباتت منطقة المغرب تشهد نموا متوازيا في أربعة عواصم على الأقل، مما أسهم بدفعة كبيرة في مسار الحضارة الإسلامية، هذا فضلا عن مدن الأندلس التي سلكت ذات السبيل بقوة أكبر.

وهذا الملمح، أي النهوض الحضاري لعواصم متعددة، مما نستدل به نحن المسلمين على أن انتشار الإسلام كان فتحا يحمل الخير والبركة للشعوب، ولم تكن فتوحاتنا مثل

(١) راجع الفصل الأول: الذي تناول الفترة المكية من السيرة النبوية.

(٢) راجع الفصل السابق (الفصل التاسع) من هذه الخلاصة.

عمليات الاحتلال الأجنبي الغربي الذي عمل على امتصاص موارد البلاد المحتلة لتتضخم عاصمته، وهكذا انتشرت حضارة الإسلام في مراكز حضارية خارج الجزيرة العربية وخارج نطاق عاصمة الخلافة الإسلامية، وامتدت من بخارى وسمرقند شرقاً حتى فاس وقرطبة غرباً^(١)، ويلاحظ في حالة المغرب بشكل أخص أن عاصمتين من هذه الثلاث أقيمتا في نطاق لم يشهد نهضة حضارية من قبل! فهو فضلٌ خالصٌ للإسلام.

وقد حرصت على إعطاء لمحة عن الموقع الجغرافي، وما وفره من مزية عسكرية أو اقتصادية، وهذا الموضوع ينبغي أن يتوقف عنده العامل للدين كثيراً، لأن اختيار موقع المدينة من العوامل الجوهرية في حماية الحركة واحتضانها أو في نمو الدولة واستمرارها، وهو مبحث يجب ألا يغيب عن عقل حركة المقاومة، أو صاحب الدولة^(٢).

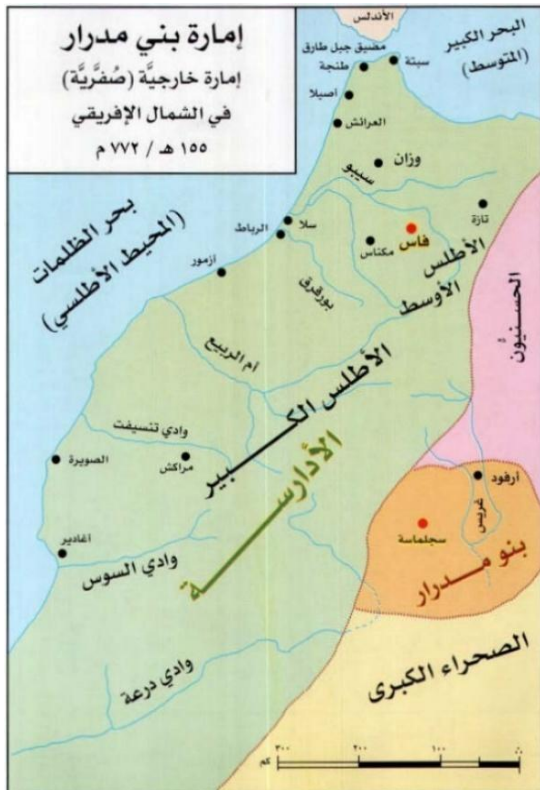
والآن نأخذ في إلقاء ضوء على أبرز الدول المستقلة في الجناح الغربي للخلافة الإسلامية.



(١) للمزيد في فضل الفتوح الإسلامية وتميزها عن سائر الغزوات والاحتلالات، ينظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ: الجزء الأول، ط ١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧م)، ص ٢٣ وما بعدها.

(٢) من الجدير بالذكر هنا أن مبحث اختيار المدينة وموقعها هو من المباحث التي ناقشتها كتب السياسة الشرعية، ففي تلك الكتب نرى شروط اختيار موقع المدينة، ينظر مثلاً: ابن أبي الربيع، سلوك المالك، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، (دمشق: دار كنان، ١٩٩٦م)، ص ١٠٦؛ ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: د. علي سامي النشار، ط ١ (بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٩٧م)، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

دولة بني مدرار



وهي من دول الخوارج الصفرية^(١)، قامت في المغرب الأقصى، في منطقة تافليت التي تتمتع بحصانة طبيعية، إذ هي على حافة الصحراء، وفيها المياه.

برزت الدولة المدراية عام (١٤٠هـ)، أي في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور، المؤسس الفعلي للدولة العباسية، وقد أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول الذي كان راعيا، وكانت له مواهب الزعامة فتوافق مع غيره من الرعاة على بيعة عيسى بن

يزيد بن الأسود، ثم دعا أبو القاسم قومه أهل مكناسة إلى مبايعة عيسى وطاعته.

(١) الصفرية من فرق الخوارج، وجاء اسمهم من انتسابهم إلى زياد بن الأصفر، وهم أقرب إلى الإباضية الذين هم فرقة أخرى من الخوارج لكنها أقرب فرقتهم إلى أهل السنة.

اتخذت عاصمتها في مدينة سجلماسة، واختير لها موقع على نهر زير فاستطاعوا ممارسة الزراعة، وكان موقعها على حافة الصحراء قد جعلها محطة للتجارة العابرة بين الشمال الإفريقي وأنحاء غرب إفريقيا، بل وصفت بـ «العاصمة الأولى التجارية للضفة الشمالية للصحراء لقرون عديدة»^(١)، وقد أقبل على المدينة كل من كان على مذهب الخوارج الصفرية من العرب والسودان والبربر والأندلسيين، ثم نُحِّي عيسى بن يزيد عن الإمامة لأسباب يختلف فيها المؤرخون ويزيدها غموضاً ندرة الأخبار فيها، ونُصِّبَ المؤسس أبو القاسم سمكو، ثم قتل عيسى (١٥٥ هـ)، وبقي أبو القاسم إماماً حتى (١٦٨ هـ)، وأصبحت الإمامة بعده في أسرته على خلاف مذهب الخوارج^(٢)، فتولاها ابنه إلياس الذي انقلب عليه أخوه اليسع، وبعد وفاة اليسع (٢٠٨ هـ) تولى الأمر ابنه مدرار، وهو الذي اتسع صيته وارتفع قدره حتى صارت تُنسب إليه هذه الدولة، فيقال: المدرارية^(٣)، وحكمها لأكثر من ثلاثين سنة!

ولم يكن هذا هو المظهر الوحيد للتخفف من مذهب الخوارج، فقد دخلت هذه الدولة، في تبعية الخلافة العباسية وولاتها في القيروان، وكان يُدعى على منابرهما للمنصور، ومن بعده للمهدي، وهو ما جعلها تنعم بالاستمرار والاستقرار، كذلك فإن ثورات الخوارج في المغرب الأدنى والأوسط، وهي الثورات التي تصدى لها العباسيون وأخمدوها، أتاحت الفرصة لهذه الدولة الوليدة في المغرب الأقصى أن تتمكن وتستقر، ويبدو أن أبا القاسم سمكو كان حصيفاً فاعتبر بما انتهت إليه تلك الثورات من اضطراب

(١) حسن خضيري، صفحات من تاريخ المغرب الإسلامي، ط ١ (الدمام: مكتبة المتنبي، ٢٠٠٥م)، ص ٨٤، ٨٥.

(٢) وهذا أمر سيتكرر في الحديث عن دول الخوارج، ونؤكد هنا على مراجعة ما كتبناه في الفصل الخامس من هذه الخلاصة: والتي كانت بعنوان «مقدمة في تاريخ الدول الإسلامية».

(٣) وبعض المؤرخين يبدأ تاريخ الدولة من عهده هو، كأن ما سبقه كان تمهيداً للدولة، أو كأن استقلال الدولة عملياً كان بدءاً من عهد مدرار هذا. انظر مثلاً: بوزوروث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ص ٥٩.

فآثر الهدوء والطاعة.

ويرصد المؤرخون ميلا مضطربا تتخفف فيه الدولة من مذهب الخوارج الصفرية، إلى الإباضية، لا سيما وأن مدرار تزوج بالفعل من أروى بنت عبد الرحمن بن رستم، زعيم الدولة الرستمية وهو من شيوخ الإباضية، ثم انتهى الأمر أن تحولت الدولة المدرارية إلى عقيدة أهل السنة والجماعة والمذهب المالكي في عهد الأمير محمد الشاكر لله (٣٤٧هـ) الذي عُرف بالعدل والصلاح.

اجتذبت سلجماسة، بما توفر فيها من غنى، وما توفر فيها من استقلال كثيرا من الغرباء -وهي العادة التي ستتكرر في عواصم الدول المغربية^(١) وسنأتي إليها بعد قليل - من أهل العراق ومصر وغيرهم، حتى وصفت بأنها «كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد»^(٢)، وكان لهم بصمة في نهضة سلجماسة، فلقد وصفت الزراعة فيها بأنها على النمط المصري، ووصفت الأبنية بأنها على النمط الكوفي^(٣).

ولما بزغ العبيديون (الفاطميون) صارت دولة بني مدرار في مرمى نفوذهم، وتعددت المرات التي احتلوها فيهم، وبلغت ثلاث مرات خلال نصف قرن (٢٩٦، ٣٠٩، ٣٤٧هـ)، وكان العبيديون (الفاطميون) قد استطاعوا اجتذاب قسم من قبائل مكناسة إلى دعوتهم، وانحاز الأمير الشاكر لله الذي حصل في عهده التحول إلى المذهب السني إلى الأمويين في الأندلس في مواجهة العبيديين (الفاطميين) الإسماعيلية في المغرب، فهُزم الشاكر لله أمام العبيديين الفاطميين وأُسروه (٣٤٧هـ)، وعهدوا بحكم بلاده إلى بعض من

(١) راجع ما ذكرناه في الفصل السابق عن كون هذه الدول المستقلة كانت ملجأ للمظلومين والمعارضين وأصحاب المواهب ممن لم يجدوا التقدير في ديارهم الأصلية.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٣ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١م)، ص ٢٣١.

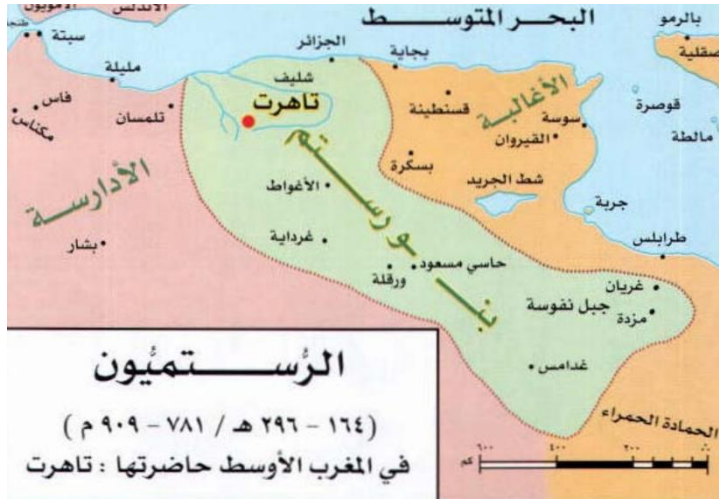
(٣) انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، (بيروت: دار صادر، ١٩٨٣م)، ٩١ / ١.

انحاز إليهم من المكناسيين لئلا يثيروا عليهم النزعة القبلية بين أبناء مكناسة الذين هم أصل الدولة وبين أبناء كتامة الذين هم عصابة الدولة العبيدية، وبالرغم من ذلك فقد بقيت الدولة المدرارية سنية، واستمر حكمها في أبناء الشاكر لله الذين استطاعوا استرداد الحكم مرة أخرى.

عاشت دولة بني مدرار أكثر من قرنين من الزمن (١٥٥ - ٣٦٠هـ)، وسقطت حين قُتل آخر أمرائها عبد الله بن محمد الشاكر لله على يد خزرون بن فلفول زعيم قبيلة مغراوة. وتدل بعض الأخبار المتناثرة أنها شهدت حركة علمية إباضية، إذ تكشف المصادر عن رحلات قام بها طلبة العلم إلى شيوخ سجلماسة، وبعض أولئك أوصى بكتبه إلى بعض، وضربت هذه الدولة بسهم في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية في جنوب الصحراء الكبرى. وما تزال كثير من أخبار هذه الدولة شحيحة يحيط بها الغموض.



الدولة الرستمية



تنسب إلى مؤسسها عبد الرحمن بن رستم، وهو حفيد بهرام الذي كان مولى سيدنا عثمان بن عفان، ثم نزل إلى المغرب منذ القرن الأول للهجرة.

وكان عبد الرحمن من شيوخ المذهب الإباضي^(١)، وهم من الخوارج، وقد كان مشاركاً فعّالاً في ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى الخارجي، وتولى طرابلس، ثم تولى

(١) الإباضية: هم من فرق الخوارج، وهم لا يقبلون بنسبتهم إلى الخوارج، وترجع نسبتهم إلى زعيمهم الأول عبد الله بن إباح التميمي، وانتشر المذهب في المغرب أوائل القرن الثاني للهجرة على يد سلمة بن سعد وابن مقيطر الجنائني، وكانت لهم محاولات للسيطرة على أنحاء متعددة من المغرب، من أبرزها ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وكان أصل تمرّكهم في جبل نفوسة في طرابلس الليبية، واستطاعوا في عهد نشوء الدولة العباسية - حيث ضعفت سلطة الخلافة الإسلامية - السيطرة على مساحة تمتد من برقة إلى المغرب، قبل أن يسترد العباسيون أنفاسهم ويتمكنون من استعادة هذه البلاد والقضاء على هذه الحركة.

القيروان حينما استولى عليها الخوارج الإباضية من الخوارج الصفرية. واستطاع أن يفلت من جيوش العباسيين التي قضت على هذا التمردات، وأقرَّت بها أمر المغرب الأدنى (تونس)، فاتجه عبد الرحمن إلى المغرب الأوسط واستقر في مدينة تاهرت.

عُرف عبد الرحمن بن رستم بالعلم والزهد والتقوى والتزام الشورى، وله في هذا أخبار جلييلة مشهورة. وتعد زعامة عبد الرحمن بن رستم وتسليم القبائل المغربية له مع أن أصله مشرقِي ونسبه فارسيّ دليلاً جديداً على أن أهل المغرب لم يكونوا يعانون من سطوة النزعة العرقية الأمازيغية التي ترفض وتبذ أهل المشرق، بل كانوا يقدمون الإسلام والدين والتقوى، ويجعلونه أميراً عليهم!

برزت الدولة الرستمية عام (١٦١هـ)، واتخذت عاصمتها في تاهرت، عند موقع منيع في سفح جبل تحميه الأشجار الملتفة، وكان اتخاذ مثل ذلك الموضوع ضروريا لطبيعة الدولة التي تستقل عن الخلافة العباسية، والتي طاردها الجيوش العباسية من قبل، فلم تنجُ إلا بفضل اعتصام مؤسسها بالشواهد^(١)، وكان يمر قريبا منها نهر وتنبع قريبا منها العيون، فصارت بهذا موقعا ممتازا من الجهتين: العسكرية والاقتصادية، وما لبثت مع توالي الأيام أن أضحت مدينة ناضرة كما ينضح من مصادر الرحالة والجغرافيين، وأقبل إليها الناس مع تسامعهم بعدل عبد الرحمن وحسن سيرته، حتى صارت تاهرت غاصة بالناس ذوي الأصول البعيدة، إذ «أتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، فقلّ أحد أن ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم... حتى لا ترى دارًا إلا قيل: هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي»^(٢).

حكّم عبد الرحمن بن رستم لعشر سنوات تالية حتى توفي (١٧١هـ)، وهذه الدولة هي

(١) الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية (القسم الثاني)، (الطبعة القديمة: بدون بيانات)، ص ٣.

(٢) الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية، ص ٤٢.

التحقق الوحيد للإباضيين في ذلك الوقت^(١)، وبها تزعم عبد الرحمن الإباضيين في كافة الشمال الإفريقي، بل لا يبعد أن يُقال: تزعم الإباضيين جمعا، وقد سعى الإباضيون في المشرق لدعم هذه الدولة فجمعوا لها من الأموال قدرًا عظيمًا وأنفذوه إليه في تاهرت!

ومع كونهم من الخوارج إلا أن الحكم فيها كان وراثيًا، على خلاف ما يقتضيه مذهبهم، يشبهون في ذلك ما كان في دولة بني مدرار بالمغرب الأقصى. هذا بالرغم من أن عبد الرحمن بن رستم مات جعل الأمر من بعده في سبعة، منهم ابنه عبد الوهاب، غير أن أهل الحل والعقد اختاروا ولده هذا، وهو ما يؤكد من جديد قاعدة العصبية وطبيعة العصر التي فصلنا القول فيها في الفصل الخامس من هذه «الخلاصة»، حين تحدثنا عن تفسير انتشار التورث في الدول الإسلامية، إن هذا الحادث يعدُّ دليلًا مهمًّا على صحة ما ذكرناه.

وفي عهد عبد الوهاب، الذي تشير المصادر إلى قوته وذكائه، وقعت بعض التمردات التي استطاع نهاية الأمر إخمادها واستتب له الأمر، لكن هذه التمردات أحدثت شقوقا قوية بين الإباضيين وأدخلت الأدارة على خط صراعهم الداخلي، وبالتأمل في هذه التمردات يظهر أنها من ثمرات قصر الوقت الذي قضاه المؤسس عبد الرحمن بن رستم في زعامة الدولة، فعشر سنوات فحسب هي عمُرٌ قصير يحتاجه مؤسس دولة مستقلة لا سيما إن كانت قاعدة المذهب المتبع في هذه الدولة تأنف من مبدأ الوراثة، وهذا على عكس ما سنجده لدى الأدارة، إذ حفظت عصبتهم الولاية لابن المؤسس وهو جنين في بطن أمه،

(١) لا يزال للإباضيين انتشار في ليبيا وتونس والجزائر، ولكن تحققهم الأبرز في العصر الحالي والعصور القريبة هو في سلطنة عُمان، ولهم امتدادات في شرقي إفريقيا: لا سيما زنجبار وتنزانيا، وهي المناطق التي كانت قديما تابعة لحكم العُمانيين قبل زمن الاستعمار، فقد امتدت سلطة العُمانيين من الضفة الشمالية لمضيق باب المندب وعلى امتداد الساحل الشرقي لقارة إفريقيا.

وهذا مع أنه إدريسا المؤسس لم يدم على رأس الدولة سوى خمس سنوات!

ولما توفي عبد الوهاب خلفه ابنه أفلح، وكان كوالده وجدّه ممن جمعوا بين العلم والحرب والسياسية، وكان أطول أهل دولته عهدا في الحكم، إذ استمر حكمه أربعين سنة أو خمسين سنة، ومن ثمّ كان عهده أكثرها استقرارًا، فكان ذروة الدولة الرستمية، ولهذا تذوق ابنه أبو بكر مذاق الترف وتحذث المصادر عن غناه الواسع، ومنه بدأت الدولة في انهيارها، فقد انقسمت البلاد في عهده بينه وبين صهره، ثم اندلعت الحرب والفتنة بينهما، ومع أن أخاه محمدا استطاع الإمساك بزمام الدولة في عهده الذي استمر لعشرين سنة وأجلّ تشظيها، إلا أن عهده ما كاد ينقضي حتى بدأت الانشقاقات تدب في جسد الدولة وداخل بيت الإمارة فيها، فتحاربوا وتقاتلوا وقصرت السنوات التي يقضيها الأمير في سدة الحكم، وأغرى هذا الحال المنشقين عنهم بالثورة والتمرد، كما دخلت الدول الأخرى على خطوط الصراع، حتى جرت عليها سنة الدول.

تقع العاصمة «تاهرت» على خط الحركة التجارية في الشمال الإفريقي، فاجتذبت مع استقرارها مزيدا من الموارد البشرية وحقت مزيدا من الازدهار المالي، حتى أطلق عليها «عراق المغرب»^(١) و«بلخ المغرب»^(٢)، ولا ريب أن استقرار الدولة تحت حكم المؤسس وابنه وحفيده قد زاد من فرص الاستثمار والنمو التجاري أيضا، وكانت هذه التجارة هي وسيلتها لنشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء^(٣).

كذلك لا ريب في أن أئمة الدولة إذ كانوا من المشيخة والعلماء أن تزدهر في بلادهم حركة العلم، فكانت عاصمتهم تاهرت مركزا حضاريا وثقافيا في المغرب العربي، وازدهر

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط ٢ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م)، ٨/٢.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٢٨.

(٣) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢١.

ففيها العلم على المذهب الإباضي، وكذلك ظهر فيها علماء ومحدثون وشعراء من السنة، وعُرف من تراثهم «مكتبة المعصومة» التي يُذكر أنها كانت من كبريات المكتبات في العالم الإسلامي، إلا أنها أحرقت على أبي عبد الله الشيعي داعية العبيديين (الفاطميّين) (٢٩٦هـ).

عاشت الدولة الرستمية قريبا من قرن ونصف القرن (١٦١ - ٢٩٦هـ)، وعانت من الانقسامات الداخلية بين أمرائها في آخر أيامها، وهو الأمر الذي أتاح دخول العبيديين (الفاطميّين) على خط هذه الصراعات، حتى سقطت على يد أبي عبد الله الشيعي، وبرغم سقوطها ثم برغم بقاء الدولة العبيدية (الفاطمية) زمنا طويلا، فقد استمر حضور الإباضيّين ومذهبهم في الشمال الإفريقي.

وتعد الدولة الرستمية أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية تقوم في بلاد المغرب.



دولة الأدارسة

أفلت إدريس بن عبد الله العلوي من موقعة «فخ» التي كانت في عهد الخليفة الهادي (١٦٩هـ)، ولم يزل سائرًا حتى انتهى إلى المغرب، فأحسن قبائل زناتة استقباله، وجعلوا أنفسهم أنصاره، فاستطاع هناك أن يؤسس الدولة التي نسبت إليه، دولة الأدارسة، عام (١٧٢هـ) وقد كان الخليفة العباسي هارون الرشيد في بداية خلافته يحسن إلى العلويين،

فلما نشأت هذه الدولة تَغَيَّرَ عليهم، وعلى مَنْ شَعَرَ منه بالولاء لهم.



وهذه الدولة هي أول دولة علوية بالمغرب، بل هي أول نجاح للعلويين في تأسيس دولة، وقد ساعد إدريسًا في تأسيس الدولة إسحاق بن محمود زعيم قبيلة أوربة البربرية، فكان وزراء إدريس من قبيلة أوربة، واتخذ إدريس جيشه من وجوه القبائل البربرية: زناتة وصنهاجة وهوارة، وتعد ظاهرة التفاف القبائل المغربية حول إدريس ونصرتهم إياه من الأمور المثيرة للعجب، والدالة على أن أهل

المغرب أخلصوا للإسلام إخلاصا فاق نزعتهم القبلية، وخضعوا لرجل طريد هارب لكونه من آل بيت النبي، فنصروه نصرًا مؤزَّرًا، تحول به من لاجئ إلى زعيم دولة قوية! وهذه واحدة من الحوادث التي تشهد بضد ما يقوله بعض المعاصرين عن العلاقة بين العرب والأمازيغ!

جاهد إدريس، بجيشه هذا، في تصفية بقايا الجيوب الوثنية واليهودية والنصرانية في تلك الأنحاء، ثم توجه شرقا فأتسعت منطقة نفوذه حتى شملت تلمسان، وبها استقام له المغرب.

على أن إدريس توفي (١٧٧هـ) بعد خمس سنوات فحسب من تأسيس دولته، وقد اتهم البعض هارون الرشيد بأنه دسَّ له السم مع رجل يسمى الشماخ، وهو ما لا دليل عليه يُطْمَأَنُّ إليه وإن كان غير مستبعد، على أن هذه الوفاة لم تذهب بالدولة الوليدة، لا سيما وأن إدريس لم يكن له ولد، بل كانت جاريته «كنزة» حبلى، فاخترأوا هذا الجنين ليكون إمام الدولة، ولما وُلِدَ سمي بإدريس أيضا لشدة شبهه بأبيه، وقام بأمر الدولة موالي أبيه، فتولى الوصاية على إدريس رجل يسمى راشد فكان نعم الكفاء والمدير للدولة، ثم بويج لإدريس الثاني بعدما بلغ عشر سنوات (١٨٦هـ)، ثم اغتيل راشد بتدبير من الأغلبية، فتولى أمر الوصاية يزيد بن إلياس العبدى (١٨٧هـ)؛ حتى بلغ إدريس الصغير سبعة عشر عاما وبدأ يحكم مستقلا منذ (١٩٢هـ).

وهذا الإخلاص من قبائل المغرب لإدريس هو أيضا من العجيب المدهش، وقد كان الموت المبكر لزعيم الدولة كفيلا بنقضها وإنهاؤها، إلا أن هذا الحب والنصرة من المغاربة له، هو صاحب الفضل الأكبر -إن لم يكن الفضل الأوحد- في استمرار هذه الدولة، وعبورها هذا المأزق الطويل الذي استمر سبعة عشر عاما منذ مولد الصبي إلى توليه الحكم! وتكرر هذا العمل مرة أخرى مع حفيد إدريس الثاني علي بن محمد (الأمير الرابع من الأدارسة)، فقد آل إليه الحكم وهو في التاسعة من عمره، «فقام بأمره الأولياء

والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة، وبايعوه غلاما مترعرعا، وقاموا بأمره وأحسنوا كفالتة وطاعته فكانت أيامه خير أيام»^(١).

جمع إدريس الثاني في إهابه مجد الطرفين: العلوي من جهة الأب، والأمازيغي من جهة الأم، ونشأ في كنف أخواله زعيما، وكان لهم سبطا، وقد أحسنوا إعدادة ليتولى الحكم، كما أحسنوا توطئة الحكم له.

وإدريس هذا هو الذي بنى مدينة فاس، أحد حواضر العلم في التاريخ الإسلامي (١٩٢ هـ)، بناها «في بلاد تكاد تخلو خلواً تاماً من المدن»^(٢)، وقد بلغت مدينة فاس على يده ويد خلفائه من بعده مبلغا عظيما، وغدت قبلة للمشاركة والمغاربة والأندلسيين، لا سيما في عهد الأمير الخامس للأدارسة يحيى بن محمد حفيد إدريس الثاني، وفي ذلك العهد أنفقت فاطمة الفهرية أموالا عظيمة على بناء جامع القرويين في فاس (٢٤٣ هـ)، وقد صار من أشهر المساجد في تاريخ الإسلام، ويعد كثير من المؤرخين أقدم جامعة إسلامية. وكانت فاس وجامعها بقعة إشعاع حضاري تركت به دولة الأدارسة بصمتها الخالدة في تاريخ المغرب، فقد كان لها النصيب الأكبر في تعريب البلاد، وفي نشر العقيدة السنية والمذهب المالكي من بعد ما كان المغرب تحت سيادة مذهب الخوارج، ومنذ ذلك الوقت صار الأشراف (العلويون) نسيجا أصيلا في بلاد المغرب.

وتعد فاس أحد الشواهد الكبرى على التسامح الإسلامي بدليل كثرة اليهود فيها وإقبالهم إليها لما لمسوه في ظل الأدارسة من العدل والعافية، حتى ذكرت المصادر أن جزية اليهود في فاس فحسب بلغت ثلاثين ألف دينار!! ولئن كان الرقم مبالغاً فيه إلا أنه يدل على واقع يشهد بكثرة اليهود وغناهم^(٣).

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٢٠ / ٤.

(٢) كلود كاهن، الإسلام، ص ٣٢٨.

(٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: كارل يوحنا تورنبرغ، (أوبسالة: دار الطباعة المدرسية، ١٨٤٣ م)، ص ٢٤.

وبوفاة إدريس الثاني (٢١٣هـ) ينقضي عهد تأسيس الدولة وتثبيت أركانها، ويبدأ عصر قوتها في خلفاء إدريس الثاني، لكن أميرها الثالث محمد المنتصر بن إدريس الثاني، وزَّع السلطة والمناطق بين إخوته أمراء الأدارسة على نحو آل في النهاية إلى حالة من التفتت والتفكك في بنية الدولة، ووقعت المنازعات بين الإخوة وأبنائهم في الصلاحيات والسلطات، وهذا ما جعل دولة الأدارسة متعددة الأسماء ومناطق النفوذ، مما قد يثير الحيرة والغموض لدى القارئ، وهذه القسمة كان لها نصيب في ضعف الدولة وانحطاطها آخر الأمر.

عاشت دولة الأدارسة قريبا من قرن ونصف القرن، ثم وقعت تحت نفوذ قوتين كبيرتين كانت كلتاها تعيش ذروة قوتها، وهما: العبيديون (الفاطميون) الذين سيطروا على الشمال الإفريقي ثم تمددوا إلى مصر والشام والحجاز، وكان النصف الأول من القرن الرابع الهجري هو ذروة قوتهم. والأمويون في الأندلس الذين كان القرن الرابع نفسه لا سيما نصفه الأخير هو ذروة قوتهم.

لهذا فقد تبادلت هاتان القوتان القضاء على هذه الدولة الرابضة، ضمن فصول وعلى مراحل متعددة، وكانت بداية الانهيار حين استطاع والي العبيديين مصالة بن حبوس المكناسي أن يهزم الأمير التاسع يحيى بن إدريس بن عمر (يحيى الرابع)، ويُلزِمه التبعية للعبيديين (٣٠٥هـ) ثم خَلَعَهُ وَأَسْرَهُ، وكان هذا الأمير المأسور من أشهر الأمراء الأدارسة، إذ كان من أهل الفقه والحديث ويحضر العلماء مجلسه، ويُرحل إليه من البلاد، وكانت قد صَفَّت له البلاد حتى صار من أرفع الأدارسة شأنًا، ويطوف بالبال أن لو لم يكن زمانه هو العصر الذهبي للعبيديين (الفاطميين) لزاد ذلك الأمير في دولة الأدارسة عُمْرًا وَرُقْعَةً وَرُقْعَةً!

حاول الأدارسة استعادة دولتهم، وكان ثمة محاولة قوية للحسن بن محمد الحجام لاستعادة فاس (٣١٠هـ)، لكنها ما لبثت هي وأخواتها أن أخفقت في استرجاع ما مضى.

وما كان للدولة أن تستمر بين هاتين القوتين الكبيرتين، فتنقل أمراؤها بين الولاء لإحدى القوتين، وكانوا أقرب إلى الأمويين إذ هم أقرب في المذهب وأقرب في الأرض من العبيديين (الفاطميين)، وخاض بعض أمراء الأدارسة الجهاد ضد النصاري في صفوف الأمويين كأبي

العيش أحمد بن كنون (٣٤٣هـ)، لكن أخاه الحسن بن كنون -وهو آخر أمراء الأدارسة- كان أقرب إلى العبيديين، وكان سلوكه مع الأمويين الأندلسيين أقرب إلى سلوك المتمرد الخارج عليهم، وبعد فصول من الحروب والمصالحات بينهما، انتهى الأمر به إلى أن أُسر وقُتل على يد الأمويين وقائدهم محمد بن أبي عامر (٣٧٥هـ)، فطويت بذلك دولة الأدارسة.

وكالعديد من الدول، بقيت ثمة محاولات يقوم بها بعض ذريتهم لاسترجاع ملكهم، لكنها تكون أضعف وأقصر من أن يتوقف عنده التاريخ كثيرا، إلا أن محاولات الأدارسة صادفت بعض النجاح لكونها وافقت زمن ضعف الأندلس ودخولها في عصر ملوك الطوائف، فقد تَمَكَّن فرع آل حمود من السيطرة على الجزيرة ومالقة، لكنهم كانوا من أضعف ممالك الطوائف، وما لبث أن التهمتهم مملكتا إشبيلية وغرناطة.

ولا تزال كثير من أخبار هذه الدولة يلفها الغموض وتعاني من ندرة المصادر، مثل غيرها من الدول المغربية المبكرة. ولهذا ينبغي أن يكون القارئ المعاصر حذرا من اختلاط المعلومات بالتحليل الذي يقدمه المؤرخ محاولا به سدَّ فجوات النقص، وتوقع المسكوت عنه مما لم تكشفه المصادر التاريخية التي أرّخت للأدارسة.



دولة الأغالبة



تُنسب هذه الدولة إلى إبراهيم بن الأغلب التميمي أحد القادة البارزين الذين عملوا في خدمة الخلافة العباسية ضد ثورات المغرب، وبعد كثير من التقلبات ولاه الرشيد ولاية

إفريقية، ومقرها القيروان (١٨٤هـ). وإبراهيم هذا هو حفيد الأغلب بن سالم الذي كان من رجال أبي مسلم الخراساني في زمن الدعوة العباسية في خراسان.

عمل إبراهيم منذ توليها على التأسيس لدولة له ولأبنائه من بعده، ولم تخف هذه الطموحات على الرشيد، ولكنه وافق على هذا ورضي به، بل ودعمه، ولعله قدّر أن يجعلها دولة تابعة للخلافة خيراً من أن تكون خارجة عليها، وأن تكون -بهذا- حاجزاً بين الدول المستقلة في المغرب الأقصى والأوسط (بني مدرار، والرسّامين، والأدارسة) خيراً من أن تكون واحدة منها، لا سيما والشرق أمره عظيم ولا يخلو من المشكلات. وبالفعل بقيت دولة الأغالبة على ولائها للخلافة العباسية، أو بعبارة

النويري الدقيقة: «لما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر، وإنما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية، وتعرف لها حق الفضل والأمر، وتظهر طاعة مشوبة بمعصية، ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم»^(١).

بقيت دولة الأغالبة على ولائها للخلافة العباسية. لكن قيامها بهذه الطريقة - وإن كان خيرا - إلا أنه دليل على تسليم الخلافة العباسية بالأمر، وتنازلها «عن السيطرة على ثلثي بلاد البربر»^(٢)، وإقرارها بالعجز عن ضم المغرب العربي تحت لواء الخلافة!

كان إبراهيم فقيها ذا دين، وهو من تلاميذ الفقيه المصري الكبير الليث بن سعد^(٣)، وتمتع بمواهب الزعامة حتى قيل في وصفه «لم يل أفريقية أحسن سيرة منه، ولا أحسن سياسة، ولا أرأف برعيته، ولا أوفى بعهد، ولا أرعى لحرمة منه، فطاعت له قبائل البربر»^(٤)، وقد تمكن من إقرار الأمر له وإخماد الثورات التي قامت ضده. وهو وإن لم يستطع كثيرا القضاء على هذه الدول المستقلة في المغرب، إلا أنه عمل بهمة على إضعافها، ونجح في منعها من التمدد.

استفادت دولة الأغالبة من موقعها المتميز الذي يجعلها حاضرة على مرافئ البحر المتوسط التجارية، ومستندة إلى البقاع الخصيبة في الداخل، ولم يُقَصَّرَ أمراء

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط ١ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٣هـ)، ٢٤/١٠٠.

(٢) جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي، ص ٦٢.

(٣) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم عرب، ط ١ (طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٩٤م)، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ط ٣ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٣م) ٩٢/١.

الأغلبية لا سيما الأوائل منهم في حسن إدارة هذه الموارد، فكان أن «لم تعرف بلاد إفريقية منذ العصر الروماني ازدهارا اقتصاديا كما عرفته إلا أيام الأغلبية»^(١)، وعلى يدهم «تم انتقال إفريقية (تونس) من بلد لاتيني اللغة مسيحي الدين ظاهرا، إلى بلد عربي اللغة إسلامي الدين... وهو انقلاب سريع تام، ربما لم يكن له مثيل في جميع البلدان التي فتحها الإسلام»^(٢).

من أعظم فضائل دولة الأغلبية جهادها في البحر المتوسط، إذ كانوا سادة هذه المنطقة الوسطى منه، ومثلما اهتموا بتحسين الثغور في البر، فقد اهتموا كذلك بثغور البحر وأنشؤوا نظاما متطورا للإنذار المبكر عبر شبكة ساحلية ممتدة على طول البحر المتوسط^(٣)، فضلا عن تطوير الأسطول، فصارت لهم بذلك قوات بحرية قوية، تمكنوا بها من فتح جزيرة صقلية، وهو الفتح الذي بدأ (٢١٢هـ) في عهد الأمير الثالث زيادة الله بن الأغلب، وكان قائد الجيش الفقيه المالكي الكبير أسد بن الفرات. ثم استمر الجهاد في عهود أمراء الأغلبية في صقلية حتى تم فتحها نهائيا في عهد الأمير التاسع إبراهيم بن أحمد (إبراهيم الثاني)، ذلك الذي فتح جزيرة مالطة، وواصل الجهاد في الجنوب الإيطالي حتى توفي عند مدينة كُتْشِنَه الإيطالية^(٤)، وقد

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د. ت)، ص ٣٢١؛ كلود كاهن، الإسلام، ص ٣٣٠.

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٢/ ٥٤٣؛ وانظر: حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م)، ص ٩٩.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٤/ ٢٥٩. وأصل الرواية أن هذه الشبكة ممتدة بين طنجة والإسكندرية، بحيث أن النار توقد في طنجة فترى -عبر مراكز وسيطة- في الإسكندرية. ولا ريب أن هذه من المبالغات، لكنها مبالغة تدل على أصل.

(٤) هي مدينة كوزنسا cosenza في الجنوب الغربي من إيطاليا.

اتخذ الأغلبة صقلية مركزاً متقدماً يُخرجون منه الجيوش التي تواصل الجهاد في الجنوب الإيطالي، وكانت لهم محاولة جريئة لفتح روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وقلعة النصرانية العتيدة، وذلك في عهد أميرهم الرابع محمد بن أبي عقال (٢٣٢هـ) ! «وكان لهذا العمل دويٌّ مؤلم في كل العالم المسيحي»^(١).

ويعد فتح صقلية من أهم الأحداث في تاريخ العلاقات بين المشرق والمغرب، فقد بقيت صقلية لنحو قرنين تحت حكم المسلمين، حتى عندما سقطت الأغلبة ورثها العبيديون (الفاطميون)، فكانت صقلية من مراكز الحضارة الإسلامية في الغرب، وصارت بهذا إحدى البوابات الثلاث الكبيرة^(٢) التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وهذه هي الفترة الوحيدة في تاريخ صقلية التي طفت فيها على خريطة الحضارة الإنسانية، ثم غابت عنها مع غياب المسلمين، ولقد كان النورمان الذين انتزعوا صقلية من المسلمين معجبين بالحضارة الإسلامية ومتأثرين بها في نظمها ورسومها وعمرائها، واتخذوا في بلاطهم علماء مسلمين أشهرهم الجغرافي الشهير: الإدريسي.

ومن أهم آثار الأغلبة: جامع الزيتونة في القيروان، وهو من أهم المعاهد العلمية في تاريخ المسلمين. وقد كانت القيروان في عهدهم أجلاً مدن الشمال الإفريقي

(١) جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي، ص ٧٧.

(٢) غالباً ما يُشار إلى ثلاثة مناطق كانت منافذ الحضارة الإسلامية إلى الغرب وهي: الأندلس في أقصى الغرب الإسلامي، والإمارات الصليبية التي نشأت في الشام، ثم صقلية. فقد مثلت هذه المناطق الثلاث أعظم احتكاك وتعامل بين المسلمين والغرب. ولمطالعة صورة عامة موجزة عن تاريخ صقلية وحضارتها في ظل الإسلام، ينظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، ط ١ (اسطنبول: دار الأصول العلمية، ٢٠٢٢م)، ٢/ ٤٩٣ وما بعدها.

وأكثرها عمارة ورجالا وأموالا وتجارة^(١)، وكانت كغيرها من عواصم المغرب العربي غاصة بالغرباء وذوي الأصول المشرقية البعيدة حتى خراسان^(٢).

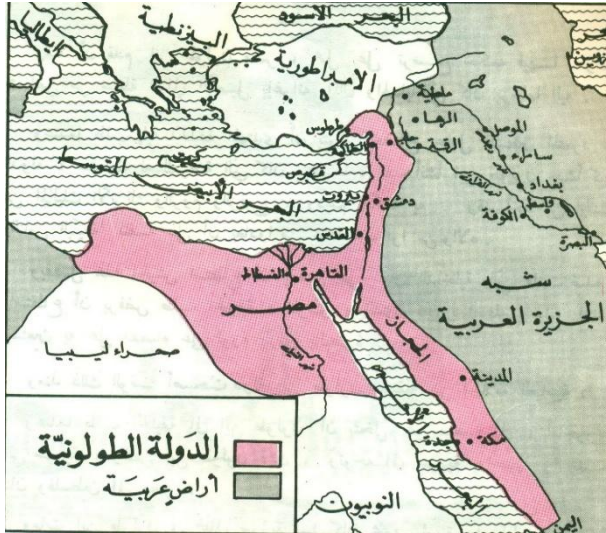
عاشت دولة الأغالبة أكثر من القرن بعشر سنوات (١٨٤ - ٢٩٦هـ)، وسقطت على يد العبيدين (الفاطمين) الذين نشأت دولتهم على أنقاض دول المغرب الأربعة: بني مدرار والرستميين والأدارسة والأغالبة!



(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط ١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ)، ١/ ٢٨٤.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ)، ص ١٨٧.

الدولة الطولونية



تُنسب هذه الدولة لأحمد بن طولون، القائد العسكري التركي في بلاط الخلافة العباسية، وبرز اسم أحمد بن طولون لأول مرة في الخلاف الذي نشب بين الخليفة المستعين بالله وابن أخيه المعتمد بالله، حين انقلب العسكر الأتراك على المستعين واستخرجوا

المعتمد بالله من سجنه، ثم جرت الحروب حتى انتصر المعتمد بالله، فكان مصير المستعين هو الإقامة الجبرية، وهذه الإقامة الجبرية كانت تحت حراسة قائد تركي هو صاحبنا أحمد بن طولون. غير أن رجال الدولة الجديدة توجسوا من أن يدبر الخليفة السابق انقلابا فعزموا على قتله، وتورع أحمد بن طولون عن ذلك، فتولى الأمر غيره.

كان من عادة القادة في العسكر الأتراك أنه إذا تولى الولاية أرسل نائبا عنه إليها، وبقي هو في عاصمة الخلافة قريبا من موطن الحل والعقد، فلما ولى المعتمد بالله ديار الشام ومصر والمغرب للقائد التركي بايكباك، أو: يارجوخ، أرسل هذا القائد التركي قائدا من

الصف الثاني، هو أحمد بن طولون، لينوب عنه في ولاية هذه المناطق، فكانت هذه بذرة الدولة الطولونية. وكان أحمد بن طولون من أبناء الجيل العسكري التركي الأول الذي اتخذته الخلافة العباسية جنوداً، فقد كان والده من جنود الخليفة المأمون، وبرز أحمد في أجواء هذا الجيل المقاتل، وكان ذا مواهب فذة.

منذ عهد الراشدين كان يمكن أن تنقسم ولاية البلد بين رجلين: أحدهما للولاية السياسية والعسكرية، والآخر هو والي الخراج الذي يتولى الأمور المالية، وكانت الخلافة تحقق بهذه القسمة عدداً من الأهداف أهمها: تحقيق أفضل النتائج في الإدارة والمال عبر توزيع العبء، ومنع الفساد المالي إذا اجتمعت الصلاحيات كلها للوالي الواحد، والاستعانة بمراقبة الولاة بعضهم على بعض. على أن هذا ليس دائماً، بل ربما جمع الخليفة للوالي الواحد صلاحيات الولاية. وما يهمنا الآن أن ابن طولون كان والياً على بعض مصر لا عليها كلها، وكان معه والي الخراج أحمد بن المدبر واليان آخران على الإسكندرية وبرقة، حتى جاء قرار الخليفة المعتمد على الله (٢٥٧هـ) بتولية يارجوخ على مصر كلها، فحوّل يارجوخ هذه الصلاحيات إلى نائبه على مصر أحمد بن طولون، وبقي هو في العاصمة كما هي العادة. ومن هنا صارت مصر كلها تحت ولاية أحمد بن طولون.

زاد في توطيد العلاقة بين يارجوخ وابن طولون أن هذا الأخير كان زوجاً لابنة يارجوخ، كما كان متمتعاً بعلاقات ممتازة مع ولاية الشام ومصر، وحين مات يارجوخ بعد سنة واحدة من توليته (٢٥٨هـ) لم يعد لأحد سلطة على مصر غير ابن طولون، واستطاع أن يتغلب على ما لقيه فيها من خلافات وتمردات، فسعى لأن يتولى خراجها إضافة إلى ولايتها السياسية والعسكرية فكان له ذلك، وكان حسن العلاقات مع فقهاء مصر وقضاها الذين ذهب وفدٌ منهم إلى الخلافة يثني على ابن طولون وعمله، ويؤكد جدارته.

أحسن ابن طولون في حكم مصر وإدارتها، وأقر فيها العدل، وأصلح شؤونها المالية،

ورفع كثيرا من الضرائب على الناس، ورعى نمو الزراعة وإصلاح أنظمة الري، ولم يؤخذ عليه سوى شدته وإسراعه إلى سفك الدماء، ولكن اعتُذر له عن ذلك بأنه كان من ضرورات توطيد حكمه، ولولا ذلك لكان من «أفراد العالم»^(١)! فلهذا حظي بحب المصريين، وبقي عهده من العهود الزاهرة الناضرة في تاريخ مصر التي يتوقف عندها المؤرخون لا سيما المصريين، فقد بنى فيها دولة ثرية قوية، وقد أمدّه إقليّم مصر الخصب الثري بالموارد الكثيرة، فاستطاع ابن طولون حين أحسن إدارة هذه الموارد أن تكون له ثروة واسعة، كَوّن بها جيشا من الأتراك والسودان وعناصر أخرى، فاستكثر منهم، حتى بلغ جيشه عددا ضخما بالغت المصادر في تقديره بسبعين ألفا أو مائة ألف!

وقد أحسن ابن طولون قيادة هذا الجيش الكبير وإدارته، فلم يقع منه تمردٌ عليه ولم تندلع فتنة فيه، وبنى جامعاً على نحو يضاهي جامع الخلافة في سامراء، فضلا عن مستشفى عظيم، وكثير من العماثر، وقد بلغ خراج مصر في عهده أكثر من أربعة ملايين دينار^(٢)!

وزعيمٌ مثل هذا لا بد أن تحمله قوته وثورته على التمدد والتوسع، وهنا يكمن الخطر. ولهذا، فبينما يتعاطف المؤرخ المصري وقراءه مع ابن طولون^(٣)، فإن غيرهم لا يراه سوى زعيمٍ طموحٍ قاد حركةً تمردٍ خطيرة، لو نجحت لهددت الخلافة العباسية كلها، ولا يختلف عن غيره من المستبدين ذوي الأطماع الذين يُقدّمون مصالحهم الذاتية على

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ط ٣ (دمشق: مكتبة النوري، ١٩٨٣م)، ١/ ١٧٥.

(٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ٢/ ١٢٤؛ ابن

إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، (فيسبادن: فرانز شتاينر، ١٩٧٥م)، ١/ ١٦٢.

(٣) من وجهة نظر المؤرخ المصري فإن مصر الطولونية صارت لأول مرة مستقلة وذات وزن عالمي منذ عصر

الباطالة، أي قبل حوالي تسعة قرون، ولأول مرة تحكم الشام منذ عصور الفراعنة! وهي أول مرة منذ الفتح

الإسلامي ينشأ في مصر بلاط ملكي فخم. فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٢/ ٥٤٤، ٥٤٥.

مصالح الأمة. والأمر في الواقع أكثر تعقيدا وتركيبا، إلا أننا نميل إلى إدانة ابن طولون، لا سيما توسعه في ديار الحجاز والعراق، بينما يمكن التماس العذر لتوسعه في الشام، فإن توسعه هناك وتوليّه أمر الثغور كان هو الفائدة الأكبر التي جنتها الأمة من الدولة الطولونية.

لقد تولى ابن طولون عبء جهاد الروم في وقتٍ لم تكن الخلافة فيه قادرة على شيء من ذلك لانشغالها بحرب صاحب الزنج، فضلا عن أن والي طرسوس -وهي عاصمة الجهاد والثغور ضد الروم- تسببت في كارثة حربية على المسلمين^(١)، فاضطر الموفق أن يوافق على تولي ابن طولون لمنطقة الثغور (٢٦٣هـ)، فأحسن ابن طولون سياسة الحرب هناك، فقوّى موقف الثغور، وأغرى ملك الروم أنه يمكن أن ينشئ معه تحالفا ضد الخلافة

(١) موجز ما حدث أن المسلمين كانوا قد تحالفوا مع قوم يُسمّون «الصقالبة» أو «البيالقة»، وهم قوم من العرق السلافي، ومذهبهم في النصرانية على خلاف مذهب الروم، فكان العداء بينهم وبين الروم مستحكما، وعانوا من اضطهاد الروم لهم. كان الاتفاق بينهم وبين المسلمين أن يتولى البيالقة هؤلاء حماية حصن لؤلؤة مقابل أن يتكفل المسلمون بنفقاتهم ونفقات الحصن، وكان ذلك الحصن مشرفا على البحر، وبه يتمكن المسلمون -لا سيما أهل طرسوس- من الاكتشاف المبكر لأي هجوم رومي من ناحيته، فكان أولئك البيالقة في هذا الحصن بمثابة خط الإنذار المبكر وخط الدفاع الأمامي. لكن والي طرسوس في ذلك الوقت أساء التصرف والسياسة، ومنع عن البيالقة الأموال والنفقة (٢٦٣هـ)، ولم يأبه باحتجاجهم واعتراضهم، وإذا بهم يردون على هذا فيُسَلِّمون الحصن إلى الروم، فكانت خسارة فادحة وتغيرا في الموقف الحربي في الثغور، وكانت مكسبا عظيما للروم.

انظر في هؤلاء القوم وقصتهم مع الروم ومع المسلمين: قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ط ١ (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١م)، ص ١٨٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ط ٢ (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٠م)، ٢/ ٥٨٣؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، (القاهرة: دار الصاوي، د. ت)، ص ١٣٠، ١٥٥؛ فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، (القاهرة: دار الكتاب العربي، د. ت)، ٢/ ٢٢١، ٢٢٢، ٣/ ٣١٨؛ فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية: السقوط والانحيار، (عمّان: دار الشروق، ٢٠٠٩م)، ٢/ ٧١؛ سهيل زكار، الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩٥م)، ٣/ ٢١٥.

العباسية واستفاد من هذا الإغراء تحرير أسرى المسلمين لدى الروم، وإن كان قد أساء من جهة أخرى في محاولته الاستيلاء على أنطاكية وإخراجها من سلطان العباسيين إلى سلطانه!

وقاد نُوَّاب أحمد بن طولون في الشام غزوات قوية في أرض الروم، وبمجهوداتهم صارت الحرب سجّالا بين المسلمين والروم، واستطاعوا تحقيق نتائج غير مسبقة أحيانا، مثلما فعلوا في (٢٧٠هـ) حين صدّوا أعنف هجوم رومي على المنطقة في ذلك الوقت، فقتلوا البطريك الأكبر، وغنموا الصليب الأعظم، فضلا عن الأسرى والأموال الكثيرة.

وبفضل هذا الواقع نجا المسلمون من واحدة من أخرج وأصعب الفترات في العلاقة بين الدولة الإسلامية والبيزنطية إذ كان الروم حينها في واحدة من لحظات قوتهم واستقرارهم، كان يمكن فيها للإمبراطور باسيل أن يحقق نتائج حاسمة لكنه عاد بلا نتيجة تقريبا^(١)! وقد تعجب بعض المؤرخين من قدرة المسلمين على الاستماتة والاحتفاظ بهذه الثغور في ظروف قاسية عجزت عن مثلها حملات حربية كبيرة^(٢).

وأما قصة الخلاف بين ابن طولون والموفق بالله، فقد بدأت (٢٦٢هـ)، بعد أربع سنوات من انفراذه بمصر، وذلك أن الموفق سعى جهده ألا يسمح باستقلال أمير بما تحت يده من الأقاليم، فكيف إن كان هذا الإقليم هو مصر الخصيب ذي الثراء والمال، وفي وقتٍ كان الموفق فيه أكثر احتياجا للمال لأنه يواجه الزنج والصفاريين في نفس الوقت، ولكن ابن طولون كان قد صار أقوى من أن يُعزل، فبحث الموفق عن أمير يوليه

(١) سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية ٣/ ٢١٤، ٢١٥.

(٢) عليّة الجنزوري، الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة الإسلامية في العصور الوسطى، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣م)، ص ٢٧.

على مصر ويتولى حربه، إلا أنه لم يجد ذلك الأمير لما كان يتمتع به ابن طولون من علاقات حسنة مع أمراء الدولة الأتراك، ومن جهته حاول ابن إرضاء الموفق بالأموال لكن الأخير لم يرض أو أنه استقلها، بل أرسل جيشا لقتاله، غير أن الجيش توقف في الطريق لقلة الأموال، واضطر إلى العودة، فكان في ذلك ترسيخا لاستقلال ابن طولون في مصر.

وفي العام التالي (٢٦٣هـ) وقعت أزمة الثغور التي انتهت إلى اضطراب الخلافة تولية ابن طولون لمنطقة الثغور، ثم مات نائب الشام (٢٦٥هـ)، فكانت فرصة ابن طولون ليتولاها، فاستطاع أن يكسب ولاء النائب الجديد، فصار تابعا له، ثم تطلع إلى التمدد من جديد، فاستولى على حرّان وهي من مدن العراق، إلا أنه عاد سريعا حين بلغه أن ابنه العباس في مصر قد انقلب عليه، وأعاد الإمساك بزمام الأمور!

بلغ ابن طولون من التوسع ما فاق به مُلك الخليفة، وكان حتى هذا الوقت أكثر المستفيدين من انشغال الخلافة بحروب الزنج والصفاريين، ثم استطاع الموفق (٢٩٦هـ) أن يجتذب إليه لؤلؤ، وهو الوالي الطولوني الذي يحكم الأملاك الطولونية في الشام والعراق، وانضم لؤلؤ بجيشه إلى الموفق في حرب صاحب الزنج، وكانت لذلك نتائج حاسمة، فلم يبق في عمر ثورة الزنج بعدها سوى عام واحد! ولكن الخبر كان طعنة كبيرة لابن طولون، الذي كان يسعى ليمد نفوذه إلى الحجاز أيضا. فردّ ابن طولون على هذا التغير الجديد بأن دخل على خط الصراع داخل بيت الخلافة، وأرسل إلى الخليفة المعتمد على الله أن يخرج من بغداد إليه، فتكون مصر عاصمة خلافته! وكان المعتمد من جهته قد حنق على أنه لا يملك من الخلافة سوى الاسم والصورة والشكل دون الحقيقة والفعل، فعزم على الخروج من بغداد، وكادت خطة ابن طولون أن تنجح، وهي الخطوة الخطيرة التي كانت ستقلب الأحوال في بغداد والعراق، وأشد ما فيها من الخطورة: وقتها، إذ كان الموفق منشغلا تماما في إخماد الثورة العنيدة: ثورة صاحب الزنج! وكانت الخلافة

قد عرفت طريقها إلى الاستقرار وعودة الهيبة إلى مقام الخلفاء، من بعد عصر مقاتلهم على يد أجنادهم الأتراك!

لكن الله سلم، فانقلب على ابن طولون واليه لؤلؤ، وهو الوالي على مناطق الشام والجزيرة، فانحاز إلى الموفق، كما أن الوالي العباسي على الموصل والجزيرة إسحاق بن كنداجيق استطاع بالحيلة والذكاء أن يردّ المعتمد عن خطته، وقد كادت تنجح، وخسر ابن طولون فرصته في اكتساب الشرعية التي يمنعها عنها الموفق بالله.

استصرخ ابن طولون الفقهاء والقضاة وسعى لأن يستخلص منهم فتوى بخلع الموفق بالله، وأنه يحبس الخليفة ويحجبه، وأرسل من عنده جيشا للسيطرة على الحجاز، لكنه هُزم (ذي الحجة ٢٦٩هـ). ومن جهته استخلص الموفق أمراً من الخليفة المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر وإعلانه خارجاً عن الخلافة، فأدى هذا إلى بعض المشكلات في الشام، كان من أهمها تمرد واليه على طرسوس، فمضى إليه ابن طولون بالجيش لكنه هُزم، وعاد حسيماً، وهكذا تحولت عنه الأيام، ثم ما لبث أن مرض ومات (٢٧٠هـ)، ولا يزال مُلكه أوسع من ملك الخليفة! بعد حُكم دام في مصر ستة عشر عاماً، وفي الشام اثنا عشر عاماً.

بنظرة عامة لشؤون الأمة سنرى أن استقلال ابن طولون أثمر إغراءً جديداً وخطيراً في مجال الدول المستقلة، نعم، ليس هو أول من استقل بدولة فقد سبقه إلى ذلك الأدارسة والرستميين وبنو مدرار، ولكن هؤلاء تسلحوا ببعد المسافة واختلاف المذهب، وقد استقل من قبله الأغلبة لكن الأغلبة منحتهم الخلافة تفويضها لكبح تمدد الأدارسة والرستميين، ولم تفكر دولة الأغلبة في التعدي على الخلافة. أما ابن طولون فلا هو بعيد في الجغرافيا، ولا هو صاحب مذهب وفكرة مخالفة للخلافة، ولا هو مُنح تفويضاً بالاستقلال، وبهذا كان ابن طولون أول قائد عسكري تركي يتولى ولاية بقرار من الخلافة فيتقوى ثم يطمح إلى الاستقلال بهذه الولاية لتكون دولته! وهذا هو الإغراء الجديد الذي

بدأه ابن طولون، فكانت سابقةً يستلهمها كل والٍ طموح، أو كل قائد عسكري تركي في جيش الخلافة! لقد كانت الدولة الطولونية هي الدولة الأولى التي تقوم بذريعة وشرعية القوة العسكرية فحسب!

تولى الدولة بعده ابنه خمارويه، واندلعت معارك في الشام بينه وبين العباسيين الذين وجدوا في موت ابن طولون فرصة سانحة لاستعادتها، وبعد فصول عجيبة من الكرّ والفرّ والمحاولات السياسية في اجتذاب القادة والأمراء استقر أمر الشام وبعض أجزاء العراق لخمارويه بن أحمد بن طولون بعد سبع سنوات (٢٧٠ - ٢٧٧هـ). وبعدها وقع الصلح والاتفاق بين خمارويه وبين المعتضد بالله، الذي صار خليفة بعد وفاة أبيه الموفق وعمه الخليفة المعتمد على الله (٢٧٩هـ)، فبادر خمارويه بإرسال الهدايا والأموال، بل وعرض على المعتضد أن يُزوَّجه ابنته قطر الندى، فتقبل المعتضد ذلك بقبول حسن، ورضي من خمارويه بثلاثمائة ألف دينار في كل سنة مقابل أن يُقرّه على مصر، وبذل لابنة خمارويه مليون درهم صداقاً لها وتوطيداً لهذه الصلة، ومن جهته تنازل خمارويه للخلافة عن الموصل زيادة في استرضاء الخليفة!

وانعقدت الصلة، وأرسل خمارويه ابنته قطر الندى عروساً إلى بغداد، في ذلك الزفاف الأسطوري المشهور الذي سارت به كتب التاريخ والأدب، وبُذلت فيه من الأموال والجواهر شيئاً لا يكاد يصدق، فكان دليلاً على الثراء الفاحش العظيم الذي وصلت إليه الدولة الطولونية! ولم يكن هذا الزفاف هو المظاهر الوحيد للثراء العظيم، بل ما تنقله كتب البلدان والرحلات عن اتساع العمارة واتصال البساتين وأوصاف الحدائق يزيد القارئ انبهاراً^(١).

ما كان أحدٌ في هذا الزفاف الفخم يدري أن سقوط الدولة قد صار قريباً، فما إن وصلت

(١) ينظر مثلاً: المقرئ، المواعظ والاعتبار، ١٢٤/٢ وما بعدها.

قطر الندى إلى بغداد وُزِفَتْ إلى الخليفة (ربيع الأول ٢٨٢هـ) حتى كان بعض الخدم يغتال أباه في فراشه بعد تسعة أشهر (ذي الحجة ٢٨٢هـ)، ولم تمكث هي إلا خمس سنوات ثم توفيت (٢٨٧هـ) قبل أن تبلغ العشرين.

وأما الدولة الطولونية فتولاها جيش بن طولون، فانقلب عليه أخوه هارون بن خمارويه بعد ستة أشهر (٢٨٣هـ)، وأخذ الحال في الضعف، حيث تنازل هارون عن ولاية قنسرين والثغور وسلمها للخلافة (٢٨٦هـ)، ثم بزغ القرامطة في الشام، فكانت لهم صولات وجولات لم تستطع الدولة الطولونية أن تصدهم عنها، واقتحموا دمشق (٢٨٩هـ)، وانتصروا على قوات الطولونيين في معارك عديدة.

وحيث كان القرامطة في الشام أقرب إلى العصابات، وكانت حروبهم إغارات، فإنهم استطاعوا أن يُضعفوا الطولونيين دون أن يتمكنوا من السيطرة على البلاد فيكونوا بديلا لهم، وهذا الفراغ مكن الخلافة العباسية التي كانت قد دخلت في عهد الخليفة المكتفي بالله، أن ترسل جيشا لاستعادة ما كان تحت نفوذ الطولونيين، ولم يكن الأمر عسيرا لا سيما وأن أمراء الطولونيين في الشام قد انحازوا إلى الخلافة، إما رغبة في أن يكونوا من جند الخلافة القوية أو خوفا من أن يخسروا أكثر ببقائهم في معسكر الدولة الضعيفة المنهارة، ولا ريب أن فيهم من انحاز إلى الخلافة تغلبا لمصلحة الأمة على ما سواها. وهو المشهد الذي تكرر في مصر بين جنود هارون بن خمارويه الذي قُتل في إحدى المعارك الداخلية بين جنده، ثم تولى القيادة عمه شيبان بن طولون، فاستسلم للجيش العباسي، وطويت بهذا صفحة الدولة الطولونية (٢٩٢هـ) بعدما عاشت أربعين عاما!

كانت نقطة القوة التي اعتمدت عليها الدولة الطولونية هي ذاتها نقطة الضعف، تلك هي القوة العسكرية، فكما أسلفنا لم يكن ابن طولون ذا رسالة أو مذهب ديني مخالف للخلافة، ولا كان أنصاره قبيلة تضرب بجذورها الاجتماعية العميقة في مصر والشام، ولا

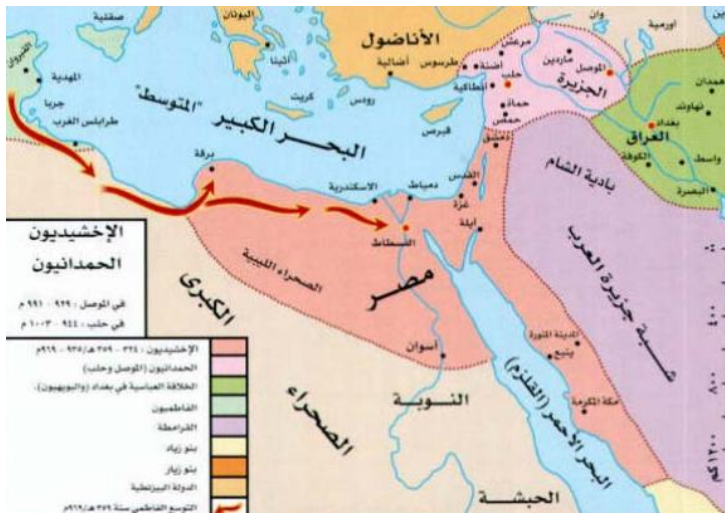
هو ذو نسب رفيع ومكانة تعلو على العصبيات، لقد كان قائدا عسكريا قويا وفذا، وبهذه القوة العسكرية المكونة من عبيد ومماليك حقق هذه الإنجازات، فإن غابت الشخصية القوية أو انحلت القوة العسكرية وسرى فيها الانقسام، ما تلبث الدولة أن تنهار، وهذا ما كان^(١).

يحسب للدولة الطولونية ما قامت به من جهاد الروم وتوليها شأن الثغور في زمن قوتها مما ألمحنا إليه، كما يحسب لها تصديها لحركات التمرد التي اندلعت في أنحاء من مصر كالإسكندرية والصعيد، ويحسب لها كذلك تصديها للخوارج الإباضيين في نواحي المغرب لا سيما مركزهم المنيع في جبل نفوسة، وكان أهل هذا الجبل مستقلين بأنفسهم من بقايا الخوارج الذين انتصر عليهم محمد بن الأشعث في زمن أبي جعفر المنصور، ثم إنهم انضموا إلى الدولة الرستمية في عهد أميرها الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ومنذ ذلك الوقت أضيفت إلى قوتهم قوة الدولة الرستمية التي كانت تنهض إليهم إذا دهمهم جيش من قبل الطولونيين أو الأغالبة.



(١) فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٥٤٧/٢.

الدولة الإخشيدية



لما غربت شمس الدولة الطولونية، استقر أمر مصر بعد فصولٍ وأمورٍ في يد أحد مواليهم العسكريين، وهو محمد بن طغج، الملقب بـ «الإخشيد»، وهو قائد عسكري ترجع أصوله إلى

بلاد فرغانة من بلاد ما وراء النهر، وهذا اللقب عندهم يعني «ملك الملوك»، وكان لمحمد هذا تجارب ناجحة في الحرب والولاية في مصر والشام وعمان قبل أن يُختار ليتولى أمر مصر.

يمكن التأريخ لظهور هذه الدولة بعام (٣٢٤هـ)، فقد استطاع محمد بن طغج صدَّ هجوم العبيديين (الفاطمين) على مصر، وكان هذا إنجازاً عظيماً، في وقتٍ كانت الخلافة العباسية فيه قد عادت إلى الضعف وعصر مقاتل الخلفاء، فوجد فيه الخليفة الراضي بالله رجلاً مناسباً لأن يتولى مصر والشام، وقد استطاع الإخشيد أن يثبت مكانه في مصر

والشام، وأن يحوز دمشق، وتغلب في النهاية على محمد بن رائق الذي كان أمير الأمراء في بغداد، وهو المنصب الذي صارت إليه فعلياً أزمّة الخلافة في زمن صار الخليفة فيه لا يملك شيئاً.

كاد الإخشيد أن يدخل التاريخ، ويصير في قلب الحدث لو أن الخليفة المتقي لله نجحت خطته في الهروب إليه؛ فهذا الخليفة المستضعف المسكين، وجد نفسه في خضم صراع لا يملك فيه لا أن يكون حَكَمًا بين المتنازعين، ولا حتى وسيطاً بينهم، بل ولا يملك أن يختار الطرف الذي يرجح أنه سيغلب، لقد كان في فوضى الصراع المشتعل في العراق أواخر عصر النفوذ التركي بين البريديين في الجنوب والجند الأتراك في العاصمة والحمدانيين في الموصل، فكل أولئك يطمع في منصب أمير الأمراء، وكلهم يتقاتلون وتنقلب بهم الأحوال رأساً على عقب، وتنعكس نتائج المعارك في غمضة عين، وتتغير التحالفات بطريقة لا يتوقعها أذكى الناس، فساعتها فكّر الخليفة في الخروج إلى الإخشيد، ذلك الأمير القوي الذي يحكم الإقليم الخصيب -مصر والشام- ومن جهته رحّب الإخشيد بعزم الخليفة وتعهد له بما شاء من الإكرام والاحتفاء، إلا أن اتفاقاً بين الحمدانيين والقائد التركي توزون عصفت بهذه النية، فخرج الخليفة من الموصل عائداً إلى بغداد، وفي الطريق غدر توزون بأيمانه وعهوده، فقبض على الخليفة وسمل عينيه وخلعه من الخلافة. والذي يهمنا الآن أنه لو نجحت خطة الخليفة فوصل إلى مصر لكان تاريخ آخر للخلافة وللإخشيد نفسه!

ظل الإخشيد عشرة أعوام في حكم مصر حتى توفي (٣٣٤هـ)، وقد ظل حتى موته ضخمة قوية تحطمت عليها أطماع الحمدانيين في شمال الشام، وأطماع العبيديين في غرب مصر، فلم يمت الإخشيد إلا وقد هزم سيف الدولة الحمداني وقطع أحلامه في الاستيلاء على الشام، واستردّ أهم ما كان أخذه سيف الدولة لنفسه في الشام، ثم وقّع صلحاً معه يحتفظ فيه للدولة الإخشيدية بدمشق وما إلى الجنوب منها، ويبقى شمال الشام

للحمدانيين، وهذا الاتفاق هو واحدٌ من الاتفاقيات التي عاد نفعها على الجميع، والتقت فيه مصلحة الأمة بمصالح الأمراء الذاتية، فقد سكن ما بين الحمدانيين والإخشيديين فتفرغ الأولون لقتال الروم وحماية الثغور، وتفرغ الآخرون لحماية مصر من العبيديين غرباً ومن ملك النوبة جنوباً.

ولما مات الإخشيد كان ولداه صغيران فانفرد بالحكم عبده الوصي عليهما، كافور، فقام بالحكم خير قيام، ثم انفرد به تماماً مع وفاة علي بن الإخشيد (٣٥٥هـ)، وكان حسن السياسة قوياً مهيباً، وقد عجز العبيديون (الفاطميون) عن التمدد إلى مصر في عهده. كما كان سابقةً مثلت إغراءً للعبيد أنهم قد يبلغون مرتبة السلطان ويحكمون البلاد!

كرر الإخشيديون سيرة الطولونيين من قبلهم، فقد شابهوهم في حسن السياسة والإدارة، إذ بلغ خراج مصر في عهد الإخشيد مليوني دينار، ثم بلغ في عهد كافور الإخشيدي أربعة ملايين دينار، وكانوا خيراً منهم في أنهم لم يرتكبوا خطأ الطولونيين في التوسع على حساب الخلافة بل ظلوا على الولاء لها، ومن جهة أخرى: كانوا أقل منهم في العمائر والمآثر، فلم يُعرف لهم أثر مثل ما كان للطولونيين، وإن كان يمكن أن يُعذر لهم عن هذا أيضاً بأنهم لم يسرفوا في التشييد والزينة والزخارف مثلما أسرف الطولونيون.

ولما مات كافور (٣٥٧هـ) اضطرب حال الدولة الإخشيدية^(١) التي اجتمعت عليها

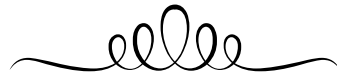
(١) ها هنا وفقة طريقة تهم العامل للدين، تلك هي المقارنة بين كافور وسيف الدولة الحمداني، فمن حيث السياسة والقوة والإدارة والكفاءة فإن كافور بلا شك هو أقوى وأكفأ من سيف الدولة، لكن شهرة سيف الدولة أكبر، وحضوره في التاريخ أوسع، ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين فيما نرى:

الأول: أن سيف الدولة كان يجاهد الروم، وهم العدو الصريح والتاريخي للأمة المسلمة، وكان ذلك في وقت ضعف، فكانت انتصاراته الضعيفة تتضخم في أذهان الناس وضمائرهم، بينما كافور الإخشيد كان يتصدى للعبيديين (الفاطميين) ولملك النوبة، وكلاهما عدوٌّ لا يحظى في أذهان الناس وضمائرهم بذات الحضور الذي يحظى به الروم، فالعبيديون يحسبهم أكثر الناس من المسلمين الشيعة، بينما هم من الغلاة الإسماعيلية الباطنية،

غارات القرامطة من الشرق، وملك النوبة من الجنوب، والعبيدين (الفاطمين) من الغرب، فسقطت الدولة الإخشيدية أمام العبيدين حين اجتاحتها مصر (٣٥٨هـ) ليبدأ فيها عصر جديد، وتنتقل إليها «الخلافة» العبيدية المضادة للعباسيين إلى قرنين قادمين!



وأما النوبة فقد زال خطرهم وانقرضت دولتهم في عصر المماليك فلم يبق واضحاً في أذهان الناس مدى ما كانوا يمثلونه من الخطورة. لهذا كله استمر ذكر سيف الدولة وظلت تتلى أخبار جهاده، بينما نُسي كافور. والثاني: ما فعله المتنبّي، سيد شعراء العرب قاطبة، فقد استطاع المتنبّي بشعره البديع أن يرفع مقام سيف الدولة إذ كان يحبه وكان عربياً، وأن يحط من مقام كافور الإخشيد الذي كان عبداً وكان المتنبّي ساخطاً عليه. فما يُذكر المتنبّي في موطن إلا وتُذكر مدائحه لسيف الدولة، وتُذكر قصائد هجائه اللاذعة لكافور، فوقر في ضمير الناس أن كافوراً كان بخيلاً سيئاً. وهذا ما يلفت النظر إلى أهمية الموهبة وضرورة رعايتها واستثمارها وطبيعة التعامل مع الموهوبين.



الفصل الحادي عشر:
الدول المستقلة في المشرق الإسلامي حتى
القرن الرابع



منذ أن فتح المسلمون البلاد شرقا وغربا، كان الجناح الشرقي للدولة الإسلامية مؤارًا بالأحداث وحافلا بالشخصيات، على نحو يفوق كثيرا ما كان في الغرب، عملت العديد من العوامل على أن يكون الشرق أكثر ثراء واضطرابا، منها أنه كان أكثر أموالا ورجالا، ومنها أنه كان قاعدة الإمبراطورية الفارسية العريقة التي صبغت شعوب هذه الأنحاء بطبقات متراكمة من ثقافة القرون الماضية، في حين كان عموم الغرب الإسلامي ديارًا جرى احتلالها من الرومان، ولم يكن لهم فيها تأثير ثقافي كالذي كان في الشرق.

وقد توغل المسلمون بعد ديار فارس إلى ديار السند والأفغان وبلاد الترك الواسعة حتى انتهت رحالهم في كاشغر، عاصمة التركستان الشرقية التي تعاني الآن من الاحتلال الصيني، فكانت فصول طويلة متنوعة من التعامل مع هذه الشعوب الكثيرة والديار الفسيحة.

ولما استقر أمر الإسلام في تلك الأنحاء، عملت ظروف أخرى داخلية على أن يحمل الشرق لواء المقاومة للدولة الأموية، إذ وجدت نزعة التشيع أرضا تميل إليها في ديار العراق وفارس، واختلطت بها النزعات الشعوبية الفارسية التي آذاها غروب شمس الأكاسرة على يد العرب الذين كانوا قبل ذلك فقراء منبوذين لا حضارة لهم! واستدعت هذه التمردات تعاملًا مقابلا حفل بالمظالم من قبل الأمويين، فتراكمت الثارات حتى عبّرت عن نفسها في الثورة العباسية العنيفة التي انتزعت مُلك الأمويين وأطاحت بهم من مسرح التاريخ.

وجاء دور المشرق ليعبر عن نفسه من جديد في العصر العباسي، فازدهر فيه التشيع العلوي من جديد، وهو التشيع الذي صار يرى أن العباسيين غصبوا الحكم من العلويين، ورفع هذا شعاراً أيضا أطياف من الزنادقة والشعوبية، ولأن الشرق كان مهد الثورة العباسية، ولأن العاصمة العباسية كانت أقرب إلى الشرق منها إلى الغرب، فلقد كان تأثير الدولة العباسية بأحداث الشرق أكثر بكثير من تأثيرها بأحداث الغرب الإسلامي.

يظهر ذلك بوضوح في أن الدول التي استقلت في الغرب الإسلامي لا تكاد تؤثر على الخلافة العباسية، بينما الدول التي ظهرت في الشرق سرعان ما هددت استقلالها الخلافة العباسية! فما يكاد خارج يخرج من الشرق إلا ويجد المسافة بينه وبين عاصمة الخلافة قريبة، وما تكاد دولة تظهر في ناحية من نواحي الشرق إلا وتدخل بسرعة على خط الصراعات والأحداث التي تشهدها عاصمة الخلافة!

في هذا الفصل نتناول أبرز الدول المستقلة في المشرق الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري، سواءً منها ما كان استقلاله ناتجاً عن اضطراب الخلافة وسماحتها بذلك، أو ما كان منها ناتجاً عن انشقاق وعصيان وتمرد، وأبرز هذه الدول خمسة^(١): الدولة الطاهرية، الدولة الزيدية في طبرستان، الدولة الصفارية، الدولة السامانية. وأضفنا إليها الدولة الحمدانية استثناءً لشدة ارتباط الأحداث فيها بالأحداث في عاصمة الخلافة العباسية.

ويلاحظ في هذه الدول أن ثلاثة منها فارسية: الطاهرية والصفارية والسامانية، واثنان عربيتان: الزيدية والحمدانية، هذا إذا كان النظر إلى نسب الأسرة الحاكمة، وأما القاعدة الشعبية، فقد حكم السامانيون الشعوب التركية فيما وراء النهر، وحكم الزيديون شعوباً من الديلم والجيل والفرس في طبرستان، وكان الطاهريون يحكمون رعية نصفها أو يزيد من الشعوب التركية قبل أن يستقل عنهم السامانيون، فضلاً عما كان يحكمه الطاهريون من العرب باعتبار مناصبهم التي تولوها في بغداد وفي الغرب. والتركيز على الأعراق والقوميات يكثر في إنتاج المستشرقين، وتبدو عندهم عناية خاصة بالعرق التركي، ولعل هذا من آثار الفرع الأوروبي العميق في نفوسهم من الدولة العثمانية، بينما لا يشعر القارئ لمصادر التاريخ الإسلامي بنوع خاص من التركيز على مسألة العرقيات أو القوميات، بل

(١) في معايير تقسيم البلاد إلى شرقية وغربية، وغيرها من ملامح المنهج الذي سرنا عليه، يُرجى مراجعة الفصل

السابق: مدخل إلى ظاهرة الدول المستقلة.

تُساق عرضاً في سياق الكلام.

والمقصود من عملنا أن نشير في كل دولة إلى أبرز أحداثها، وموقفها من الخلافة نفعا وضرا، بحيث يتحقق الغرض الذي قصدناه من هذه «الخلاصة»، وهو: تكوين تصور عام واضح وموجز لدى العامل لهذا الدين في فهم صورة التاريخ الإسلامي، والعوامل الفعالة فيه.

والله الموفق والمستعان.



الدولة الطاهرية



يرجع أصل الطاهريين إلى القائد الفارسي الكبير في جيش الخلافة العباسية طاهر بن الحسين، وهو سليل أسرة فارسية أسلمت وكانت من موالي قبيلة خزاعة، ثم برز طاهر في عهد المأمون حتى كان أعلى قادته قدرًا، وهو الذي تولى حرب أخيه الخليفة الأمين وانتصر له (١٩٨هـ)، وتولى

قيادة الشرطة في بغداد، ثم تولى ولاية خراسان وما وراءها إلى الشرق (٢٠٥هـ) وكان أهلها يحبونه، كما كانت تلك المناطق تعاني من مشكلات داخلية ومن تمردات مجاورة، فأحسن طاهر بن الحسين سياستها والقيام بشأن الحكم فيها حتى صارت على خير ما يكون.

وفوق ذلك، فإن المأمون ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين على الرقة، وولى ابن عمه إسحاق بن إبراهيم على بغداد، مما زاد من نفوذ الطاهريين في دولة المأمون، وكانت تولية

طاهر بن الحسين لخراسان من جنس ما فعله الرشيد قبل ذلك مع الأغالبة^(١)، إذ يُمنح الوالي صلاحيات تفويضية واسعة حتى كأن ولايته تتمتع بحكم ذاتي مع إعلان الولاء الرسمي للخلافة العباسية وتأدية الأموال السنوية للخلافة.

لكن لم يلبث طاهر فوق الستين في هذه الولاية، وتوفي فجأة (٢٠٧هـ) ولا يزال على مشارف الخمسين من عمره، ولم يتمتع بمقعد الولاية، ولكنه ترك وصية لابنه عبد الله هي من عيون ما كُتب في السياسة والإدارة، حتى قال فيها المأمون: «ما أبقي أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به»، وأمر بتعميم الرسالة على بقية الولاة ليعملوا بها، وتولى خراسان بعده ابنه طلحة.

وسجلت الدولة الطاهرية أنها واحدة من أحسن الدول المستقلة، إذ قامت بعبء المشرق عن الخلافة العباسية التي كانت آخذة في الهبوط، فأقرت الأمن والاستقرار في أنحائه، وواجهت خوارج خراسان، وتصدت لحركات التمرد المختلفة، وأحسنت إدارة الحكم والمال، حتى لقد توفي عبد الله بن طاهر (٢٣٠هـ) وخراج ولايته ٤٨ مليون دروهم في السنة، وذلك أنه جمع بعض الفقهاء من العراق وخراسان، وطلب إليهم وضع كتاب في تنظيم أمور الخراج، وألزم ولايته بالعمل بما فيه.

وكانت بلاد ما وراء النهر^(٢) من مناطق نفوذ الطاهريين، وقد عهدوا بها إلى السامانيين لإدارتها، حتى إذا كان عهد الخليفة الواثق بالله جرى فصل ولاية خراسان عن ولاية ما وراء النهر، فربما كان ذلك لرفع شأن السامانيين الذين أظهروا كفاية ودراية في حكم هذه

(١) راجع عن الدول المستقلة في المغرب العربي الفصل السابق من هذه الخلاصة، وفيها تحدثنا عن دولة الأغالبة.

(٢) النهر المقصود هو نهر جيحون، وبلاد ما وراء النهر هي الآن جمهوريات آسيا الوسطى، أو ما تسمى بجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

الأنحاء، وإما كان تلافيا لتعاضم نفوذ الطاهريين أو رفعا للعبء عنهم، وقد بدا أنهم يضعفون عن إدارة هذا المشرق الشاسع وحدهم.

على أن أهم وأحسن ما أسفرت عنه الدولة الطاهرية أنه لم يبدُ منهم بادرة استقلال أو تمرد على الخلافة، طوال نصف قرن هو عمر دولتهم، حكم فيها ستة حُكَّام، هم: طاهر بن الحسين، ثم ابنه: طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر، ثم طاهر بن عبد الله بن طاهر، ثم ابنه محمد بن طاهر، ثم ابنه طاهر بن محمد.. ثم دالت عليها الأيام وجرت عليها سنة الدول، وضعف حُكَّامها، ثم ظهرت في أملاكها الغربية الدولة الزيدية التي انتزعت طبرستان ثم الري ثم جرجان، فأضعفت الدولة الطاهرية إضعافا خطيرا، إلى أن انبعث يعقوب الصفار فصار يقتضم منها أملاكها الجنوبية حتى اقتحم عليها عاصمتها نيسابور وقضى عليها تماما.



الدولة الزيدية (في طبرستان)



استولى جابر بن هارون، الكاتب النصراني لوالي العراق محمد بن عبد الله بن طاهر، على أراضٍ في طبرستان كان أهل البلاد يتخذونها مرعى، فكانت هذه المظلمة هي القشة التي أضيفت إلى مظالم أخرى ففجّرت حركة تمرد خطيرة أسفرت في النهاية عن الدولة الزيدية في طبرستان.

وذلك أن الناس اتخذوا أحد العلويين الذين قطنوا طبرستان زعيماً عليهم، وهو الحسن بن زيد العلوي، فبايعوه، وانحاز إليهم بعض الأمراء المحليين، فصارت لهم قوة عسكرية استولوا بها على مدينة «آمل» عاصمة طبرستان (٢٥٠هـ)، وهزم جيش والي العباسي، فزادت قوته من المال والسلاح، فأخذ في التوسع، فانتزع «الري» من سلطة الطاهريين، ولم تمض ثلاثة أعوام (٢٥٠ - ٢٥٣هـ)، وهي الأعوام التي شهدت اضطراب الخلافة ومقاتل الخلفاء على يد العسكر الأتراك) حتى كان الحسن بن زيد قد استحوذ على جميع طبرستان وقسمًا من بلاد الري، ففويت شوكته، وصار العلويون يقصدونه من الحجاز

والشام والعراق فيقيمون عنده، فازداد شأنه وصيته وشوكته.

وكان إذا دهمته جيوش كبيرة للعباسيين انسحب من المناطق ولجأ إلى الجبال الوعرة، حتى إذا عادوا عنها سَهَّل أن يستعيدها مرة أخرى، وقد أعانه على هذا الحال ضعف العباسيين في بغداد، وكثرة التمردات التي لا تسمح ببقاء جيوش كبيرة في مكان واحد حتى يستقر أمره، وأعانت أحيانا الثلوج التي تنزل بهذه المنطقة فتعطل حركة الجيوش وتجعله منها في حصن منيع. لهذا كله كان العبء الأكبر في مواجهته يقع على عاتق الطاهريين، ولكن الطاهريين أيضا قد أخذوا في الهبوط، وهم يتعرضون لتمرّد خطير آخر في سجستان^(١) هو أشدّ عليهم من تمرّد الزيدية.

على أن تمرّد الصفاريين هذا كان تهديدا خطيرا لهذه الدولة الزيدية، فقد حاول يعقوب الصفار أن يخطب ود الخلافة لتوليه على هذه البلاد بدلا من الطاهريين، فتوسل إلى ذلك بمواجهة خصومه وخصوم الخلافة، ومنهم الدولة الزيدية، كما أن الزيديين أجاروا منافسا ليعقوب الصفار ورفضوا تسليمه، فخرجت إليهم جيوش يعقوب فأنزلت بهم هزيمة هائلة كادت تقضي عليهم لولا وعورة الجبال ونزول الثلج، فاستمرت الدولة الزيدية في طبرستان، وتوفي مؤسسها الحسن بن زيد (٢٧٢هـ) بعد تسعة عشر عاما من حكمها.

تولى الدولة من بعده أخوه محمد بن زيد، إلا أنه لم يكن موفقا في القيام بشأنها، فصارت تخرج البلاد من يده، على يد قائد طموح يدعى ادكو تكين، ثم دخل على خط الصراع في المشرق زعيم طموح اسمه رافع بن هرثمة، وكان قد تزعم حركة تمرّد على الصفاريين واستولى على خراسان التي كانت في حكمهم بدعم من الخلافة التي كانت تواجه الصفاريين في ذلك الوقت، لكن داعبته أحلام الاستقلال، فصار يتوسّع في الأراضي التابعة لحكم الزيديين مثل الري وجرجان، ورفض أن يتخلى عنها للخلافة العباسية،

(١) هي الآن في جنوب شرقي إيران.

فانقلب موقف الخلافة عليه وأرسلت له من يحاربه، كذلك تحسنت علاقة الخلافة مع عمرو بن الليث الصفار^(١)، فلم يجد رافع إلا أن ينسحب من الأراضي التابعة للزيديين، وأن يقيم صلحاً معهم، بل أن يبايعهم ويخطب لزعيمهم محمد بن زيد العلوي، مقابل أن يمدّه محمد بن زيد بجيش إذا حارب عمرو بن الليث الصفار. لكن محمد بن زيد لم يشأ أن يدخل في هذه الحرب، فكلا الرجلين عدوّ، ولعله حسب أنه يستطيع أن يتمدد إلى خراسان! لكن الصفار هزم رافعاً (٢٨٣هـ)، ثم هزم السامانيون الصفار، فظنّ محمد بن زيد أن السامانيين سيكتفون بأملاكهم في بلاد ما وراء النهر ولن يحكموا خراسان، وظنّ أنه قادرٌ أن يرث أملاك الصفاريين ومنها خراسان، ولكن الخلافة أضافت خراسان إلى سلطان السامانيين، فلما حاول محمد بن زيد الاستيلاء على خراسان اصطدم بالسامانيين الذين كانوا في أوج قوتهم، فهُزم وأصيب وأُسر ولده، ومات بعد أيام من هزيمته متأثراً بجراحه!

وعادت هذه الخطة بأسوأ الأثر، فبدلاً من أن تتوسع الدولة الزيدية في خراسان، انقرضت الدولة الزيدية نفسها، ودخلت هي في حكم السامانيين.

انتهت قوة الزيديين بمقتل محمد بن زيد العلوي، واستقرت أحوالها تحت سلطة السامانيين، الذين عهدوا بولايتها للوالي الصالح العادل عبد الله بن محمد بن نوح، «فاستراح الناس معه ولقوا منه استقراراً لم يشهدوه قط»^(٢)، واستطاع بعدله وإحسانه أن يعصم الولاية من ثورة يقودها الحسن الأطروش، ذلك العلوي الذي أراد تجديد الدولة الزيدية من جديد، وكان قد استقر في طبرستان، وكان داعية فذاً نشر الإسلام بين الديلم،

(١) سنأتي لذلك بعد قليل.

(٢) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ترجمة: أحمد محمد نادي، ط ١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٢م)،

وصارت له زعامة كبيرة، إلا أنه أخفق في إشعال ثورة ما دام ابن نوح حيًّا. فلما مات ابن نوح وتولى بعده والٍ كان على النقيض منه، استكمل الحسن الأطروش أسباب ثورته، فجدد الدولة الزيدية، وقاد الناس فطردوا الوالي وهزموه وأخرجوه من البلاد (٣٠١هـ)!

وكان من حسن حظه أن اتفق هذا مع مقتل الأمير أحمد الساماني، زعيم السامانيين الذي كان قائما بأمر المشرق كله بعد الطاهريين (وستأتي معنا قصة السامانيين بعد قليل)، ولم يكن له وريث سوى ابنه الصغير ذي الأعوام الثمانية، وهو ما تسبب في اضطرابات عانى منها السامانيون في بلادهم وفي خراسان، فمنح ذلك الوقت للحسن الأطروش لتثبيت سلطته، وكان عادلا صالحا حسن السيرة، محبوبا منذ أن كان داعية، لكنه لم يتمتع بالحكم سوى ثلاث سنوات، وتوفي (٣٠٤هـ)، وآل الأمر من بعده إلى الحسن بن القاسم العلوي.

استمرت الحروب بين السامانيين والزидيين، فالسامانيون يملكون الشرعية وهم أكثر قوة وأموالا وبلاداً، والزيدون يملكون القرب الجغرافي الذي يمكنهم من تجديد المحاولة وكذلك وعورة الجبال التي تحصنهم وتعرقل الجيوش القادمة إليهم. والزيدون أصحاب دعوة يهتمون بنشرها وجذب الناس إليها ومن طبع الدول ذات الفكرة أن تتمدد كما أن موارد طبرستان لا تكفيهم، وهم في حاجة للتمدد للإنفاق على الجنود والجيوش، وتمددهم هذا لا سبيل له إلا تجاه البلاد الرئيسية كالري وجرجان، وهذه المدن لا يسع السامانيين ولا أي حاكم للمشرق أن يتخلى عنها! ولهذا استمرت الحروب سجّالا، يعجز السامانيون عن استرداد طبرستان ويعجز الزيدون عن التمدد، واستفاد كلا الطرفين من انشقاق بعض الأمراء والقادة لدى الطرف الآخر.

أخذت الكفة تميل لصالح السامانيين، وانحسر الزيدون إلى الري إلى الغرب من طبرستان، وانشق عليهم قائدهم أسفار بن شيرويه الذي تلقى دعما من السامانيين، فتلقى الزيدون هزيمة قاتلة (٣١٦هـ) قتل فيها الحسن بن القاسم، وانتهت بها الدولة الزيدية

الثانية في طبرستان.

حاول بعض القادة العسكريين الطموحين وراثة الدولة الزيدية، فدخلوا في تطاحن داخلي بينهم، ألجأ كل طرف منهم إلى الاستنصار بالصفاريين أو السامانيين، وتقلبت بينهم المعارك والتحالفات، لكن لم يستطع أحد منهم أن يبعث الزعامة التي كانت للعلويين، فكان هذه الدولة كانت دولة دعوة في المقام الأول، وكانت الدعوة من أسرار قوتها، فما إن غاب دعائها حتى سقطت، ولم تنهض بها القوة العسكرية وحدها.

انتهى الحال إلى انفراد مرداويج بن زيار بالسلطة في الري ومناطق فارس، ورضيت منه الخلافة إقراره على ما استولى عليه مقابل مائتي ألف دينار سنوياً، ورضي منه السامانيون الولاء الاسمي لهم، فما كانت الخلافة ولا السامانيون قادرين في هذا الوقت على إرسال الجيوش لانشغال الخلافة في ظل المقتدر بمشكلاتها وبالقرامطة، ولانشغال السامانيين بمشكلاتهم الداخلية وبلادهم الواسعة فيما وراء النهر، ورضي هو بهذا الخضوع الشكلي للخلافة وولاتها السامانيين. ثم أتاه الخطر من حيث لم يحتسب، لقد انشق عليه بعض رجاله وجنوده، وأهمهم علي بن بويه، الذي صعد سريعاً حتى استولى على شيراز وجعلها عاصمة له، وبينما يفكر مرداويج في القضاء عليه إذ اغتاله بعض جنوده، لتنتهي قصته وقد أوشكت أن تبدأ^(١).

لم يخف مرداويج عداوته للعرب، ولا أطماعه في بعث دولة الأكاسرة، وروي أنه قال: «أنا أرد دولة العجم وأبطل دولة العرب»^(٢)، واحتضن الأدباء الفرس وحاول إحياء التراث

(١) وإلى مرداويج تُنسب الدولة الزيارية التي استمرت كدولة هامشية في خريطة دول المشرق، إلى أن قضى عليها الغزنويين، وقد أتاح لها الحياة أن البويهيين تمددوا إلى العراق وفارس.

(٢) الصولي، أخبار الرازي بالله والمتقي لله، تحقيق: ج. هيورث دن، (مصر: مطبعة الصاوي، ١٩٣٥م)، ص ٦٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط ٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م)، ٢٤ / ٢١.

الساساني الفارسي^(١)، ولهذا يحظى بحفاوة بعض المؤرخين الإيرانيين المعاصرين^(٢).

عاشت الدولة الزيدية في دورها الأول نصف قرن (٢٥٠ - ٣٠٠هـ)، وفي دورها الثاني بين (٣٠١ - ٣١٦هـ)، وكان من أجل حسناتها إدخالها شعب الديلم في الإسلام، وقد كانوا قبل ذلك كُفَّارًا لم يدخلوا الدين لانعزالهم ووعورة بلادهم، فلما كثر العلويون هناك، نشروا فيهم الإسلام، واستجابوا لهم^(٣).



(١) عصام الدين عبد الرؤوف، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي، ط ١ (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩م)، ص ٤٩.

(٢) انظر: فتحي أبو سيف، الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، ط ١ (الرياض: دار المؤيد، ٢٠٠٧م)، ص ٢٠٥.

(٣) ها هنا وقفة مهمة للعامل للإسلام، فقد طُرِح سؤال حول أولئك الذين أسلموا على مذهب الشيعة، الزيدية أو الرافضة أو غيرها، والدولة الزيدية في طبرستان إنما نشرت الإسلام في تلك البلاد على مذهبها الزيدي، وقد تسرب إليهم مذهب الرافضة أيضا، وترك جواب هذا لابن تيمية إذ يقول: «وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين: من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك، وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خير من أن يكونوا كفارا. وكذلك: بعض الملوك قد يغزو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثما بذلك، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفارا فصاروا مسلمين، وذاك كان شرا بالنسبة إلى القائم بالواجب، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير. وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذبا». والقاعدة الكلية التي يقررها ابن تيمية هي قوله: «والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها والنبي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق بغاية الإمكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان». ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٩٦/١٣، ٩٧.

الدولة الصفارية



ظهر ضعف الدولة الطاهرية أول ما ظهر في الأطراف البعيدة التي كانت تحت سيادتهم، وبدا هذا يتمثل سريعاً في أحوال سجستان، التي كانت بعيدة عن عاصمة الطاهريين، وتمركز فيها الخوارج فكانت من مناطق نفوذهم، وقد اجتمعت هذه العوامل لتؤدي إلى انفلات أمني واضطرابٍ سيطرت فيه

جماعات من اللصوص والعيّارين^(١) وقطّاع الطرق. ثم برز يعقوب بن الليث، صانع النحاس، ولهذا لُقّب بالصفار، كقائد لجماعة من والعيّارين في بلدة زرنج، ولكنه تمتع بمواهب الزعامة والقيادة، فاستطاع توحيد جماعات العيارين هؤلاء، بمزيج من القوة

(١) العيارين هم الذين يُعرفون في اصطلاحنا المعاصر بالفتوّات، وإن كانت هذه الطائفة -أو بالأحرى: الظاهرة- تكاد تختفي تحت وطأة السلطة الحديثة المعاصرة، لكنها استمرت حتى وقت قريب، كأحد العناصر المهمة في حفظ الأمن ونصرة المظلوم والمشاركة في أعمال الخير بل وفي الجهاد أحياناً.

والذكاء، حتى صاروا جنداً له، وبلغ من القوة حدًّا أنه استطاع أن يقاتل الخوارج في سجستان، وأنزل بهم هزيمة حاسمة جعلت له السيادة والسيطرة على سجستان (٢٥١هـ)، فشرع في بسط نفوذه وتعيين رجاله وُلَاةً على مدنها ونواحيها!

لكن سجستان كانت أضيق من طموحه، فما لبث أن تمدد خارجها، فشَن حرباً على كابول لأن ملكها أعان خصماً ليعقوب، وبذلك ضمَّ يعقوبُ إلى سلطانه أجزاء لم تكن تحت سيطرة الخلافة. وهنا بدا واضحاً أن يعقوب يمثل قوةً صاعدةً في مقابل الطاهريين الذين تغرب شمسهم، فانتصر عليهم في معارك متتالية عند هراة وبوشنج (٢٥١هـ)، وقضى على بقايا الخوارج (٢٥٣هـ)، وامتد طموحه إلى كرمان!

وكان علي بن الحسين الوالي على فارس من قبل الخلافة العباسية يشاركه التطلع إلى السيطرة على كرمان، على غير رغبة الخلافة العباسية، ولكن الخلافة المشغولة لم تجد وسيلةً خيراً من أن ترسل إلى كلا الأمرين القويين: علي بن الحسين ويعقوب الصفار قراراً بتوليته على كرمان رغبةً في إشغال كلٍّ منهما بالآخر، ولكن يعقوب اكتسح خصمه وسيطر على كرمان، ثم بادر إليه وشرع يتعقبه حتى استولى على إقليم فارس. فأضيفت إليه بذلك موارد هائلة زادت من قوته وقدرته على الحروب والتجديد، وصار يعقوب الصفار في غضون أعوام قليلة الرجل القوي في المشرق، وهو الآن أقوى من الطاهريين في خراسان ومن الزيديين في طبرستان.

ومع أن يعقوب يبادر من تلقاء نفسه ويتوسع بغير إذن الخليفة، بل على ضد رغبته أحياناً، إلا أنه كان حريصاً على إظهار خضوعه للخلافة والتماسه الشرعية منها، وصار يُهدي إلى الخليفة -وكان في ذلك الوقت: المعتز بالله، ثم المعتمد على الله- الهدايا الفاخرة والنادرة من الحيوانات والطيور والأصنام التي استولى عليها في فتح كابول ومناطق انتشار البوذية، وليس بيد الخلافة -المنشغلة بالمعارك الداخلية في بغداد وسامراء مع العسكر الأتراك- إلا أن تعطي الشرعية لما صار أمراً واقعاً. لكن الموفق بالله ألزمه

ترك ولاية فارس مقابل حصوله على هذه الشرعية فيما عداها.

وما إن حصل يعقوب على التولية الشرعية من قبل الخلافة (٢٥٧هـ) على أنحاء فارس وكرمان وسجستان والسند وكابل، حتى بدأ في مهاجمة عواصم خراسان حيث قلب الدولة الطاهرية، مثل بلخ وهراة - وكانت في حكم الخوارج - حتى قصد إلى نيسابور عاصمة خراسان والطاهريين، وكلاهما - العاصمة وحكامها - يعاني من الفوضى والانقسام، حتى لقد انحاز بعض الطاهريين إلى يعقوب الصفار، وفشل أمير البيت الطاهري محمد بن طاهر في التوصل إلى حلول سياسية، فهُزم أمام الصفار الذي أسره هو وأهل بيته واستولى على المدينة (٢٥٩هـ)، ليكتب نهاية الدولة الطاهرية.

توقع يعقوب أن تقره الخلافة على ما استولى عليه، فأرسل نبأ انتصاره إلى الخلافة، ومعه مسوغات ما فعل كضعف الطاهريين واستيلاء الخوارج على بعض الأنحاء وأن رعيته هي التي راسلت يعقوب وطلبت منه إزالتهم ونحو ذلك، ولكن الخلافة - التي كانت في ذلك الوقت قد آلت عمليا إلى الرجل القوي الموفق بالله أخي الخليفة المعتمد على الله - لم تقبل إزالة حلفائها وخلصائها الطاهريين بغير إذن منها. وتأمره أن يلزم أعماله التي وُلِّي عليها ولا يتطلع إلى غيرها. بل وأحدثت الخلافة تغييرا إداريا مهماً، فمن بعد ما كانت بلاد ما وراء النهر تابعة للوالي في خراسان، فصلت الخلافة بلاد ما وراء النهر فجعلتها ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة، وأقرت عليها السامانيين حُكَّامها الذين كانوا يتبعون الطاهريين. وبهذا التغيير كَلَّفت الخلافة عمليا السامانيين بالتصدي لأي تمدد ليعقوب الصفار.

لكن يعقوب لم يأبه لهذا، بل شنَّ حملته على الدولة الثانية القوية في المنطقة، وهي الدولة الزيدية، واستثمر أن أحد منافسيه في سجستان قد هرب إلى الحسن بن زيد أمير الدولة الزيدية، وانتصر لمرة أخرى على جيش الحسن، لكنه انهزم أمام وعورة الجبال ونزول الثلوج، فما لبث أن تحول نصره عمليا إلى هزيمة، واضطر إلى الانسحاب دون أن

يقضي على الدولة الزيدية! لكنه كسب من هذا مزيدا في وقته ونفوذه، وقضى على منافسه الهارب، ثم أرسل إلى الخلافة يذكر لها عمله في خدمتها بالقضاء على جيش الزيديين وأسر خصومهم الطالبين في طبرستان، لكنه لم يحصل على ما تمناه: إقرار الخلافة له على خراسان.

كانت القوة المتعاضمة ليعقوب الصفار تثير مخاوف في قلب عاصمة الخلافة، فثمة ثلاث مراكز قوية هناك كلٌ منها يتهدد بهذا التوسع:

١. فالموفق بالله وهو الرجل القوي في الخلافة وبيده أمرها على الحقيقة، يرفض كل ما من شأنه استقلال الأطراف عن الخلافة، ومنحه الشرعية لأولئك الطامحين، وقد دخل من أجل هذا في خصومة شديدة ليس مع يعقوب الصفار فحسب بل كذلك مع أحمد بن طولون في مصر، وأشدُّ من هذا أن تعاضم قوة الصفار أطمعت بعض العباسيين في الانحياز إليه ليصلوا إلى الخلافة مثل عبد الله بن الواثق الذي رأى في ذلك فرصة لتحويل الخلافة من أبناء المتوكل إلى أبناء الواثق^(١)، فذهب إلى الصفار في معسكره، فكان في هذا بذرة انشقاق في بيت الخلافة! وهو البيت الذي بالكاد قد التأم تحت قيادة الموفق بالله.

٢. ثم إن الطاهريين الذين أزيلت دولتهم في خراسان كانوا يتولون شرطة بغداد منذ أيام المأمون وهم حلفاء العباسيين.

٣. كذلك فإن الجُند الأتراك الذين سيطروا على الخلافة وصاروا جنودها يتخوفون من عودة النفوذ الفارسي على يد رجل مثل يعقوب الصفار.

(١) في فترة الفوضى التي عاشتها الخلافة العباسية، تردد انتقال الخلافة بين أبناء الخلفاء، فبعد مقتل المتوكل تولاه ابنه المنتصر، وبعد مقتله تولاه المستعين بن المعتصم بالله، ثم إلى المعتز بن المتوكل، ثم إلى المهدي بن الواثق، ثم ها هي في يد أبناء المتوكل من جديد: المعتمد على الله، وولي العهد من بعده ابنه، فالمشهد من زاوية أبناء الواثق يعني أن الخلافة توشك أن تخرج عنهم لتستقر في نسل المتوكل.

لهذا كله كانت خسائر الخلافة من تمدد يعقوب أكبر من خدماته في القضاء على الخوارج وهزيمة الزيديين، ومن ثَمَّ اشتعلت حربٌ سياسية بين الخلافة وبين يعقوب الصفار، وأعلن الموفق بالله في الحجاج العائدين إلى المشرق أن الصفار خارج عن الخلافة عاصٍ لها، وأنه استولى خراسان بغير إذنها ولا رضاها، فلا شرعية له في ذلك، وهو ما تسبب في تمرد العديد من الولاة على حكمه.

اندفع الصفار في محاولة جديدة، فقد اجتاحت فارس التي تمرد واليها محمد بن واصل على الخلافة وهزم جيوشها وأربك موقفها إرباكاً شديداً في مواجهات الزنج، واستطاع أن يهزم هذا الوالي المتمرد ويمزق جيشه (٢٦١هـ)، وانطلق بعدها نحو بغداد، فما يدري أحدٌ على وجه اليقين هل كان يريد السيطرة على الخلافة كما كان حال الجند الأتراك قبل سنين، أم كان يريد تنصيب حليفه عبد الله بن الواثق؟ وبهذا صار الصفار أكثر خطورة من صاحب الزنج نفسه، ذلك الذي استنزف الخلافة منذ ست سنوات.

حاول الموفق إعادة يعقوب بأي ثمن، وعرض عليه ولايات فارس وجرجان وطبرستان والري بالإضافة إلى مناصب الطاهريين: ولاية فارس، والشرطة في بغداد، ولكن يعقوب رفض وأصر أن يدخل بغداد بجيشه ليقدم بنفسه - كما زعم - الطاعة والولاء للخليفة! فلم يبق إلا الحرب، واضطر الموفق بالله أن يسحب جيوشه الرئيسية من مواجهة الزنج، ليتوجه إلى حرب يعقوب الصفار، واندلعت معركة مريرة (٢٦٢هـ) ذهب فيها قادة كبار من الجيشين ثم استطاع الموفق أن يهزم الرجل الخطير المرعب يعقوب الصفار (٢٦٢هـ)، لتتكسر الموجة الصفارية التي أزال كل ما اعترضها على يد رجل الخلافة القوي الموفق بالله.

كان من أهم أسباب الهزيمة انسحاب وانقلاب بعض جنود يعقوب الصفار عليه، لقد انقلبت عليه روايته، فقد كان يعلن أنه في طاعة الخليفة وأنه لم يفعل شيئاً إلا بإذنه، وأنه إنما يتقدم إلى بغداد ليكون في خدمة الخلافة، فلما رأى الجند أن الخليفة يحاربه واشتهر

بينهم أنه لم يرض عن دخوله خراسان، انقلب بعضهم وانسحب بعضهم، لا سيما الخراسانيين من الجنود. وظفرت الخلافة بغنائم كثيرة وحررت آخر أمراء الطاهريين من الأسر.

وما لبثت الهزيمة المدوية أن فعلت فعلها في نفس يعقوب الصفار، فمات بعدها بثلاث سنوات فحسب (٢٦٥هـ)، وتولى الأمر بعده أخوه عمرو بن الليث الصفار، وقد كان ميالا للمصالحة مع الخلافة، وكانت الخلافة راغبة في ذلك لانشغالها بالزنج وغيرهم من المتمردين، ففنع عمرو بما عرضه الموفق على أخيه من قبل: الولايات التي سيطر عليها ومناصب الطاهريين في بغداد وسامراء، وأثبت عمرو حسن نواياه فجعل ولايات الطاهريين في بغداد وسامراء بيد الطاهريين أنفسهم (٢٦٦هـ).

وبرغم ما في تمرد الصفار من الخطورة التي هددت الخلافة العباسية إلا أنه أنجز أمورا تُعدُّ في جملة حسناته وإنجازاته، وصَبَّت في النهاية لصالح الخلافة العباسية، فقد قضى على الخوارج في سجستان وأنحاءها بعدما عجز عنهم الطاهريون، وسدد ضربة قاصمة للزيديين في طبرستان، وأنهى تمرد محمد بن واصل في فارس، وأعاد فتح كابول^(١) فأتاح بهذا استقرار الإسلام في الجزء الشرقي من أفغانستان الحالية، ومدَّ من اتساع رقعة هذا الدين حتى القسم الأعلى لوادي السند، قبل أن يستكمل هذا العمل من بعده الغزنويون والغوريون^(٢). كذلك رفض يعقوب التحالف مع صاحب الزنج، بل وردَّ عليه ردًّا بليغا

(١) وصل الفاتحون إلى هذه المناطق منذ العصر الأموي، ولكن الإسلام لم يستقر في هذه المناطق بل كانت على الصلح مع المسلمين مقابل أموال يدفعها ملوكهم، وفي لحظات الضعف الإسلامي يعود انفصال هذه المناطق عن السلطة الإسلامية. انظر: البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجر، (القاهرة: لجنة البيان العربي، د. ت)، ٤٨٨/٣ وما بعدها.

(٢) عباس اشتياني، تاريخ إيران بعد الإسلام: من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ترجمة: د. علاء الدين منصور، (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٩م)، ص ١٠٧.

يقول فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١-٢]، وكان ذلك بعد هزيمته من جيش الخلافة، وكان نائبه قبل ذلك قد خاض حروبا مع جيوش صاحب الزنج وهزم فيها واحدا من أقوى جيوشه هزيمة قوية. ولا ينفي ذلك أن هجومه على العراق وفر فرصة ثمينة لصاحب الزنج بث فيها سراياه لتقتل وتأسر وتنهب، فأضاع يعقوب على الخلافة مكاسب سنوات المواجهة التي تحققت قبل ذلك.

لما آل حكم الصفاريين لعمر بن الليث بن الصفار كان الحال أفضل مع الخلافة، وعمر بن هذا كان أقرب إلى السياسة منه إلى الحرب، وتشير المصادر إلى كونه ذا عقلية أمنية، إذ استكثر من العيون والجواسيس التي سيطر بها على أتباعه، فازدادوا منه خوفا. ولكن هذا لم يحل هذا دون اندلاع عدد من التمردات عليه، لا سيما في أنحاء خراسان، قريبة العهد بالطاهريين، كما أن أهلها أهل حضارة راسخة لم يحتملوا معها خشونة الصفاريين. وقد وجدت الخلافة من جهتها أن دعم هذه التمردات مفيد لها كي لا يتكرر عليها التهديد من الصفاريين مرة أخرى، لا سيما بعد أن قضت على ثورة صاحب الزنج (٢٧٠هـ)، فما إن جاء العام التالي (٢٧١هـ) حتى تبدد الصفو الذي كان بين الخلافة والصفاريين من بعد ما استمر لخمس سنوات، وحين نزع الخلافة شرعيتها عن الصفار فإنها قد منحت بذلك الشرعية لكل تمرد عليه في عواصم خراسان، كذلك استعملت الخلافة دعايتها لدى الحجاج العائدين إلى المشرق حين أعلن فيهم أن الخليفة قد عزل عمرو بن الليث الصفار، ثم أرسلت الخلافة جيشا انتصر عليه (٢٧١هـ)، ثم جيشا قاده الموفق بنفسه (٢٧٤هـ) انسحب أمامه عمرو بن الليث، لكن الجيش لم ينته إلى نتيجة حاسمة فقد بقيت كرمان وسجستان في سلطة الصفاريين.

ولما مات الموفق، أحب عمرو بن الليث أن يهادن الخلافة فأرسل بالهدايا إلى

ال خليفة المعتضد بالله، فأقره الخليفة على إمارة خراسان، مما أتاح الفرصة والوقت لعمر بن الليث ليستعيد سلطته على المناطق التي خرجت عنه^(١)، لا سيما وأن بعض أولئك المتمردين عليه، والذين كانت تدعمهم الخلافة من قبل، راودتهم هم أيضاً أحلام الاستقلال، وأبرزهم رافع بن هرثمة الذي لم يكتف بالاستقلال بخراسان بل بايع الزيديين في طبرستان، فكان من مصلحة الخلافة -وقد تحسنت علاقتها بالصفاريين- أن تتركهم لانتقام عمرو بن الليث الصفار.

ما إن قضى عمرو بن الليث على أقوى الخارجين عليه، رافع بن هرثمة المُستولي على خراسان، حتى أراد أن يستعيد من جديد السلطة التي كانت قديمة لوالي خراسان، والتي تشمل بلاد ما وراء النهر، تلك التي أخذتها الخلافة من خراسان وجعلتها ولاية مستقلة منذ التوسع الأول ليعقوب الصفار، ولهذا أرسل عمرو بن الليث الهدايا والاموال الكثيرة إلى الخليفة المعتضد ليضم ولاية ما وراء النهر إلى سلطانه (٢٨٦هـ).

كان السامانيون في أوج قوتهم، وكانوا مخلصين للخلافة لم تظهر منهم بوادر تمرد، وقد أحسنوا إدارة هذه الأنحاء وجهاد الكفار الأتراك فيها، وهم من حسنات الطاهريين الذين استطاعوا الإمساك بهذه البلاد من بعد ما سقط الطاهريون أنفسهم في خراسان، وما كان لخليفة عاقل أن يستبدل بهؤلاء رجلاً موتوراً وغير مأمون مثل عمرو بن الليث، فأرسل الخليفة إلى إسماعيل الساماني يُثبته على ولايته، ويأمره بمحاربة عمرو بن الليث إن هو حاول التمدد إلى ما وراء النهر.

(١) من الجدير بالذكر هنا أن عمرو بن الليث كان من أهل التخطيط البعيد، ولم تشغله حروبه مع الخلافة عن النظر في أمر المتمردين عليه، يروى أنه كان يجمع كثيراً من الجرب (الأجولة) دون أن يعرف أحد ما الهدف، ثم إنه في مواجهة بعض المتمردين عليه ملأ هذه الجرب بالأتربة والرمال والحجارة فجعل منها أنضادا وفرشها على طريق وعبر عليه الجيش ففاجأ أولئك المتمردين الذين لم يتوقعوا إمكانية خوض هذا الطريق فأوقع بهم هزيمة بالغة. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٦ / ٤٠٣.

وبالفعل، وقعت الحرب بين الصفاريين والسامانيين، وهُزم فيها عمرو بن الليث حتى أُسر، ثم أرسله إسماعيل الساماني إلى بغداد، وبقي هناك محبوساً، وأرسل الخليفة إليه أن يستولي على أملاك الصفار وأمواله، وبهذا انقلب الحال، وصار السامانيون سادة ما وراء النهر، وأضيفت إليهم خراسان أيضاً.

وهكذا هلك عمرو بن الليث جراء أطماعه، وأودت به أحلام التوسع إلى السجن! كذلك فقد حاول محمد بن زيد العلوي صاحب الدولة الزيدية في طبرستان أن يستولي على خراسان ويرث أملاك الصفاريين، فاصطدم بالسامانيين، فهُزم وقُتل، ودخلت الدولة الزيدية نفسها في أملاك السامانيين! وهكذا أفضت الأحلام بزعمي دولتين قويتين في نفس العام إلى الهلاك: السجن أو الموت! ومهما تكررت القصص فالملوك لا يتعظون!

بقي عمرو بن الليث في سجن بغداد حتى مات الخليفة المعتضد بالله، ولما تولى ابنه المكتفي بالله الخلافة (٢٨٩هـ)، سارع الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان بإرسال من يقتله في سجنه، لأن المكتفي كان متعاطفاً معه وأمر بالإفراج عنه!

وبمقتله طويت صفحة الدولة الصفارية بعد عُمر امتد لأربعين سنة حافلة! ولم تكن محاولاتهم فيما بعد إلا كارتعاشات الجسد الأخيرة، ما تلبث أن تسكن وتخمد!



الدولة السامانية



حكم الطاهريون الجناح الشرقي للدولة الإسلامية من عاصمتهم نيسابور، عاصمة خراسان، ومن هناك عهدوا بحكم بلاد ما وراء النهر إلى الأسرة السامانية التابعة لهم، وهي أسرة فارسية، حتى إذا كان عهد الخليفة الواثق بالله الذي فصل ولاية ما وراء النهر عن ولاية خراسان، لتكون

كلتا الولايتين تابعتين للخلافة، وهو قرار تعددت فيه التفسيرات، كما ذكرنا من قبل، فقليل هو لرفع العبء عن الطاهريين وقد ضعفوا عن إدارة هذه المناطق الواسعة، وقيل هو لمكافأة السامانيين وقد كانوا في صعود، ولا يمتنع أن يجتمع الأمران.

ومن هنا بدأ تاريخ السامانيين في بلاد ما وراء النهر، وهو التاريخ الكبير الحافل الذي جذب المؤرخين إلى البحث في جذورهم ومتابعة قصتهم من أولها.

وأول القصة أن سامان خداه، أصل الأسرة السامانية، أسلم على يد أسد بن عبد الله

القسري، الذي كان واليا على خراسان في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وقد دخل أسدٌ على خط الصراع بين سامان وبين بعض خصومه حين طردوه من بلخ، فأعانه وأعادته إليها.

أنجب سامانُ ابنا وسمّاه «أسدًا»، فيما يبدو أنه ردٌّ للجميل، ثم أنجب أسدٌ هذا أربعة أبناء بلغوا مكانة عالية في زمن الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، فكانوا جميعا ولاية على الحواضر المهمة في بلاد ما وراء النهر: نوح بن أسد تولى على سمرقند، ويحيى بن أسد على الشاش وأشروسنة، وإلياس بن أسد على هراة، وأحمد بن أسد على فرغانة. فمن ها هنا تأسس النفوذ الساماني في هذه البلاد.

وآلت زعامة الأسرة السامانية إلى نصر بن أحمد الساماني، الذي نصّب إخوته ولاية على هذه البلاد، فتمكن النفوذ الساماني فيها، وكانت دولتهم دولة سنية قوية، قامت بدور هائل في تلك المناطق، وجاهدت الممالك والقبائل التركية التي كانت لا تزال وثنية على غير الإسلام، وفتحت العديد من هذه الأنحاء، وقد حقق إسماعيل بن أحمد الساماني أكبر انتصاراته على هذا السبيل في (٢٨٠هـ)، وفتح عاصمة الترك وأسر ملكهم وزوجته وأباه وحوالي عشرة آلاف منهم، وغنم غنائم هائلة.

لم يُعرف عن الدولة السامانية مناهضة الخلافة أو السعي للتمرد عليها والاستقلال عنها، مثلها في ذلك مثل الدولة الطاهرية في خراسان، والدولة الأغلبية في تونس، بل اعتبرها بعض المؤرخين «أكثر القوى الصاعدة ولاء واحتراما للخلافة»^(١).

وكانت دولة قوية أنشأت حضارة زاهرة ونهضة واسعة وعمرانا كثيرا، واتخذت عاصمتها في مدينة بخارى الشهيرة، بلدة الإمام الأشهر: أبي عبد الله البخاري صاحب

(١) مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية، ترجمة: أسامة غاوجي، ط ١ (بيروت:

الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٢١م)، ١/٧٨٦.

الصحيح. فبهم صارت بخارى حاضرة من حواضر الإسلام العلمية والثقافية، واحتوت على واحدة من أكبر المكتبات في ديار الإسلام، ووُصفت في أيامهم بأنها «مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر»^(١)، بل يرى بعض المؤرخين أن بخارى وسمرقند كادت أن تسبقا بغداد كموئلين للعلم والفن»^(٢)، ويرى آخرون أن «ليس من شك في أن الفترة السامانية كانت العصر الذهبي لآسيا الوسطى في تاريخها الإسلامي، وربما في تاريخها كله»^(٣).

ومن الحسنات الكبرى للدولة السامانية، إن لم تكن الحسنة الأكبر، دورها الذي قامت به منذ أن برزت كقوة مؤثرة في تاريخ الخلافة، وقد بدأ هذا الدور مع ضعف الطاهريين الذي كشف عنه اجتياح الصفاريين لمناطقهم حتى وصل إلى استيلائهم على نيسابور نفسها وإزالة الدولة الطاهرية، وبينما الخلافة تحاول الحد من نفوذ الصفاريين أعادت مرة أخرى فصل ولاية ما وراء النهر عن ولاية خراسان، والتي يبدو أنها عادت تابعة لها في خضم خلافة المستعين الممتلئة بالنزاع مع المعتز ومع الجند الأتراك، وكان هذا الفصل يعني عمليا اتكاء الخلافة على قوة السامانيين ضمن خططها لمواجهة الصفاريين. ولهذا يؤرخ لقيام الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر في عهد الخليفة المعتمد على الله (٢٦١هـ) مع أنهم يتولون هذه الأنحاء قبل هذا التاريخ بنصف قرن على الأقل.

وقد ذكرنا قبل قليل، لدى استعراضنا للدول الطاهرية والزيدية والصفارية، كيف

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد قمحية، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م)، ١١٥/٤.

(٢) فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب المطول، (بيروت: دار الكشاف، ١٩٥٠م)، ٥٥٦/٢؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، (بيروت: دار الجيل، د. ت)، ١٣/١٠٠.

(٣) كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه إلى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة: حسين جواد قبيسي، ط ١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مايو ٢٠١٠م)، ص ٣٤٥.

كان السامانيون حصن الخلافة القوي والأخير، وهم الذين استطاعوا وراثة الدولة الطاهرية وقضوا على كلا الدولتين الصفارية والزيدية، وهو الأمر الذي عدّه بعض المؤرخين معجزة تاريخية غير مسبوقة في حكم الأكاسرة، حتى قال الاصطخري عن إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني: «بلغ من سلطانه وتمكن أمره أن أزال ما كان استصعب على المعتضد - في شهامته وصولته وبأسه - من ملك عمرو بن الليث، وتفريق جمعه حين ملك خراسان كلها وما وراء النهر وجرجان وطبرستان وقومس والري وقزوین وابهر وزنجان، وهذه مملكة ما علمت أن الأكاسرة جمعتها لرجل واحد، وقمع مع هذه المملكة الأتراك وذلّهم، حتى بلغت صولته وهيبته حدود الصين، وهابته ملوك الترك حتى صار مما يلي مملكة الإسلام من بلدان الأتراك من الأمن مثل دار الإسلام»^(١).

وإسماعيل هذا هو ذروة الدولة السامانية، وكان رجلاً قوياً باهراً عادلاً صالحاً حليماً حسن السيرة والسياسة، ولا يُعرف تمرّد كبير ضده سوى تمرد واحد فقط، في طبرستان، ما لبث أن انتهى (٢٩٠هـ)، وفي عهده استقر أمر المشرق من بعد اضطراب وحروب ونزاعات، بل استرجع ذلك المشرق سيرة الجهاد والفتوحات في البلاد التركية، ومات إسماعيل (٢٩٥هـ) بعد حياة مجيدة حافلة، ومن أشهر عباراته ما يتردد في التحفيز على الاعتماد على الذات وبذل الجهد، وهي قوله: «كن عصامياً، ولا تكن عظامياً»، أي اصنع نفسك وافتخر ببذلك ولا تركز إلى عمل آبائك وأجدادك!

حفز موت الزعيم الكبير إسماعيل الساماني بعض بقايا الصفاريين للتمرد في

(١) الاصطخري، المسالك والممالك، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٤م)، ص ١٤٣.

فارس وسجستان، لكن سائر هذه المحاولات انتهت سريعا إما بمعارك داخلية بين عدد من الطامحين، أو على يد الجيوش التي أرسلها أحمد أو أرسلتها الخلافة، وكان ذلك في زمن المقتدر بالله، حيث كانت لدى الخلافة قائد عسكري موهوب هو مؤنس الخادم. وأما طبرستان فقد استقرت أحوالها على يد واليها العادل الصالح عبد الله بن محمد بن نوح الذي يعتبر عهده أحسن عهود طبرستان، وقد ذكرنا من قبل كيف أخفق الداعية العلوي الموهوب الحسن الأطروش في إشعال ثورة عليه وعلى السامانيين حتى مات الوالي. وبهذا استقر المشرق من جديد، وأرسل الخليفة إلى أحمد الساماني الهدايا والخُلع (٢٩٨هـ) وتجديد إقراره على حكم هذه المناطق.

انتهت أيام السعادة فجأة، باغتيال مبكر تعرض له الزعيم الجديد أحمد بن إسماعيل الساماني (٣٠١هـ) بعد ست سنوات فقط من وفاة أبيه، وآل الحكم بعده لابنه الصغير ذي الثماني سنوات، الذي كان تحت وصاية أمراء الدولة، وبذلك تجددت التمردات في أطراف الدولة السامانية الواسعة، ودبّت المنازعات في البيت الساماني نفسه، وتجددت في طبرستان الدولة الزيدية في عهدها الثاني على يد الحسن الأطروش، ولم تعد الدولة السامانية قادرة على استعادة طبرستان، ثم رضيت من الزعماء الطموحين بالطاعة الاسمية، أو دخلت على خط الخلاف بينهم كما سبق ذكره عند حديثنا عن الدولة الزيدية. ثم لم تعد قادرة أيضا على حكم خراسان أو بلاد ما قبل النهر التي أضيفت إليها في عهد إسماعيل الساماني.

ومع ذلك فقد ظل السامانيون قوة معتبرة في الشرق، وهي تملك الشرعية المعطاة إليها من قبل الخلافة العباسية، وكان المشهد المتقلب في منطقة خراسان وفارس وطبرستان تمنح المزيد من الوقت والفرص للسامانيين لإبقاء سيطرتهم ونفوذهم،

من خلال التحالف مع بعض الأطراف ضد أخرى، ولكن هذا لم يغير من حقيقة أن الشمس السامانية تميل إلى الغروب.

ولما انتهى حال منطقة المشرق إلى يد البويهيين، على نحو ما ذكرناه من قبل^(١)، استطاع عضد الدولة أن يستولي على كرمان (٣٥٧هـ)، ثم عقد صلحا مع منصور بن نوح الساماني (٣٦١هـ) وزوجه ابنته، لكن الصلح لم يصمد كثيرا، إذ لجأ فخر الدولة المهزوم على يد أخيه عضد الدولة إلى خراسان التي لا تزال في حكم السامانيين، وعزم منصور الساماني على نصرته ضد عضد الدولة، وتقاتل الجيشان البويهى والساماني، وهُزم السامانيون مع أنهم أكثر عددا وعدة، وتشير المصادر إلى أن سبب الهزيمة خيانة من بعض القادة السامانيين، وهو ما يشير إلى حالة التفكك التي عانى منها السامانيون إبان غروب دولتهم، وهو ذات السبب الذي منع منصورًا الساماني من معاودة الكرة، إذ اضطرت الأحوال في بلاطه وقُتل وزيره، فاضطر لصرف اهتمامه إلى قلب مملكته، مما رسَّخ موقف عضد الدولة ورَسَّخ انكماش السامانيين. وزاد الأمر سوءا حين آل الحكم إلى نوح بن منصور الساماني، وكان ما يزال صغيرا، فانقسمت أجنحة الحكم ومراكز القوة بين أمه وأمراء الدولة، وتعددت الثورات والتمردات، حتى غربت شمس الدولة على يد دولتين ناهضتين: الدولة الأيلخانية (القراخانية)، والدولة الغزنوية!

فأما الدولة القراخانية فقد استولت على الأجزاء الشمالية والشرقية، وأما الدولة الغزنوية فقد استولت على الأجزاء الجنوبية والغربية، أي أن نهر جيحون هو الفاصل

(١) راجع الفصل الثامن عن الخلافة العباسية في عصر النفوذ التركي والبويهى.

بين الدولتين وبين الميراثين! وسنؤجل الحديث عن الدولة القراخانية إلى مناسبة قادمة إن شاء الله نكمل فيها تاريخ الإسلام في الصين، كما سنؤجل الحديث عن الدولة الغزنوية فسنؤجل الحديث عنها إلى أن نناقش تاريخ الهند الإسلامية، إذ سيكون لها في تاريخ الهند شأن عظيم، لكن هذا ما يمكن قوله هنا باختصار شديد:

لما توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح، حاول أحد القادة العسكريين تنفيذ انقلاب على السلطة، لكن فشل وهرب مع رجاله وقواته واستقر في مدينة غزنة^(١) (٣٥١هـ)، واستطاع أن يحتفظ فيها بنوع استقلال ذاتي لضعف الدولة السامانية، وحين مات نهض أحد رجاله وهو سبكتكين فأمسك بزمام الأمور (٣٦٦هـ)، فذلك هو مؤسس الدولة التي عُرفت بالغزنوية نسبة إلى اسم المدينة، فقد برز ولمع نجمه وصار رجل المنطقة القوي، واستعان به السامانيون في مواجهة تمردٍ عليهم اندلع في بخارى، فكان خير ناصر للسامانيين ولقبوه بـ «ناصر الدولة»، وإليه يرجع الفضل أن ظلت خراسان في حكم السامانيين بما حققه من مواجهات مع البويهيين، كذلك توسع سبكتكين في نواحي البنجاب، وكانت له فتوح واسعة في الأراضي الهندية، أهمها انتصاره على أكبر ملوك الهند (٣٦٩هـ)، وأحكم سيطرته على بلاد الأفغان، وحين مات (٣٨٧هـ) ورثه ابنه القائد الكبير محمود بن سبكتكين الغزنوي، فاتح الهند، وأحد أعظم الفاتحين في تاريخ الإسلام، «حتى قيل إن فتوحه تعدل في المساحة فتوح عمر بن الخطاب»^(٢).

وهكذا عاشت الدولة السامانية نحو مائة وسبعين عاما إن بدأنا حسبة الأيام

(١) مدينة أفغانية معروفة إلى الجنوب الغربي من كابول.

(٢) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط ١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م)، ص ٢٣٤.

بأوائل نفوذهم، أو قرنا وربع القرن إن بدأنا من عام تنصيبهم كحكام مستقلين (٢٦١ هـ - ٣٨٩ هـ)، وكانت من خير دول الإسلام.

ولئن كان من سلبية بارزة نأسف عليها، فهي أن هذه الدولة لم تتعرب، فلم تتخذ اللسان العربي لسانا لها، بل كانت فارسية اللسان، وهو ما عظم شأن اللغة الفارسية وقطع الطريق على تعرب هذه المناطق الواسعة الغنية بالرجال والحضارة. على أن هذا لا يعني اختفاء اللغة العربية في هذه الأنحاء، فلقد ارتبطت اللغة بالدين وشعائره، وكانت لغة علم أيضا، وبها كتب العلماء والأدباء كتبهم ومآثرهم، وإنما القصد أن العربية لم تكن اللغة الوحيدة السائدة، ولا هي اللغة التي اعتمدها السامانيون في السياسة والإدارة، أو بعبارة أخرى: فقد حصل «وللمرة الأولى، أصبح الدين والثقافة الإسلاميان متوفرين بلغة غير اللغة العربية»^(١).



(١) إيرا م. لايبس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة: فاضل جتكر، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١ م)،

١/ ٢٢٥؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٣/ ١٠٠؛ كلود كاهن، الإسلام، ص ٣٤٧.

الدولة الحمدانية



يرجع أصل الحمدانيين إلى جدهم حمدان بن حمدون التغلبي، فهي أسرة عربية من بني تغلب، وكان حمدان هذا من المتمردين على الخلافة وتحالف مع الخوارج ضدها في أيام الخليفة المعتضد بالله، فقد كانت للخوارج صولات وجولات في مناطق الموصل والجزيرة الفراتية وشمال العراق. وتلك الأنحاء كانت من مناطق

استقرار القبائل العربية، ففيها ديار بكر وديار مضر وديار ربيعة، ومن هنا كانت السيادة في شمال العراق والشام للعرب.

وعلى خلاف هذا الجد المتحالف مع الخوارج، كان ابنه الحسين بن حمدان من قادة جيش الخلافة الكبار، ومن أبرز من جاهدوا تحت رايته ضد الخوارج والقرامطة والروم، وتولى إمارة ديار ربيعة في عهد المكنفي (٢٩٢هـ)، ودخل على خط الصراع الداخلي بين قادة الخلافة في بغداد، فكان من أضلاع محاولة الانقلاب الفاشلة على الخليفة المقتدر في

أول عهده.

وفي جبهة أخرى كان الابن الآخر عبد الله بن حمدان من وُلاة الخلافة الكبار أيضا، وقد وُلّاه الخليفة المكتفي على إمارة الموصل، فوصلها (٢٩٣هـ)، وكانت الموصل تشهد تمردا لمجموعات الأكراد، فأبدى عبد الله بن حمدان صرامة وكفاءة استطاع معها أن يحسم أمر هذا التمرد، وأن يطارد الأكراد إلى جبال أذربيجان، ودانت له الموصل.

وحين فشل الانقلاب الذي كان الحسين من أضلاعه، تولى مطاردته أخوه عبد الله، فتواجه الأخوان معًا، حتى وقع الحسين في أسر أخيه، لكن المقتدر بالله كان حليما صفوحا، فعفا عنه، وولّاه على قُم^(١)، ثم تولى على ديار ربعة (٢٩٨هـ)، وقاد منها عددا من الصوائف في جهاد الروم، لكنه عاد وتمرد على الخلافة (٣٠٣هـ)، فهُزم أمام جيشها الذي قاده مؤنس الخادم، وأُسِر ثم قُتِل في سجنه (٣٠٦هـ)، وقيل فيه: «كان من أجلّ الأمراء بأسًا وشجاعة، وهو أول من ظهر أمره من ملوك بني حمدان»^(٢).

وأما أخوه عبد الله، الذي استقر أمره في ولاية الموصل، والذي تولى مطاردة أخيه حتى ظفر به، فقد جاء القرار بعزله بعد ثماني سنوات في الولاية (٣٠١هـ)، فرفض وأعلن العصيان، فتحرّكت إليه جيوش الخلافة، فأدرك ألا فائدة في الحرب، فاستسلم بالأمان، وعاد إلى بغداد، وعفا عنه المقتدر بالله. ولكنه ما لبث أن قبض عليه وحبسه إبان تمرد أخيه الحسين (٣٠٣هـ) خشيةً من اجتماعهما في التمرد، إن لم يكونا قد تأمرا معا فيه، ثم أطلق بعد عامين (٣٠٥هـ)، وعاد يتولى المناصب والولايات، فهو يُشرف عليها من بغداد، ويرسل من ينوب عنه، وكان من أهم ما تولاه الموصل (٣٠٨هـ) وأرسل ابنه نائبا عنه فيها، وضمَّ إليه خراج الموصل، أي الشؤون المالية في هذه الولاية (٣١٤هـ)، ثم كان

(١) المدينة الإيرانية الشهيرة التي فيها أصل الحوزة العلمية الشيعية الفارسية.

(٢) الزركلي، الأعلام، ٢/٢٣٦.

من أضلاع الانقلاب الثاني على المقتدر (٣١٧هـ)، فُقُتِل فيه.

لئن كان الحسين بن حمدان أول الأمراء الأقوياء في بني حمدان، ولئن كان أخوه عبد الله بن حمدان يعتبر مؤسس الدولة الحمدانية في الموصل، فما كان هذا ليتمّ للحمدانيين على ذات هذه الصورة والتمكن والاستقلال لولا بقية الأمراء الحمدانيين الذين كانوا وُلاةً أيضاً، فلقد كان إبراهيم بن حمدون والياً على ديار ربيعة (٣٠٧هـ)، ولما مات (٣٠٨هـ) خلفه عليها أخوه داود (حتى ٣٠٩هـ)، وكان أبو العلاء سعيد القائد العسكري في نهاوند (٣١٢هـ)، وأبو السرايا نصر من أمراء الخلافة ورجالها أيضاً. فكل هؤلاء له نصيبٌ من استقرار الحمدانيين وتمكنهم في منطقة الموصل وما وراءها.

وقد انقسم الإخوة الحمدانيون في مواقفهم السياسية، فمنهم من قُتِل في محاولة انقلاب على الخليفة مثل الحسين وعبد الله، ومنهم من هرب مثل أبي السرايا نصر، ومنهم من بقي مخلصاً مع الخليفة إلى النهاية مثل داود بن حمدان الذي قُتِل مع الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ).

على أن النصيب الأوفر من استقرار دولة الحمدانيين واستقلالها يعود إلى الأمير الحسن بن عبد الله، الملقب بناصر الدولة، فهذا الذي استطاع أن يحتفظ بالموصل لنصف قرن -إلا فترات متقطعة- منذ أن كان نائباً لأبيه عنها (٣٠٨هـ) إلى أن توفي (٣٥٨هـ). وكانت طريقته في الحفاظ على الموصل تدلّ على سياسة وحكمة، وتكررت على هذا النمط:

١. فهو شديد اليقظة حاضر الذهن لا يترك الفرصة لأحد أن ينتزع منه الموصل ولو كان عمّه فضلاً عن غيره.

٢. وهو يُقدّر دخوله في معارك الخلافة الداخلية، فإن نجح في شيء فيها ونعمت، وإلا فإنه ينسحب إلى الموصل.

٣. فإن هاجمه في الموصل جيشٌ تصدى له، وهزمه.

٤. فإن كان الجيش كبيراً فإنه يجمع أمواله ورجاله بمن فيهم الكتّاب والوزراء وأعيان البلد العارفين بمواردها وأموالها ودهاليزها فينسحب بهم من الموصل.

٥. وبهذا لا يستطيع الجيش الذي دخل -سواءً أكان جيش الخلافة أم جيش البويهيين- أن يستقر في الموصل طويلاً، يمنعه من الاستقرار فيها اضطراب حال العراق من جهة، وأنه لم يجد في الموصل أموالاً يستعين بها على ذلك من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة: تلك الغارات التي يشنها عليه ناصر الدولة أو يحرض الأعراب على شنّها، فينتهي الحال إلى اتفاق يعود به إلى الموصل، لقاء أموالٍ يدفعها أو تحالفٍ يعقده.

لهذا استمرت العلاقة بين ناصر الدولة وبغداد على هذا النحو: استقلال عملي مقابل مبلغ سنوي، وكلما وجد الفرصة لئلا يدفع ذلك المال حبسه، فيأتيه الجيش، فيتكرر الحال من جديد. ولم تخفق هذه الخطة إلا أمام عضد الدولة البويهى، أقوى أمراء الدولة البويهية، الذي كان قد حفظ خطة الحمدانيين واستعد لها، فحمل مع جيشه من الأموال والعتاد ما يتيح له الاستقرار في الموصل، وهو ما كان.

وقد استطاع ناصر الدولة الحمداني أن ينتزع بالحرب والمال من معز الدولة البويهى بقاء الموصل في ولده من بعده، فتولاها أبو تغلب الحمداني، واستطاع بنفس خطة أبيه أن يعرقل كل محاولات عز الدولة بختيار البويهى (ابن معز الدولة) لانتزاع الموصل منه، أو للدخول على خط الصراع بين أبي تغلب وبين أخويه.

لم يكن الحمدانيون سوى أسرة حاكمة ضمن أسر أخرى في العراق والشام، لكن اشتهاهم وارتفاع ذكركم يرجع أصالة إلى الفرع الثاني الذي سيطر على شمال الشام، واتخذ عاصمته في حلب، ومن ثمّ تولى الدفاع عن منطقة الثغور.

بدأ وجود الحمدانيين في حلب حين استطاع سيف الدولة الحمداني، أخي ناصر الدولة

الحمداني، أن ينتزعها من الإخشيديين (٣٣٣هـ)، ثم استطاع أن يضيف إليها حمص، إلا أنه عجز عن دمشق، وبعد معارك قوية مع الإخشيديين انتهى الأمر بهم إلى الصلح الذي يجعل شمال الشام للحمدانيين، ويجعل دمشق وجنوب الشام للإخشيديين. وبهذا تفرغ الحمدانيون لحكم شمال الشام وجهاد الروم، وتفرغ الإخشيديون لحماية مصر من العبيديين ومن ملك النوبة.

أنشأ سيف الدولة الحمداني في تلك المنطقة دولة مستقلة يحكمها هو، مثَّلت امتدادا للدولة الحمدانية لا يخضع لسلطة البويهيين في العراق ولا يطمع فيها البويهيون، ثم إنها مثَّلت فيما بعد إنقاذا وملاذا للحمدانيين من فرع العراق، واشتهر سيف الدولة بجهاده ضد الروم، وهو الجهاد الذي شغل سحابة عمر هذا الفرع من الدولة الحمدانية، ويمكن أن نقسمه إلى ثلاث مراحل:

١. المرحلة الأولى: مرحلة توازن وتعادل وسجال، وقد امتدت لعشر سنوات (٣٣٥هـ - ٣٤٥هـ)، فكان يفتح ويغنم ويأسر ويبادل بهم أسرى المسلمين، وكان يُهزَم ويُغلب ويؤسر منه وتُفتح بلاده كذلك. إلا أن قلة العدد والعدة وصغر المملكة لدى سيف الدولة لا تقارن بالإمكانات الكبيرة الضخمة لأعدائه البيزنطيين، فكان التوازن والتعادل في هذه الحال بمثابة النصر الفاخر لسيف الدولة، وهو نصر معنوي ولا يمكن اعتبارها نصرا عسكريا. ولهذا طار صيته في الآفاق، إذ كان الأمير الوحيد المجاهد في ذلك الوقت، والأمم الضعيفة في مثل هذه الأوقات تتعلق بالنصر وصاحبه مهما كان في حقيقته ضعيفا وباهتا، ثم إن سيف الدولة رُزق في بلاطه بسيد شعراء العرب قاطبة: المتنبّي، فأنشد فيه من الأشعار والمدائح ما طرب لها كل من يفهم العربية ولو بعد ألف سنة! فأعطى ذلك كله صورة بطولية كبيرة لسيف الدولة تفوق حقيقة الحال التي كان فيها.

٢. المرحلة الثانية: مرحلة تفوق الروم، وامتدت لست سنوات (٣٤٧ - ٣٥٣هـ)، وفيها أَلقت الدولة البيزنطية بثقلها في حرب المسلمين، فصار الإمبراطور البيزنطي نفقور

-وهو المعروف بالدمستق- يقود بنفسه الجيش الكبير للدولة، وهذا الإمبراطور هو أحد الأبطال التاريخيين للدولة البيزنطية، فهو واللذان خلفاه يمثلون «أزهى عهود بيزنطة في تاريخ علاقتها بمسلمي الشرق»^(١)، ونقفور فوكاس هذا حالة خاصة مثيرة للدهشة والاستغراب، ذلك أن أباه كان رجلا مسلما ولكنه تنصر فلحق بالروم، فنشأ ابنه هذا نصرانيا، وأبدى موهبة عسكرية ترقى بها حتى صار واليا على آسيا الصغرى، وبينما كان الإمبراطور أرمانيوس عائدا من حرب مع المسلمين إذ توفي وترك ولدين صغيرين، فصار نقفور هذا وصيا على العرش، وتزوج من أرملة، وتمكن من الحكم، وكان جبارا دمويا سخر طاقته كلها في حرب المسلمين، مستغلا ما يمرون به من الضعف والتمزق، وحقق من النتائج ما لم يتسن للإمبراطور كان قبله منذ عهد الفتوح الإسلامية قبل ثلاثة قرون! حتى «هابه المسلمون هيبة عظيمة، ولم يشكوا في أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر»^(٢).

وفي الناحية الأخرى ما كان سيف الدولة يملك أن يجدد موارده لضعف مملكته وعدم وجود النصير من الخلافة أو البويهيين في العراق، أو الحمدانيين في الموصل، ثم إنه أصيب بالفالج^(٣) لستين، ثم أخذ في التعافي منه ببطء، فضلا عن غارات الأعراب في بادية الشام، وفوق ذلك كله تمرد عليه بعض قاداته والناس في بعض النواحي والمدن.

لهذا، كانت هذه المرحلة مرحلة الهزائم القاسية التي نزلت بسيف الدولة، حتى إن نقفور اقتحم حلب عاصمة سيف الدولة الذي فر هاربا، وقتل فرعا كاملا من الحمدانيين

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٥٥٣/٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٢٠/٧.

(٣) الفالج في اصطلاح القدماء هو ما نعرفه اليوم باسم «الشلل النصفي»، وينتج عن جلطة للدماغ، وبحسب ما يكون حجم التجلط وصورة التعامل معه في الساعات الأولى يكون الأمل في التعافي منه.

وهم أبناء داود بن حمدان، ثم أسر الروم في معركة أخرى الفارس الشاعر المشهور أبا فراس الحمداني!

٣. المرحلة الثالثة، وهي مرحلة النكبات، والتي تمتد لعامين حتى وفاة سيف الدولة الحمداني (٣٥٤هـ - ٣٥٦هـ) فقد استطاع الروم فيها تحقيق انتصارات حاسمة كانت بمثابة النكبات على المسلمين وعلى سيف الدولة، فقد بنى نقفور قلعة حربية في قيسارية لتكون مركزاً متقدماً في ديار المسلمين، واستولى الروم على طرسوس التي كانت عاصمة منطقة الثغور وقلعة الجهاد ضد الروم، وكان هذا حدثاً هائلاً ومدوّياً، حتى لقد وقف نقفور على منبر جامع طرسوس وهتف في أصحابه: «أين أنا؟ فقالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا ولكنني على منبر بيت المقدس، وهذه كانت تمنعكم من ذلك»^(١)، ومن تلك اللحظة خرجت طرسوس بعد ثلاثة قرون من ظل المسلمين لتبقى قروناً أخرى بين الحكم البيزنطي والصليبي والأرمني إلى أن استعادها العثمانيون.

ثم هدّد الروم ميفارقين وكانت عاصمةً لسيف الدولة، وكادوا أن يستولوا على أنطاكية لولا استبسال أهلها! وفي أجواء هذا الضعف والهزيمة توفي سيف الدولة الحمداني (٣٥٦هـ)!

في كلا المرحلتين الثانية والثالثة صفحات عظيمة باسلة من المقاومة الشعبية الأهلية، التي حققت ما عجزت عنه الجيوش، ووقفت حين انهارت العساكر، ولولا أن المقام هنا مقام اختصار وصورة عامة لكان ذلك حقيقاً بالتوقف الطويل عنده.

كان في سيف الدولة قوة وشجاعة وشهامة، فكان يجترئ على غزو بلاد الروم وإن كان في قلة، وقد يدفعه ذلك إلى حدّ التهور والاندفاع الذي يعود عليه بالخراب والهزيمة، فقد

(١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م)، ص ٨٤.

تكرر منه أن ينتصر ويغنم ويأسر، ثم يتوغل حتى يبعد في أرض الروم توغلا يتعد فيه عن الرأي والحكمة، فإذا كان في طريق عودته تلقتة كمائن الروم حتى تشتت جيشه وتمزق جنوده وتحيل انتصاره الكبير هزيمة كبيرة، ولا ينجو من ذلك إلا بصعوبة!

كذلك كان فيه عسف وظلم واستبداد وجور في الأموال والمصادرات، وبعض استبداده بالرأي كان من أسباب هزائمه، إذ كان يأنف من النصيحة ويعزم على ما يراه، وتفعل فيه بعض النخوة الجاهلية فعَلَّها، ويصيبه العناد بما يعميه عن الخضوع للمشورة، كذلك فإن بعض عسفه وظلمه حمل على أن انقلب عليه الناس في بعض البلاد، بل انقلب عليه بنو عمومته الذين انحاز بعضهم إلى الروم وقاتلوا المسلمين فكانوا أشد عليهم من الروم لما لهم من الخبرة والمعرفة بالأرض والناس، وليس ظلم سيف الدولة عذراً لهم في خيانتهم هذه، لكنه أمرٌ لا يمكن تجاهله، فإن الظلم والعسف وتهيج العدو وخسارة الصديق قبيح شنيع، وهو حين يكون من الضعيف المحتاج للنصرة أقبح وأشنع! وكان في عُمَّاله وولاته من هم مثله في العسف والظلم، فكان ذلك سبب انقلاب الرعية عليهم في أوقات الضعف والانهزام أمام الروم.

بلغت غزوات سيف الدولة أربعين غزوة، وهي وإن كانت في غالبها عليه لا له، إلا أن وجوده في ذلك الوقت كان في غاية الأهمية، ولولا هو لربما استطاع الروم اقتحام الشام وإزالة دولة الإسلام منها، لا سيما مدن الشام الشمالية، ولئن كان عمله في جهاد الروم قد خلد اسمه بالمقام الأول، فلا ريب أن المقام الثاني كان لأنه أفاض بالأموال على العلماء والشعراء والأدباء، فالمتنبي وحده كتيبة حرب خالدة! وكان في بلاطه آخرين مع المتنبي، فكان فيه شاعر عظيم آخر كان من سوء حظه أن جاء في عصر المتنبي، وهو أبو فراس الحمداني، وهو أمير فارس من الأسرة الحمدانية جاهد وأسر لدى الروم وأبدع في أسره عددا من القصائد المؤثرة، وكان في بلاط سيف الدولة أيضا: رأس الفلاسفة في عصره: الفارابي، بل كان يرسل سيف الدولة بالأموال والهدايا إلى العلماء والأدباء خارج بلده، لا

سيما علماء بغداد، حتى قال ابن خلكان: «أخبار سيف الدولة كثيرة مع الشعراء، خصوصاً مع المتنبي والسري الرفاء والنامي والبغاء والوأواء وتلك الطبقة، وفي تعدادهم طول»^(١)، فزاد هذا من علو صيته وسمعته^(٢). وفي هذا درسٌ يجب ألا يُغفله المصلحون والعاملون لهذا الدين، يتعلق بضرورة استثمار المواهب والعناية بها.

ومن حسنات سيف الدولة أيضاً أنه وإن كان شيعياً، فلم يحاول إحداث الفتنة في بلاده، ولم يصف إلى الأذان شعار الشيعة «حي على خير العمل».

شهد عام (٣٥٦هـ) بداية غروب الدولة الحمدانية، ففيه مات سيف الدولة الحمداني

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣/ ٤٠٥.

(٢) تسود صورة مشوهة في واقعنا المعاصر مفاده أن الشعراء كانوا يتنافسون في نفاق الملوك والأمراء، وأن الأمراء كانوا يتنافسون في تبذير الأموال ليحصلوا على مزيد من النفاق. ليس الأمر كذلك، بل يمكن تقريب الصورة حين نفهم أن الشعراء والأدباء كانوا في ذلك الزمان مثل وسائل الإعلام في زماننا هذا، فما من حاكم في زماننا الآن إلا وله اهتمام وعناية بوسائل الإعلام، فهي من أركان حكمه، وكذا كان السابقون، يتجملون ويبنون شرعيتهم وصورتهم في ضمائير الناس عبر الأشعار التي تُقال فيهم. غير أن الشاعر قديماً كان أكثر حرية في الانتقال من مكان إلى مكان ومن بلاط إلى بلاط، وكان يملك أن يفخر بنفسه وقومه إلى جوار مدح الأمير، بينما وسائل الإعلام الحالية لا تملك إلا أن تكذب وتنافق وتسخر نفسها خالصة لمصالح الحاكم وسلطانته. وكان الضمير الجمعي قديماً يزن الشاعر ويتذوق موهبته فلا يفوز بإعجابهم ومحبتهم إلا الشعراء المُجيدون المطبوعون، أما وسائل الإعلام الحالية فقد أتيح لها من السطوة والسيطرة والشمول -بفعل وسائل التقنية- ما يجعلها تبث الكذب الفج الممجوج ولا يملك الناس منها انفلاتاً، بل هي التي تملك تصنيع عقول الناس وأذواقهم مع كثرة التكرار وقوة النفاذ، حتى صنعت قاعدة جديدة تقول: «اكذب ثم اكذب ثم اكذب، وفي النهاية سيضطر الناس إلى تصديقك». وهو الواقع الذي جعل علي عزت بيغوفيتش يقول منذ ستينات القرن العشرين: «أصبح التلفزيون تهديداً للحرية الإنسانية، أكثر خطراً من البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسي... إذا كانت الدساتير في الماضي توضع للحد على سطوة الحكام، فإن دستوراً جديداً سنحتاج إليه لكبح جماح هذا الخطر الجديد الذي يهدد بإقامة عبودية روحية من أسوأ الأنواع».

علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، ط ٢ (ميونخ: مؤسسة بافاريا للنشر، ١٩٩٧م)، ص ١٠٨، ١٠٩.

الأمير على القسم الغربي من الدولة، فاضطربت أحوال الدولة من بعده، وتقاتل الحمدانيون على وراثته أملاكه.

وفي نفس العام (٣٥٦هـ) وقع النزاع في الموصل بين ناصر الدولة وأبنائه، فقد كان ناصر الدولة يريد أن يجعل ابنه حمدان من بعده، لكن ابنه الآخر أبا تغلب أبى هذا، واستطاع الانتصار على أبيه فحبسه (٣٥٦هـ) وعلى أخيه حمدان (٣٥٨هـ)، وعلى باقي إخوته وانفرد بالأمر (٣٦٠هـ).

وكانت فرصة ذهبية لم يقصّر الروم في استغلالها، فاقترحوا بلاد الشام، ولم يجدوا عنتاً إلا من المقاومة الشعبية، فهي التي أوقفتهم عن اقتحام أنطاكية (٣٥٧هـ)، فكان الروم إذا عجزوا عن اقتحام بلدٍ أحرقوا ما استطاعوا من أرباضها - وهي الأراضي خارج الأسوار، وفيها زراعات الناس ومحاصيلهم - ثم كرروا المحاولة في أعوام قادمة بجيوش أكبر واستعداد أحكم، وبهذا سقطت أمامهم كثير من البلاد من أهمها حمص، ثم أنطاكية التي أسقطوها بخطةٍ اشترك فيها الخونة من نصارى أنطاكية (٣٥٩هـ)، وكادوا يأخذون حلب، وكانت محنة عظيمة لم ينقذ المسلمين منها إلا الله وحده، إذ تأمرت زوجة الإمبراطور نقفور مع بعض قادة العسكر فقتلوه (٣٥٩هـ)، وذلك أنه كان يريد جعل الملك في أولاده من بعده، ولم يكن من ملوكهم بل كان والده مسلماً تنصّر كما ذكرنا!

ولم يكن الحمدانيون على استعداد ليتهازوا فرصة موته، وما أعقب ذلك من اضطراب عند الروم، بل كان المعارك مندلعة بين أبي تغلب وإخوته في القسم العراقي من الدولة الحمدانية، وأما القسم الشامي منها فقد كانت المعارك مندلعة بين قرعويه - غلام سيف الدولة - وأبي المعالي بن سيف الدولة، ولما اصطلحا (٣٥٩هـ) دخلت بلادهما في طاعة العبيديين (الفاطميّين)، والذين كانوا في أوج

قوتهم وقتها.

ولهذا لم يكن صعباً أن يتوغل الروم مرة أخرى (٣٦١هـ) حتى نصيبين، العاصمة الثانية بعد الموصل للدولة الحمدانية في العراق، وهي الهجمة الكبرى التي ارتاع لها الناس، ولكن عز الدولة بختيار لم يفعل شيئاً، رغم استغاثات حليفه - وقتها - أبي تغلب الحمداني. وفي المرة الوحيدة التي اتحد فيها جيشان للحمدانيين (رمضان ٣٦٢هـ) أوقعوا بالروم نصراً قوياً أسروا فيه قائد جيشهم!

لكن هذا كان بمثابة الشذوذ في مسيرة الحمدانيين تلك الأيام، أما الأصل فكانت صراعاتهم الداخلية التي تُغري الملك البويهى في بغداد بالسيطرة على الموصل، ولكن عز الدولة بختيار (الملك البويهى الثاني) لم يستطع أن ينتزع الموصل، وطالت المؤامرات والحروب وفصولها، حتى جاء الحل من خارج هذا النزاع.

لقد جاء عضد الدولة البويهى من المشرق، فانتزع العراق من ابن عمه عز الدولة بختيار، وكان أقوى ملوك الأسرة البويهية، وحاول أبو تغلب الحمداني أن يستفيد من هذا الصراع، فأرسل إلى عز الدولة أنه يمدّه بعشرين ألف جندي مقابل أن يسلم إليه أخاه وغريمه ومنافسه الأمير حمدان الذي كان قد لجأ إلى عز الدولة بختيار ليتحالف معه على أبي تغلب. وقدّر بختيار أن خطر عضد الدولة أكبر، فغدر باللاجئ إليه وسلّمه، وتحالف مع أبي تغلب لقتال عضد الدولة، لكن هذا الأخير هزمهما معا (٣٦٧هـ)، وانتزع بغداد وقتل ابن عمه عز الدولة.

ثم ما لبث أن التفت إلى أبي تغلب في الموصل، وكان قد فهم خطة الحمدانيين، فاستعد لها جيداً، واصطحب معه من المال والرجال والعدة والعتاد والأقوات وعلف الدواب ما يجعله غير محتاج إلى أموالٍ حتى تتم له السيطرة على الموصل.

وبالفعل انسحب أبو تغلب أمامه من الموصل، لكن عضد الدولة بقي فيها عامًا كاملاً لا يشعر أنه تحت ضغط المال والحاجة، واتخذ من الموصل مركزاً يرسل منه الفرق العسكرية لتحوز بقية المدن والأنحاء، ورفض الصلح الذي عرضه أبو تغلب عليه، فلم يجد هذا الأخير إلا أن يهرب ويلجأ إلى الخليفة العبيدي (الفاطمي)، فاستولى على كل أملاكه، وعقد اتفاقاً مع القسم الشامي من دولة الحمدانيين والذي كان في حكم سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني، فأقر له سعد الدولة بما استولى عليه، وبذلك أزيلت دولة الحمدانيين في العراق، ودخلت الموصل وديار مصر في سلطان البويهيين.

ومع أن عضد الدولة مات بعد خمس سنوات فقط، إلا أن بقية ذرية الحمدانيين لم تستطع أن تحكم الموصل مرة أخرى، وكانت محاولاتهم كارتعاشة الجسد الأخيرة.

وأما في حلب فما كان بإمكان ذرية سيف الدولة أن يقوموا للعبيديين (الفاطمين) الذين انتزعوا مصر والشام من الإخشيديين، وتصادموا من ثمَّ مع بقية الدولة الحمدانية التي تنازعتها الخلافات الداخلية، وقد حاول سعد الدولة بن سيف الدولة، ثم ابنه سعيد الدولة أن يصمدوا ما استطاعوا، لكنه كان صموداً محتوم النتيجة مع فارق العدد والعُدَّة والموارد، فالدولة العبيدية تمتد من الشام حتى إفريقية، بينما دولة الحمدانيين محصورة في حلب وما حولها، بالإضافة إلى فارق الزمن أيضاً، فالعبيديون في إقبال دولتهم، والحمدانيون في إدبار.

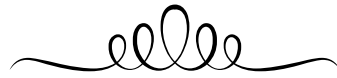
كان من حسنات الحمدانيين في الموصل والجزيرة الفراتية أنهم تولوا مواجهة تمردات الأعراب والأكراد والخوارج، وأمنت العراق من هذه الجهة بفضل قوتهم

وكفاءتهم. وشاركوا أيضا في جهاد الروم منذ مطلع أيامهم، فمنذ الحسين بن حمدان (٣٠١هـ) كان الحمدانيون يشاركون في الصوائف، وحققوا نتائج قوية بالنسبة إلى ظروف هذه الحقبة.

ولولا ما قام به الأمراء الحمدانيون من تمردات متكررة على الخلافة لكانوا ربما أحسن الدول المستقلة، وأفضل حتى من الأغلبة والطاهريين والسامانيين، لقرب موقعهم الجغرافي من عاصمة الخلافة وشدة حاجة الخلافة إليهم في الصراعات الداخلية التي تندلع بين أجنحة السلطة فيها. كذلك فلولا ما نشب بينهم من المنازعات الداخلية - منذ الإخوة الأوائل: عبد الله والحسين وداود، وهو ما استمر في الجيل التالي - لتصورنا أنهم كانوا سيكونون من أشد الدول تماسكا ومن أطولها عمرا، لقلّة المنافسين والمنازعين لهم في هذه المناطق. فالواقع أن الدولة الحمدانية قَصُرَ عمرها ونقص أثرها لشدة ما كان بين أمرائها من الاختلاف، ولدخولهم غير الموفق غالبا في خط الصراع السياسي في عاصمة الخلافة.

عاشت الدولة الحمدانية في الموصل نحو ثمانين سنة، وفي حلب نحو ستين سنة، ثم مضت بهم الأيام لتُلحقهم بالراحلين، وليصدق عليهم وعلى غيرهم قول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].





الفصل الثاني عشر: الدولة العبيدية (الفاطمية)



يُغري تاريخ الدولة العبيدية (الفاطمية) المؤرخ المعاصر بملاحظة كثير من المفارقات، فهي تنهض دليلاً قوياً على أن الأمازيغ (البربر) لم يكونوا ييغضون العرب ولا يرون فيهم محتلين كما تزعم الدعايات المعاصرة البغيضة، فهذا هي القبائل المغاربية تجعل من نفسها أنصاراً لزعامات عربية، وتقيم على أكتافها دولاً لهم، وهذه الدولة العبيدية هي أكبر هذه الدول وأقواها وأكثرها بقاءً، وكانت قاعدتها من قبائل كتامة.

وهي تنهض كذلك دليلاً قوياً على أن الأمة تلفظ المذاهب الضالة وتنبتها، وإن طال بقاؤها وتمكنت دولتها، فلقد كانت هذه الدولة العبيدية أول تحقق كبير للدعوة الإسماعيلية الشيعية الباطنية، واستمرت أكثر من قرنين من الزمان، وكان لها تنظيمها الدعوي الذي يقوم على رأسه «داعي الدعاة»، ومع ذلك ما كان أسهل سقوطها، ثم عادت مصر والمغرب بعدها دولاً سنية من جديد، كأنها لم تكن ولم تتمكن، وسائر ما بقي من ميراثها ليس أكثر من ندبات وخدشات خافتة من التقاليد الشعبية لا غير.

وكما جرت عليه العادة، سنبدأ باستعراض موجز لتاريخ الدولة العبيدية، ثم ننظر في تقييمها، وما كان لها من الحسنات والسيئات، ثم لدينا وقفة مع عدد من الأمور التي يحتاج إليها العاملون لهذا الدين، إذ حفل تاريخ هذه الدولة بما يجب التوقف عنده طويلاً.



موجز تاريخ الدولة العبيدية

قامت العديد من الدول الشيعية أو التي فيها ميل إلى التشيع، كالزيدية في طبرستان وفي اليمن والأدرسة في المغرب الأقصى، وغيرها، ولم يَثُرْ خلافٌ على نسب هؤلاء إلى البيت النبوي، ولم يَرْمِهِم العباسيون ولا الأمويون بانتحال النسب الشريف، لكن هذه التهمة كانت قوية جدا وحاضرة في حال العبيديين، إذ لم يسلم العباسيون ولا الأمويون في الأندلس بصحة هذه النسبة، وظل هذا النسب موضع شك وتهمة منذ قامت دولتهم وحتى يوم الناس هذا.

وإذا استثنينا المؤرخين الذين كانوا مقربين من العبيديين، أو كتبوا في ظل دولتهم، فليس في المؤرخين المعبرين مَنْ قَبِلَ بانتسابهم إلى البيت النبوي إلا ثلاثة: ابن الأثير، وابن خلدون، والمقرئزي. ولكل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة دافعٌ نفسي عاطفي أو دافع نظري عقلي يرى أنه قد حمّله على تقبل هذا النسب بغير دليل كافٍ على صحته^(١).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٤٤٦/٦ وما بعدها؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط ٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ٢٧/١؛ المقرئزي، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال ومحمد حلمي، ط ٢

على أن الذي يهمننا الآن، ونحن نستعرض هذا التاريخ، ليس تحقيق مسألة النسب، بل قراءة تاريخها باعتبارها تجربة ناجحة في الدعوة وفي إقامة الدولة، وهذا هو عملنا في هذه «الخلاصة» كلها، ولكن حيث كان لا بد من اعتماد تسمية نشير بها إلى هذه الدولة، وحيث كان الراجح هو انتحالهم هذا النسب، فإننا سنجري على استعمال لفظ «الدولة العبيدية»، نسبة إلى مؤسسها وإمامها الأول: عبيد الله الذي تلقب بالمهدي. وهذا هو الأغلب، لكن ربما جرى القلم بلفظ «الدولة الفاطمية» لغرضٍ ما، أو جريا على قاعدة:

=

(القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٦م)، ١٦/١، ١٧؛ فأما ابن الأثير فيفسر موقفه بأنه فيه تشيعٌ وفيه انحراف عن صلاح الدين، وهو موصليّ وزنكي الهوي، والموصل قد خُطب فيها للعبيديين وصلاح الدين قد أزال الدولة الزنكية من الشام بعد وفاة نور الدين، فيرى الزنكيون أنه خانهم وانقلب عليهم، ولا ريب أن الحق مع صلاح الدين الذي كان لا بد أن يفعل هذا وإلا تعرض إرث نور الدين ومشروعه الجهادي إلى الضياع. وأما ابن خلدون فهو صاحب قاعدة أنه لا يمكن أن يتولى القوم من كان لصيقا بهم بل لا بد أن يكون صريح النسب من صميمهم، وإجراء لهذه القاعدة فقد تعذر عليه أن يقبل احتمال أن يكون رؤوس الدعوة الإسماعيلية غير صريحي النسب، وكلام ابن خلدون صحيح في العادة ولكنه يُحتمل أن يُخرق في ظروف وأجواء الدعوات الباطنية وتنظيماتها السرية، فليس يتوفر فيها ما يتوفر عادة لدى الناس من الشهرة التي يستحيل معها انتحال النسب، وكذلك يرى ابن خلدون أن ما بلغته الدولة من القوة وكثرة الأتباع والأشباع وتملكها الحجاز ومكة والمدينة، وما كان من مطاردة العباسيين لأوائهم، يرى ابن خلدون أن كل هذا دليل على صحة نسبهم، والواقع أن هذا ليس بدليل! وأما المقرئ فهو شيخ مؤرخي مصر على الإطلاق، ويصعب على المؤرخ المصري أن يقرر بقاء بلاده التي ارتبط بها -لا سيما وهي كنانة الإسلام- قرنين تحت حكم المدعين الباطنية، وقد تأثر في هذا بشيخه ابن خلدون، وقد قيل أيضا إن المقرئ نفسه ينتمي إلى العبيديين. انظر: ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: د. علي عمر، ط ١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٨م)، ص ٢٣٧. على أن ابن حجر -أحسبه- قد ظلم ابن خلدون في كلامه هنا.

وليس ها هنا موضع تحقيق ذلك وتحريره، ولكن القصد أن هؤلاء المؤرخين الكبار الذين خالفوا وزعموا صحة نسب العبيديين، وشذوا بذلك عن الموقف العام، لم تكن معهم أدلة في إثبات النسب الشريف، وإنما كانت أقرب إلى العاطفية.

خطأ مشهور أوصل للمقصود من صواب مجهول.

ولتسهيل استيعاب هذا التاريخ الموجز، سنقسم تاريخ الدولة العبيدية إلى أربعة مراحل:

١. مرحلة التنظيم السري والإعداد، وهي التي تسبق ظهور الدولة على مسرح التاريخ
٢. مرحلة تأسيس الدولة، وفيه رجالها وخلفاؤها الكبار الذين مهدوا لها، ثم أصابوا هدفهم الكبير بالاستيلاء على مصر وضمها إليهم
٣. مرحلة القوة والازدهار، والتي تبدأ من إقامة عاصمتهم الجديدة (القاهرة) وحتى بداية الانحدار

٤. مرحلة الأفول والسقوط، ويبدأ من بداية ما يُعرف بـ «عصر الوزراء» حيث صار الخلفاء ضعفاء في ظل وزراء أقوياء قابضين على أزمّة الحكم، ينقلب بعضهم على بعض، حتى إنهاء الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي

١. التنظيم السري والإعداد

ككل دعوة سرية، اجتهد أصحابها في إخفاء عملهم عن الناس ولا سيما السلطة القائمة، وهذه الفترات الغامضة هي التي يُغرى بها المؤرخون الذين يفتشون في المصادر والوثائق والمخطوطات، وتعمل عقولهم في شغف لمحاولة تكوين صورة واضحة عن هذه الفترة الغامضة والحقائق المجهولة، ويجتهد كل منهم في التخيل وملء الفراغات والتحليل بحسب ما وُهب من الموهبة. وما من شك في أن كل قصة إقامة دولة حافلة بالصعاب والمفاجآت المثيرة والكفاح المضني، ولكن هذا التنقيب في المجهول الغامض

ليس هو مما يعنينا في هذه «الخلاصة»^(١)، وإنما الذي يعنينا هو فهم ركائز هذا الإعداد والتنظيم السري الذي يظل عاملا حتى يصل به إلى تأسيس الدولة.

ولم يكن التنظيم العبيدي بدعا من التنظيمات السرية التي أسست دولا، فقد تكررت فيها العناصر الأساسية في هذه التجربة:

(١) الفكرة والرسالة

أول هذه الركائز هي: الفكرة أو الدعوة أو الرسالة، ولم تكن الدولة العبيدية بدعا من المحاولات الشيعية التي قامت على ضرورة أن يتولى الخلافة رجل من آل البيت من أبناء فاطمة وعلي، فالخلافة بزعمهم حق موروث لعلي وبنيه من فاطمة، وقد غُصِبَ عليٌّ ظلما وعدوانا، ويزعمون أن أئمة آل البيت قد اختُصُّوا بعلم لا يعلمه غيرهم، وبِصِلَةٍ مع الله ليست لغيرهم، وقد ظَلَمُوا مظالم لم يُنْكَبْ بها غيرهم على يد الطغاة الأمويين والعباسيين، وقد بالغ الشيعة في كل هذا مبالغات هائلة، لكن خلاصة ذلك كله هو تجنيد وحشد الأتباع لنصرة أئمة آل البيت وإعادة الخلافة إليهم.

ويزيد في قوة الفكرة وقدرتها على شحذ الهمم وجذب الأفراد أن تكون مرتبطة بنبوءة يرى معها أهلها أنها منتصرة لا محالة وظاهرة ظهورا حتميا، وهذه الفكرة التي قامت عليها الدولة العبيدية هي فكرة المهدي^(٢) الذي يخرج من آل بيت النبي ﷺ فيملا الأرض عدلا

(١) للتوسع في أخبار الدعوة والتنظيم السري، انظر: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد، ط ١ (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢م)، ص ٤١ وما بعدها.

(٢) عقيدة المهدي عقيدة صحيحة، وهي عند أهل السنة والجماعة، وأحاديث المهدي بلغت حد التواتر المعنوي، فهي صحيحة، والمهدي رجل من آل بيت النبي ﷺ يأتي في آخر الزمان ويتولى أمر المسلمين، ويحكم فيهم بالعدل

بعدما ملئت جوراً. وهم في هذا يشبهون العباسيين الذين قام تنظيمهم ودعوتهم على نفس الفكرة، وإن كان العباسيون من أهل السنة، أما هؤلاء فقد كانوا من غلاة الشيعة.

ولا ريب أن أقوى الأفكار وأكثرها قدرة على إنشاء دولة هي التي ترتبط بالدين، وهذه ظاهرة إنسانية عامة^(١)، ثم تلك الأفكار التي ترتبط بحتمية النصر، وهذا من أهم ركائز قوة الدعوة والتنظيم العبيدي الفاطمي.

كذلك تزيد قوة الفكرة وبريقها حين تفشل الأفكار المنافسة لها، وتلك ظاهرة مشهودة في تاريخ البشر^(٢)، وقد وقع هذا للدعوة الإسماعيلية، فلقد كانت الوفاة المبكرة للإمام الثاني عشر لدى الشيعة الإمامية، وهو لا يزال طفلاً، دون ولدي إرث الإمامة منه، مما صرف كثيراً من الشيعة إلى الفرع الإسماعيلي، لقد ظهر في هذه الحال أن فكرتهم هي الأصح بانتقال الإمامة من جعفر إلى ولده إسماعيل الذي لا تزال له ذرية وعقب! وهؤلاء الذين انتقلوا من الإمامية إلى الإسماعيلية هم ركائز الدولة المرتقبة^(٣)!

=

والشريعة، وهو من علامات الساعة، فيكون زمانه قبيل نهاية العالم وعند نزول عيسى بن مريم عليه السلام. هذا هو القدر الصحيح من الموضوع، لكن الفرق الشيعية ضخمت فيه ووسعته وبالغت فيه حتى صار بدعة عظيمة. (١) راجع ما ذكرناه في الفصل الأول من هذه الخلاصة، لدى حديثنا عن «الفترة المكية» تحت عنوان: «الإيمان العميق بالفكرة».

(٢) في زماننا القريب هذا نرى كيف أن انتشار الفقر والظلم والطبقية قد ساهم في تألق الشيوعية ونجاحها، فلما انهارت الشيوعية وما كانت عليه من الطغيان والعنف ولم تحقق المساواة ولا حفظت حقوق الفقراء زاد تألق الليبرالية الرأسمالية. وإذا ضيقنا دائرة النظر، فنحن نرى كيف أن نجاح الحركات السياسية في الانتخابات أو الثورات السلمية يسلب من حظوظ الحركات الثورية والجهادية، فإذا أخفقت الحركات والثورات السلمية ازداد تألق الحركات الجهادية واهتمر عليها الأنصار... وهكذا.

(٣) محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية: تاريخها نظمها عقائدها، ط ١ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م)، ص ٢١؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٤٢.

(٢) القائد الموهوب

وثاني هذه الركائز هي الشخصيات القوية والموهوبة التي تحمل الفكرة وتعمل لها بسعي ودأب لا يعرف الكلل ولا الملل، وقد ظهرت هذه الشخصيات في التنظيمات الثلاثة التي انقسمت إليها الحركة الإسماعيلية، والتي أزهقت الخلافة العباسية زمانا طويلا. وقد ذكرنا طرفا من هذا لدى حديثنا عن الدولة العباسية في عصر الضعف، والذي يهمننا الآن هو هذا المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية والذي كان في قرية سلمية قرب اللاذقية، بزعامة عبيد الله بن ميمون القداح، فلقد استطاع هذا أن يجد من الرجال رجلا فريد الطراز عظيم الموهبة، يعرف باسم أبي عبد الله الشيعي، فأرسله من الشام إلى اليمن التي كانت مركزا قويا للدعوة الإسماعيلية، إلا أنها لم تكن مؤثرة في سياق الحكم والسياسة لبعد اليمن وطبيعتها الجغرافية التي تجعلها شبه معزولة عن بقية العالم الإسلامي.

تعلم أبو عبد الله الشيعي وتشرب أصول الدعوة، وهناك وجَّهه صاحب الدعوة في اليمن إلى المغرب (٢٨٨هـ)، فقد قدَّر أن هذه الناحية تحتاج عملا دعويا مبنيا على مجهود سابق، ضمن عمل الحركة الإسماعيلية في نشر دعوتها في كافة مناطق العالم الإسلامي، فخرج أبو عبد الله الشيعي من اليمن، فلقي في طريقه حجاجا من قبيلة كتامة المنتشرة بإفريقية والمغرب، فكانوا هم محل دعوته، واستطاع بموهبته أن يتزعمهم وينشر فيهم الدعوة، وجعلهم قوته وأنصاره وشوكته ورجاله، وسرعان ما تهيأت المغرب لأن تكون مركزا جديدا وقويا للحركة الإسماعيلية.

يُذكر أبو عبد الله الشيعي بأبي مسلم الخراساني، رجل الدولة العباسية، غير أن الإنصاف يقتضي أن يُقال بأن أبا عبد الله الشيعي كان أعلى في الموهبة والمهارة من أبي مسلم، فأبو مسلم تولى تنظيما عاملا وفعالا يقوده رهط من النقباء القدامى، فخرج به من

التنظيم السري إلى الجيش الكبير الذي قوّض دولة بني أمية، أما أبو عبد الله الشيعي فخرج وحده، ولم يقدم على تنظيم فعال، فكان موهوبا في الدعوة والحركة، زعيما معنويا وسياسيا في آن واحد، وقد استطاع في زمن وجيز، ثلاث سنوات (٢٨٨ - ٢٩١ هـ)، أن يُحوّل قبيلة تكاد تكون مجهولة ومغمورة إلى شوكة عظيمة تُقوّض دُولاً وتقيم دولة كبيرة وخطيرة. ولذلك قال فيه المقرئزي: «كان أبو عبد الله من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال»^(١).

(٣) العصبية والشوكة

وثالث هذه الركائز هي العصبية القوية التي تحمل الفكرة وتصير لها أنصارا، فما من رجل واحد يستطيع أن يفعل كل شيء وحده، ولا بد حتى للأنبياء من حواريين وأنصار، ولا بد للدولة من شوكة تقوم عليها وعصبية تمسك بها، ولقد كان الكتاميون هم عصبية الدولة العبيدية وشوكتها.

ويجمل المؤرخون عددا من الأسباب التي جعلت قبيلة كتامة مناسبة لتقبل هذه الدعوة الشيعية الإسماعيلية، منها:

١. ما يوجد في الشمال الإفريقي من أفكار شيعية، ودولة مثل الأدارسة يقودها نسل من آل البيت، فهي بيئة ممهدة، وهذا فضلا عن الدعاة السابقين للأفكار الشيعية حتى من

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفاء، ٦٨/١.

لم ينجح منهم في تأسيس دولة، أو من كان منهم مجرد هارب من العباسيين في المشرق^(١)!

- ما يكون في هذه القبائل من الجهل الذي يمكن معه للداعية الموهوب استلاب عقولهم والتلاعب بأفكارهم، لا سيما إن كان في هؤلاء الناس ميل إلى الخرافات^(٢)، وقد قيل عن انتشار التشيع في اليمن «بعيدة عن مركز الخلافة العباسية، والظروف السياسية مواتية بها لأن بذرة التشيع قد سبقت هذه الدعوة، ولجهل أهل البادية وسذاجتهم»^(٣)، وكان من سياسة الدعوة الإسماعيلية أن تدخل للناس من مسائل مشتبهة وملتبسة من غوامض العلم ودقائقه، كي تؤسس لمبدئها الأساسي من أن هذا الدين له ظاهر وباطن، وأن باطنه وحقيقته لا يعرفه غير الأئمة، وغير المقربين من الأئمة^(٤)!

٢. بُعد هذه المنطقة عن قبضة السلطة السياسية (الخلافة العباسية في حالتنا هذه) مما يجعل حضور السلطة ضعيفا، ويجعل القدرة على التمرد عليها ممكنة، وهذا ما تمتع به مركزي الدعوة في اليمن وفي المغرب.

٣. ما يكون لدى هذه القبيلة أو بعض زعمائها من الطموح لتكون لهم دولة فيجدون في هذه الدعوة سبيلا وراية ليقيموا بها دولتهم، ومنها غير ذلك.

(١) ذكر اليعقوبي وقد طاف بمنطقة المغرب قبيل قيام الدولة العبيدية بثلاثين سنة تقريبا، بعض الإمارات والبلدات التي تغلب عليها أمراء علويون في هذه الأنحاء، ولم تكن دولة مشهورة، انظر: اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه: محمد ضناوي، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م)، ص ١٩١ وما بعدها.

(٢) ستانلي لين بول، تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة: د. أحمد سالم سالم، ط ٥ (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، أغسطس ٢٠١٧م)، ص ٢٠٤، ٢١١.

(٣) الحمادي، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق: محمد الأكوع الحوالي، ط ١ (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٤م)، ص ٢١ (مقدمة الحوالي).

(٤) انظر في هذه الأسئلة وطريقة تدرج الدعاة العبيديين: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٦٠ وما بعدها؛ محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص ١٣٤ وما بعدها.

ونرى هنا تكررًا في مشهد الدعوات والحركات والتنظيمات السرية، إذ تختار الحاضنة المناسبة في المكان البعيد جغرافيًا عن قبضة السلطة، فالعباسيون قد اختاروا خراسان لبعدها الجغرافي وتأثرها بالبيئة الفارسية والدعوة لآل البيت، وكذلك ما فعله الزيديون في طبرستان، والأداسة في المغرب الأقصى، وغيرهم.

ويجب الانتباه إلى أن العصبية والشوكة تكون قوة طبيعية في المجتمع، وليست شيئًا يُصنع من البداية أو يُكوّن من جديد، وهذا أمر فارق من المهم أن تتنبه إليه الحركات الإسلامية، فإن من دروس العمل الحركي خلال القرن الماضي أن محاولة تكوين تنظيم لا يستند إلى عصبية وقوة طبيعية في المجتمع سيكون مآله إلى الإخفاق، والتجارب الناجحة يمكن أن نسميها تجارب استيلاء على قوة طبيعية موجودة في المجتمع، كقبيلة، أو شبكة مصالح، أو الاستيلاء على الجيش (والجيش هو شوكة الدولة الحديثة في الأغلب). وقد طلب النبي ﷺ النصر من القبائل ولم يسع في تفكيكها لبناء دولته على أنقاضها، بل هو إن وجد صدودًا من زعماء القبائل -الذين هم مفاتيح قبائلهم- عاد عنهم وذهب إلى غيرهم، ولما أنعم الله على نبيه بالأنصار، اعتمد النبي ﷺ على شوكة الأنصار وذهب إليهم في بلدهم فأقام بين ظهرانيهم. فالخلاصة: أن القوة والعصبية التي تستند إليها الحركة وتقوم عليها الدولة تكون قوة طبيعية موجودة وقائمة في هذا المجتمع، وليست مصنوعة من جديد، ويكون انضواؤها تحت لواء الدعوة والحركة غالبًا عبر النجاح في إقناع زعماء هذه القبائل أو الشخصيات المؤثرة في نظام الحكم أو الجيش بمبادئ الدعوة والحركة.

(٤) سؤال الزمان والمكان

ما إن يتيسر لأصحاب الحركة، رجال الدعوة، الطامحين إلى الدولة هذه الركائز الثلاثة: الفكرة، القيادة والشخصيات الموهوبة، والعصبية، حتى يظهر لهم السؤالان

الكبيران والأخيران: المكان والزمان؛ أي: أين تكون عاصمة الدولة؟ ومتى نبدأ الحرب لتأسيسها والإعلان عنها؟

وقد كان هذان السؤالان: سؤال الزمان والمكان، هما أول ما تسبب في انقسام الحركة الإسماعيلية إلى ثلاثة أقسام على الأقل؛ لقد كان مركز الحركة الإسماعيلية في قرية سلمية قرب اللاذقية في الشام، وكانوا يُقسَّمون العالم الإسلامي إلى جزر (أقسام)، يرسلون إلى كلٍّ منها داعية أو أكثر يكون مركزا للدعوة فيها، ويرتبط الدعاة بشخصية قريبة من الإمام هو داعي الدعاة.

وقد حققت الحركة الإسماعيلية نتائجها الأبرز في اليمن وفي المغرب، أي في المنطقتين الأبعد عن نفوذ الخلافة العباسية، ومع أن الخلافة العباسية كانت تعيش في عصر الضعف، إلا أن النصف الثاني من القرن الثالث الهجري قد شهد ما يُعرف بفترة صحوة الخلافة، حيث كان الموفق بالله ثم ابنه المعتضد بالله ثم حفيده المكتفي بالله خلفاء أقوياء تمكنوا من القضاء على ثورة الزنج وعلى الحركة الصفارية وعلى الدولة الطولونية (كما أسلفنا ذكره من قبل)، وفيما يتعلق بموضوعنا الآن، فقد استطاع أولئك تسديد ضربات قوية وقاتلة للحركة الإسماعيلية في مراكزها القريبة: في الشام والعراق وشرق الجزيرة العربية.

ومن هنا بدأ يبرز الانقسام بين أجنحة الحركة الإسماعيلية، لقد اتخذ مركز الحركة الإسماعيلية في سلمية وضع الهدوء والسكون، ولما شعر بالتهديد يكاد يصل إليه قرر إمامه عبيد الله المهدي أن ينتقل إلى اليمن، إلا أنه كاد أن ينكشف في أثناء رحلته فعدل عن ذلك وخرج إلى المغرب هروبا من المطاردة العباسية، وهذا الخروج إلى المغرب تسبب في انشقاق كبير دعائه وأقرب المقربين إليه، وسنعود إلى ذلك بعد قليل.

وأما مركز العراق، فقد آلت زعامته إلى حمدان، وهو الشخصية المشهورة الخطيرة التي غلب عليها لقب «قرمط» فعُرف أتباعه بالقرامطة، واستطاع هذا أن يثير حركة خطيرة

في العراق (٢٨٩هـ)، وكان قبل أن يظهر أمره قد استطاع أن يتمدد وينشئ مركزاً ثالثاً في شرق الجزيرة العربية، وهذا المركز بدأ في معاركه مع الخلافة (٢٨٦هـ)، ولكن النتائج الحاسمة كانت لصالح جيش الخلافة الذي سدد لهم ضربات قاصمة، فخدمت جبهة العراق منذ (٢٨٩هـ)، ثم خدمت جبهة الأحساء في شرق الجزيرة العربية منذ (٢٩٠هـ) بعد أربع سنوات من المعارك، وقد استطاع زكرويه بن مهرويه الفارسي إحياء نشاط القرامطة مرة أخرى في العراق وفي الشام، وحقق نتائج خطيرة كإقتحام دمشق (٢٩٠هـ) ولكنه قُتل أمام جيش للخلافة (٢٩٤هـ) وخدمت حركته.

إذن، وأمام هذه النتائج، لا بد لمركز الحركة الإسماعيلية في سلمية وإمامها عبيد الله المهدي أن يرى بأن الوقت لم يحن بعد للحركة وتأسيس الدولة، وأن المكان يجب أن يكون أبعد عن قبضة الخلافة العباسية من الشام والعراق وشرق الجزيرة العربية. ولذلك حين اقترب منه الخطر وشعر أن العباسيين يبحثون عنه في سلمية، قرر أن ينتقل إلى اليمن، فلما شعر أن خبره قد عُرف حوّل وجهته إلى المغرب. فكلاهما مكان بعيد، وكلاهما فيه أنصار كثير للحركة.

هذا القرار منه تسبب في انشقاق كبير دعائه وأقرب أصحابه إليه، فلئن كان قرار عبيد الله المهدي أكثر واقعية وعملية، فهو خطأ استراتيجي بعيد، فإن إقامة دولة في اليمن أو في المغرب يُصعّب مهمة الدعوة في إزالة الخلافة العباسية، ويجعلها بعيدة المتناول، وإن آخر ما يُستطاع في البلد البعيدة تأسيس دولة منعزلة ومستقلة ولكنها لا تمثل خطراً على العباسيين ولا تستطيع أن تحتمي منهم ولو طال عليها العمر، ولو رجعنا بالزمن إلى زمانهم لرأينا واضحاً أن الدول البعيدة مثل الأمويين في الأندلس ودول الأدارسة في المغرب والزيدية في طبرستان وغيرها ظلت معزولة وبعيدة ولم تتمكن من تهديد الخلافة العباسية ولا التفكير في إزالتها، ولم تنج أيضاً من محاولات العباسيين إنهاءها!

وفي النهاية انتصر عبيد الله المهدي، وتمكن بالفعل من تأسيس دولته التي عاشت

قرنين من الزمان، ولكنها عجزت أن تقتحم بغداد وأن تنهي الخلافة العباسية رغم محاولاتها المتكررة والمضنية، واستطاع العباسيون إنهاءها بالفعل. وأما المنشقون عليه فلم نسمع لهم حسا ولا نعرف لهم خبرا، ربما كانوا أحسن في توقع المآلات البعيدة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا حلمهم في صورته المثلى، ولم يتمكنوا من إقامة دولة قوية في جوار العباسيين تستطيع إنهاءهم، رغم محاولاتهم المضنية والمتكررة أيضا.

لو لم تشهد الخلافة العباسية عصر «صحوة الخلافة» في ظل هؤلاء الثلاثة: الموفق بالله والمعتضد بالله والمكتفي بالله، لكانت الخلافة العباسية قد انتهت حتما، وكانت الحركة الإسماعيلية قد أزلتها، لقد كانت قوتها في العراق والشام وشرق الجزيرة في غاية الخطورة، فضلا عن الصعوبات والتمردات الأخرى التي واجهتها الخلافة العباسية آنذاك. ولكن هؤلاء الثلاثة استطاعوا تحطيم الموجهة الإسماعيلية العاتية، واستطاعوا تمزيقها إلى أجنحة، حتى كانت أقوى المحاولات هي التي نشأت بعيدا في المغرب.

وإذن، انقسمت الحركة الإسماعيلية أمام سؤال الزمان: نتحرك الآن أم نبقى في الهدوء والسكون حتى تأتي الفرصة الأنسب؟ وسؤال المكان: نبدأ الآن في الجهة البعيدة أم نبدأ بعد زمن في الجهة القريبة؟ وهذا النوع من الأسئلة هو الذي يواجه سائر حركات التغيير في كل مرة، ولا يستطيع الإجابة عليه إلا الأذكياء المبصرون من أهل العمل، أولئك الذين يحسنون التقدير والتدبير وحسبة الظروف والمآلات، ويخفق فيه من لم يتمتع بهذه الصفات.

٢. تأسيس الدولة

خرج عبيد الله المهدي إلى المغرب، وبينما يلتمس الطريق إلى أنصاره وشوخته إذا به يقع في أسر آخر أمراء الدولة المدرازية، وينزل سجن سجلماسة، لكن داعيته الموهوب أبا عبد الله الشيعي كان يقود في ذلك الوقت جيوش كتامة ويحطم بهم دولة الأغالبة، ويقتحم

عاصمتها، ثم يأتيه خبر سجن إمامه، فينهض لاقتحام سجلماسة ويستنقذ إمامه، فيعود به ظافرا مظفرا، ويدخل به مدينة رقادة لتكون أول عاصمة للدولة الجديدة (٢٩٧هـ)!

(١) عبيد الله المهدي

ككل دولة في أول أمرها، وضعت السيف وانتصرت بالرعب ولم تنهون قيد شعرة في تحطيم خصومها وتدمير الدول التي قامت على أنقاضها، وبلغت في هذا أقصى ما استطاعت، فتأسست سلطة المهدي على الخوف أكثر من الإيمان، ذلك الخوف الذي وُلد عبر «اعتداءات فظيعة وأعمال وحشية»^(١).

ومع أن الدولة العبيدية بذلت جهدا عظيما في تثبيت نفسها في أنحاء المغرب، إلا أن الهاجس الملح الذي كان يسيطر على تفكير قادتها هو التحرك شرقا نحو مصر ثم الشام ثم العراق واقتحام بغداد وإزالة الخلافة العباسية، ولا بد أن سبب الانشقاق بين عبيد الله وكبير دعائه كان حاضرا دائما، لقد استطاع عبيد الله أن يقيم دولته بالفعل، ولكنه إذا لم يستطع أن يتمدد بها إلى بغداد فلن يكون أبدا إلا دولة مستقلة ولن يكون خلافة حاکمة للمسلمين مهما طال به الزمن.

تحطمت أحلام عبيد الله المهدي وبنه على صخرة ضخمة، هذه الصخرة هي الدولة الإخشيدية التي كانت تحكم مصر والشام، لقد استطاع العباسيون ثم أتباعهم الإخشيديون صدّ المحاولات الفاطمية في التمدد إلى مصر ثلاث مرات (٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٦هـ)، ولم يستطع العبيديون (الفاطيون) احتلال مصر إلا بعد نصف قرن من قيام دولتهم، وفي عهد خليفتهم الرابع: المعز لدين الله! وهذا أمرٌ سنأتي إليه فيما بعد.

(١) ستانلي لين بول، تاريخ مصر، ص ٢١١.

وإذن، استطاع عبيد الله المهدي أن يقيم دولته بشوكة قبيلة كتامة، وأن يفرض نفوذه في أنحاء المغرب، فأزال الدولة الرستمية، وخضعت له الدولة المدراية والدولة الإدريسية، ووقعت مناقشات بينه وبين الإمارة الأموية في الأندلس، وفيها بث جواسيسه ودعائه واتصل بعمر بن حفصون المرتد إلى النصرانية والخارج على الأمير الأموي^(١)، وكانت هذه الإمارة تعيش عصرها الذهبي مع عبد الرحمن الناصر الذي بلغت قوته ونفوذه أنحاء المغرب، وكان يسيطر مباشرة على مدينتي سبتة وطنجة، فلم يستطع المهدي أن يزيل هذا النفوذ، ولا أن يتمدد إلى الأندلس، ولكنه تمدد إلى صقلية وورثها من الأغلبة!

وهذا الوضع يُدْكَرنا من جديد بما ذكرناه من قبل^(٢) عن ظاهرة الدول المستقلة، فلقد استفادت الدولة العبيدية (الفاطمية) من حال التمزق والفرقة التي عانت منها الخلافة العباسية لا سيما في المغرب العربي، وهذا ما أتاح لها فرصة الظهور القوي والدخول على التناقضات بينها، ولكنها في ذات الوقت عانت كذلك منها، فإن بعض هذه الدول هو ما عرقل تمدد العبيديين مثل الإخشيديين في مصر والحمدانيين في الشام، وأنهك قوتها أيضا في المغرب والمشرق. ومن أغرب ما وقع في هذا أن القرامطة، وهم بالأصل فرع من الدعوة الإسماعيلية، كان فرعهم في البحرين قد بزغ بزوغا خطيرا في زمن المهدي، وقد أعلنوا أنهم في طاعته، إلا أن الأحداث تطورت حتى وقع القتال الميرير بينهم في مرحلة لاحقة! ولقد كان من فضل الله على المسلمين أن هيا لهم الدولة الإخشيدية القوية، وأن يقع الخلف بين العبيديين في المغرب والقرامطة، فلو لا هذا لكانت النتائج تكون شنيعة!

ولأن الحكم لا يقبل الشُّركة، ولا يجتمع سيفان في غمد - كما قال عمر بن الخطاب

(١) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، (بيروت: دار النهضة العربية، د. ت)، ص ٢٣٥ وما بعدها؛

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) راجع الفصل التاسع: مدخل إلى ظاهرة الدول المستقلة.

رضي الله عنه - فلقد قتل الخليفة الأول عبيد الله المهدي، داعيته الأكبر ورجله الأول وقائده الموهوب أبا عبد الله الشيعي، ذلك الذي مهّد له البلاد وجنّد له العباد وقاد لأجله الجيوش، ولولاه لكان طريدا يبحث عن مخبأ من العباسيين، أو نزيلا في سجن سجلماسة! وهو ما يُذكر أيضا بقتل أبي سلمة الخلال ثم أبي مسلم الخراساني على يدي أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور. ولا يُعرف على وجه التحديد ما الذي حمله على هذا، ولكن توقع ذلك لا يُستغرب، فإن الداعية الموهوب الذي أقام الدولة يرى نفسه شريكا إن لم ير نفسه صاحب الأمر على الحقيقة، وهذا أمر لا يحتمله صاحب السلطان الذي يرى أن الدعوة له بحق النسب والشرف وإنشاء الحركة ومعاناة أهوال الترتيب والتدبير وأهوال التخفي والمطاردات، ولولا هذا النسب والشرف وطول التنظيم والتدبير ما كان هذا الداعي ليفعل شيئا^(١)!

وتخير المهدي مكانا حصينا اتخذ منه عاصمة لنفسه، بنى فيه مدينة «المهدية» (٣٠٣هـ) على لسان على ساحل البحر المتوسط، يتمتع بحصانة بحرية، واستفاد فيه من بناء قديم ضخم للرومان، فكانت المدينة بمثابة الميناء البحري العسكري والعاصمة السياسية في آن واحد، وسكنها بعد تمام بنائها (٣٠٨هـ)، وقد أفاده ذلك من جهة الأمن بخروجه من معاقل لم تؤمن بدعوته ولم تزل تقاومه وتهده^(٢)، وقربه من الساحل حيث مواطن الخطر البيزنطي الذي كان يسيطر على الجنوب الإيطالي، ويجعله في منتصف المسافة تقريبا بين الأندلس والشام مما هيا له سيطرة على خطوط التجارة المارة بين المشرق والمغرب في البحر. فكانت المهديّة قلعة سياسية وميناء بحريا عسكريا هو مركز

(١) انظر في قتله: المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ٦٧، ٦٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة،

١٩٩٧م)، ص ١٤٧.

الأسطول الفاطمي القوي!

ولأن العبيديين قد ورثوا من الأغالبة جزيرة صقلية، فقد كانوا عمليا يمسكون بمركز البحر المتوسط من أهم وأضيق نقطة فيه! فمن استطاع السيطرة على المسافة بين صقلية والمهدية فقد سيطر عمليا على طريق البحر كله!

قضى المهدي في الخلافة ربع قرن حفل بمهمات تأسيس الدولة وتأمينها، ثم توفي (٣٢٢هـ)، وخلفه ابنه أبو القاسم محمد، والذي تلقب بالقائم بأمر الله.

كان ينبغي أن تثير وفاة المهدي قبل أن يحكم العالم التساؤلات، وهو الأمر الذي تصدى له أهل الدولة ومنظروها، فزعموا من خلال المراوغات اللغوية والتأويلية أن مهمة هداية العالم إنما تتوزع على المهدي ونسله من بعده^(١).

(٢) القائم بأمر الله

لما مات المهدي «أحس أهل المغرب بزوال كابوسه الذي كان جاثما عليهم، فاستردوا كثيرا من حرياتهم، وأطلقوا العنان لثوراتهم»^(٢)، فوجد خليفته القائم بأمر الله نفسه أمام وضع خطير، إذ لم يفلح ربع قرن من الحكم، وقبله عشر سنوات من عمل الدعوة، أن يجعل المغرب خاضعا، فلقد افتتح عهده ثورة تجددت في المغرب الأقصى (٣٢٣هـ) بقيادة والي المغرب موسى بن أبي العافية، والذي كان قد أخدمت ثورته زمن المهدي، فأرسل له القائم جيشا أحمد ثورته من جديد، واندلعت ثورة أخرى في الشرق قادها رجل اسمه طالوت القرشي زعم أنه ابن المهدي، وثورة ثالثة في فاس.

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/٧٨٦.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر، ص ١٥٦.

لكن الأخطر من هذه الثورات جميعاً تلك الثورة التي اندلعت بعد عشر سنوات (٣٣٣هـ) في مدينة توزر، جنوبي تونس، قريباً من مركز الدولة العبيدية، وهي ثورة الخارجي أبي يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناتة، والتي سرعان ما انتشرت حتى حاصرت «المهدية» عاصمة الدولة! واجتمعت لهذه الثورة بعض أسباب النجاح منها: شدة الاختلاف بين فكر الخوارج الذي يعتنقه أبو يزيد وبين الفكر الإسماعيلي الشيعي، ولقد انضم إليه في هذه الثورة أهل السنة وعلماءهم لما شهدوه من محاولات العبيديين نشر مذهبهم الباطل في المغرب السني، ومنها: العامل القبلي الذي عانت من قبيلة زناتة بعد ارتفاع الكتاميين وسطوتهم، ومنها: سخط الناس على الضرائب والمكوس التي فرضها العبيديون وخاضوا بها حروبهم وبنوا بها عاصمتهم وأسطولهم الضخم، وقد مات القائم دون أن يتمكن من إخماد هذه الثورة.

وفيما بين هاتين الموجتين من الثورات، حاول القائم التمديد من جديد إلى مصر (٣٠٦هـ)، إلا أنه أخفق من جديد! فحاول أن يستميل الإخشيد إليه^(١)، وقد حاول الإخشيد الاستفادة من هذا الوضع، لما كان من التنافس والعداوة بينه وبين أمراء بغداد المتغلبين على الخليفة، ولما كان بينه وبين الحمدانيين في الشام من الحروب، إلا أنه لم يدخل في طاعة العبيديين فعلياً^(٢)!

(٣) المنصور بالله

(١) انظر نص رسالته الرقيقة التي تودد فيها الخليفة العبيدي القائم غاية التودد إلى الإخشيد، عند: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر)، تحقيق: زكي محمد حسن وآخران، (القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م)، ص ١٧٥، ١٧٦.

(٢) عن علاقة الإخشيديين بالعبيديين، انظر: سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في عهد الإخشيديين، (القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠م)، ص ٣٦٠ وما بعدها.

قضى القائم في الخلافة اثنا عشرة سنة، وتوفي (٣٣٤هـ)، وخلفه ابنه إسماعيل الملقب بالمنصور الذي وجد نفسه أمام وضع خائق، فأخفى خبر موت أبيه، وركز جهده كله في مقاتلة أبي يزيد الخارجي، وقضى في ذلك سنتين عصبيتين حتى تمكن في النهاية من قتل أبي يزيد مستعينا بقوة القبائل الصنهاجية، وقد عاونه على ذلك نزق وشدة وعنف كانت لدى أبي يزيد مزقت حشود الذين اجتمعوا إليه في عداوة العبيديين، فتمزقت جبهته الداخلية وحاضنته الشعبية، فكان في ذلك هلاكه^(١)!

نقل المنصور عاصمة الدولة إلى مدينة جديدة، «المنصورية» قريبا من القيروان، لقد اكتشف فيما يبدو أن الأخطار الداخلية المحيطة به أهم من الأخطار الخارجية، وأن الأولى به البقاء في عاصمة قريبة من القبائل من بقائه في عاصمة على لسان البحر! وعوض هذا الانتقال باهتمامه بإنشاء أسطول قوي، وبعدهما نجح المنصور في القضاء على ثورة أبي يزيد لم يكن بينه وبين الموت إلا خمس سنوات، لم يبرز فيها شيء يستحق الذكر، فمات (٣٤١هـ) ليأتي ولده الذي سينقل الدولة العبيدية نقلة هائلة، ذلك هو ابنه تميم، أو «المعز لدين الله»!

٣. عصر الذروة والازدهار

يرى بعض المؤرخين أن العبيديين لم يحاولوا إطلاقا تنظيم جهودهم في المغرب ولا سعوا في إنشاء دولة مغربية ذات وحدة اقتصادية، وما ذلك إلا لأنهم يرون أنفسهم في مرحلة انتقالية تحملهم إلى مصر ثم إلى العراق^(٢). وهذا ما قد يفسر أن سياستهم

(١) انظر تبسيطا وشرحا واضحا لثورة أبي يزيد ومراحلها عند: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر، ص ١٥٧ وما بعدها.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٦٩.

الاقتصادية في المغرب اعتمدت على الجباية والضرائب التي «تفنونوا في تنويعها، حتى فرضوا على الحجاج جميعاً أن يَمروا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج»^(١)، ولذلك وُصفوا بأنهم «بطبعهم كانوا ذوي نهم غير عادي إلى الأموال»^(٢)، بينما ظهرت لهم سياسات اقتصادية منظمة في مصر.

(١) المعز لدين الله

تولى المعز لدين الله الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور (٣٤١هـ)، فإذا بالثورات تتجدد أمامه في المغرب الأقصى مرة أخرى، لقد كان الرسوخ السني والقوة القبلية ووجود الدولة الأموية القوية في الأندلس عوامل عميقة لم يتمكن العبيديون من معالجتها أبداً، ولذا كانت أولوية المعز لدين الله أن يقضي على هذه التمردات، وقد أخرجت له هذه الثورات ثمرة عظيمة، تلك هي قائده العسكري: جوهر الصقلي، الذي استطاع بموهبة عظيمة وذكاء نادر أن يحفر اسمه كأعظم قائد عسكري للفاطميين على الإطلاق، وكأحد أعظم القادة العسكريين في التاريخ الوسيط، وقد تمكن جوهر من إعادة سيطرة العبيديين على المغرب، ولكنه عجز أمام مدن الساحل التي يسيطر عليها الأمويون.

ولما استتب له أمر المغرب، كانت الصخرة الإخشيدية التي تحطمت عليها أحلام العبيديين القديمة قد انهارت، لقد انهارت الدولة الإخشيدية بعد وفاة أميرها القوي كافور الإخشيدي، ولم يخلفه أحدٌ مثله، بل ضربت الفوضى بين الأمراء الضعفاء، ثم زاد الطين بلة أن ضربت مصر مجاعة هائلة في ذلك الوقت، فشحت الموارد وقلّت الأموال وازداد ضعف الجيش الإخشيدي وتمزقه، وهرب بعض رجال الحاشية الإخشيدية إلى المعز

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر، ص ١٤٧.

(٢) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٧٩؛ وانظر: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٣٢٣.

لدين الله يغرونه بالدخول إلى مصر، وأبرز هؤلاء: الوزير اليهودي يعقوب بن كلس، الذي سيصير بعدئذ من أرفع رجال العبيديين مكانة وأوسعهم نفوذاً، وفوق ذلك فقد كان دعاة العبيديين وتنظيمهم السري يعملون في مصر منذ نصف قرن، ولديهم مركز تؤخذ فيه البيعة لخليفتهم، ورايات معدة لأن تُعقد وتنشر في اللحظة المناسبة، ولقد استطاع هؤلاء أن يستميلوا إليهم بعض الرجال والزعماء في مصر حتى لقد كاتب بعضهم المعز لدين الله يستدعيه إلى دخول مصر^(١).

ومن جهة أخرى فإن المعز يجد أسباباً أخرى تغريه بالانتقال عن المغرب؛ فبعد نصف قرن من تمهد الدولة لا تزال الثورات تتجدد ضده في أقصاها، وأوسطها، ولم تتمهد الأمور للدولة العبيدية في المغرب كما تمهدت من قبلهم للأدارسة مثلاً، وحتى قبيلة كتامة التي هي عصب الدولة وشوكتها لم تكن لهم كما يحبون، هذا بخلاف مقاومة المغرب وعلمائه المالكية أهل السنة للتشيع الإسماعيلي، لقد «عمّرت الدولة الفاطمية في إفريقية قرابة ٦٥ سنة هجرية كانت كلها متاعب وقلاقل وأزمات»^(٢)، وهذا ما يفسر سخط المعز لدين الله على أهل المغرب وقوله في ذلك: «والله ما ندري أي وجه نقصده بهم، فنجد فيه راحة مما نحاوله ونزاوله من أمرهم؟! ... وهم من سوء الحال وقلة الإنصاف منهم وعدم الخير فيهم في غاية المكروه»^(٣)، وقد تخوف والي العبيديين على المغرب من حجم التبعة، فقال للمعز: «يا مولانا: أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفوا لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتنني يا مولاي بلا سيف ولا رمح»^(٤).

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ١٠٢؛ المقرئزي، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط ٢ (بيروت: دار الغرب

الاسلامي، ٢٠٠٦)، ٣/ ٥٢، ٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٣/ ٣٢٦.

(٢) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ١٧٩؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٤٤.

(٣) القاضي النعمان، المجالس والمسائرات، ص ٥٠٧.

(٤) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ٩٩؛ المواعظ والاعتبار، ٢/ ١٨٩.

ولعل هذا يفسر أيضا إهمال العبيدين لأمر المغرب بعد انتقالهم إلى مصر^(١).

يضاف إلى ذلك أن بلاد المغرب ليس فيها من الأموال والموارد ما يكفي لتحقيق الأحلام الكبيرة والغايات البعيدة كغاية إسقاط خلافة العباسيين في بغداد، واضطرار الدولة إلى فرض الضرائب لتوفير الموارد يعود عليها بسخط الناس وتمردات القبائل، ولقد خرج المعز من المغرب وهو يوصي واليه عليها بهذه الوصية التي تدل على مبلغ حنقه على أهل المغرب ورفضهم إياه، وعلى مدى إرهابهم بالضرائب، قال المعز لبلكين بن زيري: «إن نسيت، ما وصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدا من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك»^(٢).

وقبل هذا وبعده، فلا بد من السيطرة على مصر، فهي في كل الأحوال: الطريق الوحيد إلى بغداد!

وهكذا اجتمعت الدوافع والمغريات أمام المعز لتكرار التجربة للمرة الرابعة، بعد إخفاق ثلاث مرات، وبعد أكثر من ثلث قرن من تاريخ المحاولة الأخيرة الفاشلة (٣٢٤هـ)!

أعدّ المعز أقوى جيش استطاع أن يجمعه، مائة ألف من المقاتلين، وعهد بقيادته إلى قائده الأثير الموهوب: جوهر الصقلي، وأنفق عليه سائر ما استطاع من الأموال^(٣)، فما

(١) عبد الحي شعبان، الدولة العباسية: الفاطميون، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨١م)، ص ٢٢٤، ٢٣٥؛ أيمن

فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٧٠، ٨٨.

(٢) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ١٠١.

(٣) بلغت بعض تقديرات المؤرخين للأموال المنفقة على غزو مصر أربعة وعشرين مليون دينار، انظر: المقرئزي،

اتعاظ الحنفا، ١/ ٩٧؛ المواعظ والاعتبار، ط ١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ٢/ ١٨٧.

كان مثله ليجهل مدى النقلة العظيمة التي ستنتقلها الدولة العبيدية بالسيطرة على مصر، ولقد رأى نفسه حينها قريبا من الحلم الكبير لآبائه، حلم إزالة الخلافة العباسية^(١)، دخل عليه يوما سفيرٌ من الدولة البيزنطية، فقال له المعز: أتذكر إذ أتيتني رسولا وأنا بالمهدية، فقلت لك: لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها؟ قال: نعم. قال المعز: وأنا أقول لك لتدخلن علي بغداد وأنا خليفة^(٢).

ولنا في موضوع مصر وقفةٌ في آخر هذا الفصل إن شاء الله، ونمضي الآن مع مسار والأحداث.

(٢) غزو مصر

خرج الجيش العرمرم، ولم يلق إلا مواجهات محدودة من بقايا الجيش الإخشيدي، وتمكن من دخول مصر، وقد كان جوهر ذا عقلية سياسية فوق موهبته العسكرية، وظهر هذا منذ الأيام الأولى، فقد جهد جوهر في أن يدخل إلى مصر بأقل قدر من المقاومة، ولتحقيق هذا فلقد أعلن أنه إنما جاء ليزيل الظلم والمكوس والضرائب والجائرة، وليسط العدل، وتعهد في أمانه الذي كتبه بخط يده لأهل مصر، ألا يتغير عليهم شيء في أمور دينهم، وألا يكرههم على المذهب الشيعي الإسماعيلي^(٣)، إلا أنه لم تمض سنة على هذا حتى عرف الجميع أنها كانت مخادعة وامتصاصا لتخوف أهل مصر وتخديرا لهم لئلا ينخرطوا في مقاومة الجيش العبيدي، فقد أمر المؤذنين بإضافة «حي على خير العمل»، وأمر الخطباء بترداد الصلاة على النبي ﷺ بصيغتها الشيعية، وفرض صيام مذهب رمضان

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ٩٦/١؛ المواعظ والاعتبار، ١٨٧/٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٦٠/٧؛ المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ٢٢٦/١.

(٣) انظر نص الوثيقة في: المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١٠٣/١ وما بعدها.

على مذهب الإسماعيلية، وهو يكون بالحساب لا برؤية الهلال ويكون دائما ثلاثين يوما، وجعل القضاء على فقه الطائفة الإسماعيلية.

حمل جوهر الفكرة العبيدية في أن حكم مصر ليس مجرد بلد يُضم إلى الدولة، بل هو انتقال إليها واتخاذها عاصمة، ومن هنا بدأ منذ أيامه الأولى في تأسيس المدينة الملكية والعاصمة الجديدة، فبدأ في وضع أساسها وتخطيطها، وهي التي ستُعرف فيما بعد بـ «القاهرة»، وأسس فيها الجامع الكبير الذي سيكون المعقل الدعوي للمذهب الإسماعيلي، وهو الذي سيُعرف فيما بعد بالجامع الأزهر، وضرب العملة في دار السكة التي كانت قد أغلقت فافتتحها باسم خليفته المعز لدين الله، وطفق يعمل بنشاط في الإمساك بجهاز الإدارة المصري، وقد كان جهازا كبيرا ومعقدا بالنسبة إلى ما كان في المغرب، فأخذ يتوغل إليه عبر وضع رجاله إلى جوار موظفي جهاز الإدارة القدماء، رجاء أن يتشربوا العمل فيستبدل رجاله بالموظفين القدامى، إلا أنه لم يفلح في ذلك، واتضح أن رجاله لم يجيدوا العمل ولم يكونوا منصاعين له بالقدر الذي يطلب، فبقي جهاز الإدارة عمليا في أيدي الموظفين السابقين.

ولم يكن هذا أول إخفاق يتعرض له جوهر، بل لقد كان الإخفاق الأشد هو فشله في حل المشكلة الاقتصادية التي تسببت بها المجاعة الكبرى، بل لقد زادت في عهده سوءا، ولم ينكشف الأمر قليلا إلا بعد ثلاث سنوات، وهذا أمرٌ مهم، لنا معه وقفة فيما بعد إن شاء الله.

(٣) التمدد إلى الشام

وبالموازاة مع هذه الأعمال المدنية لتأسيس العاصمة الجديدة، أرسل جوهر قائده العسكري جعفر بن فلاح إلى الشام للإسراع في ضمها، وهذا موقف طبيعي لأكثر من

وجه: فلقد كانت الشام تابعة للإخشيديين، والشام هي بوابة مصر التي لا يمكن لمن يسيطر على مصر إلا أن يسعى للسيطرة عليها كما هو الحال في الغالبية الساحقة من أحقاب التاريخ، والشام هي البوابة إلى العراق حيث الهدف الكبير المنتظر في إسقاط الخلافة العباسية.

وفي اللحظة التي كان جعفر بن فلاح يتقدم فيها إلى الشام، بدا وكأن الرياح تميل مع العبيديين كما يشاؤون، ففي ذلك الوقت كان الوضع كالاتي:

١. الدولة العباسية في حال مزرية من الضعف، وزاد من ضعفها أن استولى عليهم البويهيون، وهم شيعة كانوا على المذهب الزيدي ثم انتقلوا إلى المذهب الإمامي لغرض سياسي، وفكروا بالفعل في البيعة للخليفة العبيدي لولا أنهم خافوا على استقلالهم^(١)، وساعتها كان الخليفة العبيدي بعيدا في المغرب، فاحتفظوا باستقلالهم وبولاء اسمي للخلافة العباسية، لكنه أمرٌ يمكن أن يتغير حين تقترب منهم جيوش العبيديين!

٢. ثم إن هؤلاء البويهيين أنفسهم قد اندلعت بينهم النزاعات منذ عامين (٣٥٦هـ) بعد وفاة أمير العراق معز الدولة البويهي، والآن يتنازع ابنه عز الدولة مع ابن عمه عضد الدولة، وهذا ما يعطي أملا آخر في انحياز قسم منهم للعبيديين!

٣. وكذلك القرامطة الذين هم فرع قديم للإسماعيليين، فلقد كانوا يتمددون في الشام، ويسيطرون على جنوبها، وإمامهم يعترف بالطاعة للخليفة العبيدي بالفعل، وإن كان يحتفظ باستقلاله عمليا، لبعد المسافة، فها هم العبيديون قد صاروا قريبا وفي أرض الشام، فيصير انضواءهم تحت راية الخلافة العبيدية أملا قريبا، بل هو الواجب عليهم في مذهبهم.

(١) الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ص ١٤٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/ ٢٠٨.

٤. كذلك فإن الدولة الحمدانية، بفرعيها العراقي والشامي، قد أخذت في التدهور منذ (٣٥٦هـ) الذي شهد وفاة الرجل القوي سيف الدولة الحمداني زعيم الفرع الشامي، وفي (٣٥٨هـ) توفي الرجل القوي ناصر الدولة الحمداني زعيم الفرع العراقي، وورث كلا منهما خلف ضعاف تنازعوا وتقاتلوا، مما يجعل الطريق مفتوحا إلى الشام، ومفتوحا من الشام إلى العراق أيضا!

٥. وأخيرا فإن الروم البيزنطيين تراجعوا فجأة بعد تمدد كبير نفذه إمبراطورهم القوي نقفور، ولكن هذا الإمبراطور دخل في صراعات داخلية، اغتيل على إثرها (٣٥٩هـ)، فتوقف تمددهم لعامين، كانا فرصة ذهبية لمن يريد استعادة المدن الشامية ومدن الجزيرة الفراتية، لكن الوضع المزري للعالم الإسلامي جعل الجميع عاجزين عن استرداد شيء، غير أن الذي يهمنى الآن هو أن العبيديين كانوا أمام فرصة مواتية نادرة بموت هؤلاء الأقوياء جميعا في سنوات تمدهم إلى مصر والشام!

هذا الوضع الممتاز، والذي يبدو ظرفا مثاليا لتمدد العبيديين، لم يكن كذلك في كل الأحوال، لقد استولى العبيديون على عاصمة الشام دمشق وخطب فيها للعبيديين (٣٥٩هـ)، ثم جاءت الرياح بما لا تشتهي سفن العبيديين، ولقد جاءت العقبة الأكبر من القرامطة..

كانت الدولة الإخشيدية في آخر أيامها تتجنب شر القرامطة بجزية سنوية تدفعها لهم تبلغ ٣٠٠ ألف دينار، فلما جاء العبيديون قطعوا هذه الجزية^(١)، فخرج القرامطة إلى الشام فهاجموا العبيديين وأخرجوهم من دمشق (٣٦٠هـ)، وهزموهم هزيمة شنيعة قُتل فيها القائد جعفر بن فلاح نفسه!! وأخذوا دمشق، وأمرؤا بلعن المعز على المنابر، بل وأرسلوا جيشهم إلى مصر ليأخذوها هم من يد العبيديين (٣٦٣هـ)، إلا أنهم عجزوا عن ذلك

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٨٦.

وارتدوا على أعقابهم خاسرين! إلا أنهم ما زالوا في محاولاتهم للسيطرة على مدن الشام مثل يافا وصيدا وعكا وقد عجز الفاطميون عن هزيمتهم.

مهّدت هزيمة العبيديين على يد القرامطة في الشام لدخول عنصر آخر، وهو القائد التركي ألب تكين، التابع للخلافة العباسية، الذي جاء بجيش آخر دخل به إلى دمشق وأزال العبيديين الذين كانوا قد عادوا إليها بعد تغلبهم على القرامطة، فانتزعها منهم! وتعاون ألب تكين مع القرامطة ضد العبيديين، حتى جعلوا مقامهم بالشام عسيرا.

كذلك تواجه الجيش العبيدي مع البيزنطيين في أنطاكية، وكان البيزنطيون يتمددون في بلاد الشام قبل ذلك الزمن بقليل، حيث استفاد إمبراطورهم القوي نقفور من تمزق الشام وضعف الخلافة العباسية، فأخذ في الاستيلاء على مدنها، مما ذكرنا طرفا منه سابقا^(١)، واقتحم حلب واستولى على أنطاكية (٣٥٩هـ)، وكان يستولي على حلب لولا أن اغتالته زوجته (٣٥٩هـ) لمشكلات داخلية سياسية.

(٤) الانتقال إلى مصر

في هذه الأثناء، وبعد استتباب الأمور في مصر، أرسل جوهر إلى خليفته العبيدي أن يقدم إليها، فخرج الخليفة وقد حمل معه ما استطاع من الكنوز والذخائر والأموال والعتاد والثياب، وحمل معه رفات آبائه الخلفاء، لقد كان الخروج إلى مصر بمثابة الخروج إلى «دار الهجرة»، بتعبير العبيديين.

وصل الخليفة الرابع للعبيديين، المعز لدين الله، إلى مصر (٥ رمضان ٣٦٢هـ)، ومنذ

(١) راجع الفصلين الثامن والحادي عشر من هذه «الخلاصة»: «الدولة العباسية، عصر النفوذ التركي والبويهى»، و«الدول المستقلة في المشرق الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري».

أن وصل إليها، شرع بنشاط محموم في إنشاء وتدبير الأنظمة التي تُمكنه من حُكمها، وكان أبرز معالم سياسته اعتماده على أهل الذمة من اليهود والنصارى، وعلى العناصر الأجنبية من الترك والديلم والأرمن والسودان وغيرهم، بحيث توقع بعض المؤرخين أن هذا دليل على إخفاق الدعاة الفاطميين في الاستكثار من أهل مصر الذين لم يتقبلوا عقيدة الفرقة الإسماعيلية، وبهذا تأسس نظام الحكم العبيدي باعتباره من أنظمة حكم الأقليات، فلقد كانت القاهرة مدينة ملكية مغلقة ومعزولة عن الناس، بينما كانت العواصم الحقيقية التجارية هي التي نشأت سابقا كالفسطاط والعسكر والقطائع، وهذه أيضا سنأتي لها في تقييم الدولة العبيدية، فلقد كانت العصر الذهبي لليهود والنصارى والعناصر الأجنبية!

ومن قبل أن يقدم إلى مصر، وجد المعز فرصته في الخلافات التي وقعت بين أشرف مكة، بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، فدخل على خط هذه الخلافات، حتى انضوى إليه الحسن بن جعفر الحسني، وخطب له في مكة، وقطع الخطبة عن العباسيين، فأرسل إليه المعز التقليد بولاية مكة وأنحائها، ثم حُطِب له بعد ذلك في المدينة أيضا، وصار هذا مؤكدا بعد أن ضم مصر وتمدد العبيديون إلى الحجاز.

اهتم المعز بإنشاء أسطول قوي في مصر، فقد صار لا بد له من السيطرة على الشام، واقتربت عاصمته من عاصمة البيزنطيين القائمة على البحر، ولكنه مات بعد ثلاث سنوات فحسب من دخوله مصر (٣٦٥هـ)، قبل أن يستتب له أمر الشام، فسبق أجله أمله، وقد كان أمله أن ينادى عليه بالخلافة في بغداد!!

ويعد المعز «أول من استن الفخامة والأبهة في حياة الفاطميين»^(١)، وقد ظل في الخلافة نحو ربع القرن، نقل فيها الدولة هذه النقلة الكبيرة، ومات وهو في السادسة والأربعين من

(١) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٧٨؛ سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز،

عمره، تاركًا الخلافة من بعده لابنه نزار.

كان هذا أول خرق لنظام انتقال الإمامة، فلم يكن نزار هو الأكبر ولا الأوسط، بل الأصغر، وذلك أن الأكبر كان عابثًا لا يليق بشأن الخلافة، وأما الأوسط فقد مات فجأة في حياة أبيه (٣٦٣هـ)، وبهذا انتهك المعز مبدأ الإمامة مرتين؛ الأولى بتجاوز الأكبر، والثانية حين لم نقل الإمامة من الأوسط إلى الأصغر، وقد كان مبدأ الطائفة الإسماعيلية أن تذهب الإمامة من الأوسط إلى ابنه الصغير، فذلك هو السبب الذي فارقت به الفرقة الإسماعيلية الفرقة الإمامية، فقد أصرت على أن الإمامة انتقلت من إسماعيل إلى ابنه وليس إلى أخيه موسى^(١).

(٥) العزيز بالله

تولى نزار، العزيز بالله، منصب الخلافة ولا يزال في الثانية والعشرين من عمره، وكان أخطر ما ورثه عن أبيه أزمة الشام التي اتحد فيها المفتكين مع القرامطة وعجز القائد الفذ جوهر الصقلي وحده عن استرداد الشام، فخرج العزيز بنفسه على رأس الجيش العبيدي الكبير، واستطاع أن يأسر المفتكين وأن يهزم الحسن بن أحمد القرمطي، ويثبت أقدامه في الشام (٣٦٨هـ)، ويدخل الحمدانيين في طاعته.

ولئن أورثه أبوه أزمة الشام، فقد أورثه كذلك رجلين من أكفأ الرجال: الوزير يعقوب بن كلس، والقائد العسكري جوهر الصقلي، وقد رسخ العزيز سياسات أبيه، فمن ذلك هذه الأربعة:

١. عمل على سيادة المذهب الإسماعيلي، فألزم القضاة به، ومن أراد الاحتفاظ

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٩٣.

بوظيفته كان عليه أن يكون إسماعيلي المذهب، وتحول الجامع الأزهر إلى قلعة لتدريس فقه الفرقة الإسماعيلية وعلومها، ينفق على علمائه وطلبة العلم فيه، وتخصص لهم العطايا والأوقاف.

٢. زاد في تقريب اليهود والنصارى، وفسر بعض المؤرخين عطفه السابغ عليهم بتأثير زوجته النصرانية، ولكن هذا ليس بكافٍ، فلقد كانت سياسة أبيه من قبله، وسياسة خلفه من بعده، فتقلدوا في عهده المناصب الرفيعة، فكان من وزرائه يعقوب بن كلس اليهودي، وعيسى بن نسطورس النصراني، وكان طبيبه الخاص نصرانيا هو ابن مقشر، وكان والي الشام له اليهودي منشا بن إبراهيم، وتكاثر عددهم في الدواوين وبين الكُتّاب والموظفين، حتى لقد كتب إليه المصريون ساخرين: «بالذي أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك الا كشفت ظلامتي»، وكان هذا مثار حنق وسخط لدى الناس، فقليل إنه صادر منهما مبلغا كبيرا^(١).

٣. زاد العزيز في العناصر المشرقية، إن صح التعبير، لموازنة القوة المغاربية ولا سيما الكتامية، الذين كان المعز يحب أن يتخلص من سطوتهم، ويوازن بقوة غيرهم قوتهم، وقد ازداد اعتماد العزيز على أهل الذمة في دواوين الإدارة، وازدادت العناصر الأرمنية والتركية والدبلوماسية والسودانية في جيشه، وكان هذا مما يحيك في صدور المغاربة لا سيما الكتاميين.

٤. حافظ على السيادة العبيدية على الحرمين، ولما حاول أمير الحج العراقي الخطبة للخليفة العباسي وعضد الدولة، أرسل العزيز جيشا حاصر المدينتين وأعادهما إلى العبيديين من جديد.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/ ٤٧٧.

غير أن العزيز أخفق في التمدد إلى بغداد، وكان العباسيون آنذاك تحت سلطان البويهيين، وكان سلطانهم حينها أقوى ملوك الدولة البويهية: عضد الدولة البويهى، وهذا الأخير فضّل مسالمة العبيدين، وجرت بينهم الرسائل التي اصطنع فيها عضد الدولة البويهى لهجة الخضوع وأعلن فيها أنه في طاعتهم^(١)، ويبدو أن العزيز رضي بهذا، أو أنه قدّر أن يكتفي بهذا الخضوع الذي سهّل لا ريب من مهمة الدعاة الإسماعيليين في العراق، متحينا فرصة أخرى يكون فيها أميراً أقل قوة من عضد الدولة، أو تكون الدعوة الإسماعيلية في العراق قد آتت مزيدا من الثمار، ووفّرت مزيدا من الزعماء الموالين لهم! وقبل أن يموت بأربع سنوات كان أمير الموصل قد أقام الدعوة له بالفعل (٣٨٢هـ).

وأخفق العزيز كذلك في الاحتفاظ بالمغرب على نحو ما كان الوضع في أيام أبيه، فقد رأى المنصور بن يوسف بن بلكين (ابن يوسف الذي خلفه المعز على المغرب) أنه مستقل على الحقيقة، وحاول العزيز إثارة قبائل كتامة ضده مرتين، لكن المنصور أحمد الثورتين بعنف شديد، ورسخ وجوده كحاكم مستقل على الحقيقة وإن كان لا ينفي السيادة الاسمية للعبيدين على المغرب.

والعزيز هو الخليفة العبيدي الذي أرسل للخليفة الأموي في الأندلس الحكم المستنصر بالله رسالة يهجو فيه، فردّ عليه المستنصر ذلك الرد المشهور المُفجّم حيث ردّ يقول: «أما بعد، قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك»، فاشتدّ ذلك على العزيز ولم يستطع له جوابا^(٢).

(٦) الحاكم بأمر الله

(١) انظر نص رسالة العزيز ورد عضد الدولة عند: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤/ ١٢٤، ١٢٥.

(٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط ٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ص ٢٧١.

مات العزيز (٣٨٦هـ) وهو لا يزال في الثالثة والأربعين من عمره، بعد واحد وعشرين سنة في الخلافة، وذهبت الخلافة من بعده لأشهر خليفة عبيدي على الإطلاق، ولواحد من أشهر حكام التاريخ كله، ذلك هو ابنه منصور المعروف بـ: الحاكم بأمر الله.

لم تكن الوفاة المبكرة للعزيز أمراً عادياً، ذلك أن نظام الحركة الإسماعيلية يقضي بانتقال الإمامة في الابن الأكبر للإمام، وقد كان أكبر أولاده صبياً لا يزال في الحادية عشرة من عمره، وقد عرف بخبر انتقال الخلافة إليه وهو ما يزال يلعب على شجرة لما جاء به برجوان الخادم، فمن هاهنا تأسست البذور الأولى للضعف الذي ستنتهي إليه الدولة العبيدية، إذ سيرز منذ الآن دور الوزراء ونساء القصر في قرار السياسة، وهو ما سيؤدي إلى صراع سيبدأ مكتوماً وتحت السيطرة منذ هذه اللحظة، إلى أن يتفجر واضحاً بعد نصف قرن آخر.

دار الصراع مبكراً حول الخليفة الصبي، فقد ألقى الكتاميون بثقلهم لتعيين شيخهم الحسن بن عمار وزيراً فعلياً، وسعى هذا في التخلص من المشاركة، فتحالف أولئك مع برجوان الخادم حتى خلعوا ابن عمار (٣٨٧هـ)، وتولى برجوان أمور الحكم واستقل بها، واتخذ لنفسه جيشاً خاصاً، وكاد يبدأ عصر الوزراء من هذه اللحظة لولا أن هذا الخليفة الصبي شبَّ شخصية قوية للغاية، فلم يلبث أن دبّر لاغتيال برجوان (ربيع الأول ٣٩٠هـ)^(١)، وبعده بشهور قتل غريمه ابن عمار (رمضان ٣٩٠هـ)، واسترد السلطة لنفسه وهو في الخامسة عشرة من عمره، وخطَّ سياسته التي ستحير معاصريه والمؤرخين من بعده إلى يوم الناس هذا.

لكن برجوان قام بعدة أعمال مهمة للغاية، منها إخماده لتمرّدات على الحكم العبيدي

(١) ثمة وثيقة مهمة في بيان أسباب قتل برجوان، وهي تشي بقوة شخصية الحاكم بأمر الله، انظرها وما يحتف بها من أمور عند: جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٤٤ وما بعدها، ٢٨٣ وما بعدها.

في الشام (٣٨٧هـ)، ومنها تصديه القوي للبيزنطيين وقد حاولوا التمدد إلى الشام فهزمهم عند طرابلس (٣٩٠هـ)، وردّهم على أعقابهم، وانتهى الأمر باتفاقية في صالح العبيدين (٣٩١هـ).

ثم ما لبثت أن اندلعت ثورة أخرى في الغرب، يقودها أبو ركوة، وينتمي إلى بني أمية، (٣٩٥هـ) وقد تمددت الثورة وبلغت شأنًا خطيرا حتى وصلت إلى الفيوم والجيزة، ولكنها أخفقت آخر الأمر، وأسر قائدها (٣٩٧هـ) ثم قُتل بعد عامين حافلين. إلا أنها كانت التهديد الأخطر الذي يواجهه العبيديون في مصر حتى هذه اللحظة، ويرى بعض المؤرخين^(١) أنها وإن أخفقت فقد كانت ضربة قوية لهيبة الدولة العبيدية ومهدت الطريق للاجتراء عليها.

يجهد المؤرخون المعاصرون أنفسهم في عقلنة تصرفات الحاكم بأمر الله ومحاولة إيجاد تفسير لها، ولا أعلم أحدا أفلح في هذا، فإن الذي يُقدم على ذلك ما يلبث أن يُزري بنفسه ويقع في التفسيرات المضحكة^(٢)، لقد كان الحاكم غريب الأطوار، فهو زاهد في نفسه، متقشف، مبتعد عن الفخامة والأبهة، شديد السطوة والشراسة، يقرر أمورا غريبة ثم ينقلب على قراراته^(٣)، يُحرم أمورا مباحة ثم لا يلبث أن يحللها، يخرج بنفسه إلى الأسواق والطرقات، وإلى الصحاري والجبال فيخلو بنفسه ولا يُعرف ماذا يفعل! ولا لم يفعل؟

وقد كان القتل أقرب وسائل العقاب، فمن اتهمه بالفساد أو التجاوز قتله، فذهب على

(١) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٥٥.

(٢) مثلا: محمد عبد الحي شعبان، الدولة العباسية: الفاطميون، ص ٢٤٦ وما بعدها؛ حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢٢٧؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٨٤ وما بعدها.

(٣) يذكر الإمام ابن القيم في تفسير هذا أن الحاكم بأمر الله كان يعتمد على المنجمين، انظر: ابن القيم، مفتاح دار السعادة، تحقيق: عبد الرحمن قائد، ط ١ (مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٣٢هـ)، ٣/ ١٢٠٩ وما بعدها.

يده جملة من رجال الحكم منهم مؤدبه ووزيره وقاضيه وقائد جيشه وجملة من الكتّاب وأرباب الدواوين! وفي المقابل كان يسخو بالمال وينفقه حتى كأنه يبذل من غير حساب! فملك القلوب بالرهبة والرغبة!

وكانت أم الحاكم نصرانية ولها أملاك واسعة، وأخوها -الذي هو خال الحاكم كان بطريك الإسكندرية- وقد كان النصارى رجال دولته كما كانوا لأبيه وجده، ولكنه انقلب عليهم حتى صادر أملاكهم وهدم كثيرا من كنائسهم، بما في ذلك كنيسة القيامة بيت المقدس، واغتال خاله البطريك، وصادر أموال أمه، وألزم النصارى بلباس بعينه وحمل صلبان ثقيلة على أعناقهم، وكذلك اليهود، وأحرق حارة الجودرية اليهودية، ثم ما لبث أن عاد عن ذلك ورفع!

واشتد في نشر أفكار الفرقة الإسماعيلية وحمل الناس عليها زمنا، ثم ترك ذلك زمنا آخر، وبالع في كتابة سب الصحابة على جدران المساجد والبيوت والخوانيت، وإلزام الخطباء بلعنهم، ثم عاد فنهى عن ذلك، وأنشأ دار الحكمة فكان من بين متوليها علماء من أهل السنة ثم عاد فقتلهم، وأباح ما كان ممنوعا من قبله كصلاة الضحى وصلاة التراويح واستطلاع هلال رمضان، ثم عاد فنهى عن ذلك ومنعه، وغير مواقيت الصلاة فألزم بأن تكون الصلوات في غير مواعيدها، وبني «جامع الحاكم» فكان أوسع من الأزهر ليكون هو المسجد الجامع للعاصمة، وأنفق على عمارة الأزهر والمساجد التي لا أوقاف لها. وأغرب ما حاوله الحاكم في عهده أنه أراد نقل الحج إلى مصر فسعى في نبش قبر النبي ﷺ ليعيد دفنه في مشهد بناه بين الفسطاط والقاهرة^(١).

ولما شعر بأن النساء تجاوزن سياج الأخلاق حظر خروجهن من البيوت، وعاقب من

(١) عن محاولة نبش قبر النبي ﷺ ونقل الحج إلى مصر، انظر: حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢٢٣،

٢٢٤؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١١٣ وما بعدها.

خرجت، وعاقب من تساهل مع خروجها من أولياء أمرها أو من القضاة، ثم منع الإسكافيين من صناعة نعال النساء ليقطع عليهن الخروج، وألزم الناس بالعمل ليلا لا نهارا، ثم عاد عن ذلك، وأمر بقتل الكلاب والخنازير ونهى عن ذبح الأبقار، ومنع زراعة العنب ليقطع طريق اتخاذه خمرا، وحرّم عددا من الأطعمة مثل الملوخية والترمس وبعض أنواع السمك! وظهر في عهد الحاكم من يؤلهه ويرى فيه إلها متجسدا في إهاب بشر، وهؤلاء هم أصل الفرقة الدرزية.

وهذه الفرقة الدرزية أسسها اثنان من الدعاة يدعوان فيها إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وهو ما فجّر الأمور في مصر إذ قصد هؤلاء الدعاة جامع عمرو بن العاص، الذي هو معقل المقاومة السنية في مصر، فكان أن اغتيل أحدهم وهو في موكب الحاكم نفسه (٤٠٨هـ)، وازداد سخط الناس وسخريتهم على الحاكم، وخرجوا خلف القاضي الحنبلي في مظاهرة كبيرة (٤٠٩هـ)، وانتهى الأمر بأن سلّط الحاكم عبيده وأتباعه على الفسطاط فنهبوا وأحرقوها وقتلوا خلقا عظيما من أهلها، حتى وقع ما يشبه الانشقاق في الجيش إذ انحاز المغاربة والأتراك إلى أهل الفسطاط (٤١٠هـ).

وأتمّ الحاكم سيرته، سيرة الرجل القوي متقلب المزاج والأطوار، بوفاة غامضة كذلك، إذ خرج مع مرافقيه إلى جبل المقطم، ثم تركهم فأوغل في الجبل ولم يعد من بعدها! وهو ما رجح أغلب المؤرخين أنه كان اغتيالا مدبرا من أخته ست الملك، فيما حسب أتباعه أنه اختفاء على نحو ما وقع للإمام الثاني عشر لدى الإمامية، أو للإمام المستور لدى الإسماعيلية، ولا يزالون ينتظرون عودته!!

لكن لماذا تفكر ست الملك في اغتيال أخيها الخليفة؟! ولماذا توجه الاتهام إلى ست الملك تحديدا من بين الساخطين جميعا؟!

هنا لن تبخل علينا سيرة الحاكم بما يمكن أن نتوقع سببه، فهذا الرجل الثري الحافل بالغرائب لا بد سيترك لنا أسبابا لكل حدث! فمن أهم ما قيل في محاولة تفسير ذلك:

انقلابه على مبادئ الحركة الإسماعيلية؛ فأوقف مجالس الدعوة التي كانت تنعقد يومين في الأسبوع، وأوقف ما يُجبى فيها من الأموال (٤٠٠هـ)، وقتل أبرز قاداته الحسين بن جوهر الصقلي (٤٠١هـ)، وعبد العزيز بن القاضي النعمان، والقاضي النعمان هو شيخ المذهب الإسماعيلي ورأسه في الدولة العبيدية (٤٠١هـ)، وأمر أن يُخاطب بأمر المؤمنين (٤٠٣هـ)، وهذا تنازل منه عن مقام الإمامة ذي الهيبة والقداسة في عقيدة الفرقة الإسماعيلية، ثم جعل ولي عهده عبد الرحيم بن إلياس وهو من أبناء عمومته البعيدة (٤٠٤هـ)، فخرق بهذا أصل الدعوة الذي تأسست عليه في انتقال الإمامة إلى الولد الأكبر حصراً، وأخرج ابنه الأكبر علياً مع أمه من القصر، إما تحسباً منهما وإما تمهيداً لقتلهما ليخلص له الأمر، فسارعت أخته ست الملك لإيوائهما عندها في القصر حفاظاً على الإمام القادم! ثم ما رضىه من دعوى الألوهية (٤٠٧هـ)، التي أثارت أهل السنة والعبيديين معاً، ثم حريق الفسطاط وما بدا من انقسامات بالجيش (٤١٠هـ)!

وهكذا اختفى الحاكم (٤١٣هـ)، بعد ربع قرن في الخلافة، ولا يزال في السادسة والثلاثين من عمره!

وأما لماذا توجه الاتهام إلى ست الملك تحديداً، فلأنها التي سارعت فحفظت ولي العهد وأمه، ولأنها هي التي تولت شأن الحكم فعلياً بمجرد اختفاء الحاكم، وقد سارعت لنصب ابن أخيها علي، الذي تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وكان لا يزال في السابعة عشرة من عمره! وقتلت ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس، وكانت هي المدبرة لابن أخيها حتى توفيت بعد ذلك بعامين (٤١٣هـ).

ولنا مع الحاكم بأمر الله وقفة في نهاية هذا الفصل إن شاء الله.

(٧) الظاهر لإعزاز دين الله

يمكن اختصار عهد الظاهر بأنه حاول إعادة الأمور إلى نصابها بعدما أصابها من ارتباك على يد أبيه الحاكم، فسمح لمن أجبر على الإسلام في عهد الحاكم من اليهود والنصارى أن يرجع إلى دينه، وطرده الفقهاء السنة الذين جعلهم أبوه في دار الحكمة، وجدد الاهتمام بالدعوة الإسماعيلية، سواء في مصر أو في العراق أو في الحجاز حتى وصل سفراءه إلى الهند وملكها القوي محمود بن سبكتكين الغزنوي الذي ردّ عليهم بقوة وجفاء.

وواجه الظاهر تمردات اندلعت ضد العبيديين في الشام (٤١٥ هـ)، استطاع أن يُخمدوها إلا أنه فقد فيها حكم حلب شمال الشام التي استقل بها صالح بن مرداس، ودخل في تفاوض لتجديد الاتفاق مع البيزنطيين فتعهد لهم بالسماح ببناء الكنائس التي هدمها أبوه الحاكم إلا ما تحول منها إلى مسجد، وسمح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة وبنصب بطريرك لبيت المقدس، وألا يعين الظاهر أهل صقلية المسلمين ضد الإمبراطور البيزنطي الذي يطمح إلى الاستيلاء عليها، وذلك في مقابل أن يفرج الإمبراطور عن أسرى المسلمين، وأن يستمر في إمداد مصر بالقمح، وأن يُخْطَب للخليفة العبيدي في جامع القسطنطينية^(١)، وألا يعين صاحب الرملة ضد العبيديين^(٢)، وتكشف هذه الاتفاقية بداية الضعف الإقليمي للدولة العبيدية، فقد تخلّى عن صقلية ولم يسترد كامل الشام وسمح للبيزنطيين بقدّم دينية لهم في بيت المقدس وفي أحوال النصارى في

(١) جامع القسطنطينية هو جامع بناه المسلمون قديماً أيام الأمويين أثناء محاولاتهم فتح القسطنطينية، عند سور القسطنطينية، ويُعتقد أن موضعه الآن هو جامع السلطان أيوب، على اسم الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري. وكان هذا الجامع من علامات قوة المسلمين أو ضعفهم في العلاقة مع البيزنطيين، فإن كانوا أقوياء أقيمت فيه الصلاة والجمعة وُخِطَب فيه للخليفة، وإلا فإنه يتعطل أو يتهدم، ولذلك يتردد ذكره أحياناً في الاتفاقيات التي توقع بين المسلمين والبيزنطيين.

(٢) انظر شروط الاتفاق والتفاوض حولها عند: يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ٤٣٦ وما بعدها؛ المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١٧٦/٢.

بلاده.

ولا تعرف أحداث كبرى في عهد الظاهر الذي قضى في الخلافة ستة عشر عاما، ومات وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، تاركا الخلافة من بعده لابنه الذي سيسجل اسمه في التاريخ باعتباره أطول من حكم المسلمين في كل تاريخهم، ذلك هو ابنه معد، الذي لقب بالمستنصر بالله، والذي حكم مصر لمدة ستين سنة!!

(٨) المستنصر بالله

ذهبت الخلافة إلى معد، المستنصر بالله (٤٢٧هـ)، ولا يزال في السابعة من عمره، فظهرت هنا المرأة الثانية القوية في الدولة العبيدية بعد ست الملك، تلك هي أم المستنصر التي كانت الحاكم الفعلي باسم ابنها، وبالنظرة العابرة التي تقتصر على ظاهر الأمور، يمكن القول بأن عصر المستنصر هو عصر ذروة الدولة العبيدية إذ حققت فيه أقصى اتساع لها، ثم ما لبثت أن جاءت الضربة القاتلة في القلب، في مصر نفسها، فأخذت الدولة الكبيرة في التمزق والتبدد!

كانت الثلاثين عاما الأولى فترة هدوء واستقرار، وقد رُزق المستنصر فيها بوزراء أكفاء، استفادوا بدورهم من ضعف الخلافة العباسية والدولة البويهية المسيطرة عليها، كما استفادوا من العلاقات المستقرة بين العبيديين والبيزنطيين، وقد أحسنوا إدارة الدولة فكانت وافرة الثراء باذخة الرخاء! وقد نقل الرحالة الفارسي صورة من هذا الأمن وهذه الوفرة في رحلته (٤٣٩هـ)، فقال: «كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس، وكان الناس جميعاً يثقون بالسلطان فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين معتمدين على إن السلطان لا يظلم أحد ولا يطمع في مال أحد،

ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقني الناس في فارس
فإني لا أستطيع إن أحدد أموالهم أو أحصرها، أما الأمن الذي رأيته هناك فإني لم أره في بلد
من قبل»^(١).

وفي هذه الفترة استعاد الفاطميون أنحاء المغرب التي كانت قد استقلت عنهم عمليا،
وتكونت فيها دولة بني زيري، فقد حرض العبيديون قبائل بني سليم وبني هلال على
اجتياح المغرب، وقد نفذوا بالفعل اجتياحا كبيرا مروعا لفرعي الدولة الزييرية منذ
(٤٤٢هـ)، واستطاع العبيديون القضاء على دولة بني حماد في المغرب الأوسط
(٤٤٧هـ)!

بهذه الموجة من التوسع بلغت الدولة العبيدية ذروتها، إلا أنها كانت موجة هشة
وتعطي شعورا زائفا، فما لبث أن دخلت الدولة في طور الانكماش!

٤. الأفول والسقوط

بعد تمام القرن على دخول الدولة العبيدية إلى مصر بدأ عصر أفولها، فيحدد
المؤرخون عادة بداية هذا الأفول من (٤٥٧هـ)، في منتصف عصر الخليفة المستنصر بالله،
والسبب في هذا التحديد، هو أن ذلك العام كان بداية المجاعة الهائلة التي عُرِفَتْ باسم
«الشدة المستنصرية»، وهي أشهر المجاعات التي مرّت بمصر، حتى وإن لم تكن
بالضرورة أكثرها قسوة! وسنأتي لها إن شاء الله.

ضربت الفوضى بأطنابها، وانقسمت البلاد بين الفرق العسكرية التي تمثل أجنحة
الجيش، وبلغ التهديد حدًا خطيرا؛ ذلك أن الأمير الحمداني ناصر الدولة الحسين بن

(١) ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، ط ٢ (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م)،
ص ١٢١، ١٢٢؛ وانظر في ثراء ذلك الوقت أيضا: المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ٢/ ٢٩٢ وما بعدها.

حمدان، والذي أخفقت طموحاته في العراق حتى التجأ إلى مصر، خاض مغامرة أخرى في مصر، في لحظة الفوضى والاضطراب بين أجنحة الجيش، فاستمال إليه اربعين ألفاً من الجند الأتراك والأعراب والمغاربة، وتزعمهم، ثم راسل ألب أرسلان -السلطان السلجوقي القوي- ليمدّه ويعينه في استخلاص مصر من العبيديين، فيعيدها من جديد للعباسيين، على أن تكون ولايتها له، وقد رحب ألب أرسلان بهذا لكن انشغاله بجهاد الروم ثم وفاته المبكرة حالت دون تحقيق هذا الحلف، غير أن ناصر الدولة قطع الخطبة في بعض أنحاء الوجه البحري عن المستنصر بالله وخطب بها للعباسيين!

في خلال ستة عشر عاماً (٤٥٠ - ٤٦٦ هـ) تولى الوزارة أربعة وخمسون وزيراً، واثنان وأربعون قاضياً^(١)، وكفى بهذا دليلاً على حجم الفوضى والاضطراب!

(١) أول الوزراء وانكماش الدولة

يُسمى عصر الضعف هذا بـ «عصر الوزراء»، وذلك لأن الخليفة المستنصر لم يجد حلاً لمواجهة الأزمات التي تحيط به، والتي بلغت حدّاً خطيراً، إلا أن يستدعي والي عكا القوي، الأمير بدر الجمالي، واشترط هذا الأخير أن يصطحب معه قواته ليكونوا شوكتهم بين الفوضى المنتشرة في مصر، وبالفعل، نزل بقواته إلى مصر (٤٦٤ هـ)، فأعاد الإمساك بزمام أمورهما، وقُتل ناصر الدولة الحمداني، وتعبّ بدر الجمالي رؤوس التمرد حتى أخمدهم، وقضى على قوة كتامة في الجيش، وزاد عدد الأرمن فيه، ومنذ تلك اللحظة صارت مقاليد السلطة الفعلية بيد الوزراء، وصار الخلفاء ضعفاء معزولين تقريباً في قصورهم.

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٣٩.

أعاد بدر الجمالي نفوذ العبيديين في سائر مصر، وعمل على ضبط جهازها الإداري، وزاد الخراج في عهده بأكثر من النصف؛ من ٢ مليون دينار إلى ٣, ١ مليون دينار، وبنى جامع العطارين، وتمكن من صدّ تمدد السلاجقة إلى مصر (٤٦٩هـ)، ولكن لم يقوَ على ما بعد هذا، وبالجملّة، فيمكن إيجاز الإنجاز الذي قام به بدر الجمالي أنه حفظ مكانة الدولة في إقليم مصر بالمقام الأول، بينما لم يستطع أن يفعل ذلك في بقية الأنحاء، وهذا لا شك إنجاز مهم أطل في عمر الدولة قرناً آخر، ولكنه لم يمنعها من التدهور والانكماش! لقد أثار هذا الأفول في مصر، بلد المركز للدعوة الإسماعيلية، على سائر الأنحاء، «فعند موت المستنصر (٤٨٧هـ) كانت الدعوة الإسماعيلية قد تمزقت إلى أجزاء»^(١).

وسَبَقَ تَمَزَّقَ الدعوة، انكماشُ الدولة، بدأ الانكماش قبل موت المستنصر بأربعين سنة، وأبرز مظاهر ذلك أنه:

١. سقطت منها منطقة المغرب على يد المعز بن زيري الصنهاجي (٤٤١هـ) الذي اعتنق المذهب المالكي وأزال اسم العبيديين وشعارهم من الخطبة والسكة، ولم تستطع الدولة العبيدية تحريك جيش لاستعادتها، فلم تفعل إلا أن حركت قبيلتي بني هلال وبني سليم ليستيبحوا المغرب في الحادثة المشهورة، فعاثوا فيها فساداً!

٢. قطع البيزنطيون، بتحريض من السلاجقة تموين القمح عن العبيديين، وجعلوا الخطبة في جامع القسطنطينية للخليفة العباسي، فأغلق العبيديون كنائس مصر والشام وزادوا الجزية على النصاري (٤٤٧هـ).

٣. أفلتت الدعوة العبيدية من أيديها فرصة ذهبية، أو حتى عجزت عن استثمار هذه الفرصة الذهبية، إذ استطاع القائد التركي البساسيري في ظل الفوضى التي ضربت العراق

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٦؛ برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ١٦١.

(٤٧ هـ) أن يقتحم بغداد ويستولي عليها، بعدما أعلن ولاءه للعبيديين، وظل يحكم بغداد لمدة سنة ويُخطب فيها للعبيديين، ولم تعنه الدولة العبيدية إلا بالمال وبعض السلاح، حتى استطاع طغرل بك زعيم السلاجقة أن يعود مرة أخرى إلى بغداد فينتزعها من البساسيري ويقتله (٤٥١ هـ)، ويجدد بها الخلافة السنية العباسية!

٤. سقطت صقلية نهائياً بيد النورمان عبر ثلاثين سنة (٤٥٣ - ٤٨٤ هـ)، دون أن تجد عوناً من العبيديين، فلا أرسلت لهم قبائل كما فعلت للمغرب ولا أموالاً وعتاداً كما فعلت للبساسيري!

٥. قُطعت الخطبة عن الخليفة العبيدي في مكة والمدينة والحجاز (٤٦٢ هـ)، واستطاع بدر الجمالي أن يعيدها بعد خمس سنوات (٤٦٧ هـ)، إلا أنه فقدتها بعد خمس سنوات أخرى (٤٧٣ هـ) فخطب فيها للعباسيين، ثم دخل الحجاز كله في سلطان العباسيين بفضل جيش السلاجقة (٤٨٧ هـ).

٦. تمدد السلاجقة إلى الشام (٤٦٢ هـ)، فانتزعوا من العبيديين الرملة وبيت المقدس ودمشق (٤٦٨ هـ)، ولولا الانهيار المفاجئ في الدولة السلجوقية عند وفاة سلطانها ملكشاه ووزيرها القوي نظام الملك في عام واحد (٤٨٥ هـ)، وتمزق الشام بين الحكام السلاجقة، لولا ذلك لأُخذ الشام كله منها، ومع تلك الفرصة التي توفرت للعبيديين إلا أنهم لم يستطيعوا سوى استعادة بيت المقدس وجنوب الشام.

٧. ثم جاء الصليبيون بعد قليل، فانتزعوا الشام وأسسوا الإمارات الصليبية (٤٩٢ هـ)، ولم يبق لها من أملاك سوى عسقلان التي ستسقط بعد نصف قرن آخر، في عام (٥٤٨ هـ).

(٢) المستعلي بالله

مات الوزير والخليفة في عام واحد (٤٨٧ هـ)؛ ولكن الوزير بدرًا الجمالي مات قبل

المستنصر بالله بثمانية أشهر، غير أنه قبل أن يموت جعل ابنه هو الوزير من بعده، وتفرغ بدرٌ نفسه ليكون على رأس التنظيم الدعوي للعيديين، وبهذا اجتمع في الوزير لأول مرة مهمات الحكم والدعوة معا.

ورث هذا الوزير الجديد، الأفضل بن بدر، القوة والسلطة من أبيه، وكان أول تدخل كبير له أن اختار الخليفة القادم، فصرفها عن نزار -وهو الولد الأكبر للمستنصر، وكان في الخمسين من عمره حينها- إلى أخيه الأصغر أحمد وكان في العشرين من عمره، والذي سيُلَقَّب بالمستعلي بالله!

تسبب هذا في انشقاق جديد بين العييديين، إذ سيخرج من يعترض على هذه المخالفة لتوارث الإمامة في الولد الأكبر، وهم الذين سيُعرفون بالنزارية، وهؤلاء هم الذين سيتزعمهم الحسن بن صباح، ذلك القائد الخطير الذي سينشئ لهم دولة خطيرة عنيدة في فارس، وسيكون مركزها في قلعة ألموت، وسيجد المسلمون منها عنتا شديدا ورهقا حديدا، ولن يقضي عليها سوى المغول حين يجتاحون المنطقة بعد نحو قرنين من الزمان!

استطاع الوزير الأفضل بن بدر الجمالي إخماد هذا الانشقاق في مصر بين المستعلية والنزارية^(١)، وقضى على ثورة المعترضين، وقتل نزارًا، وثبَّت المستعلي بالله في الخلافة، والمستعلي هو في نفس الوقت زوج أخت الأفضل بن بدر الجمالي، فقد تزوج أحمد بن المستنصر من ابنة الوزير بدر الجمالي وأحمد هذا هو الذي صار الآن خليفة!

ولم يكن غريبا أن يكون المستعلي تحت سيطرة صهره القوي الأفضل بن بدر، لا سيما وهو لم يقضِ الخلافة سوى سبع سنوات، وتوفي (٤٩٥ هـ)، فنقل الأفضل الخلافة

(١) للاطلاع على التبرير العقدي الذي أعلنه المستعلية، انظر: جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ط ١

(القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م)، ص ٥٦ وما بعدها، ٢١١ وما بعدها.

إلى ابنه منصور الذي تلقب بـ «الأمير بأحكام الله»، والذي لم يزل في الخامسة من عمره!!

(٣) الأمر بأحكام الله

بطبيعة الحال ازداد انفراد الأفضل بشؤون الدولة، بل لقد نقل مقر الحكم من دار الخلافة إلى دارٍ له بناها جنوبي الفسطاط، سماها «دار المُلك»، ووصل الحال إلى أن حرم الخليفة من الظهور أو المشي في الأعياد، ولم يكن يبالي بأمر المعتقد فيما يبدو فلم يعارض أن يتعالن أهل السنة بمذهبهم ويجادلوا عنه، ومنع الاجتماع في دار العلم التي تعقد فيها الدروس الإسماعيلية، لكيلا يوفر الفرصة لمعارضته.

وفي عهد الأمر بأحكام الله جاءت العاصفة الصليبية التي اجتاحت بلاد الشام، وكان الأفضل بن بدر الجمالي هو رجل المرحلة، وقد رأى فيهم حلفاء له ضد خصومه السلاجقة المقيمين في بلاد الشام، وظن أنهم ينصرونه ويزيلون أعداءه من الشام، ثم يتركون له المناطق التابعة للدولة العبيدية، أو حتى يعيدون إليه ما ضاع منها، ولم يستفق الأفضل إلا وقد اجتاحت الصليبيون بيت المقدس الذي كان في حوزة العبيديين وأنشؤوا فيه مذبحة من أبشع مذابح التاريخ، فعلم الأفضل بعد فوات الوقت أنهم أعداءه أيضا.

ومن نظر إلى الحملة الصليبية الأولى علم أنها كانت حملة هشة مع شدة قوتها، وأنه ما كان لها أن تستقر ولا أن تحتل بلاد الشام لولا التمزق والخيانات التي كان عليها أمراء الشام من بقايا السلاجقة وعداوتهم التي منعتهم من التعاون فضلا عن التحالف والتوحد، ولولا ما كان بين هؤلاء وبين العبيديين في مصر. ولو أن الحملة الصليبية الأولى فشلت لما اجتزأت أوروبا على تكرار المحاولة إلا بعد قرن أو قرنين على الأقل! والحملة الصليبية واحدة من شواهد التاريخ العظمى على النتائج الكارثية والطويلة للخيانة والتفرق واختلال قيمة الولاء والبراء.

وسيكون لنا وقفة مع هذا الأمر حين نتكلم عن مساوئ الدولة العبيدية إن شاء الله!
ولكن، فالخلاصة أن الأفضل بن بدر كان بخلاف أبيه مائلا إلى اللهو والتمتع،
مستكثرا من الأموال والكنوز والتحف، حتى عمائره التي بناها كانت على خلاف عمائر
أبيه، والتي كانت أسوارا وحصونا^(١).

فإذا عدنا إلى عصر الأمر بأحكام الله، فسنرى أنه يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل:
عشرين سنة تحت هيمنة الأفضل بن بدر (٤٩٥ - ٥١٥ هـ)، ثم أربع سنوات شريكا للوزير
المأمون البطائحي (٥١٥ - ٥١٩ هـ)، ثم انفرد بالأمر في سنواته الخمس الأخيرة!

فبعد ثمانية وعشرين سنة من انفرد الأفضل بن بدر بالحكم والتدبير، منذ (٤٨٧ هـ) في
أواخر عصر المستنصر، وطوال عصر المستعلي والأمر، كان الخليفة الأمر لأحكام الله قد
كبر، وصار في الخامسة والعشرين من عمره، وكان النزارية (الإسماعيليون الحشاشون
المنشقون عليه حين صرف الخلافة للمستعلي) لم ينسوا تأثرهم معه ولا إخماده حركتهم،
وكان ثمة قائد آخر قد قرَّبه الأفضل وجعله ساعده الأيمن، فإذا به -كعادة الناس- يطمح
في الوزارة، ذلك هو محمد بن فاتك البطائحي، فكانت من مصلحة هذه الأطراف إزالة
هذا الوزير القوي، ومن ثمَّ فإن اغتيال الأفضل بن بدر (٥١٥ هـ) تتوجه فيه التهمة إلى
طرفين؛ الأول: الإسماعيلية النزارية وهم الحشاشون الذين برعوا في فنون الاغتيال،
والثاني: هو البطائحي بالتعاون مع الخليفة الأمر! وفي كل الأحوال فإن البطائحي والأمر
وإن كانوا برآء فلقد كانوا سعداء!

تولى البطائحي الوزارة، وبدا للوهلة الأولى أن الدولة العبيدية ستدخل عصر «صحوة
الخلافة»، إذ الخليفة الأمر يستعيد سلطانه، والوزير من أهل الكفاءة، وتجدد بهاء الدولة

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٦٤.

العبيدية زمنًا^(١)، لكن سرعان ما وقع النزاع بين الخليفة ووزيره، فالوزير إنما أراد السلطان لنفسه، وقد أثير أنه يزعم لنفسه نسبا يمتد إلى نزار، ولي العهد المقتول على يد الأفضل بن بدر الجمالي، فسارع الأمر لقتله بعد أربع سنوات في الوزارة (٥١٩ هـ)، ثم انتقم النزاريون له فقتلوا الخليفة الأمر (٥٢٤ هـ)، ولم يزل في الثانية والثلاثين من عمره.

ولئن كان الأمر خليفة قويا، فلقد اقتصرت قوته على شؤون البلد الداخلية، بينما استمر الانهيار والتمزق في الخارج، وقد عجز عن استرداد شيء استلبه الصليبيون في الشام، أو العباسيون في الحجاز، أو ما استقل عن الدولة في المغرب، ودُفنت في عهده فكرة تمدد الدولة العبيدية نحو المشرق!

(٤) الحافظ لدين الله وخلفاؤه

أسفر قتل الأمر بأحكام الله عن معضلة جديدة، فقد قُتل وامرأته حبلى وليس له ولد^(٢)، فنصب العبيديون ابن عمه في مقام الخلافة انتظارا لهذا الجنين الذي في بطن أمه، فلما وُلد بتّا، ثبتوه في الخلافة وتلقب بالحافظ لدين الله^(٣)، و«منذ اعتلاء الحافظ كرسي الخلافة أصبح تاريخ الفاطميين تاريخا محليا، فقد فَقَدَ الفاطميون كل ممتلكاتهم خارج مصر فيما عدا عسقلان»^(٤).

(١) المقريزي، انعاظ الحنفاء، ٣/ ١٢٩.

(٢) وإن كان يسود هذا الأمر تفاصيل أخرى عن ولدٍ للخليفة الأمر كُتِم أمره، ولم يقبله رجال الدولة في مصر، ولكن اعترف به أهل اليمن والهند من الإسماعيلية، وهذا الولد يلقب بالطيب، ولهذا حصل انشقاق جديد في الحركة الإسماعيلية، فالذين أيدوا الطيب صاروا «الطيبية»، وهؤلاء الذين يُعرفون الآن بـ «البُهرة».

(٣) انظر التبرير الشرعي الذي تبنته الدولة العبيدية لمعالجة هذا الخرق الجديد في أصول الطائفة الإسماعيلية عند: جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٨١ وما بعدها. ٢٤٣ وما بعدها.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٧.

طمح أحمد بن الأفضل، الوزير الجديد للخليفة الحافظ، أن يكون صاحب السلطان، فسعى في هذا واستبد بالأمر حتى سجن الخليفة نفسه، واستولى على ثروات كثير من الأسرة العبيدية، واعتنق مذهب الإمامية، وأزال بعض رسوم وشعارات الإسماعيليين من الأذان والمساجد، لكنه لم يهنأ بهذا شيئاً، إذ أثار انقلابه هذا عداوة رجال الدولة فاغتالوه (٥٢٦هـ)، وأخرجوا الحافظ من سجنه، فاتخذ الحافظُ هذا اليوم عيداً من أعياد الدولة العبيدية.

سيكون هذا الاغتيال بداية سلسلة جديدة متصلة من اغتالات الوزراء وانقلاب بعضهم على بعض، وستتصل الأحداث بمجموعةٍ من الوزراء يتقلبون بين القصر والقبر والمنفى، وكلما آنس أميرٌ من نفسه قوة زحف إلى العاصمة يرجو أن ينال منصب الوزارة، فإما أنه يبادر إلى هذا من تلقاء نفسه وإما أن يستدعيه الخليفة أو طرف من أطراف المعركة مستغيثاً به!

سيحاول الحافظ أن يمسك بزمام الحكم، فهو الوحيد الذي تولى الخلافة وهو في سن الرجولة، لكنه سيعجز عن ذلك، فلن يستطيع إلا أن يكون طرفاً في صراعات الوزراء وانقلاباتهم (ومن بينهم ابنه الوزير الحسن الذي حاول الانقلاب على أبيه، ثم قُتل بمشهد منه)، وسيقتل في سنوات حكمه التي قاربت العشرين بين وزراء متشاكسين، حتى يموت (٥٤٤هـ) تاركاً الخلافة لابنه إسماعيل الذي تلقب بالظافر بأمر الله، وكان أصغر أولاده.

وأخبار هذه الفترة مما لا يكاد يُستفاد منه، فهي أحوال من الفوضى والمعارك والانقلابات، ستستغرق نحو ثلث القرن، ويأتي عليها الخلفاء الأربعة الآخرون للعبيديين، الظافر الذي سيحكم لخمس سنوات (٥٤٤ - ٥٤٩هـ)، والفائز الذي سيتولى الخلافة وهو في الثالثة من عمرها وسيبقى فيها ست سنوات (٥٤٩ - ٥٥٥هـ) ثم يتوفى وهو في التاسعة من عمره!، والعاقد الذي سيتولى الخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره وسيبقى فيها اثنتي عشرة سنة (٥٥٥ - ٥٦٧هـ)، ثم يموت وهو في الثالثة والعشرين.

ولا نجد مما يستحق الذكر، وفقا لمنهجنا في هذه «الخلاصة»، إلا الإشارة إلى بعض الأمور:

١. لقد أدت الفوضى إلى أن يتولى الوزارة ذو القوة وإن لم يكن إسماعيليا، بل وإن لم يكن مسلما على الجملة، فأحمد بن الأفضل كان شيعيا إماميا ونصّب أربعة من القضاة: إسماعيلي وإمامي ومالكي وشافعي، والطلائع بن زريك كان إماميا، وبهرام كان نصرانيا تولى الوزارة وهو على دين النصرانية وملاّ الوظائف بالنصارى واستكثر من بناء الكنائس والأديرة، ورضوان بن ولخشي كان سُنيّا ونَصَرَ أهل السنة وبنى مدرسة للمذهب المالكي في الإسكندرية، وابن السّلال كان شافعيًا وبنى مدرسة للشافعية في الإسكندرية أيضا، وهكذا، فالمقصود هنا أن الدعائم الدينية والمذهبية للدولة الإسماعيلية قد أخذت في التداخي.

٢. في هذه الفترة اجتاحت الصليبيون عسقلان (٥٤٨هـ)، آخر ما بقي من الشام تحت حكم العبيديين، وهي القطعة التي صمدت بفضل الإفاقة الأخيرة للأفضل بن بدر الجمالي، وبها صار الصليبيون على خط التهديد المباشر لقلب الدولة العبيدية! وكان يمكن أن تبقى لولا الخلافات والنزاعات بين الوزراء، فلقد شهدت الوزارة وزيرا سنيا قويا ومجاهدا هو ابن السلال، ولكنه قُتل قبيل ذلك، فسهل على الصليبيين أخذ عسقلان.

٣. بدأ التفكير لأول مرة في الجهاد داخل الدولة العبيدية مع الوزراء السنة، فأولهم رضوان بن ولخشي شرع في تقوية الثغور، بل أخذ يعد الناس والعدة لغزو الفرنجة، لكن مؤامرة الخليفة الحافظ عليه وإرجاعه لعدوه الوزير النصراني الأرمني بهرام وتحريضه الجنود عليه، عطّل خطط رضوان، الذي انتهى به الأمر إلى أن اعتُقل ثم قُتل على يد الخليفة وجنده.

٤. بدأ التفكير لأول مرة في التعاون مع قوة الدولة الزنكية في الشام ضد الصليبيين، منذ الوزير السني ابن السلار، وأرسل مبعوثه أسامة بن منقذ لعقد هذا الاتفاق^(١)، لكن الأمر لم يكتمل إذ كان نور الدين ما زال يعاني مع البوريين حُكَّام دمشق حلفاء الصليبيين، وكذلك لم يكن الحال مستقرا في مصر إذ لم يبق ابن السلار في الوزارة سوى ثلاث سنوات وأشهر (شعبان ٥٤٤ - المحرم ٥٤٨ هـ) حتى اغتاله صهره طمعا في منصب الوزارة. ومع هذه الفترة القصيرة فقد أغار ابن السلار إغارة قوية بالأسطول المصري على الفرنجة في يافا وعكا وصيدا وبيروت (٥٤٦ هـ) وأبلوا بلاء حسنا، وثأروا لإغارة الفرنجة على مدينة الفرما المصرية (٥٤٥ هـ).

٥. امتدت يد الاغتيال إلى الخليفة نفسه، فقد اغتيل الخليفة الظافر (٥٤٩ هـ) في ظل صراعات الوزراء، وكانت هذه المرة الأولى التي تذهب فيها حرمة الخليفة العبيدي على الجُملة، فالاغتيال الوحيد الذي سبق ذلك كان اغتيالا دبَّره النزاريون للخليفة الأمر بأحكام الله ضمن صراع إسماعيلي داخلي بين النزارية والمستعلية على الأحق بالإمامة، فأما الآن فقد صار الخليفة طرفا في المعركة، فذهب ضحية المغلوب فيها!

٦. انتهى في هذه الفترة نظام انتقال الإمامة في الولد الأكبر للإمام، فلقد كان الوزير القوي قادرا على صرف الخلافة لمن يريد، وكان بطبيعة الحال يصرفها إلى الصغير أو الضعيف الذي يشعر أنه سيستبد به وينفرد بالأمور من دونه.

حين استصفى صراعُ الوزراء القوى الموجودة في مصر^(٢)، كان لزاما عليهم أن يتطلعوا إلى القوى خارجها، سنة الحُكم وطبائع المُلك، وقد وافقت رغبة الوزيرين الأخيرين

(١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق: د. عبد الكريم الأشر، ط ٢ (بيروت: المكتب الإسلامي، ٢٠٠٣ م)، ص ٦٣.

(٢) انظر قائمة الوزراء العبيديين، وفتراتهم في الوزارة، في: زمباور، معجم الأنساب والأسر الحاكمة، ص ١٤٥ وما بعدها.

المتنازعين على ملك مصر حاجةً كامنة لدى القوتين الرابضتين قريبا منها: الدولة الزنكية والإمارات الصليبية في الشام! فذهب الوزير شاور مستنجدا بنور الدين محمود زنكي، وذهب الوزير ضرغام مستنجدا بالفرنجة الصليبيين.

وكان الحال في الشام قد تغير إلى وضع جديد، لقد نشأت حركة جهادية قوية على يد عماد الدين زنكي وتمددت من الموصل إلى حلب، واستطاعت أن تحرر مملكة الرها من أيدي الصليبيين، ثم استكمل ابنه نور الدين محمود هذا المد الجهادي واستطاع أن يوحد الشام تحت أمرته، بعد مزيج من الحروب والسياسة، وقد أخفقت الحملة الصليبية الثانية في تغيير هذا الوضع، وعاد ملوكها مدحورين، واستشعر الصليبيون الخطر على أنفسهم في الشام، فتطلعوا إلى غزو مصر والسيطرة عليها للاستفادة من مواردها واستغلالا لما هي فيه من الضعف والتمزق! وأما نور الدين فقد كانت الشام قادرة على صناعة توازن قوى مع الصليبيين لكنها لا تستطيع الحسم بمفردها، فكانت الضرورة واضحة في الاستفادة من موارد مصر وأموالها وعمقها الجغرافي.

وهكذا التقت الإرادات، وبدأ السباق الإسلامي والصليبي نحو مصر، وتواجه الجيشان: الشامي والصليبي أكثر من مرة في مصر، وتعددت مواقف الخيانة من الوزير شاور الذي تحالف مع الفرنجة ضد الشاميين، وانتهى الأمر بعد فصول وأحداث إلى أن عرض العاضد لدين الله منصب الوزارة على أسد الدين شيركوه قائد الجيش الشامي، راجيا بذلك أن يتخلص من وزيره شاور الذي استبد بالحكم دونه.

وبدأ صراع إرادات، فالخليفة العاضد يريد أن يجدد شباب دولته العبيدية بعنصر جديد هم الجيش الشامي الذي يقوده أسد الدين شيركوه، وأسد الدين هو في ذات الوقت أمير موالٍ لنور الدين الموالي بدوره للخلافة العباسية السنية في بغداد، وما إن مضت ثلاثة أشهر حتى توفي أسد الدين شيركوه فجأة، فاختر العاضد بدلا منه ابن أخيه صلاح الدين بن نجم الدين أيوب، فتولى الوزارة!

عمل صلاح الدين وزيرا في بلاط العبيدين، معتمدا على الجند الشامي، ثم التحق به المزيد من أفراد أسرته ليكونوا شوكة له وعضدا ضد «الدولة العميقة» في البلاط العبيدي، يرجون بذلك إزالة الخلافة العبيدية الفاطمية، وإعادة الوحدة مع الخلافة العباسية السنية. وبعد فصول وأحداث ومواجهات داخلية وخارجية، استنفد فيها صلاح الدين جهده من عمل الحرب والسياسة، تمكن أخيرا من القبض على زمام الأمور، وقد وصف القاضي الفاضل بعباراته الرفيعة هذا الجهد فقال: «فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير»^(١).

وفي مطلع العام (٥٦٧هـ)، وبالتحديد في اليوم السابع من المحرم، قُطعت الخطبة عن الخليفة العبيدي، وخطب للخليفة العباسي، ثم مات خليفته الشاب المريض العاضد بالله بعدها بثلاثة أيام (١٠ المحرم)، وانتهت الدولة العبيدية بسهولة غير متوقعة، حتى قيل فيها: «لم يتنطح فيها عنزان»^(٢)، و«لم تشهد التواريخ بانقضاء دولة كانقضاء دولتهم على حالة سكون وأحمد قضية تكون»^(٣)، و«تم استعادة العقيدة السنية الراشدة بإجماع مدهش»^(٤).



(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط ١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م)، ٣٦٠/٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٣٤/١٠.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٠٥/٢٤).

(٤) ستانلي لين بول، تاريخ مصر، ص ٢٣٧.

حسّات الدولة العبيدية (الفاطمية)

حتى لو كنا نتكلم عن صفحة مظلمة في تاريخنا، فإن الظاهرة البشرية لا تخلو من حسّات ومزايا، وإن تكن غير مقصودة، والدولة العبيدية كانت كذلك، لم تنتفع منها الأمة كثيرا لا في علم ولا في جهاد، ولكنها تبقى ظاهرة تاريخية تستحق التأمل والنظر.

وفي مثل هذه الحالات تُطرح مسألة مهمة، وهي: هل يمكن أن تُعدّ حضارة هذه الدول المنحرفة ضمن حضارة الإسلام؟!

والإجابة على هذا السؤال تطول، ولعلنا نفصل فيها في مكان آخر، غير أن خلاصة الكلام في ذلك أن الحضارة الإسلامية بمثابة الإطار الجامع الواسع، والنظام الكلي الشامل، وقد أتاحت هذه الحضارة لغير المسلمين من اليهود والنصارى والصابئة والوثنيين أن يعملوا وينتجوا ويبدعوا، فلا ريب أن كانت ثمرات أعمالهم محسوبة ضمن الحضارة الإسلامية، حتى وإن كان فيها مخالفة للإسلام كإنتاجهم في الآداب والفنون والنحت والترجمات وعلومهم الدينية. مثلهم في ذلك مثل المسلمين الذين ذهبوا إلى الغرب فتعلموا هناك وعاشوا ثم اخترعوا وأنتجوا فإن ثمرات عقولهم هذه محسوبة في ميزان الحضارة الغربية لأنها هي التي وفرت لهم البيئة والنظام والرعاية اللازمة لهذا الإنتاج، فحتى ما أنتجه المسلمون والمستشرقون في مدح الإسلام باللغات الأجنبية هو

معدود في إرث الحضارة الغربية وإنجازها، وإن كان مخالفا لمبادئها وقيمها التي قامت عليها.

ولا ريب في أن العبيدين قاموا على عقيدة باطلة ترفع من شأن أئمتهم فوق شأن البشر، وتجعل لهم ما ليس لغيرهم، وتعمل على تقديسهم، وهم في هذا خالفوا أساس الإسلام، غير أن بقية عناصر التنظيم الديني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي إنما كان مصبوغا بالإسلام ومبنياً عليه، فلا ريب أن ما أنتجوه من العمران والبدايع والتراث داخل في مسمى التراث الإسلامي وإنتاج الحضارة الإسلامية.

ومن أبرز حسنات الدولة العبيدية الفاطمية ما وفرته في مصر من الرخاء والاستقرار السياسي والاقتصادي، ومن الازدهار العلمي والثقافي، ويعود لهم الفضل في تأسيس القاهرة التي صارت عاصمة مصر وعاصمة الإسلام من بعدهم، وكذا يعود لهم الفضل في تأسيس نظام حكم وإدارة فعالة وقوية، وربما يكون أهم ما فعلوه من الحسنات هو قضاءهم على القرامطة وإيقافهم تمدد هؤلاء القرامطة إلى نواحي الشام ومصر والحجاز.

١. الاستقرار والازدهار في مصر

«نجح الفاطميون في تأسيس إمبراطورية شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل إلا نادراً»^(١)، فكان «للفاطميين بلاط لا يضارعه بلاط، وعظمة لا تقاربها عظمة أمراء آخرين»^(٢)، و«في عهد الفاطميين نعمت مصر والقاهرة برخاء

(١) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٣١٥.

(٢) زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٧م)، ص ٢٥٨.

اقتصادي وحيوية ثقافية فاقا ما كان معاصرا لهما في بغداد والعراق»^(١).

كان العصر العبيدي، بالذات في العهد الأول الذي هو عهد الخلفاء، «عصر رخاء كبير، فقد أدركت الحكومة الفاطمية، من البداية، أهمية التجارة لرخاء الإمبراطورية ولتوسيع دائرة نفوذها... عمل الفاطميون على توسيع الزراعة والصناعة وتقديمهما، فبدأت في عهدهم حركة تصدير واسعة للمنتوجات المصرية، وعملوا بالإضافة إلى هذا على إقامة شبكة واسعة من العلاقات التجارية وخاصة مع الهند وأوروبا»^(٢)، ولقد «بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شؤون مصر الداخلية، فنشرت الأمن في ربوعها، ووضعت النظم الإدارية الدقيقة، وعينت بالجيش والأسطول، ونمت الزراعة، ونهضت بالتجارة الداخلية، وشجعت الآداب والعلوم والفنون»^(٣)، وبهذا «استطاعوا أن يضمنوا لمصر عهودا متطاولة من الرخاء العظيم بفضل الإدارة التي وضعه أساسها الخليفان الأولان (المعز والعزیز)، والواقع أن أبهة بلاطهم، المشفوعة بنظام للتشريفات دقيق إلى أبعد الحدود لم يكن لها نظير عند أي من منافسيهم. وإن آثارهم العمرانية العظيمة، من مثل جامع الحاكم والجامع الأزهر... لتشهد للهمم العالية التي أبدعتها»^(٤).

لقد «كان المثل يضرب بأيام العزيز في مصر، لأنها كانت كلها أعياداً وأعراساً»^(٥)،

(١) بوزوروث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ص ٩٩، ١٠٠؛ هودجسون، مغامرة الإسلام، ٢/ ٣٢؛ جرونيياوم، حضارة الإسلام، ص ٢٥١.

(٢) برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ١٦٠.

(٣) جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ١/ ١٥١.

(٤) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٥٧.

(٥) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٩٧.

وبهذا نفهم كيف أنه «في عهد الفاطميين أنتجت الورشات المصرية أرقى روائع الفن الإسلامي من المشغولات المعدنية والخزفية والزجاجية والنسجية، في حين أن التراث المعماري الفاطمي ما يزال ماثلاً في شمال إفريقيا ومصر»^(١).

إن «التطور الكبير في تجارة مصر الدولية وافتتاح أسواق جديدة لها، بالإضافة إلى الرفاهية العالية للبلاط الفاطمي، قد أديا إلى ازدهار مختلف فروع الصناعة في مصر الفاطمية؛ كذلك فقد دعت الحياة الاجتماعية المترفة، التي وصفها الرحالون الذين زاروا مصر في هذه الفترة، إلى تقدم الصناعة من حيث الكم والكيف»^(٢).

وبلغ ازدهار التجارة في مصر أن اتخذ التجار الأجانب مقرات دائمة لهم في الفسطاط وفي الإسكندرية، حتى صار لكل جالية أجنبية فندق خاص بهم، ويتولى نظامه واحدٌ منهم، هذا فضلاً عن الفنادق الأخرى المتاحة لسائر التجار، وعن المباني الأخرى التي أنشئت لاستيعاب حركة التجارة العالمية^(٣).

ويرجع تطور التجارة هذا إلى عاملين كبيرين متضافرين؛ الأول: هو ما كانت فيه الخلافة العباسية والعراق من الضعف والفوضى والمشكلات وكثرة المتمردين الذين هددوا العراق وقطعوا طرق الحج، وكل هذا قد ألقى بآثاره السيئة على طرق التجارة بين الشرق والغرب التي تمر بالعراق، مما أدى إلى البحث عن طرق أخرى أكثر أماناً، فبدلاً من أن تسلك التجارة البرية والبحرية طرق العراق والخليج العربي، صارت تسلك طرق الحجاز والبحر الأحمر، وقد توافقت هذه -وذلك هو العامل الثاني- مع القوة التي كانت

(١) بوزوروث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ص ١٠٠؛ هودجسون، مغامرة الإسلام، ٣٨/٢.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٢٩٦؛ جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٥م)، ص ١٣٨.

(٣) جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٤١، ١٤٢.

فيها الدولة العبيدية، واهتمامها بالمواني، وسيطرتها على الحجاز والشام ومصر، وبهذا ازدهرت المدن المصرية لا سيما الفسطاط والإسكندرية إذ صارت مراكز التجارة العالمية، وملتقى الشرق والغرب في ذلك الوقت^(١).

ويجب أن نتذكر في هذا المقام أمرين؛ الأول: أن النيل كان شرياناً تجارياً، فلقد كانت السفن التجارية في ذلك الوقت صغيرة بالنسبة إلى السفن الضخمة التي نعرفها الآن والتي لم تعد تناسبها مجاري الأنهار (لا سيما وأنه لم يكن في ذلك الوقت قناة السويس التي سحبت كل الحركة التجارية من النيل تقريباً)، والثاني: أن النيل كان يمتد بفرع منه أحياناً إلى البحر الأحمر، فكان الخط البحري بين البحرين الأبيض والمتوسط متصلاً عبر قناة تصب في النيل، ولهذا كانت حركة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ميسورة.

وينبغي ألا ينسينا هذا كله أن البلاط العبيدي الفاخر الباذخ^(٢) إنما تغذى أيضاً على الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة على أهل مصر، وقد سرد المقرئ في قائمة هذه المكوس وصرّح أن عائداتها قد بلغت مائة ألف دينار سنوياً، حتى أسقطها صلاح

(١) هودجسون، مغامرة الإسلام، ٣٣/٢، ٣٤.

(٢) لم نستعرض هنا شيئاً من مظاهر الفخامة والبدخ في القصور العبيدية، وذلك لشهرتها، ولكونها لا تتعلق كثيراً بغرضنا في هذه «الخلاصة» من التوقف عند الأمور المهمة، مثلما فعلنا في عدم ذكرنا لأقوال العلماء في تكفير الدولة العبيدية، وعدم ذكرنا لمواقف المقاومة السنية وعلماء أهل السنة للدولة العبيدية، ونرجو من القارئ الكريم أن يرجع إلى المصادر في هذه الأمور لكي تكتمل أمامه الصورة التي لم يتسع لها المجال في أوراقنا الموجزة. وفيما يخص الفخامة والبدخ في القصور العبيدية فللقارئ أن يطلق العنان لخياله، فالمشاهد التي وصفها ابن ميسر والقلقشندي والمقرئ وكذلك رئيس أساقفة صور في سفارة الصليبيين في تاريخه، وغيره من الدراسات، هي أشبه بالخيال والأساطير! وقد خصص د. حسن إبراهيم حسن باباً حافلاً لثراء العبيديين في آخر كتابه «الفاطميون في مصر»، ص ٢٣٣ وما بعدها، وللمؤرخ المصري د. زكي محمد حسن كتاب حافل في هذا الموضوع سمّاه «كنوز الفاطميين»، وقد ألحق به قسماً من اللوحات المصورة التي تقرب مدى ما بلغوه من الفخامة.

الدين^(١)، لقد عمل العبيديون على «أن يستغلوا إمكانات مصر الزراعية والصناعية إلى أقصى درجة، وأن يأخذوا منها أقصى ما يمكن من عائدات... لمواجهة النفقات الباهظة لبلاطهم الفخم واحتفالاتهم الباذخة»^(٢)، وأحسب أن ستانلي لين بول كان ينظر من هذه الزاوية، زاوية الشعب، حين قال: «استمر الحكم الفاطمي الذي وطده المعز في مصر لقرنين من الزمان، دون أية إنجازات واضحة من قِبَل الحكّام، أو إخلاص من قبل المحكومين»^(٣).

لقد كانت هذه الرفاهية العامة غطاءً يستر قطاعات فقيرة ومقهورة من عموم الناس؛ وقد بلغت نفقات الوزير وأهله ربع الميزانية أحياناً^(٤)، فكيف بنفقات الخليفة؟! وهذه النهضة التي شهدتها الزراعة، وهي التي تمثل المورد الأهم للثروة في مصر، والتي تشهد النظرة العامة أن العبيديين اهتموا بها، هذه النهضة كانت تغطي على حقيقة أن الفلاح المزارع صار عبداً لمن أُقْطِعَ الأرض التي هو فيها، «لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق، بل هو قنّ ما بقي، ومن وُلِدَ له كذلك»^(٥)، وكانت القسوة في جمع الضرائب تصل إلى سجن الزوجات والبنات وانتزاع الأطفال^(٦).

٢. الازدهار العلمي والثقافي

ثمة سببان أساسيان دفعا إلى حصول الازدهار العلمي والثقافي في العصر

(١) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ١ / ١٩٥ وما بعدها.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

(٣) ستانلي لين بول، تاريخ مصر، ص ٢٦٤.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٣٧٢.

(٥) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ١ / ١٦١.

(٦) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ١ / ٩٧.

البيدي؛ الأول: ضرورة الدعوة إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي، والثاني: المنافسة مع عواصم السنة الزاهرة مثل بغداد وقرطبة.

فمنذ أن دخل البيديون إلى مصر (٣٥٨هـ) أنشؤوا فيها الجامع الأزهر ليكون مركز الدعوة الإسماعيلية الشيعية، وهو ما بدأت به شرارة الاهتمام بالجانب العلمي، فأخذت تنعقد فيه الدروس التي يلقيها شيوخ الطائفة الإسماعيلية، ثم بدأ الوزير يعقوب بن كلّس (٣٧٨هـ) في تحويل الجامع إلى مدرسة وجامعة حيث رتب سبعة وثلاثين فقيها يتدارسون فقه الطائفة، ثم شرع في الإنفاق عليهم، وبني لهم داراً إلى جوار الأزهر، فصاروا بذلك متفرغين لأمر العلم والدعوة! وبهذا «ازدهرت الحركة الفكرية والأدبية والفلسفية في عهدهم لاتصالها بعقائدهم»^(١).

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله ما عُرف بدار الحكمة أو دار العلم (٣٩٥هـ)، لتنافس بيت الحكمة في بغداد، وهو المكتبة الجليلة والجامعة العريقة التي أنشأها العباسيون قبل قرنين من ذلك التاريخ، وكذلك المكتبة الأموية في قرطبة والتي أنشأها أمويو الأندلس قبل ستين سنة من ذلك التاريخ. وأخذ الحاكم في جمع الكتب من سائر العلوم وسائر الوجوه، ورتب فيها التدريس والوظائف لخدمة طالبي العلم. إلا أن الحاكم نفسه سرعان ما عاد فقتل بعض علمائها، ومن بعد ما بدأت المكتبة مفتوحة على سائر العلوم وسائر المذاهب، أكملت مسيرتها لتكون مركزاً لفكر الطائفة الإسماعيلية.

وورد إلينا نصٌ يفيد بأن داعي الدعاة، وهو رأس التنظيم الدعوي البيدي، كان

(١) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٦٢.

يأخذ العهد على من يدخل في الطائفة الإسماعيلية في هذه الدار، وأنه يجتمع فيها بفقهاء الدولة، وأن رواتب المتصدرين بها كانت كبيرة، وفيها كان الفقهاء يتفقون على موضوع الدروس نصف الأسبوعية للطائفة الإسماعيلية، فهم يكتبونه ليُقرأ في «مجلس الحكمة» الذي ينعقد يومي الاثنين والخميس، وهذا الدرس يعتمد على داعي الدعاة، ثم يأخذ عليه توقيع الإمام الخليفة، وبعد قراءته على أهل الدعوة، يتبركون به لأن عليه خط الإمام^(١).

وأما الكتب، فقد غصّت بها خزانة الكتب، حتى «كانت من عجائب الدنيا، ويقال: إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها: أنه كان فيها ألف، ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك، ويقال: إنها كانت تشتمل على ألف وستمئة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة»^(٢)، حتى إن القاضي الفاضل كان يحتفظ بخمس وثلاثين نسخة من «ديوان الحماسة» ولم يفرط فيها لنفاسة خطاطيها أو مُلاكها قبل أن تؤول إلى المكتبة ثم تؤول إليه^(٣)، وكان لها نظام وفهرسة عند كل قسم، وفيها فوق كتب العلماء لوحات لأكبر الخطاطين^(٤)، ويدل على ضخامتها أنه عندما قضى صلاح الدين على الدولة، أتاح هذه المكتبة للبيع، فاستغرقت عملية البيع عشر سنوات^(٥).

ونبغ الكثير من العلماء في العهد العبيدي، سواءً منهم من اتصل بدار العلم

(١) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) أبو شامة، الروضتين، ٢/ ٢١٠؛ المقرئ، المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٩٢.

(٣) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ٤/ ٢٠٦.

(٤) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ١٢٧.

(٥) المقرئ، اتعاظ الحنفا، ٣/ ٣٣١؛ المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٩٢.

وخزانة الكتب والدواوين الإدارية أو من كان بعيدا عن دوائر السلطة لكنه انتفع بما في هذا العصر من الارتقاء العلمي، واجتذبت هذه الحركة العلمية عددا من علماء المشرق الذين وفدوا إلى مصر، ومن أشهر هذه الأسماء: الحسن بن الهيثم، وابن رضوان المصري، وأبو عبد الله القضاعي وغيرهم^(١).

٣. القضاء على القرامطة

مع أن العبيديين والقرامطة خرجوا من رحم واحدة، هي رحم الحركة الشيعية الإسماعيلية، إلا أن الاختيارات المبكرة فرّقت بينهم، فبينما بقي قسم القرامطة في العراق وشرق الجزيرة العربية ذهب العبيديون إلى المغرب وأقاموا الدولة، وبائع القرامطة في شرق الجزيرة الخليفة العبيدي في المغرب، ولكن بعد فصول وتطورات صارت لكل منهم مصالح متباينة، ثم وقع الصدام الكبير حين تمدد العبيديون إلى الشام، فقطعوا بذلك على القرامطة أمرين: الجزية المالية التي كان يدفعها إليهم الإخشيدون لتجنب شرهم، وبلاد الشام التي يراها القرامطة أملاكا لهم أو على الأقل بلادا يساومون عليها.

أنهك كلا الطرفين الآخر، وتبادلوا الهزائم، واستطاع القرامطة عرقلة استيلاء العبيديين على الشام بل دخلوا بجيشهم إلى مصر، ثم كانت الكلمة الأخيرة للعبيديين الذين هزموا القرامطة وقضوا على آخر قادتهم الأقوياء: الحسين الأعصم، واستطاع العبيديون بما نسجوه من علاقات من بني الجراح في الشام أن يزيلوا نفوذ القرامطة منه.

وكان هذا الخُلف والصدام بينهم مما عاد بالنفع على الأمة، ومما يحسب في حسنات الدولة العبيدية، وإن لم يكن مقصودا لها.

(١) انظر: جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٥٧ وما بعدها.

مساوئ الدولة العبيدية (الفاطمية)

ونعرض هنا لأهم وأبرز هذه المساوئ، وهي: العقيدة الإسماعيلية الباطلة التي تأسست عليها الدولة، وما تسببت فيه من ضرب الوحدة الإسلامية دينيا وعسكريا وسياسيا، ونكوص هذه الدولة عن الجهاد والفتح، وتمكينها للأقليات من اليهود والنصارى.

١. العقيدة الإسماعيلية الباطلة

لا ريب أن أعظم مساوئ الدولة العبيدية هو عقيدتها الباطلة، التي نشرت في الناس ضلالا كثيرا، وأخرجت كثيرا من الناس من النور إلى الظلمات، فأركستهم من الاعتقاد بأن الناس سواسية أحرار أنزل الله إليهم القرآن وأرسل إليهم الرسول ليرفع شأنهم، أركستهم من هذا إلى الاعتقاد بأن الله اختص بعلمه وأسرار دينه وشريعته نفرا معدودين وجعلهم أئمة مستورين أو ظاهرين، وعبد لهم خلقه فليسوا إلا عبيدا لطاعتهم وخدمتهم، وصار إلى هؤلاء الأئمة أمر التحليل والتحريم والخروج عن الشريعة المطهرة التي صارت ظاهرا وباطنا، فالظاهر يعلمه الجهال، والباطن محفوظ مصون لا يعلمه إلا هؤلاء الأئمة. ولا يحتاج المرء كثير نظر كي يدرك «أن هذا المذهب يهدم الإسلام من

أساسه»^(١)، كما أدرك ذلك مستشرق ضالّ.

وقد اشتد العبيديون في فرض مذهبهم، وألزموا المؤذنين بالزيادة الشيعية في الأذان، وحصروا على الاحتفال بأيام الشيعة مثل عاشوراء وغدير خم، ونشر فقهه وتعاليمه.

ومع ذلك كله تشير بعض تصرفات الخلفاء العبيديين إلى أنهم لم يكونوا أهل دينٍ حقاً، فعلى سبيل المثال «لا نجد واحداً من خلفائهم أدى فريضة الحج رغم حرصهم الشديد على إقامة الدعوة لهم على منابر مكة والمدينة، وإنما وجهوا اهتمامهم إلى إحياء بعض المظاهر الإسلامية بفخامة وبذخ داخل عاصمة ملكهم»^(٢)، ولهذا يرى كثير من المؤرخين - حتى من غير أعدائهم - أنهم مجرد أذعياء «سَخَرُوا العقائد الإسلامية لخدمة أغراضهم السياسية»^(٣)، ويسرفون في وصفهم بصفات التحقير والازدراء، وأنهم في الحقيقة زنادقة وملاحدة اتخذوا وسائل المنظمات الإجرامية^(٤).

وأخبار العلماء كثيرة طويلة في تكفير هؤلاء العبيديين ووصف ضلالهم وزندقتهم، وفي إيراد أخبار قتلهم للعلماء والصالحين، ولم نذكر شيئاً منها لشهرتها من ناحية، ولأننا في هذه «الخلاصة» نهتم بالقراءة التاريخية، ومن طالع كتب ابن الجوزي وابن تيمية والذهبي وابن كثير خرج من ذلك بمعلومات وافرة.

وقد تسببت هيمنة العبيديين على مصر في خفوت شأن العلم فيها إلى أن زالت دولتهم فعاد يرجع إليها^(٥).

(١) جرونيباوم، حضارة الإسلام، ص ٢٥٢.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٧.

(٣) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٥١؛ حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٣١٣.

(٤) انظر مثلاً: ستانلي لين بول، تاريخ مصر، ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٨؛ فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٢/ ٥٣٤.

(٥) الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط ١ (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٥م)، ص ٢٩، ٣٠.

وقد وصف القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين الأيوبي، حال أهل مصر مع المذهب الإسماعيلي، فذكر أنه تفشى فيهم وأنهم متأثرين به، مع أنهم مع ذلك يميلون إلى السنة وينحازون إلى جيش نور الدين الشامي الذي هو على المذهب السني، فقال عن مصر:

«كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشريعة وإن كان مُسَمَّاة فإنها مُتَحَاماة، وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويُحَكَّم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تُعبد من دون الله وتُعَظَّم»، ثم قال بعد أسطر: «بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرر لنا في القلوب وُدَّان؛ الأول: ما علموه من إثارتنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحق الأقدم. والآخر: ما يرجونه من فك أسارهم، وإقالة عثارهم»^(١).

وذكر عبد القاهر البغدادي، المتوفى بعد نحو سبعين سنة من سيطرة العبيديين على مصر، أن «أهل مصر ثابتون على السنة إلى يومنا وإن أطاعوا صاحب القاهرة في أداء خراجهم إليه»^(٢).

ونجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى كلا الأمرين، تفشي المذهب الإسماعيلي ومقاومته، والذي يظهر بعد تأمل هذه المصادر والأخبار أن أهل مصر تأثروا به بلا شك تأثر المغلوب بما يمليه الغالب، لا سيما أولئك الذين اقتربوا من السلطة العبيدية وعملوا في دهاليزها، إلا أنه مع ذلك كان تأثيرا سطحيا وظاهريا لم يبلغ فيهم أن اعتنقوه عن قناعة وإيمان، بل على الأحرى قاوموه وعاندوه ولم يتشربوه. وهذا لا شك مما يُعدُّ في فضائل أهل مصر ومناقبهم.

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ٣٥٨/٢، ٣٥٩.

(٢) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ط ٢ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧م)، ص ٢٧٥.

٢. ضرب الوحدة الإسلامية

أثارت هذه العقيدة الباطلة الضغائن بين المسلمين، فمزقتهم وجعلتهم شيعة، فصار معتنق هذه الأفكار يبغض أبا بكر وعمر وعثمان، وسائر الصحابة إلا قليلا منهم، ثم سائر خلفاء بني أمية وبني العباس، وهؤلاء هم الذين نشروا الدين وفتحوا البلاد وقادوا أمة عظيمة في الدين والدنيا معا!

ونتيجة لهذه الأحقاد المتركمة والغیظ المترسخ في نفوس هؤلاء، الذين كانوا «بمثابة ورم خبيث في جسم الخلافة»^(١)، وقعت المذابح العظمية التي أوقعها القرامطة بأهل العراق والشام، وبالحجاج في كل عام، حتى الحجاج في بيت الله الحرام، ثم هذه الدماء التي قامت عليها الدولة العبيدية في اليمن وفي المغرب ثم في مصر والشام، لقد ظل المغرب مشتتلا طوال عهد العبيديين إما بمحاولتهم فرض سلطتهم أو بالثورات التي اشتعلت ضدهم، أو بحروب القبائل المغاربية التابعة للعبيديين والمناوئة لهم التي تبعت للأمويين في الأندلس، إن هذه الأرواح التي أزهقت والدماء التي سالت أكبر من أن تُحصَر!

وأكثر من ذلك ما ترتب على ذلك من الخوف والفرع والخسائر في الأموال والعمران، فهذه خسائر فوق ما يُتصور، ثم أكثر من ذلك ما أُرهِق به العقل المسلم وأهل العلم من الجدل لدحض هذه العقائد الباطلة ودفعها، وهو ما خصم مجهودا إسلاميا عزيزا في الرد على اليهود والنصارى والوثنيين.

كيف يمكن حساب الخسائر المترتبة على دعوة تستمر عددا غير معروف من السنين، يخرج منها ثلاث فروع على الأقل تؤسس حكما مستقلا في أنحاء متعددة، يعيش فرعُ

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب المطول، ٢/ ٥٣٥.

واحد منها (الدولة العبيدية) إلى مائتي سنة، وتمدد على نحو ثلث العالم الإسلامي؟! إنه منذ بدء الإسلام لم يدخل المسلمون في تمزق وانقسام خطير كهذا الذي تسببت فيه الدولة العبيدية، إن «قيام الدولة الفاطمية بالمغرب هو في الواقع انقلاب خطير أدى إلى قطع علاقة المغرب بالمشرق وبالخلافة العباسية»^(١)، لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تبزغ دولة وتترسخ وهي تعلن أنها خلافة منافسة، وينقسم العالم الإسلامي بين خلافتين. وبناء على هذا الوضع الخطير وغير المسبوق، أعلن عبد الرحمن الناصر، الأمير الأموي الذي يحكم الأندلس وأجزاء من المغرب الأقصى أنه خليفة للمسلمين، وكانت الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل مستقلة عن العباسيين ولكن أمراءها يكتفون بلقب الأمير ولا ينافسون الخلفاء، فلما كان هذا الزمن وتبين ضعف الدولة العباسية، ثم بزوغ الخلافة العبيدية (الفاطمية)، أعلن الناصر نفسه خليفة، فقد كانت الأندلس في ذلك الوقت في أزهى عصور ازدهارها، لقد كان الناصر عمليا ينافس العبيديين وينازعهم، فليس معقولا أنه طمح وهو في أقصى الغرب أن يكون خليفة على الحقيقة للمسلمين جميعا، لكن إعلانه الخلافة هو ضربة جديدة في صميم الخلافة العباسية ومكانتها، فذلك الإعلان يستند إلى أن الخليفة العباسي هو مجرد ألعوبة بين النساء وحاشية القصر.

وفي داخل البلاد كان حرص العبيديين على إحياء أعياد الشيعة^(٢) وزيادة الأذان وغيرها من مظاهر مذهبهم قد أثار بدوره ردات فعل سنية أخرى، وقد وُوجهت بقمع مباشر، مما

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر، ص ١٤١.

(٢) اصطنع العبيديون ستة أعياد إضافة إلى يوم عاشوراء ويوم الغدير، وهي ستة موالد: مولد النبي ومولد علي ومولد فاطمة ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد الخليفة الحاكم في ذلك الوقت. انظر: ابن الطوير، نزهة المقلتين،

جعل البلاد الإسلامية مسرحاً لمعارك تطورت أحياناً إلى حروب ومذابح.

أي أن الدولة العبيدية، بعقيدتها الإسماعيلية الباطلة، تسببت في تمزق الأمة الإسلامية على مستوى الدولة والوجود السياسي العام، وكذلك على مستوى المجتمع والحضور الديني والشعائري الداخلي.

٣. خفوت شأن الجهاد وضياع البلاد

يحلو للمؤرخين المقارنة بين هذه الدولة العبيدية (الفاطمية) وبين الدولة الأموية، ذلك أن خلفاء كلا الدولتين أربعة عشر خليفة، إلا أن خلفاء الدولة العبيدية طالت أعمارهم وطال سنوات حكمهم، فبينما كان عمر الدولة الأموية كلها تسعين عاماً، نجد خليفة واحداً في الدولة العبيدية قد حكم ستين عاماً لوحده، وهو المستنصر بالله، بينما بلغ عمر الدولة أكثر من قرنين من الزمن. ومع هذا فلا مقارنة بينهما في الجهاد، فالأمويون فتحوا الدنيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكانت سوق الجهاد قائمة في دولتهم، وأما العبيديون فيكاد ألا يكون لهم جهاد أبداً، ومحاولاتهم فيه محاولات هزيلة بائسة.

قامت الدولة العبيدية في شمال المغرب العربي على ساحل البحر المتوسط، أي أنها كانت على خط تماس مباشر مع الروم والبيزنطيين، ليس بينهم سوى البحر، ومع ذلك فإن حركة جيوشها لم تتجه مطلقاً إلى هذه الناحية، بل كانت كل غايتها هي مقاتلة المسلمين في المغرب وفي المشرق كذلك.

فدولة الأغالبة التي لا تقارن في القوة والانتساع وكثرة الموارد بالدولة العبيدية سجّل لها التاريخ فتح جزيرة صقلية، ومحاولات للتوسع في جنوب إيطاليا حتى أبواب روما، وأما العبيديين فلم تكن لهم فتوح!

والمواجهات التي جرت بين العبيديين وبين البيزنطيين على قلّتها كانت إما دفاعاً من

العبيدين عن أنفسهم أمام هجمة بيزنطية، أو كانت ضمن عمليات وراثة العبيدين للأرض من الدول الإسلامية التي سبقتهم في صقلية وفي الشام، بمعنى أن العبيدين واجهوا البيزنطيين حين جاء البيزنطيون في لحظة الانتقال للاستيلاء على ما كان من أملاك المسلمين الذين أزالهم العبيديون، فها هنا تواجه العبيديون معهم. وأما أن العبيدين سعوا لتوسيع رقعة الإسلام بفتح بلاد جديدة فهذا ما لم يحدث، وربما لم يخطر ببالهم أصلاً.

وأشد من ذلك أن البلاد التي ورثها العبيديون من المسلمين تساقطت في عهدهم، فانحسرت رقعة الديار الإسلامية في ظل العبيدين عما كانت عليه قبل وجودهم، فذهبت منهم صقلية، وسقطت أمامهم جزيرة كريت (٣٥٠هـ) وكان العبيديون حينها في أوج قوتهم^(١)، ثم سقطت منهم مدن الشام حتى عسقلان أمام الصليبيين.

وهم في هذا يفارقون الدول المغربية السنية والخارجية التي نشرت الإسلام في قبائل المغرب وقبائل جنوب الصحراء، ويفارقون حتى الدول الشيعية الأخرى التي قامت على أطراف الديار الإسلامية فنشرت الإسلام في الأنحاء المتاخمة لها كالدولة الزيدية في طبرستان وغيرها، بل يفارقون حتى الربضيين، أولئك المغامرين الأفذاذ القلة الذين انطلقوا في ظروف مستحيلة، والذين لم تكن لهم دولة تمدهم، فساروا في البحر من الإسكندرية حتى فتحوا جزيرة إقريطش (كريت) وظلوا فيها مائة وأربعين سنة يضربون المثل في البسالة والصمود، وكانوا كالشوكة في حلق الإمبراطورية البيزنطية العريقة^(٢)، أو

(١) مع الأسف لا تتوفر معلومات نستطيع أن نفهم منها ماذا فعل العبيديون لمساعدة المسلمين في جزيرة كريت، والشذرة القليلة التي جاءتنا من مصدر عبيدي وبيزنطي تكشف عن محاولة دعم ضعيفة ولمرة واحدة، ولم يكن هذا متناسباً مع قوة الدولة العبيدية في ذلك الوقت، مما دفع إلى الاعتقاد بأن المعز بالله كان يوفر قواته «لاستخدامها في فتح مصر». ينظر: اسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، ص ٢٦٠.

(٢) للتوسع في قصة الفتح الإسلامي لجزيرة كريت وأثاره المهمة على الدولة البيزنطية، ينظر: اسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م).

أولئك المغامرين البحريين الذين أنشؤوا إمارة إسلامية بين فرنسا وسويسرا وتمددت أحيانا إلى شمال إيطاليا وجنوب ألمانيا^(١)!!

لهذا قال علامة تونس عبد العزيز الثعالبي: «استمر نجم الإسلام صاعدا في أوروبا... إلى أن ظهرت النبعة الآثمة، نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط، وقُدِّر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوروبا، وانقلبت جيوش إفريقية مغيرة على العالم الإسلامي لتقويض دولة بعد أخرى، وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق، وبسبب ذلك تحولت السياسة الإسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب إلى الدفاع والتسليم»... ومضى يسرد وقائع المأساة^(٢).

وخلاصة القول: لقد كانت العلاقة بين العبيديين وبين غير المسلمين يهيمن عليها الهدوء والعلاقات السياسية، بينما كانت علاقتهم مع المسلمين يهيمن عليها القتال والعداء. وتسود هذه الظاهرة منذ بداية الدولة العبيدية إلى نهايتها.

لقد ركَّز الخلفاء الأوائل على إخضاع المغرب ثم التمدد إلى مصر والشام، فقاتلوا في كل هذه المناطق، ولم يقع قتالٌ بينهم وبين البيزنطيين إلا على الحدود الموروثة كما ذكرنا، ولهذا «اتسمت علاقة الخلفاء الفاطميين بالدولة البيزنطية عموما بالوفاق والسلام، باستثناء ما وقع في مستهلها من صدام مع اليونانيين بسبب الصراع على سوريا، وفي وقت لاحق من القرن الحادي عشر ترسخت هذه العلاقة نتيجة تعاونهما في التصدير للخطر

(١) تعرف هذه الإمارة بإمارة جبل القلال، وقاعدتهم مدينة تسمى: فرخشنيط (فراكستوم)، ينظر في أخبارهم: شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٣٢م)، ص ٢٢٩ وما بعدها؛ محمد عبد الله عنان، ١/ ٤٦٤ وما بعدها؛ حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٩٠.

(٢) عبد العزيز الثعالبي، «مغازي العرب في أوروبا وجزائر البحر المتوسط»، منشور ضمن: شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٢٩٩.

المشترك المتمثل في تهديد السلاجقة ومغامرات التركمان في سوريا والأناضول»^(١).

هذا الاستثناء المذكور هو معركة المجاز البحرية بين الأسطولين العبيدي والبيزنطي في عهد المهدي، وذلك كان في سياق وراثة العبيديين لممتلكات الأغالبة، وهي جزيرة صقلية. وكذلك شن القوائم غارة على جنوة (٣٢٢هـ)، وفيما سوى ذلك فقد فرط العبيديون في مكتسبات المسلمين، لقد قامت دولتهم والمسلمون يُمسكون بخناق البحر المتوسط، فماذا حصل؟ لقد «مالت الدولة الفاطمية إلى مهادنة البيزنطيين ومصالحتهم، والاعتراف الضمني بسيادتهم على الحوض الشرقي للبحر الأبيض»^(٢)، وهو ما كانت له آثاره الكارثية على مجمل التاريخ الإسلامي.

وبعد التمدد إلى مصر والشام، نرى أن «الجيش الفاطمي لم يختبر على الإطلاق بعد فتح مصر والشام وحرب القرامطة، ولم يدخل هذا الجيش في أية مواجهة حقيقية خارج حدود مصر»^(٣)، وبهذا فشلوا أن «يحققوا أكثر من تأمين موطن قدم لهم على الساحل الفلسطيني. وإذا أخذنا الفوضى التي كانت سائدة في سوريا وفلسطين آنذاك بعين الاعتبار، جاز لنا أن نعد ذلك فشلاً ذريعاً»^(٤).

وحتى هذا التمدد إلى الشام ينطوي على هذه المفارقة التي ذكرناها، أعني: هدوء العلاقة مع غير المسلمين واشتغالها مع المسلمين، ذلك أن الجيش العبيدي في عصر العزيز أخذ في غزو المدن الإسلامية التابعة للحمدانيين، فلما استنجد الحمدانيون بالبيزنطيين فنهضوا إليه، انسحب الجيش العبيدي قبل أن يواجه الجيش البيزنطي،

(١) بوزوروث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ص ٩٨.

(٢) حسين مؤنس، «أثر ظهور الإسلام في البحر المتوسط»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، مايو ١٩٥١م، ٩٤/١.

(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٧.

(٤) عبد الحي شعبان، الدولة العباسية: الفاطميون، ص ٢٢٥.

فتوفرت الفرصة للبيزنطيين لمهاجمة مدن الشام الشمالية حتى بلغ مدينة طرابلس!

ومن العجيب اللافت للنظر أن أسطول العزيز بالله احترق مرة قبل أن ينطلق إلى البيزنطيين، ثم احترق مرة أخرى قبل أن يشتبك معهم، ولما خرج العزيز بالله بنفسه على رأس جيشه لمواجهة البيزنطيين مات قبل أن يغادر حدود مصر^(١)! فكأن الله تعالى أبى أن يشرف هؤلاء بالجهاد!!

والناظر في أخبار الأسطول الفاطمي التي تصف قوته، يتوقع أن يقرأ أخباراً عظيمة في جهاده البحري، لكننا نتفاجأ بأن هذا الأسطول «لم يكن يهدف إلى مغازاة البيزنطيين، بل إلى حماية شواطئهم الطويلة منهم»^(٢)، فالدولة العبيدية هي الدولة الوحيدة القوية التي امتلكت شواطئ مصر والشام ولم تطمح إلى قبرص، تلك الجزيرة الكبيرة الشديدة الأهمية في ميزان البحر المتوسط، فلقد فتحها الأمويون والمماليك والعثمانيون.. بل لقد سقطت قبرص أمام البيزنطيين، والعبيديون في أوج قوتهم زمن المعز لدين الله الفاطمي.

وقد وضع القلقشندي عنواناً فخماً ولكن لم يضع تحته شيئاً! قال في العنوان «في اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتنائهم بأمر الجهاد»، ثم أخذ يذكر عدة الأسطول وكثرة مراكبه ونظام خروجه وتوديعه، ولم يذكر شيئاً عن معاركه، بل تمخض العنوان الكبير عن عبارة خافتة تقول: «تخرج (المراكب) إلى البحر الملح فيكون لها في بلاد

(١) هذا الإخفاق المتكرر يثير الشك في أن بعض النصارى الذين قرَّبهم العزيز بالله ومكَّنهم من مفاصل الحكم في زمنه كانوا جواسيس للروم، وإلا فهل هو طبيعي أن يحترق الأسطول مرتين ثم يموت الخليفة فجأة، كل ذلك قبيل حرب مرتقبة مع الروم؟! صحيح لا نملك دليلاً على شيء، ولكنه هاجسٌ مُلِحٌّ، نبثه هنا على سبيل الاحتمال، ولربما يوفق باحث آخر ليجد ما يثبت أو ينفي هذا الاحتمال، ويزيد من الشك أن بعض المسلمين اتهم بذلك أهل الذمة وتسبب ذلك في فتنة حينها.

(٢) حسين مؤنس، «أثر ظهور الإسلام في البحر المتوسط»، ١/ ٩٤.

العدو الصّيت والسّمة»^(١).. فما ثم إلا الصيت والسمة!!

ولهذا لا نرى نتيجة؛ فقد ظل البيزنطيون «محتفظين بالفتوحات والمكاسب التي أحرزوها قبل دخول الفاطميين مصر»^(٢).

وكان وزراء الدولة العبيدية يتحالفون مع غير المسلمين ضد المسلمين السنة، فحتى لما جاءت الحملات الصليبية، يقول مؤرخ متعاطف مع الدولة العبيدية، «لم يدرك الوزير الأفضل (بن بدر الجمالي)، وهو صاحب الأمر في مصر، الأخطار المحدقة بمصر والأراضي الإسلامية ولا حقيقة أهداف الغزو الصليبي، حتى أنه ظن أن باستطاعته التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة، كما سبق وظن الوزير اليازوري أن بإمكانه التحالف مع البيزنطيين ضد العباسيين والسلاجقة معاً»^(٣)، ويحاول المؤرخ المتعاطف تبرئة الخلفاء أنفسهم فيقول: «لا شك أن الأفضل يتحمل وحده وزر سقوط مدن الشام الساحلية التي كانت للفاطميين في أيدي الفرنج، فقد اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية... بل بلغ الأمر إلى أن وصل بلدوين ملك بيت المقدس على رأس حملة على الأراضي المصرية حتى الفرما واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته»^(٤).

وتمثل قصة الوزير السني رضوان بن ولخشي نموذجاً معبراً عن حال الجهاد في الدولة العبيدية، فقد جاء هذا الوزير على رأس ثورة شعبية حين ضاق المسلمون ذرعاً بكثرة الأرمن والنصارى وتعاضم نفوذهم وكثرة كنائسهم حتى كأن البلاد ستصير نصرانية،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣/ ٥٩٦، ٥٩٧.

(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٣٣٤.

(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٥٩؛ حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ٣٠٩.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٦٣، ١٦٤.

وذلك بأثر سياسة الوزير الأرمني النصراني بهرام، فلما ثار المسلمون عليهم، تولى رضوان منصب الوزارة رغماً عن الخليفة الحافظ لدين الله الذي كان محباً و متمسكاً بوزيره النصراني الأرمني، ومن ضمن إصلاحات الوزير رضوان استعدادته لجهاد الفرنجة بتعمير الحصون وشحن الثغور بالعدد والعدة، وشرع في تجهيز الجيوش لغزو الفرنجة، لكن الخليفة الحافظ تأمر عليه، واستدعى الوزير النصراني الأرمني مرة أخرى فأسكنه معه في قصره وأشركه في تدبير الأمور، ثم حرض الخليفة طوائف من الجنود على الوزير السني حتى انقلبوا عليه، واضطر إلى الهرب، وجرت عليه فصول في محنته انتهت إلى اعتقاله ثماني سنوات، ثم إلى هروبه، ثم مقتله^(١).

وما من استثناء في هذا السبيل إلا الوزير الإمامي طلائع بن زريك، الذي كانت له هجمات وغارات عسكرية على الصليبيين، وحاول التحالف مع نور الدين زنكي في الشام، وأنشأ بعض الحصون لصد هجماتهم، إلا أنه لم يكمل في هذا المضمار، وانتهى الأمر بأن التزم للفرنجة بجزية سنوية ٣٣ ألف دينار^(٢).

وحفلت الدولة العبيدية في آخر أيامها بأخبار الخيانات ومحاولات التحالف مع الصليبيين ضد الزنكيين، تولى كبر ذلك الوزير ضرغام، ثم الوزير شاور مرات متعددة. وقد اختصر القاضي الفاضل حال الجيش العبيدي بقوله: «وبها (مصر) أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر»^(٣).

وبعد انقضاء الدولة العبيدية، حاول بعض أتباعهم استعادتها من جديد بالانقلاب على

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٢١٦ وما بعدها.

(٣) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ / ٣٦٠.

صلاح الدين، فما كان منهم إلا أن راسلوا الفرنجة ليعينوهم على ذلك (٥٦٩هـ)، لولا أن كُشف تدبيرهم^(١)!

وفي الجبهات الأخرى بخلاف البيزنطيين، لا يبدو الحال أحسن حالا، فلا يُعرف للدولة العبيدية جهادٌ تجاه مملكة النوبة في جنوب مصر^(٢)، وهي الدولة التي كانت تدفع الجزية للأخشيديين قبل أن يأتي العبيديون، ثم أزالها المماليك فيما بعد، فأزالوا بهذا تهديدا خطيرا وحققوا بذلك نتيجة حاسمة في تاريخ الإسلام كله.

وحتى صقلية، التي ورثها العبيديون من الأغالبة، سقطت في عهدهم، ونرى تخلياً عنها في اتفاقية الإمبراطور البيزنطي باسيل مع الظاهر (٤١٨هـ)، فقد كان فيها ألا يعين الظاهر أهل صقلية، وظلت الجزيرة تسقط عبر ثلاثين سنة في عهد المستنصر بالله دون أن يمدّ لها عوناً، كالذي حاول به استعادة المغرب بتسليط قبائل بني سليم وبني هلال الذين استباحوا المغرب وعصفوا بدولة بني زيري! كذلك فلم تمتد الدولة العبيدية يد العون لابن عباد قائد المقاومة في صقلية، حتى سقطت نهائياً أمام النورمان (٤٨٤هـ).

٤. حكم الأقلية وتمكين اليهود والنصارى

ما من شك في أن العصر العبيدي كان عصر انتعاش كبير وتمكين قوي للأقليات من اليهود والنصارى، ومهما قيل في شأن الضرورات التي قد تحمل العبيديين على الاستعانة بهم فإن الناظر في أخبار هذه الفترة يرى الأمر أوسع من ذلك، ولا يمكن أن تفسره الضرورة وحدها، إن الذي فعله العبيديون يشبه ما فعله الاحتلال الأجنبي في العصور الأخيرة من تمكين الأقليات الدينية والعرقية في بلادنا، ولم يكن الأمر مقتصرًا على

(١) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/١٦٢، ١٦٣.

(٢) مصطفى سعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م)، ص ١٣٠.

الوظائف الإدارية التي يُبرر بها أن اليهود والنصارى أكفأ من غيرهم، ولم يكن مقتصرًا كذلك على مسألة الثقة التي يبتغيها نظام حكم مخالف لمذهب عموم الناس، فإن الروايات التاريخية تشهد بأن سياسة العبيديين مثلت تمكينًا مقصودًا لليهود والنصارى وإذلالًا مقصودًا لأهل السنة، اللهم إلا فترات قصيرة ومتقطعة كالتى كانت في عصر الحاكم بأمر الله.

فمن ذلك مثلاً، أنه ومنذ وصل المعز إلى مصر طلب إليه البطريك السرياني بناء كنيسة، فأذن له، ثم أمدّه بالمال اللازم لبنائها، ولما اعترض المسلمون على هذا، خرج المعز بنفسه على رأس قواته وأشرف على وضع أساس الكنيسة، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة^(١)، فهذا من الأمور التي لا يُمكن تفسيرها بضرورة، لا سيما والمعز في أول حكمه، وهو يَرجو أن يتقرب إلى الناس ولا يصادمهم!

وتزوج ابنه العزيز بالله نصرانية، فصارت أم الخليفة الحاكم بأمر الله، وجعل العزيز بالله أخاها بطريكاً على بيت المقدس (٣٧٥هـ)، وجعل أخاها الثاني مطراناً للقاهرة وهذا الأخير رُقي في عهد الحاكم ليصير مطراناً للإسكندرية، وكانت واسعة الثروة، وأوقفت الكثير من الأموال على الكنائس والأديرة.

ومن غرائب العزيز هذا، وهو ما يندرج في السياسات غير المفهومة لتمكين النصارى، أنه أرسل صهره الراهب إلى أمير صقلية جعفر بن محمد بن أبي الحسين الكلبي، ليُسَلِّم إليه القلاع التي فتحها في جهاده مع الروم ويسلم إليه كل من أسره من الروم، فلم يفعل، وكان الراهب سيأخذهم ليعيدهم إلى الروم، فقد خرج من صقلية إلى القسطنطينية! وقد تحايل جعفر على العزيز ليحتفظ باستقلاله فأوهمه أن أمراء الأندلس يساوونه على

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٩١.

الدخول في طاعتهم^(١)!!

لم يخف مستشرق تعجبه قائلاً: «أظهر خلفاء الفاطميين الأولون لأهل الذمة تسامحاً نعجب له»^(٢)، وكان أطباء الخلفاء من اليهود والنصارى، فكان إسحاق بن سليمان اليهودي طبيب المنصور^(٣)، وكان موسى بن العازر اليهودي طبيباً للمعز، وهو مؤسس سلسلة من الأطباء اليهود خدموا الخلفاء العبيديين^(٤)، وكان منصور بن مقشّر النصراني طبيب العصر في عهد العزيز بالله.

وأما بلاط الحكم والمناصب الكبرى فقد كان الوزير الأثير لدى العبيديين هو يعقوب بن كلس، اليهودي، وهو الذي فرّ من مصر وحرّض المعز على غزوها، وقيل إنه أسلم ولكن لم تفتأ المصادر تتعامل معه على أنه يهودي، ويحب مؤرخ يهودي متعصب مثل برنارد لويس أن يشيد به ويجعله مؤسس النظام الإداري والمالي الذي نهضت به الدولة العبيدية^(٥)، ويوصف هذا النظام بأنه «أكثر الإدارات مركزية تسلسلية هرمية في الإسلام»^(٦)، ويعقوب هذا هو الذي أحبه العزيز بالله حبا جماً حتى قال له: «وددت أنك تباع فابتاعك بملكي»^(٧)، ولما مات يعقوب حزن عليه العزيز حزناً عظيماً وأعلن الحداد وأغلق دواوين الدولة وأنزله قبره بنفسه وتولى تلحيده بيده، ثم نصّب في الوزارة بعده

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيما بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط ١ (بيروت:

دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ٢/٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ١/١١٢.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١/٢٣٦.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٩٠، ٩١؛ جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٨١.

(٥) برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ١٥٧، ١٦٠.

(٦) عبد الحي شعبان، الدولة العباسية: الفاطميون، ص ٢٣٦.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/٤٤٨.

عيسى بن نسطورس النصراني فازداد به نفوذ النصارى، وجعل نائبه على الشام يهوديا هو منشا بن إبراهيم القزاز فازداد به نفوذ اليهود، «وجرى على المسلمين تحامل عظيم»^(١)، وقيل في ذلك أشعار هجاء ساخرة تصف ما آل إليه وضع اليهود والنصارى في بلاط العبيدين^(٢).

وبرغم ما قيل في عصر الحاكم فإن وزيرين من وزرائه كانوا نصارى وهما منصور بن عبدون وزرعة بن نسطورس^(٣)، وفوق ذلك فقد شهد بروز رجلي أعمال يهوديين، هما أخوان، «كان أحدهما يتصرف في التجارة والآخر في الصرف»^(٤) فبلغا درجة عظيمة من الشراء، منهم إبراهيم بن سهل التستري الذي صار متعهد الشراء للخليفة الظاهر بن الحاكم، فكان مما اشتراه له جارية، صارت أم الخليفة المستنصر بالله، فلما تولى المستنصر صغيرا جاءت هذه الجارية التي صارت الأمرة الناهية بهذا الذي اشتراها فجعلته فوق الوزير، وكان الوزير نفسه أيضا يهوديا ولكنه أعلن إسلامه، وزيار، وكثر منه اليهود في مناصب الدولة.

ولما جاء في الوزارة بدر الجمالي وابنه الأفضل، وهما من الأرمن، غصت أعمال الدولة بالنصارى في الوظائف، ومنها الوظائف الكبرى كالكتاب ومتولي الديوان، وزادت هجرة الأرمن إلى مصر، حتى وفد إليها بطريق الأرمن واستقبل بحفاوة، وصارت قوة الوزراء أرمنية نصرانية. حتى قال مؤرخ نصراني معاصر: «جميع مقدمي المملكة

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/ ٤٤٨.

(٢) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٩٨.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٢م)، ٣/ ٥٦٢.

(٤) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ٢/ ٣١٨.

والناظرين في دواوينها، وتدبير أمورها، كلهم نصارى، وهم المُلَّاك النافذ أمرهم»^(١).

ولما استقل الأمر بالخلافة بعد تخلصه من وزيريه الأفضل والمأمون البطائحي برز في عهده ثلاثة لجباية الأموال، مسلم ويهودي سامري، ومعهما نصراني عُرف بالراهب، واكتفى الأمر منهم بالقسم على الكتب المقدسة أنهم لا يظلمون الناس، فبدلوا له الأيمان الكاذبة، وأطلقت أيديهم في مصادرة أموال الناس واستصفاء أموالهم وإذلالهم^(٢)! وكان كلما خرج للصيد قريبا من دير نَهيا تبرع لهذا الدير بعشرة آلاف درهم^(٣)!

ثم بلغت المأساة ذروتها لما تولى بهرام الوزارة بهرام الأرمني، وهو أخو بطريك الأرمن الذي جاء إلى مصر^(٤)، وقد تولاهما ولا يزال باقيا على النصرانية، وكان منصب الوزير حينئذ يجمع بين قيادة الدعوة الدينية وقيادة الحكم السياسي والإداري، وكان الوزير يرتقي المنبر مع الخليفة ويصلي الجمعة، فلُقِّب بهرام بـ «سيف الإسلام تاج الخلافة، وهو نصراني»^(٥)!! وذلك «لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية»^(٦)، وفي عهده كثر الأرمن في مصر، وكثر بناؤهم للكنائس والأديرة، حتى صار كل رئيس أرمني يبنّي كنيسة، وكثروا في الوظائف والولايات الكبرى، وكان عصر ذلة واستضعاف للمسلمين، حتى ثاروا عليه وجاءوا بالوزير السني رضوان بن ولخشي، ولكن الخليفة الحافظ جاء ببهرام

(١) سلام شافعي محمود، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي، (القاهرة: دار المعارف،

١٩٨٢م)، ص ٢٢. نقلا عن الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء البطارقة.

(٢) ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية،

٢٠١٠م)، ص ٢٠ وما بعدها؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٧٤ وما بعدها.

(٣) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢١٧.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٩٤.

(٥) المقرئ، اتعاظ الحنفا، ١٥٦/٣؛ المقفى الكبير، ٢/٢٩٤، ٢٩٥.

(٦) سلام شافعي محمود، أهل الذمة، ص ٢٢.

مرة وأسكنه معه في قصره، ولما أعاده أعاد معه الأخرم النصراني على رأس ديوان النظر المختص بالأموال، ولما مات بهرام حزن عليه الخليفة حزنا شديدا وأمر بإعلان الحداد وتعطيل الدواوين ثلاثة أيام، وكان في طليعة مشيعيه!

لقد تقلد النصارى واليهود أرقى المناصب، وتشهد لهذا كثرة الكنائس التي بُنيت أو أعيدت إلى ما كانت عليه^(١)، وكاد ديوان المجلس، الذي هو أهم دواوين الدولة العبيدية، يكون حكرا على النصارى^(٢)، بل وكان الخلفاء يحتفلون بالأعياد النصرانية مثل الميلاد والغطاس وخميس العهد، وكانوا يضربون الدنانير في هذا العيد الأخير^(٣)، وزادت موارد الكنائس المصرية زيادة عظيمة في عهد العبيديين^(٤).

ونحن إذا اقتصرنا على عبارات المؤرخين الذين لم يكتبوا بنفسٍ إسلامي، أو كانوا غير مسلمين أصلا، لخرجنا بجمهرة من العبارات الدالة على سياسية العبيديين، ذلك أنه «باستثناء القسم الأول من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله كان اليهود والمسيحيون يحظون بمعاملة طيبة نسبيا، بل إن عددا منهم تقلد مناصب هامة في الدولة»^(٥)، وهذه الوظائف هي التي «أقصوا المسلمين عنها»^(٦)، لقد «استعاض الفاطميون عن تحويل مسلمي مصر إلى المذهب الإسماعيلي بكسب ود أهل الذمة»^(٧)، «والحق أن أبناء هاتين الطائفتين (اليهود

(١) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢١٧.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٢٦٠، ٢٦٢.

(٣) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٦١؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٣٧١.

(٤) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢١٧.

(٥) بوزوروث، السلالات الإسلامية الحاكمة، ص ٩٩.

(٦) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ١٩٩.

(٧) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٩٠؛ حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢٢٥.

والنصارى) قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة»^(١)، «وعظم نفوذهم حتى صار لا يعمل شيء في بلاط المعز إلا بمعونة اليهود»^(٢).

ولا عجب أنه في ظل «هذه الظروف سرعان ما وجد يهود مصر أنفسهم كما توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد في أعقاب انتصار الفاطميين من المغرب ومناطق أخرى في الشرق الأوسط»، ذلك أن «الفاطميين حاولوا كسب ود هذا العنصر النشط (اليهود) من الشعب المصري»^(٣).

ومن أوضح ما يؤكد على حقيقة الحال، شهادة مستشرق بأن «أكثر الفتن التي وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط»^(٤).

وبهذا «ظل الفاطميون في حكمهم مصر كحكومة أقلية منفصلة عن مجموع رعاياها»^(٥)، وكعادة هذا النوع من الدول «تم تأسيس ملكهم على الخوف، واستمر بواسطة إرهاب فيالقهم الأجنبية»^(٦).



(١) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢١٧.

(٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ١/ ١١٣.

(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٩٠.

(٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ١/ ١١٢.

(٥) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٨٩.

(٦) ستانلي لين بول، تاريخ مصر، ص ٢٤٧.

وقفات مهمة في تاريخ الدولة العبيدية

حفل تاريخ الدولة العبيدية بالكثير من الأمور التي تستحق التوقف عندها لنستفيد منها في واقعنا المعاصر، فإن كثيرا من الموضوعات المطروقة في الاشتباك الفكري المعاصر للحركة الإسلامية نجد له نظيرا وشبيها في أروقة الدولة العبيدية، فلقد كانت دعوة سرية أنشأت تنظيما سريا عمل على تأسيس دولة، ونجح في ذلك، وهذا بحد ذاته فصل ضخمة يجب التوقف عنده، وقد فعلنا ذلك عند حديثنا عن التنظيم السري والإعداد، ولكن بقيت فصول أخرى لم نشأ أن نقطع بها حديث التاريخ كي لا يتشتت القارئ الكريم، فأفردناها هنا، لتحسن الاستفادة منها إن شاء الله.

وهذه الفصول تتعلق أصالة بالأفكار الرائجة في واقع الحركة الإسلامية، فإن بعض هذه الأفكار قد أوردتنا المهالك، وضيّعت علينا فرصا ثمينة، وإنما نسجلها هنا راجين من الله ألا يتكرر الغفلة عنها، وألا يضطر جيلٌ قادم إلى تكرارها من جديد!

١. وقفة في أسباب السقوط

كان قيام الدولة العبيدية شرًّا على المسلمين، وصفحة قاسية من صفحات تاريخنا، وكذلك كان زوالها نصراً وفتحاً على المسلمين، وكانت أولى بشائره عودة الوحدة بين

مصر والشام، وتحرير بيت المقدس، وظلت مصر والشام متوحدة في العموم منذ ذلك الوقت وإلى سبعة قرون أخرى!

هذا إذا نظرنا للمسألة بعين الأمة الإسلامية كلها، ولكن لا يمنع هذا من أن ننظر إلى المسألة بعين الدولة العبيدية نفسها، نحاول من ذلك أن نفسر الأسباب التي عملت على سقوط هذه الدولة القوية بعدما عاشت قرنين من الزمن.

ويجب أن نكرر من جديد، أن نظر المؤرخ في أسباب السقوط يناظر نظر الطبيب في أسباب الموت، فمثلما يجتهد الطبيب في ملاحظة أسباب الموت والسعي في علاجها يحاول المؤرخ أن يفعل ذلك لا في شأن الجسد بل في شأن الأمم، مع اعتراف الجميع بأن موت الإنسان محتم كما أن زوال الأمم محتم، فكل إنسان أجل، ولكل أمة أجل، ومع هذا فإن الأطباء لا يتوقفون عن ملاحظة أسباب الموت والتفكير في علاجها بغية إطالة عمر المريض ما استطاعوا أو على الأقل ليقضي بقية أيامه بلا آلام مبرحة، كما يحاول المؤرخون أن يستفيدوا من تجارب الأمم ليطلقوا في أعمار أممهم أو على الأقل ليتجنبوا أن يكون السقوط مروعا وكارثيا!

من ها هنا نرى أن أهم الأسباب التي أفضت إلى سقوط الدولة العبيدية هي كالاتي:

(١) الإخفاق في إزالة الخلافة العباسية

أوقف عمر بن الخطاب فتوح فارس بعد الانتصار الكبير في جلولاء، لعدة أسباب ليس هنا موضع بيانها، ولكنه لاحظ بعد ذلك أن أرض فارس لا تسكن فيها التمردات، فاستغرب وخاف ألا يكون ولاته يقيمون العدل في البلاد، وسأل في ذلك وجوه المسلمين، فقال له الأحنف بن قيس: «يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصام على ما في أيدينا، وإن ملك فارس حيي بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون

يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أننا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته، فهناك ينقطع رجاء أهل فارس»^(١).

وهذه الكلمة الذهبية تكشف لنا عن قاعدة سائرة في التاريخ، فما لم تستطع الدولة الناشئة أن تسيطر على عاصمة الدولة التي ثارت عليها إلا وستستطيع العاصمة أن تستوعب هذه الثورة وأن تعود عليها ولو طال الوقت، وهذا ما حدث مع العبيديين، إذ عاشت قرنين من الزمان، ثم جاءها أتباع العباسيين فأزالوها!

ومن هنا نفهم كيف أن فتح مكة كان هدفاً أساسياً لسيرة النبي ﷺ، ومن بعده دخل الناس في الدين أفواجا. ولم تبدأ الدولة الأموية على الحقيقة إلا بعد أن تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية وخطب معاوية في الكوفة، وهي عاصمة خصومه. وكذلك نرى أن الدولة العباسية نهضت من فورها من خراسان ولم تزل جيوشها سائرة حتى اقتحمت دمشق عاصمة الأمويين وطاردت آخر خلفائها حتى قتله في مصر، وتبعت سائر من يصلح من الأمويين للخلافة ولو كان في أقصى المغرب والأندلس! وبهذا رسخت دولة العباسيين!

وسائر الثورات التي اندلعت ضد العباسيين لم تستطع أن تسيطر على بغداد، فاستطاعت بغداد وأتباعها الذين يدينون لها بالولاء—ولو كان ولاء دينياً معنوياً—أن يقضوا عليها، وكذلك الدول التي استقلت عن العباسيين، استطاع العباسيون أن يقضوا عليها بأيديهم أو بأيدي أتباعهم مهما طال الوقت. وكانت الدولة العبيدية من هذه الدول مع أنها كانت أقواها جميعاً، وتوفر لها من الإمكانيات والفرص ما لم يتوفر لغيرها.

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ٥٠٣/٢.

ولقد سُئل المعز لدين الله من بعد أنصاره عن سبب تباطئه عن التمدد إلى المشرق، فكان يجيبهم بأنه أمر الله، وأن الوقت الموعود لم يحن بعد، وأنه من إذلال الله لبني العباس وإقامة الحجة عليهم^(١)، ونحو هذا من المبررات التي هي في حقيقتها تداري العجز.

لقد كان عجز العبيديين عن بغداد هو أول مسمار في نعشهم، وبهذا نفهم لم وقع الانشقاق في أول الدعوة العبيدية بين عبيد الله المهدي وبين كبير دعائه الذي رأى في الانتقال إلى المغرب ابتعاداً عن قلب المعركة وميدانها المهم.

ومع أن الجهاز الدعوي للدولة العبيدية قام بجهد عظيم وجبار في التمدد إلى مناطق أخرى بعيدة غربا وشرقا حتى السند وحتى المغرب الأقصى، إلا أن هذا المجهود تمزق ولم يعد فعالا في مساحة الحكم والسياسة بعد أفول الحكم في مركز الدعوة في القاهرة.

وهذا الأمر يعيدنا إلى مبدأ تكلمنا عنه كثيرا في الفصول السابقة، وهو مبدأ «العواصم»، وكيف أن خلاصة السياسية والقوة للأمة والشعب والبلد تتركز في عاصمتها، فعلى العاصمة تدور المعارك الكبرى، فمن استولى على العاصمة فقد استولى على مفتاح هذه الأمة وهذا الشعب وهذه البلد. وإن استيعاب هذا المبدأ وهذه القاعدة هو أمر فارق تماما وجوهري للغاية في خطة أية حركة ثورية إصلاحية.

(٢) مبدأ انتقال الإمامة في الابن الأكبر

دفعت الدولة العبيدية، ومن قبلها الدعوات والتنظيمات الشيعية الإمامية، الثمن الفادح لهذا المبدأ الباطل الذي اعتنقته، وهو مبدأ انتقال الإمامة من الوالد إلى ولده، فقد

(١) القاضي النعمان، المجالس والمسائرات، تحقيق: الحبيب الفقي وآخران، ط ١ (بيروت: دار المنتظر، ١٩٩٦م)،

ص ٤٧٥ وما بعدها.

حدث ما لم يكن في الحسبان حين تنتهي سلسلة الأئمة بلا نسل، وهو ما حصل أولاً مع الشيعة الإمامية بوفاة المهدي محمد بن الحسن العسكري وهو طفل دون أن يرثه أحد، فعمل العقل الإمامي على اختراع قصة أنه دخل إلى السرداب وأنه سيعود يوماً ما!

لقد أدى هذا إلى انفضاض عدد من الدعاة الإمامية، والتحاقهم بالفرع الإسماعيلي، إذ بدا حينئذ أن الإسماعيليين كانوا على حق حين اعتنقوا أن الإمامة تنتقل من إسماعيل بن جعفر إلى ابنه لا إلى أخيه موسى الكاظم، والدليل على هذا أن سلسلة الأئمة بعد موسى انتهت بلا إمام، بينما لا تزال السلسلة مستمرة في عقب إسماعيل.

غير أن المعضلة في هذه السلسلة جاءت في أئمة الدولة العبيدية فيما بعد، لقد أفضى هذا المبدأ إلى إيصال الإمامة إلى الصبيان والأطفال بل وإلى الأجنة في بطون أمهاتهم، وهو ما فتح الباب واسعاً لنفوذ الوزراء ونساء القصر، وفتح الباب للصراع والتنافس بينهم، وكان أول صبي يتولى الإمامة الحاكم بأمر الله إذ توفي أبوه العزيز بالله وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره، فبدأت من عنده بذرة نفوذ الوزراء، ولم يقبل رجال الدعوة ما أراده الحاكم من صرف ولاية العهد إلى واحد من أبناء عمومته، فقتلوه وقتلوا هذا الذي أراده ولي عهد له، وصارت أزمة الأمور بيد أخت الحاكم وعممة الخليفة الجديد الظاهر! ثم بلغت الأزمة غايتها عندما استطاع الوزير القوي صرف الإمامة عن الابن الأكبر للمستنصر - وهو نزار - إلى أخيه المستعلي بالله، مما تسبب في انشقاق الدعوة الإسماعيلية وانشقاق رجال الدولة، ثم انفلت الزمام بعد ذلك.

وبالنظر في الصورة العامة، سنرى أنه من بعد العزيز بالله (الخليفة الخامس للدولة والخليفة الثاني في مصر) تولى الإمامة تسعة من العبيديين، منهم ثمانية في سن الطفولة والحلم (المراهقة بمصطلحنا المعاصر)^(١)، مما فتح الباب للمنازعات والتنافس بين

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٩٧.

ال خليفة ووزرائه، وبين رجال الحاشية من الوزراء والقادة والولاة بعضهم وبعض، وتبادل المتنازعون الانقلابات والاغتيالات، التي انتهت إلى إضعاف عام للدولة العبيدية.

بل إن لحظة انكسار الدولة العبيدية ترجع إلى النفوذ الذي تمتعت به أم الخليفة المستنصر، الذي تولى الخلافة وهو في السابعة، فكانت أمّه الجارية السودانية هي الحاكم على الحقيقة، فإذا بسياستها تُفجّر الصراع بين الجند وبين رجل الدولة الأثير عندها: اليهودي إبراهيم بن سهل التستري، ولما قتلوه، استكثرت من الجند السودان، فنشبت الحروب بينهم وبين بقية طوائف الجيش، مما سمح لطائفة الأتراك وزعيمهم الطموح ناصر الدولة الحمداني أن ينهب القاهرة ويجتاح قصر المستنصر ويحوز أمواله، ويعمل على مراسلة السلاجقة لإزالة الدولة العبيدية!

نعم، لقد كانت مزية هذا المبدأ في أول الأمر هو تجنب الصراعات والمنافسات بين المرشحين للإمامة والخلافة، وهو ما استفادت منه الدعوة الإسماعيلية والدولة العبيدية في مطلعها، ولكن المبدأ نفسه الذي حفظ قوتها أول الأمر، هو الذي فتّ في عضدها آخره! وهنا قد يرد سؤالان يحتججان إلى جواب وبيان..

يقول السؤال الأول: فإن النبي ﷺ قد قرر أن منصب الخلافة محصور في قريش، وذلك في الحديث المتواتر: «الأئمة من قريش»، فهذا المبدأ شبيه هذا!

والجواب: الشبه بعيد جداً، فإن النبي جعل مبدأ الخلافة في قريش وهي قبيلة عظيمة في زمانه، وازدادت كثرة وانتشاراً بعد زمانه، ولم يجعلها حتى في بني عبد المطلب أو بني هاشم، فقريش قبيلة عظيمة كثيرة الرجال، ولا تنتقل الخلافة فيها في الأعقاب ولا حتى في الإخوة، بل يختار المسلمون من بين القرشيين من يرونه الأصلح والأكفأ للخلافة، وإن قبيلة عظيمة مثل قريش لا يُتوقع أبداً أن تنقرض.

على أن علماء المسلمين، وهم علماء أهل السنة والجماعة، قرروا كذلك وهم في ظل

الخلفاء العباسيين أن شرط القرشية هو شرط كمال، وأن المقدم في الاختيار هو شرط الدين والكفاءة، فإذا ترشح للخلافة قرشي وغيره وكان غير القرشي أولى منه صُرفت الخلافة إلى غير القرشي، بل إذا كان المرشح للخلافة قرشياً ومعه من لم يكن عربياً على الجملة وكان أكفاً منه فهو أحق بالخلافة من القرشي، وعلى هذا سارت أقوال علماء أهل السنة، ولهذا صححوا خلافة العثمانيين الترك ولم يكونوا عرباً أصلاً، إذ لم يكن غيرهم أقدر منهم على هذا الأمر في زمانهم^(١).

وهكذا فلا مجال للمقارنة إطلاقاً بين أن يكون الأئمة من قریش، فتذهب للأكفاً منهم، أو للأكفاً من غيرهم إن لم يكن فيهم كفاء، وبين المبدأ الذي يجعل الأئمة حصراً وقصراً في الولد الأكبر، ولو كان صبياً أو رضيعاً أو جنيناً في بطن أمه!

ويقول السؤال الثاني: فإن هذا المبدأ يشبه أيضاً مبدأ ولاية العهد لدى الأمويين والعباسيين وسائر الدول الإسلامية الأخرى؟

والجواب: يظل الفارق بعيداً جداً، فإن مبدأ الإسماعيلية هو انتقال الإمامة حصراً في الولد الأكبر، فيكون إماماً يعتقدون أن له من الاصطفاء وعنده من العلم والأسرار ما ليست لغيره، وهو بهذا مستحق للتقديس والتعظيم الذي لا يستحقه غيره. وهذا بخلاف مبدأ ولاية العهد الذي كان لدى الأمويين والعباسيين وسائر الدول السنية، ويظهر الفارق في ثلاثة أمور ضخمة على الأقل:

١. ليس ولي العهد بالضرورة هو الابن، لا الأصغر ولا الأكبر، بل قد تنتقل الولاية إلى الأخ وابن العم، والمعياري في ذلك الكفاءة، وهذا هو المبدأ والأصل، حتى وإن خالفه الملوك كثيراً تحت ضغط الشهوة في حب الولد، وإيثاره على الأكفاء من عمومته وأهل

(١) للتوسع في هذا، ينظر: «حديث الأئمة من قریش في العصر العثماني»، ضمن: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، ط ١ (اسطنبول: دار الأصول العلمية، ٢٠٢٢م)، ٤/ ١٠٦ وما بعدها.

بيته، وكم وُجد في الملوك من أثر المصلحة على حب الولد، كذلك فلم يكن الناس ولا أهل الحل والعقد يرون أنفسهم قد خالفوا الدين والحق إذا هم ناصروا الأكفأ وقاموا معه على الولد الذي صرفت إليه ولاية العهد!

٢. ليس للخليفة ولا لولي عهده أي نوع من التعظيم والقداسة، ولا يُرى أن عندهم من العلم ومن الصلة بالله ومن الأسرار ما ليست لغيرهم، فهم وإن كان لهم شرف المقام بنسبهم الشريف إلا أنهم فيما سوى ذلك كسائر الناس.

٣. ولي العهد هذا لا يكتسب شرعية ولايته للعهد لكونه ابن الخليفة أو الأمير، بل تعتقد له البيعة على يد أهل الحل والعقد، فهو لا يكتسب الشريعة من خلال النص أو الدم، بل من خلال بيعة الناس له، وحتى لو كان هذا الأمر قد جرى بصورة شكلية في كثير من الأحيان فإن المبدأ ظل حاضرا وفاعلا، وهو أن لا حق لأحد في الحكم إلا لمن بايعته الأمة ولا سبيل لأحد أن يفرض نفسه عليها لنسب يحمله أو يدعيه!

لهذا كله لا تتعرض الدول السننية لمثل هذا المأزق الذي تعرضت له الدولة العبيدية كنتيجة لعقيدتها الباطلة، غير أنه يبقى وجه الشبه المهم بين الأمرين في أن نظام ولاية العهد مثله مثل نظام انتقال الإمامة في أنه يحفظ الدولة في مطلعها أن تتنازعها المنافسات بين الطامحين للخلافة، فهي هنا في بيت ملكي واحد وهي هناك في بيت نسل إمام واحد، وهو ما يعود عليها في آخر الدولة حين يُلجئها إلى تولي الأقل كفاءة في وجود من هو خير منه^(١).

(٣) الإخفاق في تشييع أهل مصر

ما من شك في أن تنظيم الدعوة الإسماعيلية قد بذل مجهودا كبيرا قبيل قيام الدولة

(١) راجع الفصل الخامس: مقدمة في تاريخ الدول الإسلامية.

وبعده، ومع أنه توفرت له دولة قوية أمدّته بالأموال والرجال إلا أن إنجازَه النهائي في حاضنة الدولة يبدو ضعيفا، لقد بقي المغرب سنيا، وبقيت مصر سنية، وبقيت الدولة في المغرب معتمدة على عصبية قبيلة كتامة دون أن يتكون حولها عصبية تدين للمذهب الإسماعيلي بالإيمان القوي الذي يُمكنهم من التمدد ونشر الدعوة غربا حتى الأندلس وجنوبا في البلاد الإفريقية وشرقا حتى بغداد وما بعدها.

لقد بقيت مراكز الدعوة الإسماعيلية التي تؤمن بهذه العقيدة في منابتها الأولى في اليمن والشام، وتمدد الدعاة حتى أنشؤوا مراكز لهم في شرق الجزيرة العربية وفي السند وفي فارس، ولكن بقيت الكتلة الشعبية الأكبر التي هي بمثابة المدد الدائم للدولة سنية لم تشيع، بل بالغ بعض المؤرخين حين قدّر أن مصر عند نهاية الدولة العبيدية «لم يكن بها إسماعيلي واحد سوى من ارتبط بالسلطة الحاكمة»^(١)، ولعله لهذا اضطرت الدولة العبيدية أن تحكم مصر اعتمادا على الأقليات الدينية والعرقية، ولكن هذا النوع من الحكم مهما طال وقته فلا بد أن ينتهي، إذ هو مشير بطبيعته للمشكلات والتوترات الدائمة، وهو بمثابة الاستقرار الهش الذي تفجره أية أزمة اقتصادية أو سياسية أو أمنية.

يمكن تقريب الصورة إذا تذكرنا أن النبي ﷺ بُعث في قريش، وانتصر بعصبة الأنصار ثم بعصبة قريش أيضا، ولكن الإسلام انتشر في العرب ودانوا به حتى انطلقوا في سبيله فاتحين من شتى القبائل، فكان العرب -كما قال عمر- هم مادة الإسلام، وظل العرب قادرين على إمداد الجيوش بالرجال المقاتلين عن عقيدة وإيمان، حتى نشأ في الشعوب المفتوحة من اعتنق الإسلام وآمن به وواصل مدّ دعوته وتوسيع رقعته من الصين إلى الأندلس.

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٨٩، ٢٤٠؛ حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ٢١٨، ٣١٦؛ جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٧٩؛ عبد الحي شعبان، الدولة العباسية: الفاطميون، ص ٢٣٤.

ولأن الأمويين والعباسيين لم يكونوا دعوة مخالفة للإسلام فلم يحتاجوا إلى دعاة وتنظيم دعوي خاص بهم، وأما العبيديين فقد جاءوا بفكرة جديدة مخالفة لما عليه الناس في دينهم ومذهبهم، فقد كان لا بد لهم من دعاة ثم مقاتلين يُمَدُّونها عن إيمان وفداء، لا كجند مقاتلين ومحترفين فحسب، فضلا عما كان بين هذه الجيوش من الانقسام العرقي، فكانت هذه الجيوش بمثابة الأقلية العسكرية في حكومة أقاليم، وحيث أخفقت الدولة العبيدية في تشييع أهل المغرب وأهل مصر، فقد جفت منابع التجنيد والحشد الضرورية لكل دولة دعوية، وبقي الخلفاء العبيديون «رؤساء الطائفة التي أوصلتهم إلى الحكم»^(١) فحسب.

لقد كانت القاهرة عاصمة ملكية معزولة، أو بتعبير المقريزي «دار خلافة، ومنزل ملك، ومعقل قتال لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره، وخواصه»^(٢)، فهي تقتصر على العبيديين ومواليهم من الأقاليم الملتصقة بالحكم، بينما كانت حياة الناس وتجارهم في العواصم الإسلامية القديمة: الفسطاط والعسكر والقطائع، وأول دار لضرب العملة نشأت في القاهرة كانت في (٥١٦ هـ) أي بعد أكثر من مائة وخمسين عاما من عمر الدولة في مصر.

ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر من الزاوية الأخرى فسنرى فيه فضل المقاومة التي أبدتها أهل السنة في مصر لهذه الدولة العبيدية، وهذه من الصفحات التي يغفل عنها المؤرخون عادة^(٣)، إن أخبار المقاومة الصغيرة تختفي في ظل الغالب، وتزول تماما عند

(١) برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ١٥٦.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٢/٢٠٨.

(٣) قبل عشر سنوات فقط، أصدر د. محمود خلف كتابه «ثورات مصر في العصر الفاطمي» ضمن سلسلة تاريخ المصريين، ط ١ (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠١٢م)، تتبع فيه ما نشب في وجه الحكم العبيدي من ثورات داخلية وخارجية، مسلحة أو غير مسلحة.

الصورة الكبيرة العامة الجامعة، ولكنها تظل حقائق راسخة في زمانها، وكان لها نصيب بالغ في مسار الأحداث.. فلولا هذه المقاومة السنية الباسلة التي أبدتها أهل المغرب أولا، ثم أبدتها أهل مصر، لاستطاعت الدولة العبيدية وهي في عنفوان قوتها أن تواصل المسير إلى الشام، وأن تقضي على الخلافة العباسية السنية في بغداد، وكان هذا ليكون بمثابة الكارثة العظمى في تاريخ المسلمين، لم يتوقف هذا المصير إلا بفضل حركات المقاومة الصغيرة المجهولة التي ملأت المغرب ومصر، فشغلت العبيدين وعرقلتهم عن التمدد، وحرمتهم من مقاتلين كثر، وأجبرتهم على اتخاذ القصور المعزولة في المدن الملكية المعزولة أيضا^(١).

هؤلاء المجهولون، الذين يعرفهم الله ويجزيهم خيرا، هم أصحاب الفضل في أن يكتب التاريخ مثل هذه العبارة: «لم ينجح الشيعة خلال فترة تفوقهم وسيادتهم في اجتذاب الجماهير إلى مذهبهم، وبهذا فإن صعود نجمهم كان بحكم المؤقت»^(٢).

(٤) الأسباب المباشرة للسقوط

على مدى السنوات عملت هذه العوامل العميقة الأساسية عملها، ثم جاءت الأسباب المباشرة لتفاقمها وتزيد من أضرارها، وهذه الأسباب المباشرة منها: المجاعة وضعف الأحوال الاقتصادية، والتقاتل المباشر بين الوزراء والمتنافسين، واستقلالات المناطق والأنحاء في المغرب والشام والحجاز، والتمددات الخارجية للسلاجقة والصليبيين من

(١) ولهذا فيجب التكرار دائما أن كل حركة مقاومة مهما بدت صغيرة وضعيفة ومغلوبة، فإنها قد وفّرت الوقت والفرصة لآخرين، فضلا عن أنها مهّدت لغيرها من حركات المقاومة التي سترثها فيما بعد، وهذا المعنى لا بد من التركيز عليه لا سيما في أزمنة الضعف والهزيمة التي يهيمن فيها اليأس والإحباط على أهل المقاومة.

(٢) هودجسون، مغامرة الإسلام، ٥٦/٢.

الشرق، وللأمويين والمواليين لهم من الغرب، ثم كانت النهاية على يد صلاح الدين الذي استعانت به الخلافة العبيدية ضد الصليبيين، فجرت على يده سنة الدول، في أن الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه يؤول إلى الزوال، ويرثها من كان قادرا على الحماية والنجدة!

٢. وقفة في أهمية مصر وخصائصها

تتمتع بعض البلاد بمزايا تجعلها بلدا مركزيا فارقا في ميزان القوى الإقليمية والعالمية كذلك، ومن هذه البلاد: مصر.

صنع نهر النيل، الذي يخترق مصر من أسفلها إلى شمالها، حياة خصيبة في هذه البلاد، وجعلها وافرة الموارد عن سائر البلاد التي تجاورها وفرة هائلة، وهو ما زاد من عدد سكانها، فزادوا هم كذلك من استثمار خصبها ومواردها، ولطبيعة الزراعة النهرية سرعان ما نشأت فيها السلطة القوية ذات الجهاز الإداري الذي يستطيع الاستفادة من هذه الموارد أموالا ورجالا، فيزيد في استثمارها ونموها، وهكذا سرعان ما نشأت فيها الحضارة المزدهرة التي تتغذى على موارد كثيرة ووفرة سكانية، وبهذا كانت مسيرة مصر إلى التقدم العلمي والإداري أسرع من سائر محيطها!

كذلك فإن موقعها الجغرافي المتميز، وكونها محروسة ببحرين في الشرق والشمال، وصحراوين في الشرق والغرب وفر لها مناعة طبيعية وعمقا آمنا، ولم يكن صاحب السلطان في مصر ليخشى على نفسه إلا من المنفذ الضيق في الشام، أو من التهديد الذي يمكن أن يحدث للنهر في الجنوب، فمن هنا سعى صاحب مصر دائما ليتدد إلى الشام وإلى السودان.

وبالنظر إلى مصر من خارجها، فإن هذه البلد الوفيرة الموارد والرجال كانت حاسمة دائما في ميزان القوى، ومطمعا تتوجه إليه الأنظار، فما إن سقط عنها حكم الفراعنة حتى تبادل السيطرة عليها الفرس والرومان، فكانت في نصيب الأقوى منهما، ولما جاء الإسلام

وجد المسلمون أنه من الضروري فتح مصر لأسباب عدة؛ أولها: نشر الدين، وثانيها: حفظ الشام الذي لن يبقى آمناً بغير مصر، وثالثها: لأن موقع مصر ومواردها يجعلها بين احتمالين إما أن تكون للمسلمين وإما أن تكون للروم على المسلمين، فأخذ مصر هو قفزة هائلة في الأموال والموارد الاقتصادية وفي القوة السياسية وفي الوضع العسكري والأمني.

ومنذ بداية اتصال مصر بالإسلام، قال فاتحها عمرو بن العاص عنها «ولاية جامعة تعدل الخلافة»^(١)، وقد صدّقت الأيام كلمته فاستطاعت الدول المستقلة التي حكمت مصر -الطولونية والإخشيدية- أن تقوم مقام الخلافة في تولي عبء جهاد الروم والثغور، وأن تصير ندّاً للخلافة حتى يدخل صاحب مصر على خط الصراع بين الأمراء في بغداد، وحاول كلُّ منهما أن يأتي بالخليفة إلى مصر، وسرى بعد قليل كيف قفزت الدولة العبيدية بنفسها قفزة هائلة حين استولت على مصر، وبعدها حين ستكون مصر هي مركز الثقل في تحرير الشام من الصليبيين، ثم ستكون القاهرة عاصمة الخلافة حين تسقط بغداد تحت خيول المغول، لثلاثة قرون قادمة، وحين يدب الضعف في المماليك ستكون مصر نقلة هائلة للدولة العثمانية التي ستتحول بعد ضمها مصر إلى خلافة المسلمين الجامعة، وستظل القاهرة هي عاصمة الأمة الثانية بعد اسطنبول عاصمة الخلافة، وما إن تضعف قبضة اسطنبول حتى سيتكرر التاريخ ويحاول صاحب مصر من المماليك أو محمد علي فيما بعد أن ينافس دولة الخلافة أو يقاتلها ليس له سند في ذلك إلا مصر ومواردها. وفي العصر الحديث يبدو تأثير مصر في العالم العربي والإسلامي أوضح من أن يُفصّل فيه، فما من حدث يقع فيها إلا وتتردد أصداؤه وتأثيراته في سائر الأنحاء، سواء في ذلك: الاحتلالات أو الثورات أو الانقلابات!

(١) ابن الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق: د. علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م)، ص ٢٢٠.

إذا فكرنا في الأمر من زاوية زعيم طموح صاحب مشروع تغيير، سنرى مزايا مصر على النحو التالي:

١. إقليم وافر الثروة كثير الرجال.
٢. موقع جغرافي ممتاز متوسط بين البلدان، فله تأثيره السياسي والتجاري أيضا.
٣. جهات البلد آمنة إلا من جهتين يمكن دفع القادم منهما بمجهود ليس بالكبير.
٤. شعب سهل عريق في الحضارة، ليست فيه العصب والقبائل والتكتلات، فسرعان ما يستطيع ذو القوة أن يمسك بالسلطة فيه، فيستقيم له الأمر.
٥. يمكن من خلال الإدارة السليمة وضبط شأن الموارد أن تنفق على مضاعفة أعداد الجيش وتقويته وتغطية تكاليف التوسع والتمدد.

وهذه الأمور الواضحة، إن لم يكتشفها صاحب المشروع الطموح بعقله وموهبته، وهذا يكاد يكون مستحيلا، فإنه يكتشفها إذا قلب في صفحات التاريخ، وما كان العبيديون ليخفى عليهم هذا، وهم من موقعهم في المغرب تزداد أهمية مصر بالنسبة لهم في أمور أخرى:

١. طموحهم في إنهاء الخلافة العباسية لا بد أن يمر على مصر التي هي مفتاح الشام والحجاز ثم العراق.

٢. تمللمهم من المقاومة القبلية التي لا تفر في المغرب، فلا تلبث أن تتجدد، مع كثرة العصب في تلك البلاد. على عكس مصر التي يقل فيها ذلك إلى حده الأدنى!

وبهذا كانت مصر حلمهم الأثير منذ أيامهم الأولى، فكانت محاولتهم الأولى لضم مصر بعد أربع سنوات فحسب من قيام الدولة، ولكنهم لم يستطيعوه إلا بعد نصف قرن، وبهذا الضم استطاعوا تجديد شباب دولتهم مرة أخرى، وتخلوا عمليا عن المغرب، حتى لقد اصطحب المعز معه إلى مصر رفات آبائه الخلفاء، وأعلنوا أن مصر بالنسبة لهم «دار

هجرة».

وبمصر تحولت الدولة العبيدية من دولة مستقلة معزولة بعيدة مثل الأدارسة والإمارات الأموية إلى قوة عظمى تنافس الخلافة وتمثل تهديدا خطيرا لها. ولهذا أنشد شاعرهم ابن هانئ حين فتحت مصر:

تقول بنو العباس: هل فُتِحَتْ فقل لبني العباس: قد قُضِيَ الأمر
فلا تُكثروا ذكر الزمان الذي خلا فذلك عصرٌ قد تقضى، وذا عصر^(١)
وفي مصر لم يعد العبيديون محتاجين إلى قوة عصبية مثل قبيلة كتامة، بقدر ما احتاجوا إلى جيش قوي وجهاز إدارة كفاء، فلهذا «انفصلوا عن مجموع سكان الشعب وقربوا أهل الذمة»^(٢).

يبرز هنا سؤال يقول: هل شعب مصر حقا شعب سهل وخاضع ومستكين أمام السلطة؟

يحتاج تحقيق هذا الأمر إلى بحث لا يتسع له المقام هنا، ولكن الأمر الذي ينبني عليه العمل هو استعمال السنن والاستفادة منها لا مصادمتها والوقوف بوجهها، فإذا ثبت أن بلدا مهما ومركزيا مثل مصر تقل فيه العُصَب وتقوى فيه السلطة ولا يحتاج صاحبه إلا إلى جيش قوي وجهاز إداري كفاء، فإن هذا نفسه هو ما يرسم مسار التغيير فيه، وحينئذ يكون التماس وسائل أخرى وطرق أخرى ومناهج أخرى هو من نوع مصادمة الطبيعة، وهي مصادمة محتومة النتائج محسومة الخسارة. فمن أراد الإصلاح في مصر عبر الاعتماد على تنظيم دعوي، كمن أراد إنشاء دولة مركزية وسلطة قوية في إقليم ذي عُصَب وذا بيئة جبلية

(١) ابن هانئ الأندلسي، ديوان ابن هانئ، (بيروت: دار بيروت، ١٩٨٠م)، ص ١٣١.

(٢) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٥.

وعرة كأفغانستان مثلاً! كلاهما سيعود خاسراً مهما كانت ضخامة إمكانياته^(١)، فكيف لو كان هو المستضعف؟!

ولهذا نفهم أن التغيير السائد في مصر غالباً ما يكون من خلال انقلاب داخل أروقة السلطة، أو من خلال جيش قوي يأتي إليها من خارجها، ونرى في الدولة العبيدية كلا الأمرين، فهي قد قامت في مصر وغلبت عليها بجيش جاءت به من خارجها، ثم هي قد سقطت بانقلاب داخلي جرى في أروقة السلطة نفسها^(٢).

٣. وقفة في استمرار التنظيم الدعوي بعد قيام الدولة

كان استمرار تنظيم الدعاة، بعد قيام الدولة العبيدية من أهم عوامل قوتها، وهذا على عكس ما فعله العباسيون الذين انتهى تنظيمهم الدعوي بقيام دولتهم؛ يمكن أن يُقال في تفسير هذا: أن الدولة العبيدية ظلت محتاجة إلى تنظيمها الدعوي ليمهد لها المناطق التي لم تنضو تحت ظلها، فلقد نشأت في المغرب واحتاجت إلى التمدد نحو مصر والشام والحجاز والعراق^(٣)، ولم يكن العباسيون بحاجة إلى هذا، فلقد نهضوا سريعاً حتى اقتحموا عاصمة أعدائهم الأمويين فسلمت لهم الدولة كلها بأنحاءها، وهذا ما لم يستطعه العبيديون أبداً.

(١) يرغم الفارق الهائل الضخم في الإمكانيات والمال وال سلاح إلا أن الأمريكان ومعهم التحالف الدولي فشلوا في إقامة حكومة مركزية قوية في أفغانستان، واعترف بعضهم بأن السعي في هذا لم يعد مجدياً ولا ممكناً، وهكذا نرى أن إمكانيات أقوى ٤٠ دولة في العالم معاً لم تُفلح في مصادمة الطبيعة ومعاكسة السنن! انظر مثلاً: (مذكرات وزير الدفاع الأمريكي) روبرت جيتس، الواجب، ص ٢٣٨؛ (مذكرات مستشارة الأمن القومي ثم وزيرة الخارجية الأمريكية) كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص ١٣٩.

(٢) ينظر في هذا الموضوع كتابي: «سبيل الرشاد: معالم طريق التحرر الإسلامي».

(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٤، ١٥؛ هودجسون، مغامرة الإسلام، ٣٦/٢، ٣٧.

وأقرّ د. محمد كامل حسين، وهو الذي أنفق سحابة عمره في تتبع تاريخ الحركة الإسماعيلية، بتفوقهم في الدعاية، يقول: «لم أجد في تاريخ العصور الوسطى في دولة من الدول أو طائفة من الطوائف اهتماما خاصا بالدعاية وتنظيمها على النحو الذي وجدته عند طائفة الإسماعيلية، فلا غرو أن أزعّم أنهم أساتذة فن الدعاية في العالم»^(١).

يتّأس التنظيم الدعوي رجل يقال له «داعي الدعاة»، وهذه الوظيفة «من مفردات الدولة الفاطمية»^(٢)، وكثيرا ما كان هذا الرئيس هو نفسه «قاضي القضاة» للدولة العبيدية، ولقد استطاعت هذه المؤسسة الدعوية أن تتمدد بالدعوة العبيدية الإسماعيلية إلى بلاد لم يكن يخطر ببال جيشهم أن يصل إليها، فقد دانت لهم بالولاء أنحاء بعيدة مثل اليمن وعمان والبحرين وحتى بلاد السند^(٣).

أمكن للدولة العبيدية، عبر هذا التنظيم الدعوي ومؤسسته إرهاب أعدائهم كثيرا، سواء أكانوا في أقصى المشرق كالعباسيين والسلاجقة، أو كانوا في أقصى المغرب كالأمويين في الأندلس.

وكثيرا ما دأبت هذه الدعوة مصالِحَ زعماء محليين من ذوي الطموح، فكانوا يجدون في هذه الدولة العبيدية السند والفكرة التي تمنحهم مددا ماديا ومعنويا لتمردهم، ومن أبرز أمثلة هؤلاء: البساسيري، القائد التركي الذي استطاع أن يقتحم بغداد ويطرد الخليفة وقيم الخطبة للعبيديين ولولا قوة السلاجقة لكانت قد زالت الخلافة العباسية من بغداد، ومن هؤلاء أيضا في المغرب: الحسن بن قنون، وهو من فلول الأدارسة، فلقد أَرهق الأمويين في الأندلس -مع أنهم كانوا وقتها في ذروة قوتهم، وذلك في منتصف القرن الرابع

(١) محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص ١٣٠.

(٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ٢/ ٢٦٠.

(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٧، ٢٧٩.

الهجري - حتى ترتب على هذا خسائر فادحة لهم في الرجال والأموال وفي اجتراء
النصارى على الثغور الشمالية للأندلس.

وهذا الأمر، أعني: استمرار الدعوة وتحولها إلى مؤسسة منظمة، لا شك أنه مما
يحتاج العاملون لدين الله إلى أن يطيلوا تأمله والاستفادة منه! ويشبه هذا في زماننا
المعاصر وزارات الإعلام والثقافة والدعوة لدى الدول ذات الفكرة والرسالة.

٤. وقفة مع الحاكم بأمر الله

يستحق الحاكم بأمر الله وقفات مطولة معه، ولكن ليس يهمننا منها هنا إلا أهم ما ينبغي
أن يستوعبه العامل المصلح، ومن أهم ما نراه في سيرة الحاكم بأمر الله:

(١)

أن الحاكم القوي يستطيع أن يستمر قاهراً للناس مهما ارتكب من الغرائب والعجائب
والمتناقضات، ومهما ضيق على الناس في أدق دقائقهم، وأخص خصائصهم، لقد عاش
الحاكم بأمر الله ربع قرن في الخلافة، قلب فيها أحوال الناس حتى جعل ليلهم نهاراً، وهذه
هنا حقيقة ليست مبالغاً، فلقد أمرهم بالعمل وفتح الأسواق ليلاً، وبالنوم وغلقتها في
النهار، وغير مواقيت الصلاة، وقد تحكم في مآكلهم ومشاربهم وحرّم عليهم ما لم يحرمه
أحد قبله في الأولين ولا في الآخرين!

ومع ذلك، فأغلب الظن أنه لو لم ينقلب على مبادئ طائفته الإسماعيلية ولم يهدد
نظام الحكم لاستمر أحقاباً أخرى.

إن مثل هذه الظواهر تُحسّن فهمنا لطبائع الشعوب والحكام والممدى الذي قد يبلغه
الطغيان دون أن يُستطاع صدّه! وتلك مشكلة كثير من الدعاة والمصلحين، أنهم يخفقون

في فهم المآلات لفقر خيالهم وضعف معرفتهم بالتاريخ فلا يخطر ببالهم أن يقع الضرر إلى هذا الحد، وهم يستبعدون أن يبلغ الأمر مدى بعينه، ثم لا يستفيقون إلا بعد أن يشهدوا بأعينهم وأنفسهم ما لم يكونوا يحتسبون! وقد يكونون هم الضحايا!

فالمقصود هنا أنه لا نهاية ولا حد للطغيان، والطاغية الذي يتمكن ويملك أزمة القوة، يمكنه أن يتلاعب بالناس والشعوب كما يتلاعب الطفل بالعجين، بلا أية قدرة للعجين ولا للشعوب على أن تخالف إرادته، وهذا فصل مهم في ضرورة ووجوب التصدي للطغيان قبل أن يستفحل وللطاغية قبل أن يتمكن.

(٢)

كذلك فإن حصول التغيير عبر ثورة شعبية أو تمرد خارجي هو أقل تأثيرا على السلطة، على الأقل في حالة مصر، من وقوع التنازع والانشقاق بين أجنحة السلطة نفسها، فهذا التنازع والانشقاق هو الأكثر تأثيرا وفعالية على بقاء النظام. فالخراب الذي أحدثه الحاكم في المجتمع كان أقل تأثيرا على مصيره، من ذلك الذي أحدثه في بلاطه وحاشيته ورجال دولته وأصول مذهبه العقدي، ومن هؤلاء جاءت الضربة التي أودت به.

ولا يمكن التوقع ماذا كان يمكن أن يفعله الحاكم بأمر الله إذا طال عمره، فلقد اغتيل وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وكان موته المبكر على كل حال من نعم الله على المسلمين، وليس بعيدا على رجل استطاع أن يقلب المجتمع إلى هذا الحد، ويطيح برجال الدولة على هذا النحو، أن يعلن نفسه إلها إذا طال به العمر.

(٣)

لئن كان يحلو للمؤرخين دائما النظر في الأسباب البعيدة، فهذا ما لا ينبغي للعاملين

والمصلحين الذين يهتمون بتحقيق الأهداف الكبرى في أعمارهم.

نعم، سيحلو للمؤرخ أن يقول إن عصر الحاكم قد بُذرت فيه البذور الأولى في انتقاص الدولة في مصر نفسها، فثمة تمرد وصل إلى حدود القاهرة، وهو تمرد أبي ركوة الأموي، ثم انتفاضة أهل الفسطاط، ثم الانقسامات التي ضربت أجنحة الجيش ورجال الدولة! لكن الذي يجب أن ينتبه إليه العامل والمصلح أن هذا الكلام، حتى لو كان صحيحا، فإن هذه البذور قد استغرقت قرنا ونصف القرن حتى سقطت الدولة!

وفي هذا القرن ونصف القرن كم جرت فصول وتقلبت أحوال ونهض رجال وسقط رجال، وكان بالإمكان أن يمتد عمر الدولة قرنا آخر لو سارت سياسات الداخل وظروف الخارج في مسارات أخرى، فإن انهيار الدولة معتمد أيضا على عوامل خارجية مساعدة ومكملة للعوامل الداخلية الأصيلة.

على أن المؤرخين أنفسهم سيختلفون في مدى مساهمة هذه البذور الأولى في النتيجة النهائية، وما إن كان امتداد الدولة لهذا العمر بعدها يُعدُّ دليلا على أن رجال الدولة استوعبوها وامتصوا آثارها وأبطؤوا فعاليتها، أو حتى يعدُّ دليلا على أن توازنات القوى الخارجية حفظت بقاء الدولة عمرا جديداً، على نحو ما هو متكرر في التاريخ من أن الدولة الضعيفة قد يطول بقاؤها إذا توازنت القوى المحيطة بها، أو كان من مصلحة هذه القوى المحيطة بها أن تبقى ضعيفة.

وليست غایتنا هنا الخوض في نقاش المؤرخين وفلاسفة التاريخ، بل والقصد: أنه مهما بدا للمؤرخ أن يفتش في الأسباب القديمة والعميقة، فإن العامل المصلح له حساب آخر، وهذا الحساب يتعلق بكيفية تحويل الأسباب القديمة والعميقة، وكذلك الأسباب الحاضرة والمباشرة إلى خطة عمل لإنهاء دولة الظلم والقضاء عليها، أو لإطالة دولة العدل ومعالجة عوامل النخر فيها.

وهذا ما يُسلمنا إلى الوقفة التالية:

٥. وقفة في تجدد شباب الدولة

نرى في تاريخ الدولة العبيدية دليلاً واضحاً على أن تجدد الدولة بعدما تبدو ملامح تراجعها أمرٌ ممكن، ما دام يقود هذه الدولة رجال يعرفون كيف يصنعون لتحقيق هذا التجدد، فقد استطاعت الدولة العبيدية تجديد نفسها وإطالة عمرها مرتين على الأقل:

الأولى: حين استطاعت أن تضم مصر إلى سلطانها وينتقل خلفاؤها إلى القاهرة، فانتعشت انتعاشة هائلة من بعد ما كانت تعاني في المغرب^(١).

والثانية: حين استدعى خليفته المستنصر بالله والي عكا القوي بدرًا الجمالي وفوض إليه صلاحيات الوزارة، فاستطاع هذا أن يستعيد زمام الأمور فيطيل في عمر الدولة ويمنحها نحو ثمانين سنة أخرى بافتتاحه عصر الوزراء، وهذه ليست ظاهرة مختصة بالدولة العبيدية بل هي متكررة في الدول العباسية والأموية في الأندلس وغيرها، وقد تحدث ابن خلدون عن هذه الظاهرة في مقدمته^(٢).

وفي هاتين المرتين اللتين استطاع فيهما العبيديون تجديد شباب دولتهم دروسٌ يجب أن يتوقف أمامها العاملون لهذا الدين، فقد يكون علاج الحركة الإسلامية في التخلي عن ساحةٍ لكسب ساحةٍ أخرى أكثر أهمية وحيوية، أو يكون علاجها في تغيير قادتها الكبار والتاريخيين واستبدال آخرين أقوىاء بهم.

وهذا الاستبدال ندر أن يجري بسهولة أو بالرضا، فالرئاسة قلّ أن يسلمها أحد، حتى

(١) ويشبهها في هذا إلى حدّ كبير الدولة العثمانية فيما بعد، وذلك حين فتحت القسطنطينية، واتخذتها عاصمة لها، فكانت نقلة كبيرة مهّدت لها أن تتمدد إلى الشرق والجنوب وأن يخضع لها شرق أوروبا بعد ذلك لقرون!

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٢، ٢٣٣.

لو كانت رئاسة حركة مضطهدة ومقهورة وفاشلة أيضا، وكم في التاريخ والواقع من أمثلة عن ثائرين كانوا في غاية البسالة أمام الظلم الصريح والبطش الشديد، ولكنهم كانوا في غاية الخجل والتردد والضعف أمام القيادة العجوز للحركة مهما بدت عاجزة وفاشلة وتسوق أهلها إلى النكبة! وهذا الخجل والتردد كم فَوَّتَ فرصًا لا تقدر بثمن.

٦. وقفة في الشدة المستنصرية

ثمة مجاعتان كبيرتان برزتا في تاريخ الدولة العبيدية في مصر؛ وقعت المجاعة الأولى قبل أن يأتي جيش جوهر الصقلي بست سنوات واستمرت بعده ثلاث سنوات، أي أنها ضربت مصر لتسع سنوات، ووقعت المجاعة الثانية لسبع سنوات في عهد المستنصر بالله وهي التي عُرِفَت بالشدة المستنصرية.

يقع الاتفاق بين المؤرخين على أن كلا المجاعتين كانتا فارقتين في الحالة السياسية، فالمجاعة الأولى كانت من أسباب سقوط الدولة الإخشيدية مما سهّل دخول العبيديين إلى مصر، والمجاعة الثانية هي التي انكسرت بها قوة الدولة العبيدية وبدأ بعدها عصرها الثاني، عصر الضعف المسمى: عصر الوزراء!

لكن المشهد الذي يحتاج إلى التركيز عليه هنا هو أن المجاعة التي كانت سببا أساسيا في سقوط الإخشيديين لم تستطع أن تفعل شيئا في إسقاط العبيديين! وأن الشدة المستنصرية رغم قسوتها وبشاعة ما جرى فيها لم تستطع أن تسقط العبيديين كذلك.. إن التأمل في هذا المشهد ضروري للغاية، لا سيما حين تروج خرافة في أوساط الإصلاحيين تقول بأن الشعوب الجائعة تثور!

في واقع الحال الشعوب الجائعة لا تثور، بل تأكل بعضها بعضا، فإذا وافق جوعها هذا أن كانت السلطة ضعيفة فحينئذ يمكن أن تكون المجاعة سببا في الثورة على السلطة، لا لكونها مجاعة، ولكن لأن السلطة حينئذ أصبحت فريسة متاحة يمكن أن تؤكل ويُسدَّ بها

شيء من الجوع، أما حيث كانت السلطة قوية فإن المجاعة لا تؤثر في الحالة السياسية. وأشد من ذلك أن التجويع يكون في أحيان كثيرة سياسة تعتمد عليها السلطة الطاغية لتشغل الناس بأنفسهم وبيعهم عنها، بل لقد يكون الجائعون هم أشد أدوات السلطة الطاغية في قتل الثورات والاعتراضات بما تمنحهم من الأموال أو الأرزاق، فإن الجائع ليس في حال سوية ولا طبيعية، وإنما يتوقف عقله عند غريزته ويتوقف أمله عند ما يحقق شبعه.

تعال نتلّ عليك شيئاً من نبأ المجاعتين..

(١)

ذكر المقرئزي وقوع الغلاء بسبب نقص النيل، وأنه كان نقصاً غير مسبوق منذ دخل الإسلام إلى مصر، وزاد على الغلاء وضرره أن مات الأمير القوي كافور الإخشيدي، «فكثر الاضطراب وتعددت الفتن، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير، وانتهبت أسواق البلد، وأحرقت مواضع عديدة، فاشتد خوف الناس وضاعت أموالهم... واختلف العسكر، فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج، وهو يومئذ بالرملة، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي»^(١).

ولما دخل العبيديون إلى مصر، حاول جوهر الصقلي أن يسيطر على مشكلة المجاعة، فاتخذ بعض الإجراءات لضبط الأسواق ومراقبة السلع ومعاقبة المحتكرين أو

(١) المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: د. كرم حلمي فرحات، ط ١ (القاهرة: عين للدراسات والبحوث،

المتلاعين، حتى قيل «لم يدع كف قمح إلا بحضرته»^(١)، وعمل على إصلاح ما فسد من الجسور والقناطر ونحو ذلك، لكن هذا لم يجد نفعا، فقد «استمر الغلاء إلى سنة ستين (٣٦٠هـ)، فاشتد فيها الوباء وفشت الأمراض وكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم، فكان من مات يُطرح في النيل»^(٢).

غير أن القائد جوهر، كان في ذات الوقت -وهذا هو المهم- قائد جيشٍ لدولةٍ في أول أمرها في مصر، وأمامه مشروع ضخم لغزو الشام، كما أنه يجب أن يعرض الأموال التي أنفقت في عملية غزو مصر، فماذا فعل؟!!

إنه برغم ما كان الناس فيه من الفقر، وبالرغم من جذب الأرض، ضاعف ضريبة الأرض (الخراج)، فصارت ٧ دنانير بعدما كانت ٥, ٣ ديناراً! وزاد قيمة قبالة الأراضي، واستطاع أن يجبي في السنة التالية (٣٥٩هـ) ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار، ومثلها تقريبا في السنة التي بعدها (٣٦٠هـ)، وهذه القيمة لم تتكرر بعد ذلك أبداً!! لقد «بلغت الضرائب في يوم واحد في الفسطاط خمسين ألف دينار، وذات مرة قدّمت تنيس ودمياط والأشمونين مائتي ألف دينار في يوم واحد»^(٣)، حتى إن مؤرخاً متخصصاً في تاريخ الدولة العبيدية يصيح مندهشاً: «الغريب أننا لا نعرف كيف تمكن المصريون من دفع هذا الخراج المضاعف؟!»^(٤).

أنا أعرف!! لقد رأينا من أخبار التاريخ ومن مشاهد الواقع ما يثبت لنا أن الشعوب تستطيع التكيف مع أشد درجات البؤس التي لا يمكن أن يتخيلها الباحث أو المحلل أو

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ١٢٠؛ إغاثة الأمة، ص ٨٩.

(٢) المقرئزي، إغاثة الأمة، ص ٨٩.

(٣) ستانلي لين بول، تاريخ مصر، ص ٢٣٦.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٨١.

المُنْظَر، وراينا كذلك أن السلطة، ما دامت قوية، تستطيع أن تفرض من الحلول ما لا يمكن تخيله من الوحشية^(١) حتى لو أدى هذا إلى إفلاس أو حتى موت كثير من الناس، فيجتمع لها من المال ما أرادت وفوق ما أرادت، ولعله حين تُكتشف مصادر جديدة محايدة لتاريخ الدولة العبيدية في مصر نرى بعض هذه الحلول التي ابتدعها جوهر في حل أزمته المالية!

لكن، تأمل كيف أنه استطاع هو نفسه حل مشكلاته المالية على حساب الناس أنفسهم، ولم يثوروا عليه، بل أشد من ذلك أنه نفَّذ التحول إلى التشيع الإسماعيلي في ذلك الوقت نفسه، ولم يخش أن يزيد ذلك الناس سخطا على سخطهم، أو أن يؤدي إلى تمرد عليه^(٢)!

ولما جاء الخليفة المعز لم يفتر طلب المال وجبايته من الناس، بل أخذ في استصفاء من أتهموا بأنهم كانوا متصلين بالإخشيديين، ثم عمّ هذا كل الناس حتى جمع في أربعة أشهر فقط مائة ألف دينار^(٣).

(٢)

وأما الشدة المستنصرية التي فاضت بذكرها الركبان، فالسبب في ذلك انخفاض النيل

(١) رأينا في عصرنا هذا أن بعض السلطات تتاجر في المخدرات، أو في الآثار، أو في الأعضاء البشرية، أو في تجربة الأدوية على المرضى من رعيته، وبعضها يؤجر أرض بلده لدفن النفايات النووية فيها، وبعضها يؤجر أبناءه لخوض حروب الآخرين كمرتزقة.. والشيطان لا يكف عن الإبداع.

(٢) في هذا درس قوي في استثمار لحظة القوة، وزمن الثورة، وهو درس يحتاجه الإسلاميون المعاصرون الذين جاءت لهم فرصة الحكم فأمسكوه بيد مرتعشة وتخوف وحذر، فما لبث أن ضاع منهم ونُكِبوا وذُبحوا!

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس لبنان: جروس برس، ١٩٩٠م)، ص ١٦٣.

لسبع سنوات شداد (٤٥٧ - ٤٦٤ هـ)، والنيل هو عماد الحياة في مصر، فالبلد تعيش على الزراعة التي تعتمد على النهر، فأدى هذا إلى نقص حادٍ للسلع، وركود للحرف، وكساد التجارة، وارتفاع الأسعار، واندلاع المجاعة، وتفشي الأوبئة، وتعطل سبل الحياة الطبيعية، فانفجرت الأزمات!

في هذه المجاعة صار رغيغ الخبز يُباع كما تباع التحفة النادرة، وفيها أكل الناس القطط والكلاب، وغلا سعر الكلاب التي صارت تشتري لتؤكل، حتى بلغ الواحد منها خمسة دنانير، ثم صار الناس يأكلون بعضهم بعضاً، فتشكلت عصابات تعمل في خطف المارّين وقتلهم ثم أكلهم، ولقد أكل الناس أبناءهم الذين ماتوا من الجوع.

وحتى بعدما عاد جريان النيل، ظلت البلد في فوضى، وتنافس بين الوزراء والأمراء، حتى استدعى المستنصر الأمير بدر الجمالي والي عكا (٤٦٦ هـ)، وبهذا نرى بوضوح أن الفوضى التي كانت المجاعة سبباً فيها لم تنتهِ بمجرد انتهاء المجاعة، بل بقدم صاحب القبضة القوية التي أمسكت بزمام الأمور. وقد أبصر المقرئ أن من أسباب استفحال المجاعة أصلاً «ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة»^(١).

ومن أبلغ وأوعظ ما ورد من أخبار هذه المجاعة أن الوزير كان يركب بغلته ويتوجه إلى قصر الخليفة، فهجم عليها العامة فأكلوا البغلة، ويبدو من سياق رواية المقرئ أنهم كانوا محتجين، وقد عاقب الوزير هؤلاء المهاجمين فأخذ بعضهم فشنقهم.. فماذا فعل الناس؟ أكلوا جثث المشنوقين^(٢)!!

وهكذا يتضح لنا أن الجوع يأكلون بعضهم، بل يأكلون آباءهم وأمهاتهم وأولادهم قبل أن يجرؤوا على الخروج ضد السلطة القوية، وكما رأينا في حادثة الوزير، فإن

(١) المقرئ، إغاثة الأمة، ص ٩٨.

(٢) المقرئ، إغاثة الأمة، ص ٩٩؛ اتعاط الحنف، ٢/ ٢٩٨.

الجائعين يمكنهم أن يأكلوا رفاقهم في الكفاح وقادتهم في النضال عند لحظة العجز والرعب!!

لا تتعلق المسألة إذن بالجوع، بل تتعلق أصالة بقوة الحكم وكفاءة جهازه الأمني والعسكري، فإن كان ضعيفا أُكِل وتأثر بأحوال المجاعة، وإن كان قويا مات الناس جوعا وبقي هو^(١)، ويكاد يضطر د قول الباحثين في علم الاجتماع السياسي أن الأوضاع الاقتصادية والمعيشية قبل الثورات ليست سيئة إلى الحد الذي يفسّر هذه الثورة بدليل أنه يأتي بعد هذه الثورات أوضاع أشد سوءًا ولا تفجر ثورة، وبدليل أن الأوضاع المأساوية التي عاشتها الشعوب أكثر بكثير جدا من الثورات التي اندلعت، بما يدل على أنه لا علاقة مؤكدة بين الجوع وبين الثورة^(٢)!

ولكن، يجب ألا نغادر أنباء هاتين المجاعتين قبل أن نشير إلى أمر مهم، يظهر أيضا في خصائص مصر، ونراه في تاريخ الدولة العبيدية، وهو متكرر في تواريخ الدول قبلها، هو قدرة الإدارة الحازمة حين تُحسن على تجاوز النكبات مهما كانت شديدة، فقد استطاع العبيديون تجاوز عدد من المجاعات ودخلوا بعدها بقليل في وفرة اقتصادية كبيرة، ففي المجاعتين الكبيرتين استطاع المعز لدين الله ثم استطاع بدر الجمالي بعد فترة ليست بالقليلة أن يستعيدا للحكم العبيدي أبهته وزينته ورخاءه، وأن يعاد تعمير مصر من جديد^(٣)، وهذا أمرٌ ينبغي ألا يغيب عن بال المصلحين أيضا.

(١) وهذه ظاهرة يمكن أن نبصرها بوضوح في أخبار التاريخ القريب، فإن الناس في مصر -مثلا- ثاروا على نظام حسني مبارك وما كان جوعهم كالذي شهدوه أضعافا في عهد عبد الفتاح السيسي، وكذلك ثار الناس في السودان على عمر البشير ولم يبلغ جوعهم شيئا مما ذاقوه في عهد الانقلابيين من بعده!

(٢) انظر مثلا: كرين برنتن، تشريح الثورة، ترجمة: سمير الجلبي، ط ١ (بيروت - أبو ظبي: دار الفرابي - كلمة، ٢٠٠٩م)، ص ٥٤ وما بعدها.

(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ١٦٥.

٧. وقفة في وزارة أسد الدين وصلاح الدين للبيديين

من أكثر الأمور التي تثير الجدل وتقسم الحالة الإسلامية المعاصرة هو الحديث عن الدخول في أنظمة الحكم القائمة، والتي لا تحكم بالشريعة، فبعض الإسلاميين لا يقبل الدخول أصلاً في العملية السياسية ولا حتى بالترشح في الانتخابات فضلاً عما هو فوقها من الدخول في سلك الوزارة والرئاسة، ولا يقبلون ممن يدخل فيها حجتهم في تقليل الضرر أو تحقيق الممكن من المكاسب أو دفع الشر الذي قد يأتي به العلمانيون، وهم في ذلك يرون أن الدخول في هذه الأنظمة هو قبول بها واعتراف بشرعيتها وإقرار بعلمانيتها، ويجعل بعضهم الدخول في ذلك نوعاً من الشرك أو الكفر.

وهذا الأمر الذي يشغل الحالة الفكرية الإسلامية ويتبادل أهله الحجج الشرعية في تبرير موقفهم، نجد شبيهاً به في موضوعنا هذا، وهو دخول أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في نظام الحكم العبيدي المبني على عقيدة الفرقة الإسماعيلية الباطلة، وكان ذلك بتوجيه من الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وهو الأمر الذي حافظ على مصر من أن يمتد إليها الاحتلال الصليبي، ثم أدى بعد ذلك إلى تقويض نظام الحكم العبيدي وإسقاط خلافته، وإعادة مصر إلى ظل الخلافة العباسية السنية، وأعاد التوحيد مرة أخرى بين مصر والشام، وترتب على ذلك أن استطاع صلاح الدين من مكانه في مصر إنقاذ الشام بعد التفكك الذي تعرضت له عقيب وفاة الملك العادل نور الدين، ثم استطاع بهذه الوحدة تحرير بيت المقدس.

كان دفع هذه المفاسد العظيمة، وتحقيق هذه المصالح الجليلة، نتيجة لقبول أسد الدين وصلاح الدين الدخول في نظام الحكم العبيدي، وهو الدخول الذي صحبته سائر مظاهر الولاء للدولة العبيدية، وسائر مظاهر الإخلاص للخليفة العبيدي، والسكوت لدهر غير قليل عن منكرات الطائفة الإسماعيلية المنتشرة في البلاد: مساجدها ومدارسها وأسواقها وأعيادها وقصور أمرائها.. إلى آخره!

وبغير دخول في الحجج الفقهية والسجال الشرعي، فإن ما يهمننا إثباته هنا أربعة أمور:

١. الدخول في نظام حكم غير إسلامي، أو نظام حكم كفري، ليس عملاً مناقضاً للعقيدة، وأوضح دليل على ذلك دخول يوسف عليه السلام وعمله وزيراً للمالية في نظام مصر الوثني، كما رواه القرآن الكريم، ويخطئ من يتصور أن هذا يقع في باب «شرع من قبلنا» مما قد أبيع لمن كانوا قبلنا ثم جاء شرعنا بخلافه، فإن دين الأنبياء واحد، ولئن اختلفت بينهم الشرائع فلم تختلف عقيدتهم، ولم يتبدل أصل الدين بينهم، فعرفنا من ذلك أنه عمل لا يناقض التوحيد ولا يخرق العقيدة، فليس يحل للنبي أن يחדش التوحيد^(١).

٢. كل مصلح مضطر إلى الاستفادة من واقعه المخالف للإسلام، إذ لا يملك أحد الانفلات من واقعه بالكلية، والنبي ﷺ استفاد من قوانين وأعراف المجتمع الجاهلي، فكان في حماية عصبته بني هاشم مع أنه جاء بنقض العصبية الجاهلية، ودخل في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف يحتمي به من أذى المشركين، والإجارة قانون جاهلي! وللفقهاء في هذا الباب حديث طويل.

٣. وفيما يخص موضوعنا الآن فإن هذا الدخول في نظام الحكم العبيدي الإسماعيلي قام به رجالٌ شهدت لهم الأمة بالقبول، وهم الملك العادل نور الدين زنكي وصالح الدين الأيوبي، وكلاهما من كبار صالحى المسلمين عبر التاريخ، ولا يُظنُّ بهؤلاء تهاونهم في ما يناقض التوحيد أو يهدم العقيدة. ولا ننسى أن عمر بن عبد العزيز الذي أطبق المسلمون على صلاحه كان والياً على المدينة في حكومة الوليد بن عبد الملك التي كان أحد أركانها الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، ومع شدة كراهيته للحجاج وعمله إلا أنه لم ير ذلك مانعاً له من أن يتولى المدينة، ولا كانت مظالم بني أمية مانعة له من أن

(١) ومن لطيف المعاني هنا أن آية «إن الحكم إلا لله» التي يستند إليها القائلون بالتكفير لمن دخل في أنظمة حكم غير إسلامية، هذه الآية إنما وردت مرتين في سورة يوسف، وفي ثنايا القصة التي فيها دخوله في نظام الحكم المصري.

يكون في حاشية خلفائهم ثم خليفة للمسلمين في دولتهم.

٤. لا بد من التفرقة بين الدخول الشكلي والسطحي وغير المفيد في بعض مظاهر الحكم، وبين الدخول الحقيقي والعملي في مراكز القوى والنفوذ التي تُكوّن مركز الحكم، فليس كل دخول في انتخابات يكون مفيدا بل قد يكون تزيينا وزخرفة لنظام مجرم وفاسد يتجمل بالسماح لبعض معارضيهِ بالوصول إلى البرلمان أو حتى بمناصب هامة. ليس عن هذا نتحدث، بل نتحدث عن الدخول الحقيقي والمؤثر والفعل في بنية نظام الحكم غير الإسلامي، فهذا الذي قد يكون ضروريا وفارقا وحاسما في سبيل الإصلاح، مهما كانت له من تكاليف واضطرابات. وبالعوم فكل أمر يقيسه أهل زمانه ومكانه بما يحقق المصلحة الأعلى ويدفع الضرر الأشد.

وفي واقعنا المعاصر فإن الحركة الإسلامية لا بد لها من المشاركة ما استطاعت في جهاز السلطة، والحركات التي أظهرت قوة ووعيا في هذا الباب حققت نتائج غالية جدا، مثل غزة وتركيا، حُفِظت بها البلاد والعباد وقويت بها قضايا المسلمين، حتى لو اضطروا في بعض المراحل والفصول إلى بعض التنازلات، وحتى لو لم يتمكنوا في تجربتهم من تطبيق معظم الشريعة! والبديل العملي عن هذا لم يكن إلا القتل والأسر وضياع البلاد والعباد وفوات المصالح العظيمة على المسلمين.

٨. وقفة مع النزعة القومية العلمانية في التاريخ

ذكرنا في غير موطن أن التاريخ إنما هو مجموعة من المعلومات التي يمكن تفسيرها بأكثر من طريقة، ولهذا فهو محتاج إلى رؤية أو فلسفة تنظم له هذه المعلومات بحيث تستقيم قراءتها في شكل مفهوم، وذكرنا أن وجود التصور المسبق أو الرؤية المسبقة ليس عيبا لدى المؤرخ ما دام لم يحاول استبعاد المعلومات التي لا توافق تصوراتهِ، ولم يحاول تطويع المادة أو لي أعناق الحقائق لكي توافق تصوراتهِ، بينما افتقاد هذه الرؤية

بالكلية هو أمر غير ممكن أصلاً لأنه منافٍ لطبيعة الإنسان التي لا تملك أن تتجرد تماماً من كل انحياز، كما أنه لن يسمح بأي استفادة من التاريخ، لأن المعلومات المتناثرة التي لا يمكن نظمها في رؤية لن تفيد شيئاً في نهاية الأمر.

وفي موضوعنا الآن عن الدولة العبيدية ثمة مجالان مهمّان نشير إليها بسرعة وإيجاز، فيتحسن بهما فهمنا لمصادر التاريخ العبيدي (الفاطمي).

(١)

نشأت مدرسة التاريخ المصرية، التي لها نصيب الأسد من الكتابات المعاصرة عن الدولة العبيدية، في ظل الاحتلال الإنجليزي وهيمنة النزعة القومية، وتأثرت في مسيرتها وطريقتها بالرؤية القومية والأدوات المنهجية البحثية الاستشراقية، ولقد أخرجت هذه المدرسة كثيراً من المؤرخين المتميزين بل ومن أساطين التاريخ الذين حققوا نصوصاً تاريخية مخطوطة وأعادوا نشرها في طبعات علمية ممتازة، وكانت لهم جهود فائقة في إحياء مصادر التاريخ الإسلامي، إلا أن المشكلة الأساسية التي صبغت هذا الإنتاج هو افتقاد العين والروح الإسلامية في تقييم هذه المادة، والتي حلّت بدلاً منها العين والروح القومية، بل واعتبر أكثر هؤلاء أن اصطحاب الروح الإسلامية هو نوع من الانحياز المذموم الذي يشوه أو يحسن من الصورة التاريخية.

والذي يهمننا الآن أنه حين أعادت هذه المدرسة كتابة تاريخ الدولة العبيدية (الفاطمية) فقد اعتبرت جزءاً من التاريخ القومي والوطني، ومن هنا تلبست بالدفاع عنها والتعاطف معها في الجملة، فكانت أقرب إلى الإشادة والافتخار بها، وأبعد من النفور عنها والطعن فيها.

وأول ذلك أنك لا تكاد تجد مؤرخاً مصرياً يتحدث عن هذه الدولة باسم الدولة

العبيدية، بل هم يستعملون اسم «الدولة الفاطمية»، ويميلون عادة إلى تصحيح نسب العبيدين إلى فاطمة الزهراء أو تفسير الشك في نسبهم بالخصومة السياسية^(١)، ويغلب عليهم حين يكتبون تاريخ الدولة العبيدية سمّت عام يجعلهم كأنهم في مهمة للدفاع عن هذه الدولة ضد الاتهامات التي كالهها إليها خصومها من مؤرخي العراق والشام والأندلس، فالمؤرخ القومي الوطني صار يرى أن الطعن القديم الذي قاله ابن حزم أو الغزالي أو ابن الجوزي أو ابن تيمية أو الذهبي أو ابن كثير إنما هو ناتج عن خصومة مذهبية دينية، سواء أكانت ذاتية أم بتوجيه من السلطة السياسية^(٢)، وهذه الخصومة الدينية والسياسية ينبغي أن يترفع عنها المؤرخ المحايد في العصر الحديث، فالمؤرخ المحايد ينبغي ألا يلتفت إلى هذه الخصومات الدينية التي شوّهت الخصوم!! هكذا يظنون.

ويحصل أحيانا أن يعتبر المؤرخ المعاصر هذه الطعون القديمة مجرد حزازات إقليمية وقومية، فالتنافس بين العراق والشام والأندلس ومصر، حمل مؤرخي العراق والشام والأندلس على هذا، وبهذا فإن المؤرخ القومي المعاصر سَحَبَ رؤيته المعاصرة على العالم القديم، فجعل الناس أقواما ذوي نزعات قومية تؤثر في أحكامهم على الدول، ولهذا فهو يرى نفسه في زمانه هذا يعيد تصحيح التاريخ ويتنصر لقومه المصريين على خصومهم الشاميين والعراقيين.

وقد تسببت هذه الرؤية القومية الوطنية في غفلة المؤرخ عن ملاحظة كثير من الأسباب الدينية المتصلة بتاريخ هذه الدولة، وليست المشكلة هنا في نقص المعلومات أو البيانات

(١) مثلا: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مصر، ص ١٣٩، ١٤٠؛ جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٠، ٢١؛ جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٣٢.

(٢) مثلا: حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، (القاهرة: وزارة المعارف، ١٩٣٢م)، ص ٧١؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٨٧؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٢٢.

بل في غياب التصور والمعيار، فإنك تجد المؤرخ نفسه يضع المعلومة ويغفل تماما عن دلالتها، فيذهب في تفسيره إلى أمر بعيد غير متوقع، وسنضرب هنا الأمثلة بمؤرخين من الطراز الأول في الدأب والاستقصاء والتميز العلمي.

مثلا، مسألة الجهاد لدى الدولة العبيدية..

يقف صاحبنا المؤرخ القومي أمام صورة واضحة تفيد أن هذه الدولة كانت أقل الدول جهادا رغم إمكانياتها الضخمة وأموالها الواسعة وأساطيلها الكبيرة، فيحاول صاحبنا المؤرخ أن يجد سببا لهذا فيحسب أنه الاهتمام بالتجارة والانشغال بها! وترى المؤرخ نفسه يسجل أن إمبراطور بيزنطة طلب من الخليفة العبيدي أن يتنازل له عن بلدة تنيس الملاصقة للشاطئ المصري مقابل أموال، فتزيغ عين المؤرخ الوطني عما في هذا الطلب من الدلالة الواضحة، ويذهب ليخترع تفسيراً عجيباً يقول فيه بأن البيزنطيون حسبوا أن الخليفة العبيدي لا يعد هذه الجزيرة من أرض مصر^(١)!!

ولذلك لم يعد غريباً أن ترى مؤرخاً يصول ويجول مفخماً في عظمة الأسطول العبيدي، ونظامهم البحري، وكثرة اهتمامهم بالبحر والبحرية، ثم لا تجد بعد الكلام الكثير معارك قد خاضها هذا الأسطول^(٢)!!

خذ مثلاً آخر: مسألة استكثار العبيديين من اليهود والنصارى في بلاطهم وحاشيتهم ووظائف الدولة..

فهذا المؤرخ المعاصر الذي تهيمن عليه نزعة قومية أو وطنية، مهما كان خبيراً دؤوباً

(١) حسين مؤنس، «أثر ظهور الإسلام في البحر المتوسط»، ١/ ١٠٥، ١٠٦.

(٢) مثلاً: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ٢٩٠ وما بعدها؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٣م)، ١/ ٢١٨ وما بعدها؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٧٠ وما بعدها.

يستطيع جمع شتات هذه الأخبار، فإنه لا يستطيع أن يبصر ما في هذه السياسة من انحراف وضلال، كما لا يهتدي إلى ما في تمكين الأقليات من دلالة على فساد مذهب هؤلاء العبيدين وأنهم ليسوا على الولاء للمسلمين وللأمة.

ومهما سجّل المؤرخ نفسه أن ما تمتع به اليهود والنصارى حُرِّم منه أهل السنة، فهو نفسه يسجّل بعدها وقبلها بسطور أن هذا الذي تمتعوا به هو من التسامح الديني الذي يُمدح به العبيديون، أو حتى هو نوع من استثمار الطاقات المختلفة والاستفادة من العناصر المتنوعة وهو أيضا أمر يُمدحون به لكونه ضد التعصب العرقي، وأقل ما في الأمر أن يسجل هذا المؤرخ مثل هذه الأخبار دون أن يبدي تأففا أو يرى فيها ما يُشين! فهو إن لم يراها منقبة فلن يراها منقصة^(١).

ويشتط المؤرخ أحيانا فيسبغ ألفاظ المفخرة الوطنية على ما لا مفخرة فيه أو على ما فيه منقصة، كأن يصف دار العلم التي أنشأها الحاكم بأنها «المؤسسة المصرية العلمية»، أو يقول عن تسليط قبائل بني هلال وبني سليم لاجتياح المغرب إنها سياسة ذكية وضربة عصفورين بحجر واحد^(٢)! أو يتحسر على «الإمبراطورية الفاطمية العظيمة (التي أذهبها) الأيوبيون السنيون الغلاة»^(٣).

وهذه العبارة الأخيرة التي سطرها مؤرخ مثل حسن إبراهيم حسن، وقد تعلم على يد المستشرقين وفي أوروبا، لم ينج من مثلها رجل من أهل الشرع والعلم ممن درسوا

(١) انظر مثلا: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٣/ ١٥٩؛ الفاطميون في مصر، ص ٢١٧؛ أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٦١، ٢٦٢، ٢٨١؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٢٩٦.

(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٢٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص ١٤٢.

بالأزهر ثم درسوا في مدرسة القضاء الشرعي^(١)، وأقصد بذلك الشيخ محمد سليمان الذي تولى رئاسة المحكمة الشرعية العليا بمصر، فقد وصف الدولة العبيدية بأنها «الدولة التي وفت للحضارة أعظم الوفاء»، بل بلغ به الحال أن يجعل إزالة صلاح الدين لتلك الدولة من سيئاته التي توازن حسناته في جهاد الصليبيين، فقال: «إني أكل حساب السلطان صلاح الدين إلى رب السماء، فقد مرَّ بي زمن وأنا أوازن بين حسنات ذلك السلطان في حروبه الصليبية وبين سيئاته في تخريب المملكة الفاطمية، وهممت أن أتفرد للحكم وكتابة أسبابه لولا أن الزمن مضى وانقضى ولا حاجة بنا إلى نبش القبور»^(٢).

القصد: أن ذلك موطنٌ يظهر فيه كيف تؤثر رؤية المؤرخ وتصوراته على صياغته للتاريخ، وعلى معاييرهِ في تقييم الأمور.

(٢)

ينظرُ هذا الوضعَ في الساحة الأكاديمية التاريخية الوضعُ في الساحة الإعلامية، ولأن الساحة الإعلامية تخاطب الجمهور العريض بلغة بسيطة وساذجة ومباشرة، فالمأساة فيها أشدَّ وأعم وأشمل، فالنزعة القومية في الإعلام تتمثل بشكل فجّ ونزق وأحمق. ومن الطريف المثير للدهشة والتأمل أن الصحافيين والمثقفين العلمانيين في مصر

(١) مدرسة القضاء الشرعي كانت إحدى أدوات العلمنة الناعمة التي أسست لتنافس الأزهر، وتسلخ منه وظيفة تخريج القضاة، وفيها كان يُدرس القانون وفلسفته على الطريقة الأوروبية، بل كان يُدرّس علم الأخلاق كما وضعه فلاسفة أوروبا، وقد تأثر خريجو هذه المدرسة الذين كانوا أزهرين تأثراً واضحاً بالنزعة العلمانية والأوروبية، ومن أشهر خريجيها: أحمد أمين المفكر المصري المعروف الذي تشرب طريقة المستشرقين وكاد أن يكون عمله الكبير: فجر الإسلام وضحا وظهره ويومه، تعريفاً لأعمال المستشرقين مع لهجة أهدأ.

(٢) محمد سليمان، من أخلاق العلماء، ص ١٧٤.

يغلب عليهم الدفاع عن الدولة العبيدية والحديث عن مآثرها، وكونها ذات أثر عميق في الثقافة الشعبية المصرية من خلال احتفالات الموالد وبعض التقاليد الشعبية، هذا مع أن العلمانيين على وجه التحديد يجب أن يكونوا أكثر الناس رفضا لها، فإن الدولة العبيدية هي النموذج الأكثر فجاجة وخطورة للدولة الدينية (الثيوقراطية) التي يكون فيها الخليفة إماما باستحقاق إلهي، وله سلطة مطلقة شبه إلهية، بل «ينظر إليه بدون أي التباس كممثل لله على الأرض، ومنه كانت تنبثق كل سلطة، وإليه كان يعود كل خضوع»^(١)، ولهذا يتعامل معه حاشيته وعموم الناس على نحو من التقديس! بل تردد في مصادرهم أنهم كانوا يسجدون للإمام^(٢)!

وفي الدولة العبيدية كان شاعرها الحسن بن هانئ ينشد لخليفته قائلا:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
فكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الأنصار
ومن شعره أيضا، قوله في الخليفة:	
ندعوه منتقما عزيزا قادرا	غفار موبقة الذنوب صفوحا
أقسمت لولا أن دعيت خليفة	لدعيت من بعد المسيح مسيحا
ومن شعره أيضا عن الخليفة:	
هذا ابن وحي الله تأخذ هديها	عنه الملائكُ بكرة وأصيلا
وعلمت من مكنون سر الله ما	لم يُؤت في الملكوت ميخائلا ^(٣)

(١) عبد الحي شعبان، الدولة العباسية: الفاطميون، ص ٢٣٦.

(٢) انظر: سليمان عبد الله السلومي، أصول الإسماعيلية: دراسة - تحليل - نقد، ط ١ (الرياض: دار الفضيلة، ٢٠٠١م)، ٢/٤٣٨.

(٣) ابن هانئ، ديوان ابن هانئ، ص ١٤٦، ٧١، ٢٦٦.. وديوانه هذا مروع طافح بالكفر المبين.

مع هذا التقديس والتعظيم والتأليه، فإن عامة العلمانيين في الصحافة والإعلام في مصر لا يشنعون على الدولة العبيدية بل يأخذون جانب التعاطف معها في مفارقة صارخة للمبادئ التي يعلنونها.

ولأن الإعلام في خدمة السياسة، ويجد في أحداثها ما يشعل اهتماماته، فإنه يحدث بين الحين والآخر موجة سياسية تثير الموضوع إعلامياً، ومن أشهر ما وقع في هذا ما جرى في عام ٢٠٠٧م، إذ كان الرئيس الليبي معمر القذافي في واحدة من تجلياته التي يريد بها تعميق زعامته والبحث عن مبررات تاريخية وشرعية لها، ويريد كذلك مناكفة السعودية لأن حكامها ليسوا من آل البيت، فلجأ القذافي إلى التعلق بأهداب التاريخ العبيدي، وقال:

«إن الدولة الفاطمية الجديدة هي تاريخنا هي ملكنا هي إرثنا نحن صنعنا الدولة الفاطمية الأولى وسنصنع الدولة الفاطمية الثانية، هذه دولتنا وليس من حق أحد أن يحتج علينا ومن يحتج علينا هو ينبح، هي دولتنا أقيمت فوق هذه الأرض اقامها أجددانا، ولولا الفاطميون ما كانت القاهرة، فالقاهرة فاطمية مائة في المائة، والأزهر هو مسجد فاطمة الزهراء وهو قلعة من قلاع الفاطمية، راجعوا كل ثقافتكم وأعيادكم ومواسمكم في شمال أفريقيا كلها شيعية، وأول دولة شيعية في التاريخ في أفريقيا هي الدولة الفاطمية، ولن نعترف بعد اليوم بإمامة أي حاكم يريد أن يعمل دولة دينية ما لم يكن من آل البيت الذين لهم الحق الإلهي في الحكم»^(١).

ورداً على القذافي، أصدرت هيئة كبار العلماء السعودية فتوى تصرّح فيها بأن هذه الدولة العبيدية ليست إسلامية، وأن مؤسسها ليس من آل البيت، ونقلت أقوال العلماء

(١) بقي النص في عدد من المصادر التي ردت على القذافي، منها: د. صالح الرقب، القذافي يريد إعادة الدولة العبيدية

الفاطمية، <<https://www.drsregeb.com/index.php?action=detail&id=54>>

والمؤرخين المسلمين في ذلك^(١).

وهنا دخلت الجهات الإعلامية في مصر، للرد على الفتوى السعودية، فقد اعتبروا أن هذه الفتوى اعتداء على التاريخ والتراث المصري، وتكفيرا لأجداد المصريين القدماء!! ونشط في هذا أولئك المرتبطون بإيران من المصريين، والذين وجدوها فرصة سانحة للنكايه في السعودية وللتغزل في الدولة العبيدية التي تحب إيران أن تحيي مآثرها لما في ذلك من تسهيل اختراقها للمجتمع المصري والمذهب الشيعي.

والفتوى السعودية قد تكون فعلا خرجت في هذا الوقت بدافع السياسة، ولكنها صحيحة من جهة المحتوى، وهو موقف علماء المسلمين كافة، قبل أن نتمزق هذا التمزق القومي الذي أثار على النظرة السائدة في الإعلام وفي الأروقة الأكاديمية، لقد سقطت الدولة العبيدية في منتصف القرن السابع الهجري تقريبا، وظلت منبوذة لدى المصريين ستة قرون تالية، لم ير العالم أو المؤرخ المصري أنه ملزم بالدفاع عنها لأنها من إرثه القومي، حتى جاءنا الاحتلال الأجنبي وفكرته القومية فتغير الحال!



(١) وكالة الأنباء السعودية (واس)، ١١ إبريل ٢٠٠٧م.